

ايفان تورغينيف

المؤلفات المختارة

في ٥ مجلدات

المجلد

٣

في العشية
الآباء والبنون



دار «رادوغا»
موسكو

في العشية . ترجمة غائب طعمة فرمان
الاباء والبنون . ترجمة خيرى الضامن

في العشيات لفافلا
تأليفه

И. С. Тургенев

ИЗБРАННЫЕ ПРОИЗВЕДЕНИЯ
В 5 ТОМАХ

том III

Накануне. Отцы и дети.

На арабском языке

نصباغ

© الترجمة الى اللغة العربية ، التعليقات ، دار «رادوغا» ١٩٨٥
طبع في الاتحاد السوفيتي

T 4702010100-366
031(05)-85 077-85

ISBN 5-05-000091-2
ISBN-5-05-000094-7

في العشية (١)

(١) ديشعاع

في يوم من اشد الايام قيظاً من صيف ١٨٥٣ كان شابان يستلقيان على العشب في ظل شجرة زيزفون عالية على شاطئ نهر موسكو ، غير بعيد عن كوتسوفو . كان احدهما ، وهو شاب طويل القامة ، اسمر البشرة ، اسود الشعر ، ذوات حاد معوج بعض الشيء ، وجبين عال ، في نحو الثالثة والعشرين كما يدل مظهره ، مستلقياً على ظهره ، ينظر الى البعيد في استغراق ، وقد قلص قليلاً عينيه الرماديتين الصغيرتين ، ورسم على شفتيه العريضتين ابتسامة متحفظة . وكان الثاني يرقد على صدره ، وقد اسند رأسه الاشقر الشعر ، والاجعد على يديه كليهما ، متطلعاً ايضاً الى البعيد . كان اكبر سنّاً من رفيقه بثلاث سنوات ، ولكنه يلوح اصغر منه بكثير ، وقد طرّ شارباه او كادا ، وعلى ذقنه زغب خفيف . وكان في القسمات الدقيقة لوجهه المدور الغض ، وفي عينيه البنيتين العسليتين ، وشفتيه الجميلتين البارزتين ، ويديه البيضاءوين شيء طفولي حلو ، شيء رشيق على نحو جذاب . وكان كل شيء فيه يفوح بمرح العافية السعيد ، يفوح بالفتوة - بخلو البال ، وبالثقة بالنفس ، والدلال ، بسحر الشباب . كان يقلّب عينيه ، ويبتسم ، ويسند رأسه ، وكل ذلك على طريقة الصبيان الذين يعرفون ان الابصار تتطلع اليهم بلطف . كان يرتدي معطفاً ابيض فضفاضاً اشبه بالبلوزة ، ويلف على رقبته النحيلة منديلاً ازرق ، وقد انطرحت قبعة قش مدعوكّة على العشب ، بالقرب منه . كان رفيقه ، بالقياس اليه ، يبدو عجوزاً ، وما كان لاحد ان يظن ، وهو ينظر الى شكله النافر ، بأنه هو الآخر كان يستمتع ، ويحس بالارتياح . كان يرقد في وضع غير مريح ، ورأسه الكبير

العريض من الأعلى ، والضيق الى الأسفل ، يستقر على رقبتة الطويلة بطريقة خرقاء . وكان التناقل يبدو حتى في وضعية يديه ، وفي جذعه المشدود بأحكام بستره سوداء قصيرة ، ورجليه الطويلتين بركبتيهما المرفوعتين ، الشبيهتين بقائمتي الجندب الخلفيتين . ومع كل هذه الاوصاف لا يفوت المرء ان يرى فيه رجلاً حسن التربية ، فان طابع «الاستقامة» كان يبدو في كل كيانه المتخلخل ، كما ان وجهه غير الوسيم ، بل والمضحك بعض الشيء ، كان ينم عن تعوده على التأمل ، وعن الطيبة . كان يدعى اندريه بيتروفيتش بيرسينيف ، وكان اسم رفيقه الشاب الاشقر الشعر بافل ياكوفليتش شوبين .

ابتدر شوبين يقول :

- لماذا لا تستلقي على صدرك ، مثلما استلقي انا ؟ ذلك احسن بكثير . لاسيما حين ترفع ساقيك ، وتضرب كعبيك احدهما بالآخر . هكذا . والعشب قرب انفك . وحين تمل من التطلع الى المنظر الطبيعي انظر الى حشرة منتفخة البطن ، كيف تدب على العشب ، او الى نملة ، وكيف تروح وتجي . حقاً ، ذلك افضل . والا فها انت الآن قد اتخذت وضعاً كلاسيكياً مزيفاً ، تماماً كراقصة الباليه ، حين ترتفق على طنّف كارتونى . تذكر ان لك الآن كامل الحق في الاستراحة . فليس مزاحاً ان تحصل على درجة علمية وتصبح مرشحاً ثالثاً . استرح ، سير . وكفّ عن التصلب . اخرج اطرافك ! نطق شوبين بكل هذا الكلام بخنّة ، في شبه تكاسل ، وفي شبه مزاح (الاطفال المدللون يتكلمون بهذا الشكل مع اصدقاء العائلة الذين يجلبون لهم الحلوى) ، واستطرد قائلاً ، دون ان ينتظر رد صاحبه :

- اكثر ما يبهرنى في النمل والخنافس وغيرها من السادات الحشرات جديتها المدهشة . انها تركض رواحاً ومجبناً وفي مظهرها عظمة واهمية وكان لحياتها معنى ما ! حقاً فان الانسان ، ملك الكائنات ، المخلوق الاسمى ، يتطلع اليها باهتمام ، فلا يبدو عليها اكتراث به . والاكثر من ذلك ان بعوضة ما تحط على انف ملك الكائنات هذا ، وتستخدمه طعاماً لها ، هذا شيء مهين . ومن ناحية اخرى : بأي شيء تقصر حياتها عن حياتنا ؟ ولماذا لا تتبختر ، اذا كنا نحن نسمح لانفسنا بالتبختر ؟ طيب ، يا فيلسوف ، حلّ هذه المسألة لي ! لماذا انت ساكت ؟ ها ؟

انتفض بيرسينيف وقال :

- ماذا ؟

- ماذا ! - كرر شوبين - ان صديقك يطرح امامك افكاراً

عميقة ، بينما انت لا تستمع له .

- كنت استمتع بالمنظر . انظر الى هذه الحقول ، كيف تلمع ساخنة في الشمس ! (كان بيرسينيف يلفظ حرف السين بدلاً من حرف الشين .)

قال شوبين :

- الوان عظيمة زاخرة . الطبيعة ، بكلمة واحدة .

هزّ بيرسينيف رأسه .

- كان ينبغي ان تعجب بذلك اكثر منى . هذا ميدانك . فانت

فنان .

- لا . هذا ليس ميداني - اعترض شوبين ، ولبس قبعته

على قفاه - انا لحام . وشغلي اللحم . تشكيل اللحم ، الاكتاف ،

والاقدام ، الايدي . وهنا لا يوجد شكل ، ولا إكمال . انفرط على

كل الجوانب . . . ولا تستطيع ان تجمعها !

قال بيرسينيف مذكراً :

- ولكن هنا الجمال ايضاً . بالمناسبة ، هل انتهيت من لوحتك

المحفورة ؟

- اي لوحة ؟

- الطفل والعنز .

- الى جهنم ! الى جهنم ! الى جهنم ! - هتف شوبين بصوت

مضطرب - نظرت الى اعمال الفنانين القدامى الحقيقيين ، الى الفن

القديم ، فحطمت لوحتي التافهة . انت تشير على الى الطبيعة ،

وتقول : «هنا الجمال ايضاً» . الجمال ، بالطبع ، في كل شيء ،

الجمال حتى في انفك ، ولكنك لا تستطيع ان تتسقط كل جمال .

حتى القدامى لم يحاولوا ان يتسقطوه . بل هو انصبّ في خليقتهم

من تلقاء نفسه ، والله يعلم من اين او لعله من السماء . كان

العالم كله ملكاً لهم . ولكنه يعزّ علينا ان نحيط به على سعة .

فاليد قصيرة . نحن نلقي الشخص على نقطة واحدة صغيرة ، وننتظر .

فاذا علق به شيء ، فمرحى بك ، واذا لا يعلق . . .

واخرج شوبين لسانه .

اعترض بيرسينيف قائلاً :

- على مهلك ، على مهلك . هذه معاضلة . اذا كنت لا تتجاوب مع الجمال ، ولا تحبه في اي مكان تلتقيه ، فلن يظهر في فنك ايضاً . واذا كان المنظر الجميل ، والموسيقى الجميلة لا يقولان شيئاً لروحك ، اريد ان اقول اذا انت لا تتجاوب معهما . . .

- آخ ، يا متجاوب ! - قال شوبين فجأة ، وضحك نفسه من كلمته المبتكرة ، بينما غرق بيرسينيف في افكاره . ومضى شوبين يقول : - لا ، يا اخ ، انت ذكي ، فيلسوف ، مرشح ثالث في جامعة موسكو ، من الفظاعة الجدل معك ، لاسيما بالنسبة لي ، انا الطالب الذي لم يكمل دراسته . ولكنني اقول لك : ما عدا فني ، لا احب الجمال الا في النساء . . . في الفتيات ، وحتى هذا لم يكن الا منذ بعض الوقت . . .

وانقلب على ظهره ، ووضع يديه تحت راسه . مضت بضغ لحظات في صمت . كان سكوت قيفظ الظهيرة يجثم على الارض اللامعة الغافية .

وعاد شوبين يقول :
- بمناسبة النساء ، كيف لا يستطيع احد ان يسيطر على ستاخوف ؟ هل رايته في موسكو ؟
- لا .

- فقد عقله تماماً ، العجوز هذا . يقضي اياماً كاملة قاعداً عند صاحبه افغوستينا خريستيانوفنا ، ويسام كثيراً ، ولكنه يظل قاعداً . يحدق احدهما في الآخر ، شيء سخيف . . . بل من المقرف النظر اليهما . عجيب ! ان الله مَنْ على هذا الرجل بعائلة طيبة ، فلا يقنع ، ويريد افغوستينا خريستيانوفنا ! انا لا اعرف امقت من بوزها الوزي ! قبل ايام ، شكلت لها صورة كاريكاتورية ، على طريقة دانتان (٢) . فطلعت لا بأس بها تماماً . ساريك اياها . . .

فسال بيرسينيف :

- وتمثال يلينا نيقولايفنا النصفى ؟ هل يتقدم فسيديك ؟

- لا ، يا اخ ، لا يتقدم . ان هذا الوجه يمكن ان يسلمك الى القنوط . فانت ترى امامك خطوطاً صافية ، حادة ، مستقيمة .

فتتصور ان التقاط الشبه ليس بالأمر الصعب ولكن ليس الامر كذلك . . . لن تظفر به ، مثل كنز . هل لاحظت كيف تصغي هي ؟ لا تتحرك قسمة واحدة من قسما وجها ، سوى ان تعبير نظراتها يتغير باستمرار ، وبسببها تتغير صورتها كلها . فماذا يمكن ان يفعل نحّات في هذه الحال ، ولا سيما اذا كان سيناً ؟ مخلوقة مذهشة . . . مخلوقة عجيبة .

اضاف ذلك بعد صمت قصير . فكرر بيرسينيف في اثره :
- نعم ، انها فتاة مذهشة .

- بينما هي ابنة نيقولا ارتيمييفيتش ستاخوف ! وبعد ذلك حاول ان تتناقش عن الدم ، وعن الطبيعة . . . الطريف انها ابنته بالضبط ، تشبهه ، وتشبه امها ، آنا فاسيليفنا . انا احترم آنا فاسيليفنا من كل قلبي ، فهي راعيتي . ولكنها بلها ، كالدجاجة . فمن اين اخذت يلينا طبيعتها ؟ مَنْ اشعل هذه الجذوة ؟ هذه مسألة اخرى . عليك ان تحلها ، يا فيلسوف !

ولكن «الفيلسوف» كالسابق لم يجب بشيء . كان بيرسينيف ، بشكل عام ، لا يحب الكلام الكثير ، وحين كان يتكلم ، كان يتكلم بابتسار ، وبلعثات ، وبتلويح زائد من يديه ، اما في هذه المرة ، فقد لغت روحه سكينه غير اعتيادية ، اشبه بالتعب ، والحزن . كان قبل وقت قصير قد انتقل الى السكن في بيت خارج المدينة ، بعد عمل طويل شاق ، كان يضنيه خلال بضع ساعات في اليوم . وكان الاسترخاء وطيب الهواء ونقاوته ، والوعي بادراك الحرام ، والحديث المتقلب الطليق مع صديقه ، وصورة المخلوق الحبيب تبرز في خياله فجأة ، كل هذه الانطباعات المختلفة والمتواشجة لسبب ما ، انصببت فيه بشعور شامل واحد كان يهدئسه ، ويقلقه ، ويسئل قوته في وقت واحد . . . لقد كان شاباً شديداً التائر جداً .

كان الظل تحت شجرة الزيزفون ندياً ساكناً ، وكان الذباب والنحل الحائم تحتها يبدو وكأنما خفف من طنينه . وكان العشب الصغير النظيف ، بلون الزمرد ، لا يتمايل ولا تتمازج فيه التلاوين الذهبية . كانت الانصال الطويلة تقف جامدة كالمسحورة ، وعناقيد الازاهير الصغيرة الصفر تتدلى جامدة على اغصان الزيزفون السفلى . كانت الرائحة الحلوة تنفذ الى اعماق الصدر مع كل شهيق ، ولكن

مدرك كان يستنشقه بارتياح . وفي البعيد ، وراء النهر ، وحتى انطباق السماء كان كل شيء يلتصق ، كل شيء يتألق ، ومن حين لآخر كانت نسمة تهب هناك ، وتخرق اللعان وتزيد حدته ، وكان الاغبشاش المشع يتماوج فوق الأرض . والطيور لا يسمع لها صوت ، فهي لا تغرد في ساعات القيقظ ، ولكن الجنادب كانت تشقشقق في كل مكان ، وكان لطيفاً سماع صوت الحياة الحار هذا ، وأنت في مكان تدي ، والسكون يهددك اليك سنة من النوم ، مثيراً فيك الاحلام .

وفجأة قال بيرسينيف معيناً لسانه بحركات يديه :

- هل لاحظت اى شعور غريب تثيره الطبيعة فينا ؟ كل شيء فيها على درجة عالية من الامتلاء والصفاء ، وارىد ان اقول ، الاكتفاء بالنفس ، ونحن ندرك ذلك ، ونستمتع به ، والطبيعة في الوقت ذاته ، على الاقل بالنسبة لى ، تثير دائماً قلقاً ، فزعاً ، بل وشجناً . ما يعنى هذا ؟ اعنى اننا ، حين نقف امامها ، ونجابهها ، نعمى اكثر بعدم امتلائنا ، وغموضنا ، ام لا يكفيننا ما يشعورها هي بالاكتفاء ، في حين الشئ الآخر ، وارىد ان اقول ، الشئ الذي نحتاجه لا نجده فيها ؟

قال شوبين :

- حم . سأقول لك ، يا اندريه بيتروفيتش ، ما مبعث هذا كله . لقد وصفت انت احاسيس انسان وحيد لا يعيش ، بل ينظر فقط ، ويصيبه الانبهار . فما فائدة النظر ؟ عشن حياتك ، وستكون نعيم الفتى . مهما طرقت باب الطبيعة ، فلن ترد عليك بكلمة مفهومة ، لأنها لا تنطق . سترن وتثن كالوتر ، فلا تنتظر منها غناء . النفس الحيّة هي التي ترد ، والنفس النسائية في الغالب الأعم . ولهذا ، انصحك ، ايها الصديق النبيل ، ان توفر صديقة لقلبك ، وستختفى احاسيسك الشجية على الفور . هذا «ما نحتاجه» على حد تعبيرك . ذلك لأن هذا الفزع ، هذا الشجن ، ما هو الا جوع من نوع خاص . قدّم للمعدة طعاماً حقيقياً ، وسيكون كل شيء على ما يرام . احتلّ موضعك من العالم ، كن جسماً ، يا اخي . ثم ما هي الطبيعة ، وما شأنها هنا ؟ اعبر اذنك واسمع : الحب . . . اية كلمة قوية ، حارة ! الطبيعة . . . اي تعبير بارد ، مدرسي للتلاميذ ! ولهذا (واخذ شوبين يغنى) «تحيا ماريا بيتروفنا !» (٣)

او ، لا - اضاف قائلاً - ليس ماريا بيتروفنا ، ولكن لا فرق ! فو مي كومبرنيه * .

رفع بيرسينيف جسمه قليلاً ، واسند ذقنه على ذراعيه

المطويتين . وقال دون ان ينظر الى صاحبه :

- ما الحاجة الى التهكم ، ما الحاجة الى السخرية ؟ ولكنك

على حق . الحب كلمة عظيمة ، عاطفة عظيمة . . . ولكن عن اي حب

تتحدث ؟

رفع شوبين جسمه قليلاً ايضاً .

- عن اي حب ؟ عن اي حب تشاء ، فقط ان يكون موجوداً .

واعترف لك باننى لا اظن ان هناك انواعاً مختلفة من الحب . اذا

احببت . . .

فابتدر بيرسينيف قائلاً :

- من كل قلبي .

- نعم ، هذا طبيعي ، فالقلب ليس تفاحة ليقسم . فاذا

احببت ، فانت على حق . ولكن لم يخطر في بالي ان استهزى . فان

في قلبي الآن من الرقة ما يجعله ناعماً . . . اردت فقط ان اوضح

لك ، لماذا تؤثر الطبيعة فينا هذا التأثير ، حسب رايتك . لأنها تثير

فينا الحاجة الى الحب ، دون ان تقدر هي على تلبيةها . انها تدفعنا

بهذه الى احضان اخرى حيّة ، بينما نحن لا نفهمها ، وننتظر منها

شيئاً . آه ، اندريه ، اندريه ، رائعة هذه الشمس ، وهذه السماء ،

ورائع كل ما حولنا ، بينما أنت تحزن . ولكن لو امسكت بيدك ،

في هذه اللحظة ، يد امرأة تحبها ، ولو ان هذه اليد ، وتلك المرأة

كلها كانتا ملكاً لك ، بل ولو كنت تنظر بعينيها ، وتشعر بعاطفتها ،

وليس بعاطفتك الوحيدة ، لما اثارته هذه الطبيعة فيك شجناً ، يا

اندريه ، ولا فزعاً ، ولما صرت تلاحظ جمالها . ولا تهتج الطبيعة

نفسها وغنّت ، وكأنما تردد نغمك ، لأنك ، عند ذاك ، كنت ستجعل

لها ، لهذه العاجزة عن النطق ، لساناً ينطق !

وثب شوبين على قدميه ، ومشى مرتين او نحوها جيئة وذهاباً ،

بينما اخنى بيرسينيف رأسه ، وغشيت وجهه حمرة خفيفة . قال :

- لست متفقاً معك تماماً . الطبيعة لا توحى لنا دائماً . . .

* انت تفهمني (بالفرنسية تلفظاً ، كما ورد في الاصل) .

بالحب (لم ينطق بهذه الكلمة رأساً) . انها تهددنا ايضاً . تذكرنا بالأسرار المخيفة ، اجل ، الاسرار التي لا تُنال . ليست هي التي ينبغي ان تبتلعنا ، والتي تبتلعنا باستمرار ؟ فيها الحياة والموت . وللموت صوت عال فيها ، كما للحياة .

قاطعه شوبين قائلاً :

- وفي الحب ايضاً حياة وموت .

فمضى بيرسينيف يقول :

- ثم ، مثلاً ، حين اقف في الربيع ، في غابة ، في حرش اخضر ، ويخيل اليّ انني اسمع انغاماً رومانسية لبوق اوبيرون (٤) . (اعتري بيرسينيف بعض الخجل ، وهو ينطق هذه الكلمات) . - امعقول ان هذا ايضاً . . .

فاسرع شوبين يقول :

- ظمأ للحب ، ظمأ للسعادة ، ولا اكثر ! انا اعرف هذه الانغام ايضاً ، واعرف ايضاً ذلك الحنان والتوقع اللذين يغمران النفس وهي في حِمى الغابة ، في احضانها ، او عند المساء ، في الحقول المكشوفة ، حين تغرب الشمس ، والنهر تتصاعد انفاسه وراء الاجمات . ولكنني اتوقع ، واريد السعادة من الغابة ، ومن النهر ، ومن الارض ، ومن السماء ، ومن كل غيمة ، ومن كل عُشبة ، وأحس في كل شيء باقترابها ، واسمع نداها ! «ربي منير وبهيج !» بهذا بدأت احدى قصائدي . ولا بد ان تقر بأنه مطلع رائع ، ولكن لم استطع ان اثنّيه . السعادة ! السعادة ! ما دامت الحياة لم تنقُض ، وما دامت كل اعضائنا تحت سيطرتنا ، ما دمنا نصعد التل ، لا ان ننحدر منه ! اوه ، اللعنة ! - مضى شوبين يقول في اندفاع فجائي - نحن شبان ، ولسنا ذوي عاهة ، ولا بلهاً . سنكسب السعادة لانفسنا .

وهزّ خصلات شعره ، ونظر الى فوق ، الى السماء ، بثقة في النفس ، وبتحد تقريباً . رفع بيرسينيف اليه بصره . وقال بخفوت :

- كأننا لا شيء ارفع من السعادة ، هيه ؟

سأل شوبين :

- مثلاً ؟

- خذ هذا مثلاً . ها نحن ، انا وأنت شبايان ، كما تقول ، ولنفرض اننا طيبان ، وكل واحد منا ينتظر لنفسه السعادة . . .

ولكن هذه الكلمة «السعادة» هي التي يمكن ان توحدنا ، وتلهبنا نحن الاثنين ، وتجعل احداً يمد يده للآخر ؟ اليس انانية هذه الكلمة ، اقصد اليست كلمة مفرقة ؟

- وأنت هل تعرف الكلمات التي توحد ؟

- نعم ، وهي ليست قليلة ، وأنت ايضاً تعرفها .

- حقاً ؟ ما هي هذه الكلمات ؟

- الفن ، على الاقل ، ما دمت فناناً ، والوطن ، والعلم ،

والحرية ، والعدالة .

فسأل شوبين :

- والحب ؟

- الحب كلمة موحدة ، ولكن ليس الحب الذي تتعطش أنت

اليه الآن . ليس الحب -المتعّة ، الحب-الضحية .

تعبّس شوبين .

- هذا جيد للالمان . ولكنني اريد الحب لنفسى ، اريد ان

اكون الرقم الاول .

كرر بيرسينيف :

- الرقم الاول . اما انا فاعتقد ان كل هدف حياتنا هو في ان

نجعل انفسنا الرقم الثاني .

قال شوبين بتعبيسة شاكية :

- اذا كان الجميع سيتصرفون كما تقول انت فلن ياكل احد

على الارض اناناساً ، لان الجميع سيقدمونه للآخرين .

- اذن ، لا حاجة الى الاناناس . وعلى اية حال لا تخف ، فلن

تعدم ابدأ اناساً هواة حتى في انتزاع الخبز من افواه الآخرين .

وصمت الصديقان كلاهما . ثم قال بيرسينيف :

- قبل ايام التقيت مرة اخرى باينساروف . دعوته الى بيتي ،

اريد ، من كل بد ، ان اعرفه بك . . . وبافراد عائلة ستاخوف .

- من اينساروف هذا ؟ آه ، تذكرت ، اهو الصربي او

البلغاري الذي كنت تحدثني عنه ؟ اهو هذا المناضل ؟ العله هو

الذي اوحى لك بكل هذه الافكار الفلسفية ؟

- ربما .

- اتراه شخصاً فريداً ؟

- نعم .

النور ، الى الرحابة . . . اوه ، يا الهي ، متى ساسافر الى ايطاليا ؟
متى . . .

- يعني تريد ان تقول الى اوكرانيا ؟
- اخجل من نفسك ، يا اندريه بيتروفيتش على تعييري
بحماسة طائشة ، انا بدون ذلك نادم عليها ندامة مرة . حسناً ، لقد
تصرفت كلاحق ، حين اعطتني آنا فاسيليفنا الفاتكة الطيبة نقوداً
لاسافر الى ايطاليا ، فسافرت الى الاوكرانيين ، لأكل اللقم
الاوكرانية و . . .

قاطع بيرسينيف :

- لا تكمل كلامك ، ارجوك .
- ولكني اقول ان هذه النقود لم تنفق هباء . فقد رايت هناك
نماذج من الناس ، ولاسيما من النساء . . . بالطبع ، انا اعرف ان
لا خلاص خارج ايطاليا .

قال بيرسينيف دون ان يلتفت اليه :

- تذهب الى ايطاليا ، ولا تقوم بشي ، مجرد ان تخفق
بجناحيك ، ولا تطير . نحن نعرفك !

- ستافاسير (5) طار . . . وليس هو الوحيد في ذلك . . .
اذا كنت لا اطيع ، فانا بطريق بحري ، بلا اجنحة - ثم مضى قائلاً -
انا اختنق هنا ، اريد ان اسافر الى ايطاليا . فهناك الشمس ، هناك
الجمال . . .

في تلك اللحظة ظهرت في الدرب الذي يسيران فيه فتاة في
مقتبل العمر ، ترتدي قبعة عريضة من القش ، وعلى كتفها مظلة
وردية .

هتف شربين فجأة ، وهو يلوح بقبعته في حركة مسرحية :

- اوه ، ماذا ارى ؟ وهنا ايضاً يأتي الجمال للقيانا . تحية
قنان خاشع للقاتنة زويا .

توقفت الفتاة التي خاطبها بهذه الكلمات ، وهددته باصبعها ،
وتركت كلا الصديقين يقتربان منها ، وقالت بصوت صدادح مع
شيء من اللثغة :

- لماذا لا تاتيان الى الغداء ، يا سادة ؟ المائدة جاهزة .

قال شربين ثانياً ذراعيه :

- ما هذا الذي اسمعه ؟ هل معقول أنك ، زويا الفاتنة ، عزمت

- ذكي ؟ موهوب ؟

- ذكي ؟ . . . نعم . موهوب ؟ لا ادري . لا اظن .

- لا ؟ فماذا فيه ملفت للنظر ؟

- ستراه . والآن ، اعتقد ان علينا ان نذهب . آنا فاسيليفنا

في انتظارنا ، على ما اظن . كم الساعة ؟

- الثالثة . لنذهب . ما اكتم الهواء ! ان هذا الحديث اجمع كل

دمي . كما انك تجلّيت ايضاً . . . وليس دون طائل انني فنان .

الحظ كل شيء . اعترف بان امرأة تشغلك ، اليس كذلك ؟

واراد شوبين ان ينظر الى وجه بيرسينيف ، الا ان هذا اشاح

بوجهه ، وخرج من تحت شجرة الزيزفون . تبعه شوبين ، منقلاً

قدميه الصغيرتين بتراخ ورشاقة . كان بيرسينيف يمشي مشية

ثقيلة ، يرفع كتفيه عالياً اثناء سيره ، ويمد رقبتة ، ومع ذلك

فقد بدا اكثر «استقامة» من شوبين ، وكان من الممكن ان نقول اكثر

جنتلمانية ، لو لم تبتذل هذه الكلمة عندنا كثيراً .

٢

نزل الشابان الى نهر موسكو ، وسارا بمحاذاة الشاطئ . كانت
الندادة تهب من النهر ، وطرطشة الامواج الصغيرة تداعب السمع .
انشأ شوبين يقول :

- كنت ساسبح مرة اخرى ، ولكنني اخشى ان اتأخر . انظر الى
النهر ، فكانه يغمز لنا غاويًا . لو ان الاغريق القدامى كانوا هنا لراوا
فيه حورية ، ولكننا لسنا اغريقاً ، يا حورية ! نحن سنكيفون غلاظ
الجلود .

قال بيرسينيف :

- عندنا ما يقابلها . . . حورية الماء .

- اف منك ومن حورياتك ! ما الذي تجدني ، انا النحات ،
هذه ، سعالى * الخيال المذعور البارد ، هذه الاطيف المولودة في
كوخ ريفي مكتوم الهواء ، في عتمة ليالي الشتاء ؟ انا بحاجة الى

* السعلاة : حيوان خرافي يشير الفزع . المترجم .

على الخروج في مثل هذا الحر لتبحتي عنا ؟ اهكذا يجب ان افهم معنى كلامك ؟ قولي ، معقول ؟ او ، لا ، الافضل ان لا تنطقي بهذه الكلمة . ستقتلني الندامة في الحال .

قالت الفتاة دون ان يخلو كلامها من الضيق :

- اوه ، كف عن ذلك ، بافل ياكوفليفيتش . لماذا لا تتحدث

معي بجدية ابداً ؟ سأزعل .

اضافت بحركة غنجة من جسمها ، ومطت شفيتها .

- لا تزعلي علي ، يا زويا نيكيتيتشنا المثلى . فانت لا

تريدين ان ترميني في الهاوية الكثبية من اليأس المسعور . اما الكلام الجدي فلا اجيده ، لانني لست رجلاً جدياً .

هزت الفتاة كتفها ، وتوجهت الى بيرسينيف قائلة :

- انه دائماً بهذا الشكل . يعاملني كما يعامل طفلاً ، بينما

تخطيت انا الثامنة عشرة . انا الآن كبيرة .

- اه ، يا الهي !

توجه شوبين ، مقلباً عينيه الى الاعلى . وكثر بيرسينيف عن

ابتسامة قصيرة في صمت .

ضربت الفتاة الارض بقدمها . ومضت تقول :

- بافل ياكوفليفيتش ! سأزعل ! ارادت Helène ان تذهب

معي ، ولكنها بقيت في الحديقة . خافت من الحر ، ولكنني لم اخف منه . هيئاً لنذهب .

وسارت في الدرب في المقدمة ، تميمس قليلاً بقدها الممشوق

في كل خطوة ، وتزيح عن وجهها خصلات شعرها الناعمة الطويلة بيدها الحلوة المقفزة بقفاز غير مصبغ .

سار الصديقان في اثرها (كان شوبين تارة يضغط يديه على

قلبه بصمت ، وتارة يرفعهما اعلى من راسه) . وبعد لحظات وجدا انفسهما امام احد البيوت الريفية العديدة المحيطة بكونتسوفو .

كان هذا البيت الخشبي الصغير ذو العلوية والمطلي بالطلاء الوردى يقع وسط حديقة ، ويطل من وراء خضرة الاشجار في شيء من

السداجة . كانت زويا اول من فتحت باب الحديقة . ركضت في الحديقة ، وراحت تصيح : «جئت بالافئاقين !» . نهضت من مسطبة

قرب الممر فتاة في ريعان الشباب ذات وجه شاحب معبر ، وظهرت

على عتبة البيت امرأة في ثوب حريري ليلقي ، ورفعت منديلاً مطرزاً من القماش القطني فوق راسها إتقاء الشمس ، وابتسمت بوني وقتور .

٣

كانت آنا فاسيليفنا ستاخوفا (الملقبة بشوبينا ، قبل زواجها)

قد تيممت من والديها ، وهي في السابعة من العمر ، وورثت ضيعة

على قدر كاف من السعة . وكان لها اقارب اثرياء جداً ، وفقراء جداً . الفقراء من ابيها ، والاغنياء من امها : الشيخ فولغين ، وامراء

آل تشيكوراسوف . وقد وضعها الامير ارداليون تشيكوراسوف

الذي صار وصياً عليها ، في احسن مدرسة داخلية في موسكو ، وبعد

تخرجها من المدرسة ، اخذها لتعيش في بيته . وكان يعيش حياة

غير مغلقة ، ويقوم حفلات راقصة في الشتاء . وقد استمالها نيقولاي

ارتيميفيتش ستاخوف ، زوجها المقبل ، في واحدة من هذه الحفلات ،

حين كانت «في ثوب وردي فاتن بغطاء الرأس من الورود الصغيرة» . وقد

احتفظت بهذا الغطاء . . . ونيقولاي ارتيميفيتش ستاخوف هو

ابن رائد متقاعد جرح في عام ١٨١٢ ، وحصل على وظيفة مربعة في

بترسبورغ . وقد دخل الابن ، وهو في السادسة عشرة ، في مدرسة

عسكرية ، وتخرج ضابط حرس . كان وسيم الطلعة ، حسن

البنيان ، يكاد يكون الفارس الاول في حفلات الطبقة المتوسطة التي

كان يشهدها في الغالب . اما المجتمع الراقي فلم يكن له سبيل

اليه . وكانت له امنيتان منذ شبابه : ان يكون ضابط حاشية ،

وان يتزوج زوجاً مريحاً . وسرعان ما تخلى عن امنيته الاولى ، الا

انه تشبث اكثر في امنيته الثانية . وتبعاً لذلك كان يسافر في كل

شتاء الى موسكو . كان نيقولاي ارتيميفيتش يتكلم الفرنسية بشكل لا

باس به ، واشتهر بأنه فيلسوف ، لانه لم يكن يشترك في موائد

الخمور . وصار ، وهو ما يزال برتبة ملازم ، يحب ان يجادل

بحماس ، مثلاً ، هل في استطاعة الانسان ، ان يطوف الكرة الارضية

خلال عمره كله ، وهل يقدر ان يعرف ماذا يجري في قاع البحر .

وكان دائماً يجيب بالنفي .

كان نيقولاي ارتيميفيتش قد تخلى الخامسة والعشرين حين

«تعلق» بآنا فاسيليفنا . وقد تقاعد عن الخدمة ، وسافر الى الريف ليدبر شؤون الضيعة . وسرعان ما سئم حياة القرية ، فاعطى الضيعة الى الفلاحين باللزمة ، واقام في موسكو ، في بيت زوجته . في صباه لم يكن قد اشترك في لعبة ورق ، ولكن ولع في موسكو باليانصيب ، وحين الغي اليانصيب ، اغرم بلعبة الورق . وكان يسام في البيت ، وصارت له علاقة مع ارملة من اصل الماني ، وصار يقضي معها اوقاته كلها تقريباً . وفي صيف ١٨٥٣ لم ينتقل الى كونتسوفو ، بل بقي في موسكو ، ليتعاطى المياه المعدنية ، على حد زعمه ، بينما اراد ، في الحقيقة ، ان يظل مع صاحبة الارملة . وعلى اية حال ، كان يتكلم قليلاً معها ايضاً ، ويجادل اكثر عما اذا كان في استطاع الانسان ان يتنبأ بالطقس الى غير ذلك . وذات مرة سمى احد الناس * Frondeur ، فراق له هذا اللقب كثيراً . كان يفكر مُرخياً طرفي شفثيه في رضى عن النفس هازاً جذعه : «نعم ، ليس من السهل ارضائي ، ولا سبيل الى خداعي» . وكان اعتراض نيقولاي ارتيميفيتش يتمثل في انه اذا سمع ، على سبيل المثال ، كلمة «اعصاب» ، فانه سيقول : «اي شيء هذه الاعصاب؟» واذا ذكر احد في حضوره نجاحات الفلـك ، قال : «وهل تصدقون بالفلك؟» . وحين كان يريد دحر الخصم كلياً كان يقول : «كل هذه مجرد اقوال» . ولا بد من الاعتراف بأن الكثيرين كانوا (وما يزالون حتى الآن) يرون هذا اللون من الاعتراض لا يمكن ان يُدحض . ولكن نيقولاي ارتيميفيتش لم يكن يظن ان افغوستينا خريستيانوفنا كانت تسميه في رسائلها الى ابنة عمها فيودولينا بـ «Mein Pinselchen» .

كانت آنا فاسيليفنا ، زوجة نيقولاي ارتيميفيتش امرأة صغيرة الجسم نحيلة دقيقة القسما ، ميالة الى الانفعال والاكتئاب . كانت في المدرسة الداخلية تدرس الموسيقى ، وتقرأ الروايات ، ثم تركت كل ذلك . وصارت تتألق في ملابسها ، وحتى هذا تركته ، وانشغلت بتربية ابنتها ، الا انها وهنت ، فسلمتها الى يدي مربية وانتهى بها المطاف الى ان تنقطع الى الاكتئاب والانفعال الهادي ، ولا شيء

* الومق المعترض (بالفرنسية اصلاً) .

** احمقي (بالالمانية في الاصل) .

آخر . اضرت ولادتها ليلينا نيقولاييفا بصحتها ، ولم تعد قادرة على انجاب اولاد آخرين . وكان نيقولاي ارتيميفيتش يلمح الى ذلك مبرراً علاقته بافغوستينا خريستيانوفنا . كانت خيانة الزوج تحزن آنا فاسيليفنا كثيراً ، وقد آلمها بشكل خاص انه اهدى ، ذات مرة ، لصاحبه الالمانية بالخدبة حصانين رماديين من حظيرتها ، حظيرة آنا فاسيليفنا . لم تكن تعاقبه وجهاً لوجه قط ، ولكنها كانت تشكوه ، خفية ، الى اهل بيتها واحداً واحداً ، وحتى لابنتها . وكانت آنا فاسيليفنا لا تحب الخروج من البيت ، وكان يطيب لها ان يكون لديها ضيف يروي لها شيئاً ، وكانت الوحدة تسلمها الى المرض في الحال . كان قلبها رقيقاً يحب الناس كثيراً ، ولكن الحياة سرعان ما طحنتها .

كان بافل ياكوفليغيتش شوبين ابن عمها الاكبر . وكان ابوه يعمل في وظيفة في موسكو ، واخواه يدرسان في مدرسة عسكرية . وكان هو اصغرهم ، والمفضل لدى امه ، وكان هزيل البنية ، فبقي في البيت . وكان الاهل يودون لو يدخل الى الجامعة ، ويجدون عسراً في توفير متطلبات دراسته الثانوية . وكان قد اظهر ، منذ صغره ، ميلاً الى النحت . وذات مرة ، رأى الشيخ فولغين ، الضخم البنية ، تمثالاً صغيراً لدى عمته (كان آنذاك في السادسة عشرة) فاعلن انه ينوي ان يشمل هذا النابغ الشاب برعايته . وقد غيرت وفاة ابي شوبين المفاجئة كل مستقبل ابنه الشاب او كادت . اهدى له الشيخ راعي المواهب ، تمثالاً تصفياً من الجبس لهوميروس ، ولا اكثر . ولكن آنا فاسيليفنا اعانتته بالنقود ، فدُبر ، على نحو ما ، امر دخوله الى كلية الطب ، في الجامعة وهو في التاسعة عشرة . وكان بافل لا يحس اي ميل الى الطب ، ولكن كان من المستحيل حسب عدد الطلاب الموجود آنذاك التحاقه في كلية اخرى ، وفي الوقت ذاته كان يأمل بأن يدرس التشريح . ولكنه لم يتعلم التشريح ، ولم ينجح الى السنة الثانية ، وخرج من الجامعة دون ان ينتظر الامتحان ، يتفرغ كلياً الى مهمته . فعمل بدأب ، ولكن على فترات . وراح يتجول في ضواحي موسكو ، ويصنع ويرسم الصور الشخصية للفلاحات الشابات ، ويلتقي باناس مختلفين ، شباناً وشيوخاً من ذوي المراتب العالية والواطنة ومع المقولبين الايطاليين ، والفنانين الروس ، وكان يرفض

الأكاديمية ، ولا يعترف بأي استاذ . وكان لا يخلو من موهبة ، فصار الناس يعرفونه في موسكو . وكانت امه ، وهي امرأة طيبة ذكية وباريسية المولد من عائلة معتبرة ، قد علمته اللغة الفرنسية ، واهتمت به ، واخذت ترعاه ليل نهار ، وتفتخر به ، ولدى احتضارها ، وهي لم تودع الشباب بعد ، متأثرة بمرض السل رجت آنا فاسيليفنا أن تضعه اليها وتأخذ بزمامه . وكان هو آنذاك في الحادية والعشرين . ونفذت آنا فاسيليفنا رغبة الأم الأخيرة . فصار بافل يحتل غرفة صغيرة في ملحق بيتها الريفي .

٤

قالت ربة البيت بصوت مشفق :
- لنذهب الى الغداء ، لنذهب - واتجه الجميع الى غرفة الطعام ، ومضت آنا فاسيليفنا تقول - اجلسي بقربي Zoé ، اما انت يا Helène فداري الضيف ، وانت يا Paul ، ارجوك لا تشاكس ، ولا تناكد Zoé . رأسي يوجعني اليوم .

قلّب شوبين عينيه صوب السماء ثانية ، فردت عليه Zoé بشبه ابتسامة . و Zoé هذه ، او بعبارة اصح ، زويا نيكييتشنا ميولر فتاة روسية ، المانية الاصل حلوة ، حلاوة قليلة ، ذات انف صغير عريض المنخرين ، وشفتين صغيرتين حمراوين ، شقراء الشعر ، ممتلئة الجسم . كانت تغني اغاني الرومانس الروسية بطريقة لا بأس بها ، وتعزف على البيانو بسلامة معزوفات مختلفة مرحلة تارة ، ومؤثرة تارة اخرى . وكانت تختار ملابسها بدوق ، ولكن بشيء من الطفولية ، وبعباية مفرطة . اخذتها آنا فاسيليفنا كمرافقة لابنتها ، وابتقتها قريبة الى نفسها على الدوام تقريبا . ولم تتشك يلينا من ذلك . وحين يصدق ان تخلو الى زويا كانت لا تعرف قطعاً عم تتحدث معها .

استمر الغداء وقتاً طويلاً ، وصار بيرسينيف يتحدث مع يلينا عن الحياة الجامعية ، وعن نواياه وآماله . وكان شوبين يستمع ، ويلزم الصمت ، ويأكل بنهم مبالغ فيه ، ملقياً ، من حين لآخر نظرات جزعة بشكل فكاهي ، الى زويا التي كانت ترد عليه بنفس الابتسامة الفاترة . وبعد الغداء خرجت يلينا مع بيرسينيف وشوبين

الى الحديقة . شيعتهم زويا بنظراتها ، وقد هزت كتفيها قليلاً ، وجلست الى البيانو . اخذت آنا فاسيليفنا تقول : «لماذا لا تمشين انت ايضاً؟» إلا انها اضافت ، دون ان تنتظر الجواب : «عزفي لي شيئاً مشجياً . . .»

سألت زويا : - «La dernière pensée» de Weber?

- آه ، نعم فيبر .

قالت آنا فاسيليفنا ، وقعدت على الكرسي ، واطلت الدعمة على رموشها .

وخلال ذلك قادت يلينا الصديقين الى تعريشة من الاقاصيا تتوسطها طاولة خشبية حولها مساطب . تلفت شوبين فيما حوله ، وقفز عدة مرات ، وقال همساً : «انتظرا قليلاً» ، وركض الى حجرته ، وجاء بقطعة من الطين ، واخذ يعجن تمثالاً لزويا ، وهو يهز رأسه ، ويغمغم ، ويضحك .

- عاد الى مَرْحَهِ القديمة .

قالت يلينا ، بعد ان نظرت الى ما يفعله ، مخاطبة بيرسينيف الذي كانت تتابع معه الحديث الذي بدى على مائدة الغداء .

كرر شوبين :

- مَرْحَهِ القديمة . موضوع لا ينضب ابداً . اليوم بشكل خاص تحرق الاعصاب .

سألت يلينا :

- ولماذا ؟ كأنك تتكلم عن عجوز مزعجة خبيثة . إنها فتاة حلوة في ريعان الشباب . . .

قاطعها شوبين :

- حلوة ، بالطبع ، وحلوة جداً . انا واثق من ان اي عابر سبيل ينظر اليها ، لا بد ان يفكر : هذه هي الفتاة التي تحلّسو معها . . . رقصة «البولكا» . كما انني واثق من انها تعرف ذلك ، وتستلذ به . . . لِمَ هذه الحركات المخجلة ، هذا التواضع الزائف ؟ طيب ، انتما تعرفان ما اريد ان اقله . - اضاف من خلل اسنانه - على العموم ، انتما الآن مشغولان بشيء آخر .

* «الفكرة الأخيرة» لفيبر آ (بالفرنسية في الاصل) .

خرّب شوبين تمثال زوريا ، واخذ يعجن الطين ويدعكه بعجالة ،
وكان ذلك عن انزعاج .

سالت يلينا بيرسينيف :

- اذن ، فانت تود ان تكون استاذاً ؟

- نعم - ردّ هذا ، ضاغطاً يديه الحمرابين بين ركبتيه -
هذه امنيّتي المفضلة . بالطبع انا اعرف جيداً كل ما ينقصني
لاستجيب لمتطلبات هذا العرام الرفيع . . . اريد ان اقول انا قليل
التاهل للغاية ، ولكن آمل في الحصول على السماح بالسفر للخارج .
واقيم هناك ثلاث او اربع سنوات ، اذا اقتضى الامر ، وعندئذ . . .
وتوقف ، واطرق ببصره ، ثم رفع عينيه بسرعة ، وعدّل
شعره ، مبتسماً بحراجه . وكان بيرسينيف حين يتكلم مع امرأة ،
يصير كلامه ابطلاً من ذي قبل ، واكثر تلفظاً بحرف السين .

سالت يلينا :

- اتريد ان تكون استاذ التاريخ ؟

- نعم ، او الفلسفة - واضاف مخفضاً صوته - اذا كان ذلك
ممكناً .

- انه منذ الآن قوي في الفلسفة ، كالشيطان - قال شوبين ،
وهو يحز خطوطاً عميقة في الطين بأظفره - فما حاجته الى السفر
للخارج ؟

سالت يلينا ، وقد ارتفعت على كوعها ، وراحت تنظر في وجهه :

- وستكون راضياً تماماً عن وضعك ؟

- تماماً ، يلينا نيقولايفنا ، تماماً . فاي شيء يمكن ان يكون
ارفع من هذه الرسالة ؟ السير على خطا تيموفي نيقولايفيتش
(٦) . . . مجرد التفكير في مثل هذه الممارسة يملؤني حيوراً
وخجلاً ، - نعم . . . خجلاً من ادراكي لصغر قابليّاتي . ابي
المرحوم باركني على هذا الامر . . . انا لن انسى ابداً كلماته
الاخيرة .

- ابوك توفي في شتاء هذا العام ؟

- نعم ، يلينا نيقولايفنا ، في شباط .

فمضت يلينا تقول :

- يقال انه ترك مخطوطة مؤلف عظيم ، اهذا صحيح ؟

- نعم ، صحيح . لقد كان رجلاً رائعاً ، كنت ستحبينه لو
كنت تعرفينه . يلينا نيقولايفنا .
- انا واثقة من ذلك . وما هو محتوى هذا المؤلف ؟
- هناك بعض الصعوبة في تقديم محتوى هذا المؤلف لك
بكلمات قليلة . كان ابي رجلاً متعلماً جداً من اتباع شيلينغ (٧) .
وكان يستخدم تعابير ليست واضحة دائماً . . .
قاطعته يلينا :

- اندريه بيتروفيتش ، اعذرني على جهلي : ما معنى من اتباع
شيلينغ ؟

ابتسم بيرسينيف ابتسامة خفيفة .

- الفيلسوف الالماني شيلينغ ، وكانت تعاليم شيلينغ . . .
وفجأة هتف شوبين :

- اندريه بيتروفيتش ! إكراماً للرب ذاته ! يعني تريد ان
تلقى محاضرة على يلينا نيقولايفنا عن شيلينغ ؟ رحماك !

تمتم بيرسينيف واحمر :

- ليست محاضرة اطلاقاً ، بل اردت . . .

فأسرعت يلينا تستدركه :

- ولماذا لا محاضرة ؟ انا وانت محتاجان الى محاضرات ، بافل
ياكوفليفيتش .

تقرّس شوبين فيها ، وفهقه فجأة .

استفهمت ببرود ، وبحدة تقريباً :

- ولِمَ تضحك ؟

سكت شوبين . وبعد برهة قال :

- طيب ، يكفي . لا تزعلي . انا المقصّر . ولكن مع ذلك ،

ما الحاجة الى الكلام عن الفلسفة الآن ، في مثل هذا الطقس ، وتحت

هذه الاشجار ؟ الافضل ان نتحدث عن البلابل ، عن الورود ، عن

العيون الغضة ، والبسمات .

فاستطردت يلينا قائلة :

- نعم ، وعن الروايات الفرنسية ، وعن الملابس النسائية .

فردّ شوبين :

- وليكن عن الملابس النسائية ، اذا كانت جميلة .

- ممكن ، ولكن اذا كنا لا نريد ان نتحدث عن الملابس ؟ انت

تعتبر نفسك فناناً حراً ، فلماذا تعتدي على حرية الآخرين ؟ ثم
اسمح لي ان اسالك لماذا تهاجم زويا اذا كنت تفكر بهذه الطريقة ؟
الحديث عن الملابس وعن الورد يناسبها بشكل خاص .
احتدم شوبين فجأة ، ووثب من على المسطبة . وراح يقول
بصوت متهدج :

- هكذا اذن ؟ انا فاهم تلميحك . انت تريدان ان تعيديني
اليها ، يلينا نيقولايفنا . يعني انا زائد هنا ، بعبارة اخرى ؟
- لم افكر في ابعادك عن هنا .

فتابع شوبين يقول محتد المزاج :
- انت تريدان ان تقولي انا لا استاهل صحبة اخرى ، وانني
لا اصلح الا لها ، فانا فارغ وسخيف ، وثاقه ، كذلك الالمانية
المعسولة . اليس كذلك ؟

قطبت يلينا حاجبيها . وقالت :
- لم يكن لك فيها هذا الرأي دائماً ، يا بافل ياكوفليفيتش .
صاح شوبين :

- اها ! توبيخ ! توبيخ هذه المرة ! طيب ، نعم ، كانت هناك
لحظة ، انا لا انكر ، لحظة واحدة فقط ، حين كان ذاك الخدان
الطريان ، المبتذلان . . . ولكن لو كنت اريد ان ابادلك التوبيخ ،
واذكرك . . . وداعاً - اضاف فجأة - انا مستعد ان اتخبط في
الكذب .

وضرب بيده الراس الذي صاغه من الطين ، وخرج راكضاً من
التعريشة ، ولاذ في حجرته .

قالت يلينا ، وهي تشيعه بنظرها :
- طفل .

قال بيرسينيف بابتسامة خفيفة :
- فنان . كل الفنانين بهذا الشكل . يجب ان يسامحوا على
نزاوتهم . هذا من حقهم .

قالت يلينا :
- نعم . ولكن بافل لم يات حتى الآن بشيء يشبه له هذا
الحق . ماذا صنع حتى الآن ؟ هات يدك ، ولنتمشي في الدرب
المعروض . قطع بافل علينا حديثنا . كنا نتحدث عن مؤلف والدك .
تناول بيرسينيف يد يلينا ، وسار وراءها في الحديقة ، ولكن

الحديث الذي استهل لم يستأنف ، بعد ان قطع مبكراً جداً . عاد
بيرسينيف يطرح من جديد تصوراتهِ عن لقب الاستاذية ، وعن
نشاطه المقبل . كان يسير جنب يلينا ببطء ، وبخطوات مرتبكة ،
ويمسك بيدها غير متمالك حركاته ، يصدمها بكتفه احياناً ، ولم
ينظر اليها قط . ولكن كلامه كان يجري بخفة وبطلاقة تامة تقريباً ،
وكان يعبر ببساطة وثقة . وكانت عيناه المطوفتان ببطء في جذوع
الاشجار ، ورمل الدرب والعشب ، تشعان بالركة الهادئة للمشاعر
النبيلة ، وصوته المطمئن يفصح عن فرحة انسان يدرك ان التوفيق
يحالفه في الاعراب عن نفسه امام شخص آخر عزيز عليه . وكانت
يلينا تصغي اليه بانتباه ، وقد ادارت جسمها نحوه نصف
استدارة ، ولم تصرف بصرها عن وجهه الشاحب قليلاً ، وعن
عينيه الودودتين الوديعتين ، المتحاشيتين في الوقت ذاته ، الالتقاء
بعينيهما . وكانت روحها تتفتح ، وتشعر بشيء رقيق عادل وطيب
ينصب في قلبها ، او يتنامى فيه .

٥

ظل شوبين معتكفاً في حجرته حتى الليل . احلوك الظلام تماماً .
وكان الهلال عالياً في السماء . وكانت المجرة قد طلعت ، والنجوم
شرعت تتواضع ، حين ودع بيرسينيف آنا فاسيليفنا ، ويلينا ،
وزويا ، وتقدم من باب حجرة صديقه . وجد الباب مغلقاً ، فاخذ
يطرقه . فصدر صوت شوبين :

- من هناك ؟

اجاب بيرسينيف :

- انا .

- ماذا تريد ؟

- بافل ، دعني ادخل ، لا تشاكس . كيف لا تخجل ؟

- انا لا اشاكس . انا نائم واحلم بزويا .

- كفى ، ارجوك . لست طفلاً . دعني ادخل ، اريد ان اتحدث
اليك .

- ألم تشبع بعد حديثاً مع يلينا ؟

- يكفي ، يكفي ، دعني ادخل !
رد شو بين بشخير مصطنع . هز بيرسينيف كتفيه ، وسار
الى البيت .

كانت الليلة دافئة وساكنة سكوتاً غير عادي وكان كل ما فيها
يتسمع ويترصد . وكان بيرسينيف الذي شمله الظلام الساكن
يتوقف دون ارادته ويتسمع ويترصد . وكان الحفيف الخافت الشبيه
برفيف ثوب نسائي يرتفع من حين الى آخر في ذرى الاشجار
القريبة ، ويثير في نفس بيرسينيف احساساً حلواً ومتوجساً ،
احساساً في منتصف الطريق الى الرهبة . سرى ديبب القشعريرة
على خديه ، وتلججت عيناه بدمعة خاطفة . فقد كان يود لو انه
يسير بلا صوت تماماً ، يتخبأ ، ينسل انسلالاً . مرّت خفقة ربح
حادة على جنبه ، فكاد يجفل ، وجمد في مكانه . وقعت خنفساء ،
ناعسة من على غصن ، وارتطمت في الطريق . صاح بيرسينيف
بغفوت : «ها !» وتوقف مرة اخرى . ولكنه شرع يفكر في يلينا ،
فاختفت كل هذه الاحاسيس العابرة دفعة واحدة . ولم يبق الا
الوقع المنعش لطراوة الليل ، لنزعة ليلية . وامتلات روحه كلها
بصورة الفتاة . سار بيرسينيف مطرق الرأس ، وراح يسترجع في
ذاكرته كلماتها وامسحتها . وخيل اليه انه يسمع وقع خطوات
سريعة خلفه . ارهف سمعه . كان شخص يجري ، ليلحق به .
ترددت انفاس متلاحقة ، وفجأة طلع شو بين امامه من دائرة الظل
السوداء لشجرة كبيرة ، حاسر الرأس ، منفوش الشعر ، منتقماً
بكليته في ضوء القمر . وراح يقول بصعوبة :

- انا مسرور لانك سلكت هذا الطريق . لو لم الحق بك لبقيت
مستهداً طوال الليل . اعطني يدك . انت ذاهب الى البيت ، اليس
كذلك ؟

- نعم .

- سارافكك .

- ولكن كيف تسير حاسر الرأس ؟

- لا بأس . وخلصت ربطة عنقي ايضاً . الجو دافئ الآن .

قطع الصديقان عدة خطوات . وسال شو بين فجأة :

- كنت اليوم شديد الحماسة . اليس صحيحاً ؟

- نعم ، بصريح العبارة . لم استطع ان افهمك . انا لم ارك



بهذا الشكل قط . يا الله ، ما الذي جعلك تفضب ! من اجل مثل
هذه التوافه ؟

غمغم شوبين :

- حم . هذه طريقتك في التعبير ، ولكن هذه ليست توافه
بالنسبة لي . اسمع - اضاف قائلاً - يجب ان انبهك الى اني . . .
اني . . . ولك ان تظن بي ما تشاء . . انا . . اي ، نعم . . انا
مغرم بيلينا .

- مغرم بيلينا !

كرر بيرسينيف ، وتوقف . فمضى شوبين يقول متصنعاً عدم
المبالاة :

- نعم . وهل يدهشك ذلك ؟ سأقول لك اكثر من هذا . انني ،
حتى هذا المساء ، كنت آمل بانها ستحبني ، هي الاخرى ، مع مرور
الزمن . ولكن اليوم اقتنعت بان امنياتي خائبة ، اذ انها احبت
شخصاً آخر .

- شخصاً آخر ؟ من هو ؟

- من ؟ احبتك انت !

صاح شوبين ، وضرب بيرسينيف على كتفه .

- احبتي !

كرر شوبين :

- احبتك .

تراجع بيرسينيف خطوة . وجهد بلا حراك . امعن شوبين
النظر فيه بحدة .

- ويدهشك هذا ، ايضاً ؟ انت فتى متواضع . ولكنها تحبك .
وفي وسعك ان تطمنن بهذا الخصوص .

قال بيرسينيف اخيراً في ضيق :

- اي هراء تقول !

- لا ، ليس هراء . على العموم ، لماذا نحن واقفان ؟ لنواصل
السير . المشي اخف على النفس . انا اعرفها منذ زمان ، واعرفها
بشكل جيد . ولا يمكن ان اخطأ . وقعت في قلبها موقعاً حسناً . في
وقت ما كانت معجبة بي ، ولكنني اولاً شاب طائش جداً بالنسبة لها
بينما انت مخلوق جدي ، انت شخصية نظيفة خلقياً وجسدياً ،
انت . . . انتظر ، انا لم اكمل ، انت متحمس معتدل نقي الضمير

مثل حقيقي لكهنة العلم الذين تفخر بهم عن حق طبقة النبلاء الروس المتوسطي الحال ! وثانياً ، راتني يلينا ، قبل ايام ، اقبل يد زويا .

- يد زويا ؟

- نعم ، يد زويا . فماذا تأمر أن افعل ؟ كتفاها جميلتان

- كتفاها ؟

- نعم ، كتفاها ، يداها ، هل هناك فرق ؟ وجدتهني يلينا وسط هذه الممارسات الحرة بعد الغداء ، بينما كنت قبل الغداء اشتم زويا بحضورها . ويلينا ، مع الاسف ، لا تفهم كل مثل هذه التناقضات الطبيعية . واذا بك تظهر هنا ، انت مثالي وتؤمن . . . على فكرة ، بأي شيء تؤمن ؟ . . . تحمر ، وترتبك ، وتحدث عن شيللر (8) ، عن شيلينغ (وهي دائماً تبحث عن الناس المرموقين) فصار النصر حليفك ، بينما أنا ، التعيس ، احاول ان امزح . . . و . . . في غضون ذلك . . .

وانفجر شوبين بالبكاء فجأة ، وانتحي جانباً ، وجلس على الارض ، وانشب اصابعه في شعره .

اقترب بيرسينيف منه . وقال :

- بافل . ما هذه الطفولية ؟ رحماك ! ماذا بك اليوم ؟ الله يعلم اية سخافة دارت في رأسك ، وتبكي ايضاً . في الحقيقة يبدو لي انك تتظاهر .

رفع شوبين رأسه . والتمعت الدموع على خديه في ضوء القمر ، ولكن وجهه كان يبتسم . قال :

- اندريه بيتروفيتش ، تستطيع ان تظن بي ما تشاء . بل ويمكن ان اوافق على انني الآن في حالة هستيريا ، ولكنني اعشق يلينا ، قسماً بالله ، ويلينا تحبك . على العموم ، وعدتك بأن ارافقك الى البيت ، وسأفي بوعدتي .

ونهض .

- ما اروع الليل ! فضياً ، داجياً ، فتياً ! ما اطيب الوقت الآن للمحبوبين ! وما ابهج سهرهم ! هل ستنام ، يا اندريه بيتروفيتش ؟

لم يجب بيرسينيف ، وغدّ خطاه . ومضى شوبين يقول :

- الى اين تستعجل ؟ صدق بكلامي ، لن تتكرر مثل هذه

الليلة في حياتك ، بينما ليس في انتظارك في البيت غير شيلينغ . حقاً انه قدم لك خدمة اليوم ، ولكن لا تستعجل ، على اية حال . غنّ . اذا كنت تحسن الغناء ، وغنّ بصوت اعلى ، اذا كنت لا تحسنه ! اخلع قبعتك ، وادفع رأسك الى الوراء ، وابتنس للنجوم . انها جميعاً تصوب انظارها اليك ، واليك وحدك . النجوم لا تفعل شيئاً غير النظر الى العشاق ، ولهذا السبب نراها بهذه الفتنة . انت عاشق . يا اندريه بيتروفيتش ، اليس كذلك ؟ لا تجيبني . . . لماذا لا تجيبني ؟ - وعاد شوبين يقول - اوه ، لو كنت تشعر بانك سعيد ، فاصمت ، اصمت ! انا اثرثر ، لانني عاثر الحظ ، غير محبوب ، حاور ، معتل ، بهلوان ، ولكن اي سرور صامت كنت ساشعر به في هذه النسائم الليلية ، تحت هذه النجوم ، تحت احجار الالماس هذه ، لو كنت اعرف أنني محبوب ! . . . بيرسينيف ، هل انت سعيد ؟

ظل بيرسينيف على صمته ، يسير بسرعة في الطريق المستوية . والى الامام كانت انوار القرية التي يعيش فيها تتوأمض من خلل الاشجار . وكانت القرية كلها مؤلفة من عشرة بيوت ريفية صغيرة . وفي بداية القرية تماماً ، الى يمين الطريق ، تحت شجرتي البتولا كثيرتي الفروع كان الحانوت الصغير قد اغلق كل نوافذه ، ولكن شريطاً عريضاً من النور كان يرتمي كالعروحة من بابه المفتوح ، على العشب المسحوق بالاقدام ، ويسقط في الاعلى على الشجرتين ، مضيئاً بقوة بطون اوراقهما المتكاثفة الضاربة الى بياض . وكان ثمة فتاة ، خادمة كما يدل مظهرها ، تقف في الحانوت مديرة ظهرها الى العتبة . تماكس صاحب الحانوت . وكان خدها المدور وعنقها الرقيق لا يكادان يبدوان من تحت المنديل الاحمر الذي لفته على رأسها ، واسندته بيدها العارية عند الذقن . دخل الشابان شريط الضوء . نظر شوبين داخل الحانوت ، وتوقف ، وهتف : «آنوشكا !» التفت الفتاة بخفة ، ولاح وجهه حلو المحيئاً عريض قليلاً ، ولكنه غص ذو عيني بنيتين مرحتين ، وحاجبين اسودين . كرر شوبين : «آنوشكا !» امعنت الفتاة النظر فيه ، وارتعبت ، وعلاها الخفر ، ونزلت من درجات مدخل الحانوت ، دون ان تكمل شراها ، وانسلت مارة بهما بخفة ، وعبرت الطريق الى اليسار ، متلغطة قليلاً . تنحج الحانوتي ، وتناوب في اثرها . وكان رجلاً مترهلاً لا يكثرث لاي

شيء في الدنيا ، مثل جميع اصحاب الحوانيت الصغار في الضواحي .
بينما خاطب شوبين بيرسينيف بهذه الكلمات : «ها . . . ها انت
ترى . . . عندي عائلة اعرفها هنا . . . كما هو عندهم . . . لا
يذهب بك الفن . . .» وركض وراء الفتاة المبتعدة دون ان يكمل
كلامه .

صاح بيرسينيف في اثره :

- امسح دموعك ، على الاقل .

ولم يستطع ان يكبح ضحكته . ولكنه ، حين عاد الى بيته ،
لم يكن على وجهه اثر للمرح . ولم يضحك بعد . لم يصدق لحظة
واحدة بما قاله شوبين له ، ولكن الكلمة التي نطق بها نفذت
عميقاً في قلبه ، وفكر مع نفسه : «بافل يستغفلي . . . ولكنها
ستحب في وقت ما . . . فمن ستحب ؟»

كان في حجرة بيرسينيف بيانو غير كبير ولا جديد ، ولكن له
نبرة ناعمة ولطيفة ، وان لم تكن صافية تماماً . جلس بيرسينيف
اليه ، واخذ يضرب على مفاتيحه . وكان مثل جميع النبلاء الروس
قد تعلم الموسيقى منذ الصغر ، ومثل جميع النبلاء الروس تقريباً
كان سيئاً في عزفه الى درجة كبيرة ، ولكنه كان كثير الولع
بالموسيقى . في الواقع كان لا يحب في الموسيقى الفن ، ولا تلك
الاشكال التي تعبر بها (كانت السيمفونيا والسوناتة بل حتى
الاوربا تسلمه الى العجز) ، بل كان يحب عفويتها ، يحب تلك
الاحاسيس المبهمة واللذيذة ، الهائلة والشمولية التي يثيرها في
النفس تألف الاصوات وتنقلها من درجة الى اخرى . ظل اكثر من
ساعة ملازماً البيانو ، مكرراً عدة مرات نفس النغمات ، باحثاً عن
نغمات جديدة في غير اتقان ، متوقفاً وجامداً على السباعيات
المصغرة . وكان قلبه يئن ، وعيناه تمتلئان بالدموع غير مرة ،
ولم يخجل منها . فقد كان يسكبها في الظلام . ويفكر مع نفسه :
«بافل على حق . أنا اشعر ان هذا المساء لن يتكرر» . واخيراً
وقف ، واشعل الشمعة ، والقي الروب على كتفيه ، وتناول من الرف
المجلد الثاني لكتاب «تاريخ اسرة هوغينشتاوفين» لراومر (٩) ،
وزفر مرتين او نحوها ، وانكب على القراءة بدأب .

وفي اثناء ذلك كانت يلينا قد عادت الى غرفتها ، وجلست امام
النافذة المفتوحة ، واسندت رأسها على يديها . صارت لها عادة
الجلوس الى نافذة غرفتها زهاء ربع ساعة كل مساء . كانت تتحدث
مع نفسها في هذا الوقت ، وتراجع ما حصل في اليوم الجاري . قبل
حين اتمت العشرين من عمرها . كانت طويلة القامة ، شاحبة الوجه
بسكرة ، وعيناها الوسيعتان الرماديتان تحت حاجبين مستديرين
كانتا معاطتين بنمش صغير ، وانفها وجبينها مستقيمين تماماً ،
وفمها مطبقاً ، وذقنها مستدقاً بدرجة معتبرة . وكانت صغيرتها
الذهبية الداكنة تسرح الى الاسفل من جيدها الرقيق . وكان في
كيانها كله ، في تعبير وجهها المنتبه المرتعب قليلاً ، وفي نظرتها
الصادقة والمتقلبة في الوقت ذاته ، وفي ابتسامتها المتوترة ، كما
تبدو ، وفي صوتها الهادي ، غير المستوى في نبراته ، شيء
عصبي ، منفعل ، شيء مندفع عجول ، وباختصار ، شيء لا يروق
لكل الناس ، بل يُنفّر بعضهم . وكانت يداها ضيقتين ، ورديتين ،
ذواتي اصابع طويلة وكانت قدماها ضيقتين ايضاً . وكانت مشيتها
سريعة ، مندفعة تقريباً ، في شيء من الميلان الى الامام . وقد نشأت
نشأة غريبة جداً . في البداية كانت تعبد اباها ، وبعد ذلك تعلقت
بأمها بهيام ، ثم ببرد شعورها نحوها كليهما ، لاسيما نحو
الاب . وفي المدة الاخيرة كانت تعامل أمها ، وكأنها جدتها المريضة .
وصار ابوها الذي كان يفتخر بها ، حين كانوا يعتبرونها طفلة غير
اعتيادية ، يخشاها حين كبرت . وراح يقول عنها انها جمهوريّة
متحمسة ، والله يعلم على من طلعت ! كان الضعف يضايقها ،
والحماقة تغضبها ، والكذب لن تغفره لآحد «ابد الأبدن» . وكانت
متطلباتها لا تتراجع امام اي شيء ، وحتى الصلوات كانت تمزجها
احياناً بالتقريع . وحالما يفقد الانسان احترامها - وكانت تكون
رايها بسرعة ، وفي احيان كثيرة ، بسرعة شديدة جداً - حتى يكف
عن الوجود بالنسبة لها . وكانت كل الانطباعات تلتصق بقلبها
بقوة . فالحياة ليست سهلة عليها .

كانت المريية التي عهدت آنا فاسيليفنا اليها اكمال تربية
ابنتها - وهذه التربية ، ونضعها بين القوسين ، لم تبدأها السيدة

الضجرة امها ابدأ - من الروسيات ، ابنة مرتش قد افلس ،
وخريجة معهد ، مخلوقة شديدة الحساسية ، طيبة ، كاذبة . كانت
تعشق من حين لآخر ، حتى انتهى بها الامر الى ان تتزوج ١٨٥٠
(حين دخلت يلينا سنيتها الثامنة عشرة) ضابطاً ، هجرها في الحال .
وكانت هذه المربية شغوفة جداً بالادب ، تقوم بنظم الشعر ، وهي
التي حببت القراءة الى يلينا ، ولكن القراءة لوحدها لم تكن ترضي
يلينا ، فقد كانت تتعطش الى العمل والبر* منذ الطفولة ، وكان
المتسولون والجوع والمرضى يشغلون بالها ، ويثيرون قلقها
ويسلمونها الى العذاب . كانت تراهم في احلامها ، وتسأل عنهم كل
معارفها ، وتقدم الاعانات باهتمام ، وبعظمة لارادية ، وبانفعال
تقريباً . وكان جميع الحيوانات المنبوذة وكلاب الحراسة النحاف ،
والقطط المحكومة بالموت ، والعصافير الساقطة من اعشاشها ،
وحتى الحشرات والزواحف تجد عند يلينا الرعاية والحماية . كانت
تقطعها بنفسها ، ولا تقرق منها . وكانت امها لا تمنعها ، بينما كان
ابوها يزعل على ابنته بسبب عاطفيتها المبتذلة ، على حد قوله ،
ويؤكد ان البيت مملوء بالكلاب والقطط ، ولا محط لقدم فيه . وكان
يصيح عليها احياناً : «لينوتشكا* ، هذا عنكبوت يبتلع ذبابة ،
فتعالى بسرعة ، وانقذي الذبابة البائسة !» فكانت لينوتشكا تجري
مذعورة تماماً وتحرر الذبابة من شرك العنكبوت وتنظف قوائمها .
وكان ابوها يقول متهمكاً : «والآن ، دعيتها تلسعك ، إذا كنت بهذه
الطيبة» . ولكنها لم تكن تصغي اليه . وعندما كانت في العاشرة
تعرفت بفتاة متسولة تدعى كاتيا كانت تذهب للمقاهي في الحديقة
سراً ، تجلب لها الاطياب ، وتهدي لها المناديل ، والقطع النقدية
من فئة العشرة كوبيكات ، لأن كاتيا لم تكن تأخذ اللعيب . كانت
تجلس الى جانبها على الارض الصلبة ، في مكان منعزل ، وراء اجمة
القراص . وتاكل خبزها الناشف بشعور الفرح المستكين ، وتستمتع
الى حكاياتها . وكانت لكاتيا عمه ، هي عجوز حقود ، كثيراً ما كانت
تضربها . وكانت كاتيا تكرهها ، ولا تفتأ تقول انها ستهرب منها ،
وتعيش طليقة في ارض الله الواسعة وكانت يلينا تنصت باحترام
خفي وذعر الى تلك الكلمات الجديدة التي لم تعهدها من قبل ،

* صيغة تدليل من اسم يلينا . المترجم .

وتتفرس في كاتيا ، وعند ذاك كان كل شيء فيها ، عيناها السوداءوان
السريعتان مثل عيني وحش صغير ، ويداه الملوحتان ، وصوتها
النحيل الكامد ، وحتى ثوبها المعزق يبدو ليلينا غير عادي وله لون
خاص ويكاد ان يكون مقدساً . وكانت يلينا تعود الى البيت ،
وتفكر طويلاً ، بعد ذلك ، في المتسولين ، في ارض الله الواسعة ،
وتفكر كيف ستقطع لها عصا من شجرة جوز ، وتضع جرابها على
كتفها ، وتهرب مع كاتيا ، وكيف ستضرب في الطرقات ، وعلى راسها
اكليل من القنطريون العنبري ، مثل ذلك الذي رآته على كاتيا ذات
مرة . وكان اذا دخل احد من اهليها غرقتها ، في ذلك الوقت ، كانت
تنكمش ، وتتعبس . وذات مرة هربت للقاء كاتيا ، والمطر منهمر ،
فتوسخ ثوبها ، ورآها ابوها ، وعيثرها بأنها بنت قذرة ، فلاحه .
فصعد الدم الى وجهها ، وجثم على قلبها شعور بالرعب والهناة .
كانت كاتيا كثيراً ما تغني اغنية خشنة من اغاني الجنود . وقد
تعلمتها يلينا منها . . . سمعتها آنا فاسيليفنا تغنيها ، فاستولى
عليها الغيظ . وسالتها :

- من اين جئت بهذه الوضاعة ؟

فاكتفت يلينا بالنظر الى امها ، ولم تحر جواباً . فقد احست
بان تقطيعها ارباً اهرق عليها من البوح بسرها ، وعاد الى قلبها
الشعور بالرهبة والعذوبة معاً . وعلى اية حال ، لم تستمر صحبتها
لكاتيا طويلاً . فقد اصابت الحمى هذه الفتاة المسكينة ، وتوفيت
بعد بضعة ايام .

وعندما سمعت يلينا بوفاة كاتيا افتقدتها كثيراً وتارق كثيراً
في الليل . وظلت آخر كلمات المتسولة ترن في اذنيها بلا انقطاع ،
بل وكان يخيل اليها انها تسمع صوتاً يناديها . . .

وتتابعت الاعوام ، ومرة صبا يلينا سريعاً وغير ملحوظ كالمياه
تحت طبقة الجليد ، خاملاً من الخارج ، بينما هو في صراع واضطراب
في الداخل . ولم تكن لها صديقات ، فهي لم تصادق واحدة من جميع
الفتيات اللاتي كن يترددن على بيت آل ستاخوف . ولم تثقل سلطة
الوالدين على يلينا قط ، حتى انها اصبحت ، وهي في السادسة
عشرة ، في كامل الاستقلال تقريباً فعاشت حياتها الخاصة لكنها حياة
وحيدة . وكانت نفسها تهفو وتخمد وحيدة . كانت قلقة مثل طائر
في القفص وان لم يكن للقفص وجود ، ولم يمنعها احد ، ولكنها

في نحو الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي اتخذ بيرسينيف العربة العائدة الى موسكو . فقد كان بحاجة الى تسلم نقود من البريد ، وشراء بعض الكتب ، كما كان يريد ان ينتهز الفرصة ، ويلتقي باينساروف ، ويتحدث اليه . فقد عن له ، اثناء حديثه الاخير مع شوبين ، ان يدعو اينساروف الى بيته الريفي . الا انه لم يعثر عليه بسرعة ، فقد انتقل اينساروف من شقته القديمة الى شقة لم يكن الوصول اليها سهلاً . كانت تقع في فناء خلفي لبيت آجري قبيح ، شيد على الطراز البطرسبورغي بين ارباب وشارع بوفارسكيا . راح بيرسينيف ينتقل بدون جدوى من مدخل بيت قدر الى آخر ، ويستفهم عبثاً من بواب تارة ، ومن «مستطرق» تارة اخرى . في بطرسبورغ يحاول البوابون تحاشي نظرات الزائرين ، الا انهم في موسكو اكثر تحاشياً . لم يستجب احد لبيرسينيف ، سوى خياط فضولي ليس عليه غير صدر ، وشلة من الخيوط الرمادية متدلية من كتفه ، اطل صامتاً من فتحة شباكه العالية ، بوجهه الكابي غير الحليق وعينه المكدومة ، وسوى ماعز اسود بلا قرون التفت اليه ، وهو فوق كومة من الزباله ، وارسل ثغاء شاكياً ، وصار يجتر طعامه اسرع من ذي قبل . واخيراً اشغقت على بيرسينيف امرأة في معطف قديم وحذاء بال ، وأشارت له الى شقة اينساروف . وجده بيرسينيف في البيت . وكان اينساروف يستاجر غرفة من نفس الخياط الذي نظر من فتحة الشباك في كثير من اللامبالاة الى ورطة رجل ضائع ، وهي غرفة كبيرة تكاد تكون فارغة ، ذات جدران خضراء داكنة ، وثلاث نوافذ مربعة ، فيها سرير صغير موضوع في ركن ، واريكة جلدية في ركن آخر ، وقفص ضخم متدل قرب السقف تماماً ، كان مأوى لبلبل في وقت ما . وحالما اجتاز بيرسينيف عتبة الباب ، حتى اقبل اينساروف للقائه ، ولكنه لم يهتف : «أها ، هذا انت !» او : «أوه ، يا إلهي ! اية مصادفة ؟» بل لم يقل حتى «مرحباً» ، بل شدة على يده فقط ، وقاده الى المقعد الوحيد الموجود في الغرفة . وقال له :

- اجلس .

كانت تتحرق شوقاً ، وتتعذب . ولم تكن هي نفسها تفهم احياناً ذاتها ، بل كانت تخاف منها . كان كل شيء يحيط بها يبدو لها فاقد المعنى او غير مفهوم . وكانت تفكر : «كيف ساعيش بدون حب ؟ ولكن لا احد احبه !» فترعبها هذه الافكار ، هذه الاحاسيس . وكادت حصى خبيثة ان تودي بها ، وهي في الثامنة عشرة ، وظل كيائها يصارع زمناً طويلاً ، وإن كان معافى وقوياً بطبيعته ، ولكنه هز من الاساس . واخيراً اختفت عقابيل الداء . ولكن اباهما ما زال يتحدث عن اعصابها بشيء من الحنق . احياناً كان يخطر في ذهنها انها تريد شيئاً لا يريده احد ولا يفكر فيه في كل روسيا . ثم هدأت ، بل وضحكت من نفسها ، وراحت تقضي الايام خليّة البال ، ولكن شيئاً قوياً لا اسم له ، صار فجأة يغلي في داخلها ، دون ان تقدر على مقاومته ، حتى ليكاد يطفح الى الخارج . ومرّت العاصفة ، وارتخى جناحها بتعب قبل ان يطيرا بها ، ولكن هذه العواصف خلفت اثرأ فيها . ومهما حاولت ان تخفي ما كان يجري في داخلها فقد كان الاضطراب والوحشة المعتملة في صدرها تظهر حتى فسي هدوئها الظاهري ، وكان اهلها غالباً ما كانوا على حق ، حين يهزون اكتافهم ، في دهشة ، غير فاهمين سر «غرابه اطوارها» .

في اليوم الذي بدأت فيه قصتنا ظلت يلينا ملازمة النافذة اطول من المعتاد . فكرت طويلاً في بيرسينيف ، وفي حديثها معه . لقد راق لها . صدقت بدفء مشاعره ، ونقاء مقاصده . وكان من قبل لم يتحدث اليها قط كما تحدث في ذلك المساء . تذكرت تعبير عينيه المتهيبتين ، وابتهامته ، وكانت هي الاخرى تبتسم ، وتستغرق في التفكير ، ولكنها لم تعد تفكر فيه . اخذت تحديق «في الليل» من خلال النافذة المفتوحة . وحدقت طويلاً في السماء القاتمة الواطنة . ثم نهضت ، وازاحت شعرها عن وجهها بحركة من رأسها ، ودون ان تعرف السبب ، مدت الى هذه السماء ذراعيها العاريتين المتجمدتين ، ثم اسبلتهما ، وركعت على ركبتيه امام سريرها ، وضغطت وجهها على الوسادة ، وراحت تبكي بدموع غريبة محيرة لكنها حارقة رغم كل جهودها لكبت العاطفة المسيطرة عليها .

وجلس هو على حافة الطاولة . و اضاف اينساروف وهو يشير الى تل من الاوراق والكتب على الارض :

- ها انت ترى ما تزال هناك فوضى ، ولم ارتب اموري ، كما ينبغي . لم يتح لي الوقت .

كان اينساروف يتكلم الروسية بطريقة سليمة جداً ، ناطقاً ، كل كلمة بقوة وصفاً ، ولكن صوته الحنجري ، واللطيف في الوقت ذاته فيه رنة غير روسية . وكان اصله الاجنبي (كان بلغاري المولد) يظهر بوضوح اكثر في مظهره الخارجي . كان شاباً في نحو الخامسة والعشرين ، نحيفاً ومعروقاً ، ذا صدر غائص ، ويدين معقّدتين ، وقسمات وجه حادة ، وانف معكوف ، وشعر بسيط اسود فاحم ، وجبهة صغيرة ، وعينين صغيرتين غائصتين متفرستين ، وحاجبين كثيفين ، وكانت اسنانه البيضاء الجميلة تلوح للحظة ، حين يبتسم ، من بين شفتيه النحيلتين القاسيتين المرسومتين بدقة بالغة . وكان يلبس سترة قديمة ، ونظيفة مزررة الى الرقبة .

سأله بيرسينيف :

- لماذا انتقلت من منزلك السابق ؟

- هذا ارخص ، واقرب الى الجامعة .

- ولكن الآن عطلة . . . ثم ما هذه الرغبة في العيش في المدينة صيفاً ! كان الاخرى بك ان تستأجر بيتاً ريفياً ، ما دمت قد عازمت على الانتقال .

لم يرد اينساروف بشيء على هذه الملاحظة ، وقدم لبيرسينيف غليونه قائلاً : «ارجو المعذرة ، لعدم توفر السيكاثر والسيغار لدي» .

اشعل بيرسينيف الغليون . ومضى يقول :

- ها انا قد اجرت بيتاً صغيراً قرب كونتسوفو . رخيص ، ومريح جداً . بل عندي حجرة زائدة في الأعلى .

ومرة اخرى لم يرد اينساروف بشيء .

مضى بيرسينيف نفساً من غليونه ، وعاد يقول نافثاً خيطاً رفيعاً من الدخان .

- بل قلت لنفسي : ما الطف لو رغب احد من الناس . . . انت مثلاً كما دار في ذهني . . . لو وافق ان يسكن في تلك الحجرة في الأعلى . ما رايك ، يا دميتري نيكانوريتش ؟

رفع اينساروف بعينه الصغيرتين .

- اقترح على ان اعيش معك في البيت الريفي ؟

- نعم ، عندي في الاعلى حجرة زائدة .

- انا شاكر لك كثيراً ، يا اندريه بيتروفيتش ، ولكن اعتقد

ان مواردني لا تسمح لي بذلك .

- كيف هذا ، لا تسمح ؟

- لا تسمح بان اعيش في بيت ريفي في الضواحي . من

المستحيل ان ادفع اجرة مسكنين .

- ولكنني . . . - شرع بيرسينيف يقول وتوقف ، ثم مضى

يقول - لن يكلفك ذلك اي مصرف زائد . لنقل سنتظل هذه الحجرة

مزجرة لك ، وفي المقابل سيكون كل شيء رخيصاً جداً في الريف . بل

يمكن ان نعد طعامنا سوياً ، على سبيل المثال .

صمت اينساروف . وشعر بيرسينيف بالحرجة . وبعد برهة

شرح يقول :

- على الاقل زرني في احد الاوقات . على مقربة دانية مني تقيم

عائلة كم اود ان اعرفك بها . ليتك تعرف يا اينساروف ، ايسة

فتاة رائعة في هذه العائلة ! ثم هناك صديق قريب اليّ ، انسان ذو

موهبة كبيرة ، وانا واثق من انك ستصادقه . (الروسي يعرض

عليك معارفه . اذا لم يكن لديه ما يضيفك عليه .) تعال ، حقاً ،

والافضل من ذلك ان تنتقل اليّنا . حقاً . اذن ، لاستطعنا ان نعمل

سوياً ونقرأ سوياً . . . انت تعرف انني ادرس التاريخ والفلسفة .

وانت تهتم بكل ذلك . ثم ان لدي كتباً كثيرة .

نهض اينساروف ، وصار يذرع الغرفة . واخيراً سأل :

- هل لي ان اعرف كم تدفع ايجاراً لبيتك الريفي ؟

- مائة روبل فضي .

- وكم غرفة فيه ؟

- خمس .

- يعني حسابياً كل غرفة بعشرين روبلاً ؟

- حسابياً . . . ولكنني لا احتاج اليها اطلاقاً . وستظل فارغة .

- ربما ، ولكن اسمع - اضاف اينساروف بحركة من راسه

قاطعة ، وسمعة في الوقت ذاته - لا استطيع ان اقبل اقتراحك ،

الا اذا قبلت انت ان تاخذ النقود مني وفق الحساب . في مقدوري

ان ادفع عشرين روبلاً ، لاسيما انني ساقطصم فيما عدا ذلك حسب اقوالك .

- بالطبع . ولكنني ، في الحقيقة ، خجلان .

- والا لا يجوز ، يا اندريه بيتروفيتش .

- حسب ما تشاء . ولكن كم انت متصلب !

ومرة اخرى لم يرد اينساروف بشي .

واتفق الشابان على اليوم الذي ينبغي ان ينتقل اينساروف فيه . واستدعيا صاحب البيت ، الا ان هذا اكتفى ، في البداية ، بارسال ابنته ، وهي صبية في نحو السابعة من العمر ، تضع على راسها منديلاً زاهياً كبيراً . استمعت الى كل ما قاله اينساروف بانتباه ، وبشيء من الفزع ، وخرجت صامتة . وعلى اثرها ظهرت امها ، وهي حامل في شهرها الاخير ، تضع على راسها منديلاً ايضاً ، ولكنه صغير جداً . ووضح لها اينساروف انه سينتقل الى بيت ريفي قرب كونتسوفو ، ولكنه سيُبقي الغرفة على حسابه ، ويأتونها على كل اغراضه . وبدا الفزع على زوجة الخياط ايضاً ، وانصرفت . واخيراً جاء صاحب البيت ، وبدا انه فهم كل شيء في اول الامر ، سوى انه قال في سهوم : «قرب كونتسوفو؟» ، ثم فتح الباب فجأة ، وراح يصرخ : «الغرفة تبقى على حسابك؟» وهداه اينساروف فكرر الخياط بحدّة : «لانني اريد ان اعرف» ، وانصرف .

عاد بيرسينيف الى بيته راضياً جداً على نجاح اقتراحه . رافقه اينساروف الى الباب بلطف وادب اقل ان يؤدي في روسيا ، وحين بقي وحده ، خلع سترته بحرص ، واخذ يصف اوراقه .

٨

في مساء ذلك اليوم جلست آنا فاسميليغنا في حجرة الجلوس في بيتها ، وهي توشك ان تبكي . وكان في الحجرة ، فيما عداها ، زوجها ، وشخص يدعى اوفار ايفانوفيتش ستاخوف ، هو احد اقارب زوجها البعيدين ، ضابط متقاعد في الستين من العمر ، سمين الى حد الجمود ، ذو عينين ناعستين صفراوين ، وشفتين سميكيتين بلا لون في وجه منتفخ اصفر . وكان منذ تقاعده يعيش دائماً في موسكو

من فوائد راسمال صغير خلفته له زوجته ، وهي من عائلة تجار . وكان لا يفعل شيئاً ، ومن المستبعد انه كان يفكر ، وحتى اذا فكر ، فقد كان يحتفظ بافكاره في سره . مرة واحدة فقط انفعل في حياته ، وابتدى نشاطاً ، اي انه قرأ في الجرائد نبأ عن آلة موسيقية جديدة في معرض لندن الدولي تدعى «كونتروبويماردون» ورغب ان يوصي عليها . بل وراح يسال الى اين يرسل النقود ، وبوساطة ايسة دائرة ؟ وكان اوفار ايفانوفيتش يرتدي سترة فضفاضة بلون التبغ ، ومنديلاً ابيض حول رقبته ، وكان يأكل مرات عديدة ويكميات كبيرة ، وفي الحالات الحرجة فقط ، اي حين يتعين عليه ان يبدي رايًا ، كان يحرك اصابع يده اليمنى في الهواء بارتعاص - ابتداء من الابهام حتى الخنصر ، وبعد ذلك من الخنصر حتى الابهام ، قائلاً بتعسر : «بالاحرى . . . على نحو ما ، ذاك . . .»

كان اوفار ايفانوفيتش جالساً في مقعد وثير قرب النافذة يتنفس بضيق . وكان نيقولاي ارتيميفيتش يذرع الحجرة بخطى كبيرة ، وقد حشر يديه في جيبه ، وارتسم على وجهه عدم الرضى . واخيراً توقف ، وهز راسه . وقال :

- اجل ، في زماننا كانت تربية الشبان تختلف . ولم يكونوا يبيحون لانفسهم الاستهانة بالشيوخ (لفظ النون من انفه على طريقة الفرنسيين) . والآن انظر فيما حولي ، ولا يسعني الا ان اندمض . ربما لست على صواب ، وهم الذين على صواب ، ربما . ومع ذلك فان لي نظرتي الخاصة الى الاشياء . فلست اهل بالولادة . ما رايت في هذا ، يا اوفار ايفانوفيتش ؟

اكتفى اوفار ايفانوفيتش بان نظر اليه ، وحرك اصابعه . ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

- يلينا نيقولايغنا ، مثلاً ، لا افهمها تماماً . فانا بالنسبة لها لست على درجة كافية من السمو . وقلبيها من السعة بحيث يحتضن الطبيعة كلها ، الى اصغر صرصار او ضفدعة ، وباختصار ، يحتضن كل شيء باستثناء ابنيها الذي انجبها . طيب ، رائع . انا اعرف ذلك ، ولا احشر نفسي . لان في ذلك اعصاباً ، ودرجة عالية من التعلم ، وافكاراً سامية . وكل ذلك ليس من اختصاصي . ولكن السيد شوبين ، وليكن فنانا مدهشاً غير اعتيادي ، فليس ذلك موضع جدالي ، الا انه يستهين بمن هو اكبر سنًا منه ، ويمكن ان

يقال أيضاً ، بمن يدين له بالكثير ، على أية حال . وهذا ما لا
استطيع ان اسمح به dans mon gros bon sens . واعترف بذلك
ولست متصلباً في طبيعتي . ولكن لكل شيء حده .

دقت آنا فاسيليفنا الجرس بانفعال ، فدخل الصبي الخادم
قالت :

- لماذا لا يأتي بافل ياكوفليفيتش ؟ يعني ، لماذا لا يأتي وقد
استدعيته ؟

هز* نيقولاي ارتيميفيتش كتفيه .

- ولكن لماذا تريد ان استدعاه ؟ انا لا اطلب ذلك مطلقاً ، بل
ولا ارجب فيه .

- كيف لماذا ، نيقولاي ارتيميفيتش ؟ هو الذي ضايقك
ولربما اعاق دورة علاجك . اريد ان استوضحه . اريد ان اعرف

بم استطاع ان يثير غضبك ؟

- اكرر لك انني لا اطلب ذلك . ما هذا الهوس . . .
devant les domestiques . **

احمرت آنا فاسيليفنا قليلاً .

- عبثاً ان تقول ذلك ، يا نيقولاي ارتيميفيتش . انا
منحيل . . . devant . . . les domestiques . . . اذهب ، فيديوشكا ،

وات ببافل ياكوفليفيتش الى هنا ، حالا . . .
خرج الصبي الخادم .

- لا حاجة الى كل ذلك مطلقاً - قال نيقولاي ارتيميفيتش
من خلال اسنانه ، وعاد يذرع الحجرة - لم يكن هذا غرضي من

كلامي .

- وكيف . يجب ان يعتذر Paul امامك .

- لا ، وما حاجتي الى اعتذاراته ؟ ثم ما هي الاعتذارات ؟ كلها
اقوال .

- وكيف ما الحاجة ؟ يجب ان نرده الى الصواب .

- رديه انت الى الصواب ، فهو يطيعك اكثر . اما آنا فليس
لي عتَب عليه .

* مع كل ما املك من الادراك السليم (بالفرنسية في الاصل) .

** امام الخدم (بالفرنسية في الاصل) .

- لا ، يا نيقولاي ارتيميفيتش ، انت اليوم متعكر المزاج منذ
قدومك . بل اراك تنحف في المدة الاخيرة . اخشى ان دورة علاجك
لا تساعدك .

قال نيقولاي ارتيميفيتش :

- دورة العلاج ضرورية لي . كبدي ليست على ما يرام .
وفي تلك اللحظة دخل شوبين . وكان يبدو متعباً . وكانت

ابتسامة خفيفة وساخرة بعض الشيء ترف على شفثيه . قال :

- هل طلبت مجيئي ، يا آنا فاسيليفنا ؟
- نعم ، طلبت ، طبعاً . لا ، يا Paul ، هذه فظاعة . انا مستاءة

منك كثيراً . كيف يمكنك ان تستهين بنيقولاي ارتيميفيتش ؟
- وهل تشكى لك نيقولاي ارتيميفيتش مني ؟

سال شوبين ذلك ، ونظر الى ستاخوف بنفس تلك الابتسامة
الساخرة .

استدار هذا ، واطرق ببصره .
- نعم ، اشتكى . انا لا اعرف بم اذنبت في حقك ، ولكنك

يجب ان تعتذر حالاً ، لان صحته منحرفة جداً الآن ، واخيراً ، يجب
علينا جميعاً ، ونحن في سن الشباب ، ان نحترم اصحاب الافضل

علينا .

«آه ، يا للمنطق !» - فكر شوبين ، ووجه كلامه الى
ستاخوف .

- انا مستعد للاعتذار اليك ، نيقولاي ارتيميفيتش - قال
بانعانة احترام خفيفة - اذا كنت قد اساءت اليك بشيء حقاً .

- انا اطلاقاً . . . لست - رد* نيقولاي ارتيميفيتش ، وهو
يتعاشى النظر الى شوبين كالسابق - على العموم ، اسامحك بطيب

خاطر ، لانني ، كما تعلم ، لست انساناً متصلباً .
قال شوبين :

- اوه ، هذا ليس موضع شك مطلقاً . ولكن اسمح لي ان

استفسر : هل تعرف آنا فاسيليفنا ما يشكّل ذنبي ازاءك ؟
قالت آنا فاسيليفنا :

- لا ، انا لا اعرف شيئاً .

واشرابت بعنقها . فاسرع نيقولاي ارتيميفيتش يهتف :

- اوه ، يا ربي ! كم مرة ترجيت ، وتوسلت ، كم مرة قلت :

ما ابغض كل هذه الايضاحات والتمثيلات على نفسي ! مرة في العمر يأتي الانسان الى بيته ، ويريد ان يستريح - والناس تقول محيط عائلي ، interieur * ، والانسان يجب ان يكون وسط عائلته - ويجد امامه التمثيلات والمنغصات . ولا لحظة راحة . فالانسان مضطر الى ان يذهب الى النادي . . . او الى مكان آخر . والانسان كائن حي ، ولكيانه العضوي مطالب ، بينما هنا . . .

ولم يتم نيقولاى ارتيمييفيتش كلامه ، وخرج بسرعة وصفق الباب . وراقبته آنا فاسيليفنا ، وهو يخرج . وهمست بمرارة :

- الى النادي ؟ انت لا تذهب الى هناك ، ايها الطائش ! لا ادر في النادي تهدي اليه الخيول من مجموعتي ، وخيول رمادية فضلاء عن ذلك ! اللون المفضل لدي . نعم ، نعم ، ايها الرجل المستغف - اضافت بعد ان رفعت صوتها - انت لا تذهب الى النادي . اما انت ، يا Paul - قالت ذلك واقفة - كيف لا تخجل من نفسك ؟ لا اظنك طفلاً صغيراً . والآن صار راسي يوجعني . هل تعرف اين زويا ؟ - يبدو انها في حجرتها في الأعلى . الثعلبة الحصيصة الصغيرة تلك تلوذ دائماً في حجرها ، في مثل هذا الطقس .

- طيب ، ارجوك ، ارجوك - وراحت آنا فاسيليفنا تبعد فيما حولها - هل رايت القدح الذي اضع فيه الفجل الحار المدقوقا Paul ، اعمل معروفًا ، ولا تجعلني اغضب في المستقبل .

- كيف يمكن ان اغضبك ، يا عمة ؟ اعطيني يدك لاقبلها . اه فجلك الحار فقد رايت على المنضدة الصغيرة في غرفة مكتبك . - داريا دائماً تنسأ في مكان ما .

قالت آنا فاسيليفنا ، وخرجت مع حفيف ثوبها الحريري . اراد شوبين ان يتبعها ، ولكنه توقف ، بعد ان سمع وراء صوت اوفار ايفانوفيتش البطيء .

قال الضابط المتقاعد مباعداً بين الكلمات :

- ما كان . . . تعامل . . . هكذا . . . يا رضيع .

اقترب شوبين منه .

- على اي شيء ؟ عاملاً ، يا اوفار ايفانوفيتش المحم

الخصال ؟

* المقصود هنا جو راحة في البيت (بالفرنسية في الاصل) .

- على اي شيء ؟ انت شاب . يعني احترم . نعم .

- احترم من ؟

- من ؟ معروف من . لا تكشر ، هيه .

صاحب شوبين ذراعيه على صدره . وهتف :

- آه منك ، يا ممثل مبدا المشاعة الفلاحية . انت قوة الارض

السوداء ، اساس الصرح الاجتماعي !

شرح اوفار ايفانوفيتش يحرك اصابعه .

- كفى ، يا اخ ، لا تثيرني .

وعضى شوبين يقول :

- هذا نبيل تخطى سن الشباب ، على ما يبدو ، ولكن اي

ايمان طفولي سعيد ما يزال يكمن فيه ! احترم ! ولكن هل تعرف ،

ايها الرجل العاطفي ، السبب في غضب نيقولاى ارتيمييفيتش علي ؟

لاني قضيت معه صباح اليوم كله عند صاحبتة الالمانية ، واليوم

غنيينا ، ثلاثتنا : «لا تبتعدي عني» (١٠) . فليتك سمعتنا . يبدو

ان ذلك يؤثر فيك . غنيينا ، يا سيدي ، غنيينا . ولكن شعرت

بالوحشة . بعد ذلك ، اذ رايت الامر ليس على ما يرام ، والعواطف

الرقية اكثر من اللازم . فاخذت اناكدهما كليهما . وكانت النتيجة

جيدة . في البداية غضبت الالمانية علي ، وبعد ذلك عليه ،

وبعدما غضب هو عليها ، وقال لها انه سعيد في بيته فقط ، وان

الجنة هناك ، في بيته . فقالت له انه بلا خلق ، فقلت لها : «آخ»

بالالمانية . وخرج هو ، وبقيت انا . وجاء الى هنا ، اقصد ، الى

الجنة ، واذا به يقرف من الجنة . وهكذا اخذ يتذمر . . . طيب ،

والآن ، من المذنب ، في رأيك ؟

قال اوفار ايفانوفيتش :

- انت ، بالطبع .

تفرس شوبين فيه . وشرح يقول بصوت متدلل :

- هل لي ان اتجرا واسالك ، ايها الفارس المحترم : هل

هاتان الكلمتان الغريبتان اللتان تكرمت بقولهما كانتا نتيجة لفعل

قابليتك على التفكير ، ام استجابة غريزية لحاجة فجائية في ان تنطق

بشيء يهز الهواء يسمى صوتا ؟

قال اوفار ايفانوفيتش كالمتاوه :

- قلت . . . لا تثيرني . . .

أخذ شوبين يضحك ، وخرج مسرعاً .

- اي - نطق أوفار أيفانوفيتش بعد ربع ساعة - هات قدح فودكا .

واستمر في قراءته . ولكن الكتاب سرعان ما انزلق بين يديه . نظر إلى السماء الآخذة بالتوهج بحمرة المساء ، وإلى شجرتي الصنوبر الفيتيتين الضخمتين المنتصبتين بمعزل عن الأشجار الأخرى ، وفكر مع نفسه : « أشجار الصنوبر ضاربة إلى الزرقة في النهار ، ولكنها بهذه الخضرة الرائعة في المساء » ، وخرج إلى الحديقة ، بأمل خفي في أن يلتقي يليينا . ولم يخدعه أمله . فقد لاح فستانها في الطريق إلى الامام بين الاجمات . لحق بها ، ولمّا حاذاها ، قال :

- لا تنظري في ناحيتي . فانا لا استحق .

القت عليه نظرة خاطفة ، وابتسمت ابتسامة خاطفة ، وواصلت سيرها في اعماق الحديقة . فمضى شوبين في اعقابها . وقال :

- أرجوك ان لا تنظري اليّ . ومع ذلك فانا اتحدث اليك . وتلك هي ظاهرة متناقضة تماماً ! ولكن هذا لا يهم . ليست هذه أول مرة يحدث لي ذلك . تذكرت هذه اللحظة انني ، حتى الآن ، لم أسالك صفعاً ، كما ينبغي ، عن تصرفي الاحمق يوم أمس . الست غاضبة عليّ ، يا يليينا نيقولايفنا ؟

توقفت ، ولكنها لم تجبه على الفور ، لا لأنها غاضبة ، بل لأن افكارها كانت بعيدة عنه . واخيراً قالت :

- لا ، لست غاضبة ، البتة .

عض شوبين على شفتيه . وغمغم :

- اي وجه مستغرق لامبال - ثم مضى يقول رافعاً صوته - يليينا نيقولايفنا ، اسمحي لي بأن أقص عليك حادثة صغيرة . كان لي صديق ، وكان لهذا الصديق صديق ايضاً . كان في بادئ الامر ، يتصرف كما يجدر بانسان معتبر ، وبعد ذلك صار يسرف في الشرب . وفي صباح باكر من احد الايام التقاه صديقي في الشارع (وكانت علاقتهما قد انقطعت ولاحظني ذلك) ، التقاه وراه سكران ، فصدّ صديقي عنه . ولكن الرجل دنا منه وقال : « ما كنت سآزعل لو لم تسلم عليّ » ، ولكن لماذا تصد عني ؟ ربما سكرت لانني في ضائقة . ويتغممني الله برحمته !

وصمت شوبين . فسألت يليينا :

- هذا فقط ؟

- فقط .

٩

عاد شوبين إلى مسكنه في ملحق البيت ، وفتح كتاباً . دَخَرَ خادم نيقولاي ارتيميفيتش الشخصى إلى غرفته بحذر ، وقدم له مذكرة صغيرة ثلاثية الشكل مختومة بختم ضخم يمثل شعار العائلة . وقد جاء في هذه المذكرة : « آمل بأنك ، كرجل نزيه ، لن تبع لنفسك التلميح ، حتى بكلمة واحدة ، إلى السند النقدي الذي أثير إليه اليوم صباحاً . فانت تعرف علاقاتي ، والقواعد التي اتبعها وضالة المبلغ نفسه ، وغير ذلك من الظروف . واخيراً ، هناك اسرار عائلية يجب احترامها ، والطمأنينة العائلية شيء مقدس ! يذكره الا êtres sans cœur * ، وليس لي سبب في ان اعدك منه (ارجو ان تعيد لي هذه المذكرة) ن . س . » .

كتب شوبين بقلم الرصاص في الاسفل : « لا تقلق ، فانا ازال لا استل المناديل من الجيوب » وأعاد المذكرة إلى الخادم

* الذين لا قلب لهم (بالفرنسية في الاصل) .

- انا لا افهمك . الى اي شيء تغمز ؟ قبل لحظة كنت تقول لي لا تنظري في ناحيتي .

- نعم ، وقلت لك الآن : الصدء غير لطيف .

فشرعت يلينا تقول :

- ولكن هل معقول انني . . .

- غير معقول ؟

احمررت يلينا قليلاً ، ومدت يدها لشوبين . فصافحها بقوة . قالت يلينا :

- كانما ضبطنني بشعور سيئ ، ازاءك . ولكنك غير منصف

في ارتيابك . لم يخطر في بالي ان اتجنبك .

- وليكن ، وليكن . ولكن يجب ان تقري بأن آلافاً من الافكار

تدور في رأسك الآن ، فلا تأتمنيني على اي واحد منها . ها ؟ الست

اقول الحقيقة ؟

- ربما .

- ولِمَ ذاك ؟ لِمَ ؟

قالت يلينا :

- افكاري ليست واضحة حتى لي .

فاهتبلها فرصة ليقول :

- ولهذا بالذات يجب ان تأتمنيها لأحد . ولكن سأقول لك

لماذا لا تفعلين ذلك . إن لك فكرة سيئة عني .

- انا ؟

- نعم ، انت . تتصورين ان نصف ما في نفسي مصطنع ،

لأنني فنان ، وانني غير مقتدر ليس فقط على اي عمل - ولربما

انت على حق في ذلك - بل وعلى أية عاطفة عميقة حقيقية . وانتي

لا تستطيع حتى ان ابكي بصدق ، وانتي ثرثار وناسر اقاويل . كل

ذلك لأنني فنان . هل نحن بعد هذا ، اناس بؤساء نحن مغضوب عليهم

من قبل الرب ؟ انت ، مثلاً ، وانا مستعد الى ان اقسم ، لا تصدقين

بندامتي .

- لا ، يا بافل ياكوفليفيتش ، انا مصدقة بندامتك ، واصدق

بدموعك . ولكن يبدو لي ان ندامتك بعد ذاتها ودموعك ايضاً تله

لك .

جفل شوبين .

- اوه ، احسب ان هذه حسب تعبير اطباء ، حالة مستعصية

casus incurabilis . عندئذ لا يبقى امامي غير ان احني رأسي ،

واذعن . ومع ذلك ، آه ، يا إلهي ! هل من الممكن حقاً ، هل من

الممكن ان انشغل طوال الوقت بنفسي ، بينما تعيش الى جانبي

مثل هذه النفس ؟ وانا اعرف انني لن استطيع ابداً ان انفذ اليها ،

ولا ان اري ما يحزنها ويفرحها ، وما يطوف في ذهنها ، وماذا تريد

والى اين تسير . . . خبريني - قال بعد برهة من الصمت - اتظنين

انك لن تحبي فناناً ابداً ، ومهما تكن الظروف والدوافع ؟

حدقت يلينا في عينيه تماماً .

- لا ، بافل ياكوفليفيتش ، لا .

قال شوبين بجزع هزلي :

- وهذا ما اقتضى البرهنة عليه . اذن ، كان من الاليق ،

على ما اظن ، الا اعرقل نزهتك الانفرادية . لو كنت معلماً لسألتك :

على اساس اية معطيات قلت : لا ؟ ولكنني لست معلماً . انا طفل ،

حسب مفاهيمك ، ولكن الناس لا يصدون عن الاطفال ، تذكرني

هذا . وداعاً ، وليتغمدني الله برحمته !

ارادت يلينا ان توقفه ، ولكنها فكرت قليلاً ، ثم قالت ايضاً :

- وداعاً .

خرج شوبين من الفناء ، والتقاء بيرسينيف على مسافة قصيرة

من بيت آل ستاخوف الريفي . كان يسير بخطى نشيطة ، وقد احني

رأسه ، ودفع قبعته على علبائه .

هتف شوبين :

اندريه بيتروفيتش !

توقف هذا . فمضى شوبين يقول :

- سر في طريقك ، سر . لا شيء . لم يكن في نيّتي ان اوقفك ،

اذهب قدماً الى الحديقة ، وستجد يلينا هناك . اظنها تنتظرك .

على اية حال انها تنتظر احداً . . . انت تفهم قوة هاتين الكلمتين :

انها تنتظر ! اتعرف يا اخ اي ملابسة مدهشة ؟ تصور انني اعيش

معه ، منذ سنتين ، في بيت واحد واعشقها ، ولكن الآن فقط ، في

هذه اللحظة رايتها لأول مرة ، ولا اقول فهمتها لأول مرة ، رايتها ،

وبسّطت ذراعي باندماش . ارجوك لا تنظر اليّ بهذه الابتسامة

الزائفة السخرية التي لا تناسب ملاحك الرصينة . افهم انك تريد

ان تذكرني بأنوشكا . ثم ماذا ؟ انا لا ارفض . آنوشكا تناسب مقامي . فلتعش الانوشكات والزويات ، وحتى الافغوستينيات الخريستينوفات انفسهن ! اذهب الى يلينا ، الآن ، وانا ذاهب . فهل تظنني ذاهباً الى آنوشكا ؟ لا ، يا اخ ، بل اسوا . انا ذاهب الى الامير تشيكوراسوف . هناك راعي فنون بهذا الاسم ، من تتر قازان ، مثل فولغين . هل ترى رسالة الدعوة هذه ، وهذه الحروق R.S.V.P. ؟ لا راحة لي في القرية ايضاً . * * Addio .

استمع بيرسينيف الى خطبة شوبين الرنانة في صمت ، وكانها ياخذه شيء من الارتباك نيابة عنه ، ثم دخل فناء بيت ستاخوف . اما شوبين فقد ذهب بالفعل ، الى الامير تشيكوراسوف وصار يعدته بالكثير من أوقع العبارات ، بأكثر الطرق تهذيباً . وقد ضحك راعي الفنون هذا ، من تتر قازان ، وضحك ضيوفه ، دون اي مرح من جانب احدهم ، وتفرقوا ، مفتاظين جميعاً مثل سيدين التقياء ، في شارع نيفسكي ، واحدهما قليل المعرفة بالآخر ، فاذا بهما يكشران عن اسنانهما بابتسامة ، ويحركان عيونهما وانفيهما وخديهما بعذوبة مفتعلة ، وحالهما يبتعد احدهما عن الآخر يتخذان عدم اكترائهما السابق ، او سمتهما الوعيق البواسيري في اغلب الاحيان .

١٠

استقبلت يلينا بيرسينيف بود ، ولكن ليس في الحديقة ، بل في حجرة الجلوس ، واستأنفت حديث الامس حالاً ، وفي شيء من نفاد الصبر . وكانت وحدها . فقد انسل نيقولا ارتيمييفيتش يهدو الى حيث لا تعلم . بينما كانت آنا فاسيليفنا منطرفة في الأعلى ، وعلى راسها عصا مبللة . وكانت زوياً جالسة الى جانبها ، وقد عدلت تنورتها باعتناء ، وطوت يديها على ركبتها . وكان اوفار ايفانوفيتش يأخذ غفوة في العلوية على اريكة عريضة مريحة اطلق

* الحروف الاولى من جملة فرنسية معناها : الرجاء اعلامنا بالجواب (بالفرنسية في الاصل) .
* * وداعاً (بالايطالية في الاصل) .



جامعة غوتينغن النزيه هذا مفروشا بالورود . كان دائما مسحوقا بسير التاريخ ، وبمختلف ضروب الاسئلة والتخيلات . وحين دخل بيرسينيف الابن الى الجامعة ، كان الاب يذهب معه الى المحاضرات ، ولكن صحته اخذت تخونه . وهزته احداث ١٨٤٨ من الاساس (وكان عليه ان يغير الكتاب كله) غير انه توفي شتاء ٥٣ قبل تخرج ابنه من الجامعة ، الا انه قد هناك مسبقا بدرجة علمية وباركه لخدمة العلم . وقال له قبل ساعتين من وفاته : «اقدم المشعل لك ، فقد حملته انا طوال ما كنت قادرا على حمله ، فلا تتخل انت عنه الى آخر العمر» .

تحدث بيرسينيف ليلينا طويلا عن ابيه . واختفى الارتباك الذي كان يحسه في وجودها ، ولم يعد يلفظ السين شيئا كثيرا . وانتقل الحديث الى الجامعة . فسألته ييلينا :

- قل لي هل كان بين رفاقك اناس مرموقون ؟
وتذكر بيرسينيف كلام شوبين .

- لا ، ييلينا نيقولايفنا ، الحق اقول لك ، لم يكن بيننا رجل واحد مرموق . ومن اين ياتي ! يقال ان جامعة موسكو مرت بعهد طيب (١٤) ، ولكن ليس الآن . هي الآن مدرسة وليست جامعة . كنت اجد صعوبة مع رفاقي .

اضاف ذلك مخفضا صوته . همست ييلينا :
- صعوبة ؟

فمضى بيرسينيف يقول :
- على اية حال ، لا بد ان اذكر انني اعرف طالبا - لم يكن في فصلي في الحقيقة ، وهو بالفعل انسان مرموق .
سألت ييلينا بحماس :

- وما اسمه ؟
- اينساروف ، دميتري نيكانوريتش . وهو بلغاري .
- ليس روسيا ؟
- لا ، ليس روسيا .

- ولماذا يعيش في موسكو ، اذن ؟
- جاء اليها للدراسة . وهل تعرفين لاي هدف يدرس ؟ هناك فكرة واحدة تشغله : هي تحرير بلاده . وسيرته ايضا غير اعتيادية . فقد كان ابوه تاجرا ميسورا جدا ، من مواليد تيرنوف .

وتيرنوف الآن بلدة صغيرة ، بينما كانت في ماضيها عاصمة بلغاريا ، عندما كانت بلغاريا مملكة مستقلة . وكانت تجارتها في صوفيا ، وله علاقات مع روسيا . وشقيقته ، عمة اينساروف ، ما تزال تعيش في كييف ، وقد تزوجت معلماً اقدم للتاريخ في مدرسة ثانوية هناك . وفي عام ١٨٣٥ ، اي قبل ثمانية عشر عاماً ، وقعت حادثة نكراء ، اذ اختفت ام اينساروف فجأة ، وبعد اسبوع وجدت مذبوحة .

ارتعدت يلينا ، فتوقف بيرسينيف ، ولكنها قالت :

- واصل ، واصل .

- واسمع ان احد الاغوات الاتراك اختطفها وقتلها . ولما عرف والد اينساروف بالحقيقة اراد ان ينتقم ، ولكنه تمكن من جرح التركي بخنجر لا غير وقد قُتِلَ رمية بالرصاص .

- قتل ؟ بدون محاكمة ؟

- نعم ، وكان اينساروف في ذلك الحين في سنه الثامنة فبقي بين ايدي الجيران . وعرفت الاخت بما حدث لعائلة اخيها ، فاعلنت رغبتها في احتضان ابن اخيها . فأرسل الى اوديسا ، ومن هناك الى كييف . وقضى في كييف اثنتي عشرة سنة كاملة ، ولهذا يتكلم الروسية جيداً .

- يتكلم الروسية ؟

- مثلك ومثلي . وحين اتم العشرين من العمر (وكان ذلك في بداية ١٨٤٨) رغب في السفر الى بلاده . وزار صوفيا وتيرنوف ، وجاب بلغاريا كلها طولاً وعرضاً ، وقضى فيها سنتين تعلم فيها لغته القومية من جديد . ولاحقته الحكومة التركية ، ومن المحتمل انه تعرض ، في هاتين السنتين ، الى مخاطر كبيرة . فقد رايت على رقبته ذات مرة ندبة عريضة ، لا بد انها كانت اثرأ لجرح . ولكنه لم يكن يحب الكلام عن ذلك . فهو صموت ايضاً بطبعه . كنت احاول الاستفسار منه ولكنني لم اظفر بطائل . فهو يرد بعبارات شائعة ، انه عنود جداً . وفي عام ١٨٥٠ عاد من جديد الى روسيا ، الى موسكو بنية إكمال تعليمه كلياً ، والاختلاط بالروس ، وفيما بعد ، حين يتخرج في الجامعة

قاطعته يلينا :

- ماذا فيما بعد ؟

- ما يقضي به الله . فمن الصعب التنبؤ بالمستقبل .
 ظلت عينا يلينا معلقتين ببيرسينيف وقتاً طويلاً . ثم قالت :
 - اثرت اهتمامي الشديد بقصتك . كيف شكل صاحبك هذا
 الذي سميته . . . اينساروف ؟
 - كيف اقول لك ؟ ليس قبيحاً ، على ما اظن . حسناً ، سترين
 بنفسك .
 - وكيف ؟
 - سأتي به اليك ، هنا . بعد غد سينتقل الى قريتنا ، ليعيش
 معي في مسكن واحد .
 - صحيح ؟ ولكن هل سيقبل بزيارتنا ؟
 - دون شك ! سيكون مسروراً جداً .
 - وهل هو فخور ؟
 - هو ؟ لا ، البتة . يعني اذا اردت الحقيقة ، فهو فخور .
 ولكن ليس في المعنى الذي تقصدين . فهو مثلاً لا يستدين الفلوس
 من أحد .
 - وهل هو فقير ؟
 - نعم ، ليس غنياً . عندما سافر الى بلغاريا جمع ما تيسر له
 من مخلفات ابيه الصغيرة ، كما تساعده عمته . ولكن كل ذلك
 ضئيل تافه .
 فلاحظت يلينا قائلة :
 - لعل له الكثير من ضبط النفس .
 - نعم . انه رجل من حديد . وفيه ، في الوقت ذاته ، وسترين
 ذلك بنفسك ، شيء طفولي منزّه ، مع كل تمرّكه وصرامته وحر
 تكلمه . والحق ان نزاعته ليست نزاعتنا التافهة ، نزاعة الذين
 ليس لهم ما يخفونه . . . ولكن انتظري ، سأتي به اليك .
 سألت يلينا مرة أخرى :
 - وهل هو خجول ؟
 - لا ، ليس خجولاً . المغرورون وحدهم خجولون .
 - وهل انت مغرور ؟
 ارتبك بيرسينيف ، وبسط ذراعيه بحيرة . فمضت يلينا تقول :
 - انت تثير فضولي . طيب ، قل لي الم يثار من الاغصان
 التركي ؟

ابتسم بيرسينيف :
 - النار يوجد في الروايات فقط ، يلينا نيقولايفنا . فضلاً عن
 ان هذا الاغصان ربما كان قد مات في غضون الاثنتي عشرة سنة هذه .
 - على اية حال ، الم يقل السيد اينساروف لك شيئاً عن
 هذا ؟
 - لم يقل شيئاً .
 - فلماذا سافر الى صوفيا ؟
 - كان ابوه يعيش هناك .
 - غرقت يلينا في تفكير ، ثم قالت :
 - يحرر وطنه ! حتى النطق بهذه الكلمتين رهيب ،
 لعظمتها . . .
 وفي تلك اللحظة دخلت الغرفة آنا فاسيليفنا ، فانقطع الحديث .
 عندما كان بيرسينيف في طريق عودته الى البيت هذا المساء
 اثباته احاسيس غريبة . لم يندم على نيته في تعريف يلينا
 باينساروف . ورأى من الطبيعي جداً ان تخلف احاديثه عن البلغاري
 الشاب ذلك التأثير العميق لدي يلينا . . . كما انه هو نفسه حاول
 ان يقوي ذلك التأثير ! ولكن شعوراً مبهماً ومعتمداً تسلسل خفية الى
 قلبه . فإكتاب إكتئاباً مسموماً . الا ان هذا الاكتئاب لم يعقه عن
 الانكباب على «تاريخ اسرة غوغينشتاوفين» ، وبدأ يقرأ من الصفحة
 التي توقف عندها مساء اليوم الفائت .

بعد يومين وصل اينساروف الى مسكن بيرسينيف مع
 متاعه . بما عاهد به بيرسينيف . لم يكن لديه خادم ، الا انه نظم
 غرفته . ورتّب الاثاث ، ومسح الغبار ، وكسّ الارضية دون اية
 مساعدة . وامضى وقتاً طويلاً جداً في وضع منضدة الكتابة في المكان
 الذي ابا ان يستوعبها ، ولكن اينساروف بما جبل عليه من اصرار
 صمت ، حقق ما يريد . ولماً هيا حجرتة ، رجا بيرسينيف ان
 يتقبل منه عشرة روبلات كمقدمة ، واخذ عصا غليظة ، وخرج يتفقد
 ما يحيط بمنزله الجديد . وعاد بعد حوالي ثلاث ساعات فدعاه

بيرسينيف الى ان يشاركه طعامه ، فاجابه انه لا يمانع في تناول
الغداء معه اليوم ، ولكنه قد تفاوض مع ربسة البيت بالفصل
وسيتلقى طعامه منها . اعترض بيرسينيف قائلاً :

- رحماك ! ستطعمك بشكل سيئ . ان هذه المرأة لا تعيد
الطبخ نهائياً . فلماذا لا تريد ان تشاركني طعامي ؟ سنقتسم
المصروفات بالمناصفة .

اجاب اينساروف بابتسامة هادئة :

- امكانياتي لا تساعدني ان آكل مثلما تأكل .

وكان في ابتسامته تلك شيء لا يبيح اية مقاومة . فلم يضطر
بيرسينيف كلمة . وبعد الغداء عرض بيرسينيف عليه ان يأخذه الى
آل ستاخوف ، الا ان اينساروف ردّ بانه يريد ان يكرس كل المساء
للكتابة الى اصحابه البلغار ، ولهذا يرجو ان تؤجل زيارة
ستاخوف الى يوم غد . وكان بيرسينيف يعرف من قبل صلابا
اينساروف فيما يريده ، ولكنه الآن فقط ، وهو معه تحت سقف
واحد ، استطاع ان يقتنع كلياً بأن اينساروف لم يغير قط قراره
كان قد اتخذه ، مثلما لم يؤجل قط تنفيذ وعد كان قد قطعه .
البداية كان هذا الضبط الاكثر شدة من الضبط الالمانسي بين
لبيرسينيف ، الروسي القح ، غريباً بعض الشيء ، بل ومضجاً
قليلاً . ولكنه سرعان ما ألفه ، واخيراً صار يجده مريحاً جداً ،
اقل تقدير ، ان لم يكن اهلاً للاحترام .

في اليوم الثاني من وصول اينساروف استيقظ في الرابع
صباحاً ، وطاف طوافاً سريعاً في كل كونتسوفو تقريباً ، وسبح
النهر ، وشرب كوباً من الحليب البارد ، وجلس يعمل . ولم يك
عمله قليلاً ، فقد كان يدرس التاريخ الروسي ، والقانون
والاقتصاد السياسي ، وكان يترجم الاغاني والمدونات التاريخية
البلغارية ، ويجمع المواد عن المسألة الشرقية ، ويضع كتاباً
النحو الروسي للبلغار ، وكتاباً في النحو البلغاري للروس . جاء
بيرسينيف ، وتحدث معه عن فورباخ (١٥) . استمع اينساروف
اليه بانتباه ، ولم يعترض الا نادراً ، ولكن باقتدار ، وكان واضحاً
من اعتراضاته انه كان يحاول ان يحدد لنفسه مساراً ، فاما
دراسة فورباخ ، واما الى امكانية الاستغناء عنه . وبعد ذلك
بيرسينيف الحديث الى دراساته ، وسأله هل سيريه شيئاً منها

فقرأ اينساروف له اغنيتين او ثلاثاً من الاغاني البلغارية التي
ترجمها . ورغب في ان يسمع رايه فيها . فرأى بيرسينيف ان
الترجمة صحيحة ، وان كان ينقصها القدر الكافي من التدفق . فاخذ
اينساروف ملاحظته بعين الاعتبار . وانتقل بيرسينيف من الاغاني
الى وضع بلغاريا الراهن ، فلحظ ، لأول مرة ، التغير الكبير الذي
ظهر على اينساروف ، بمجرد ذكر اسم وطنه . لم يتوهج وجهه او
يرتفع صوته ، لا ، ابداً ! بل ان كيانه كله ، بدا كما لو صبت
فيه صلابة واندفاع ، ولاحت خطوط شفطيه اكثر حدة واصراراً ،
واشتعلت في اغوار عينيه نار صماء اقوى من ان تخمد . لم يكن
اينساروف يحب الافاضة في الحديث عن سفرته الى وطنه ، ولكنه
كان يتحدث عن بلغاريا عموماً بطواعية مع كل انسان . كان يتحدث
بتؤدة ، عن الاتراك وعن مظالمهم ، وعن محن ورزايا اهل وطنه ،
وعن امانهم ، وكانت كل كلمة من كلماته تنطق بهوى وحيد طالما
تروى فيه وركز تفكيره عليه من زمان .

وكان بيرسينيف في غضون ذلك يفكر مع نفسه : «اغلب الظن
ان الاغا التركي دفع ثمن قتله لايه وامه» .

وما كاد اينساروف يسكت حتى فُتح الباب ، وظهر شوبين على
العتبة .

دخل الحجرة مسترخياً . وبيرسينيف الذي كان يعرفه جيداً ،
ادرك على الفور انه مغتاط من شيء ما .

ابتدر يقول ، وقد انطلقت اسارير وجهه واشرقت :

- لاقدم نفسي ، بلا كلفة . ادعى شوبين ، وانا صديق هذا
الشاب (واشار الى بيرسينيف) اظن انك السيد اينساروف ، اليس
كذلك ؟

- نعم ، اينساروف .

- اذن ، هات يدك ، ولنتعارف . لا اعرف هل حدثك
بيرسينيف عني ، ولكنه حدثني الشيء الكثير عنك . هل نزلت هنا ؟
ممتاز ! لا تقضب عليّ ، اذا كنت اتفرس فيك بهذا الشكل . انا ،
بالحرفة ، نحات ، واتنبأ بأنني ، عن قريب ، ساتقدم لك بطلب
السماح لي بان انحت رأسك .

قال اينساروف :

- رأسي في خدمتك .

- ماذا سنفعل اليوم ؟ ها ؟ - قال شوبين وقد جلس فجأة على مقعد واطىء ، واسند كلتا يديه على ركبتيه المنفرجتين كثيراً . يا اندريه بيتروفيتش ، هل لسيادتك خطة ما لهذا اليوم ؟ الطقس رائع . وفي الجو رائحة تبين وعُليق جاف حتى كأنك تحس شيئاً بالنعنناع . حبذا لو نقوم بشيء خارق . فترى ساركو كونتسوفو الجديد كل مفاتنها العديدة . (ومضى بيرسينيف يفكر مع نفسه : «هو مغيف») طيب ، ما لك صامت ، يا صديق هارتسيو ؟ افتح فمك النبوي . هل نقوم بشيء خارق ، أم لا ؟ قال بيرسينيف :

- لا اعرف ما رأي اينساروف . اظن انه يتعب ليعمل .

استدار شوبين على مقعده ، وسأل في خُنة :

- اتريد ان تعمل ؟

قال هذا :

- لا . في امكاني ان اكرس اليوم لنزهة .

فقال :

- آه ! رائع حقاً . هيا ، يا صديقي اندريه بيتروفيتش ، وغط رأسك الحكيم بقبعة ، ولتذهب الى حيث تمتد ابصارنا وابصارنا فتية ، وستمتد بعيداً . انا اعرف حانة صغيرة ، نفساً في رداها ، سيقدّمون لنا فيها طعاماً فائقاً في سماجته ، ولكننا سنكون مبتهجين كثيراً . فلنذهب .

بعد نصف ساعة كان الثلاثة يسرون على شاطئ نهر موسكو . كان اينساروف يرتدي قبعة غريبة الشكل مرتخية الخاشية من الجانبين جعلت شوبين في بهجة غير طبيعية تماماً . كان اينساروف يسير على مهل ، ويتطلع ، ويستنشق الهواء ، ويتكلم ويبتسم بهدوء . فقد وهب يومه هذا للاستمتاع ، فكان يتلذذ به تماماً . اسر شوبين في اذن بيرسينيف : «بهذا الشكل يتنزه الاولاء المهدبون في ايام الاحاد» . وكان شوبين نفسه يتصرف بخفة ، يركض الى الامام ، يتوقف متخذاً اوضاع تماثيل معروفة ، يتقلب على العشب . فان رصانة اينساروف لم تكن تغيظه ، بل كانت تجعله يتصرف كالبهلول . وقد نبه بيرسينيف مرة او مرتين «ما هذه العفرتة ، يا فرنسي !» فكان شوبين يرد عليه : «اجل ، انا فرنسي ، نصف فرنسي ! اما انت فابق في منتصف المسافة

بين الهزل والجد . كما كان يقول لي نادل حانة» . استدار الشبان مبتعدين عن النهر ، وساروا في اخدود ضيق عميق بين حائطين تشكلهما سنابل الجودار الذهبي العالي ، وقد القى عليهم احد هذين الحائطين ظلاً مزرقاً . وبدا وكان الشمس المشرقة تنزلق على اعالي السنابل ، والقُبُرات تصدح ، وطيور السماني تهدل ، والعشب مخضوضر في كل مكان . وكانت نسمة دافئة تنوس ، وترفع اتصاله ، وتهز تويجات الزهور . ووصل الشبان الى الحانة «النفيسة في رداها» بعد جولات طويلة واستراحات واحاديث قيل وقال (بل ان شوبين حاول حتى ان يلعب القفازية مع رفيق عابر تساقطت اسناته كان يضحك باستمرار من الاعيب السادة معه) . كاد النادل يوقع كل واحد منهم ارضاً ، وقدم لهم بالفعل طعاماً سمجاً جداً ونبيذاً رديئاً ، الا ان ذلك ، على العموم ، لم يمنعه من ان يمرحوا بكل قلوبهم ، كما تنبأ شوبين . وكان شوبين نفسه اضجهم مرحاً ، واقلتهم نصيباً منه في الوقت ذاته . شرب في صحة فينيلين الغامض والعظيم ايضاً وفي صحة ملك بلغاري يدعى كروم (١٦) او خروم يعود تاريخه الى عهد آدم تقريباً .

صحح له اينساروف :

- الى القرن التاسع .

هتف شوبين :

- الى القرن التاسع ؟ آوه ، يا للسعادة !

لاحظ بيرسينيف ان شوبين مع كل الاعيابه ونزواته ونكاته ، كان يبدو كمن يمتحن اينساروف ، ويتحسسه ، ويقلق في دخيلة نفسه . بينما ظل اينساروف على هدوئه وصفائه .

واخيراً عادوا الى كونتسوفو ، وغيروا ملابسهم ، ولكي يحافظوا على المزاج الذي شعلهم منذ الصباح عزموا على زيارة آل ستاخوف في المساء . وهرع شوبين في المقدمة ليعلم عن هذه الزيارة .

هتف بلهجة خطابية ، وهو يدخل حجرة الجلوس في بيت آل ستاخوف ، حيث لم يكن فيها ، في تلك اللحظة ، غير يلينا وزويا :

- البطل اينساروف سينشرف الآن هنا .
فسالت زويا بالالمانية :
- Wer ؟ .

وكانت حين تؤخذ على غرة تعبر بلغتها القومية دائماً .
يلينا جذعها . نظر شوبين اليها وعلى شفثيه ابتسامة لعوب .
احست بالضيق . ولكنها لم تقل شيئاً .
وكرر قائلاً :

- سمعت ؟ السيد اينساروف قادم الى هنا .
قالت :

- سمعت . وسمعت كيف سمعته . انا مندهشة منك حقاً .
السيد اينساروف لم يطأ بعد بقدمه هذا البيت ، ومع ذلك تهرى
من الضروري ان تتهازل .

استرخى شوبين فجأة . وغغم :

- انت على حق ، انت دائماً على حق ، يلينا نيقولايفنا
ولكنني لا اقصد شيئاً من كلامي . والله . لقد تنزهنا النهار كل
سوية ، واؤكد لك انه رجل ممتاز .

- لم اكن اسألك عن هذا .

قالت يلينا ذلك ، ونهضت .

فسالت زويا :

- هل السيد اينساروف شاب ؟

اجاب شوبين في ضيق :

- عمره مائة واربعة واربعون عاماً .

اعلن الصبسي الخادم وصول الصديقين . فدخلوا .
بيرسينيف اينساروف . دعتهما يلينا الى الجلوس ، وجلست هي
وذهبت زويا الى الطابق العلوي ، لتبلغ آنا فاسيليفنا .
حديث عادي جداً ، مثل كل الاحاديث في اللقاء الاول . وكان شوبين
يراقب من ركن في صمت ، وان لم يكن ما يستدعي المراقبة . وكان
يلحظ في يلينا ضيقاً مكبوتاً منه ، ولا شيء آخر . وكان ينظر
الى بيرسينيف والى اينساروف ، ويقارن بين وجهيهما كنهات
وكان يفكر مع نفسه : « كلاهما غير جميل . للبيلغاري وجه محج

اللامع . يستجيب للنحت . والآن توضح بشكل جيد . وجه
الروسي يصلح للرسم اكثر . الخطوط غائبة ، والسمة موجودة .
واظن كليهما يمكن ان يعشق . وهي لا تحب الآن ، ولكنها ستحب
بيرسينيف . انتهى الى ذلك مع نفسه . ودخلت آنا فاسيليفنا
حجرة الجلوس ، واتخذت الحديث طابع الحديث الذي يجري بين
مستاجري البيوت الريفية بالذات ، لا حديث الريف . اي انه كان
حديثاً متنوعاً جداً في وقرة المواضيع المتناولة ، الا ان وقفات
قصيرة متعبة جداً كانت تقطعه كل ثلاث دقائق . وفي احدى تلك
الوقفات التفتت آنا فاسيليفنا نحو زويا . وفهم شوبين ايماءتها
الصامتة . فتلوت اساريه في زعل . جلست زويا الى البيانو ،
وانشأت تعزف ، وتغني كل ما كانت تعرفه من اغان . ولاح اوفار
ايفانوفيتش من وراء الباب ، الا انه حرك اصابعه ، واختفى
ثانية . وخرج الجميع ليتنزهوا في الحديقة بعد ان شربوا الشاي .
وهبط الظلام وراء النافذة ، فانصرف الضيوف .

لقد ترك اينساروف في نفس يلينا ، بالفعل ، انطباعاً اقل مما
كانت تتوقع هي نفسها ، او بعبارة ادق ، لم يترك في نفسها
الانطباع الذي كانت تتوقعه . اعجبتها صراحته وعفويته ، كما
راق لها وجهه ، ولكن اينساروف بشخصيته الركينة بهدوء ،
والبسيطة بشكل غير ملغت للنظر لم تنسجم ، على نحو ما ، مع
الصورة التي خلقتها في ذهنها احاديث بيرسينيف . كانت يلينا
تنتظر شيئاً اكثر « غرابة » دون ان تفكر في ذلك . وكانت تقول
لنفسها : « ولكنه اليوم لم يتكلم الا قليلاً » . وانا الملوثة ، اذ لم
الح عليه بالاسئلة ، فلننتظر حتى المرة القادمة . . . غير ان
عينيه معبرتان ، نقيتان . لم تشعر بالرغبة في احناء قامتها امامه
باعجاب ، بل في تقديم يدها اليه . وكانت في حيرة من امرها ،
فقد كانت تتصور الناس « الابطال » من امثال اينساروف في صورة
غير الصورة التي ظهر فيها . وذكرت كلمة « بطل »
شوبين ، فاحمرت ، وهي ترقد في سريرها ، واستبدت بها
الغضب .

في طريق العودة سال بيرسينيف اينساروف :

- ما رايتك في المعارف الجدد ؟

اجاب اينساروف :

* من ؟ (بالالمانية في الاصل) .

- اعجبوني كثيراً ، ولا سيما الابنة . لا بد انها فتاة طيبة
كانت بادية القلق ، ولكن قلقها جميل .
فقال بيرسينيف :

- يجب ان نكثر من زيارتهم .
- نعم ، يجب .

قال اينساروف ، ولم يقل شيئاً آخر حتى وصوله الى البيت
وعندما وصل اسرع الى الاعتكاف في غرفته حالاً غالقاً الباب عليه
الا ان الشمعة ظلت مشتعلة فيها الى ما بعد منتصف الليل بوقت
طويل .

اما بيرسينيف فما كاد يقرأ صفحة واحدة من راوهر ، حتى
اصابت حفنة من الرمل الدقيق زجاج نافذته . جفل مبالغاً . وفتح
النافذة ، ورأى شويين صاحب الوجه بلون الكتان المبيض .
بادره بيرسينيف قائلاً :

- يا لك من همام ، يا فراشة الليل !
قاطعه شويين :

- هسس ! جنتك خفية ، مثلما جاء ماكس الى اغانا (١٧)
عندي كلمتان اريد ان احدثك بهما من دون بد ، على انفراد .
- ولكن ادخل الغرفة .

- لا ، لا حاجة - اعترض شويين ، واتكأ بمرفقيه على افرج
النافذة - هنا امرح ، واكثر شبهاً بما يجري في اسبانيا . اولاً ،
اهنك . اسهملك رجعت . ورجلك الغارق المحمود الخصال سقط .
واستطيع ان اضمن ذلك . ولكي اثبت لك عدم تحيزي هاك اسمع
مواصفات السيد اينساروف . لا مواهب . ولا شاعرية ، وقدران
على العمل هائلة ، وذاكرة كبيرة ، وعقل غير متعدد الجوانب ، وغير
عميق ، ولكنه سليم ونشيط . جفاف وقوة ، بل وحتى موهبة في
الكلمات ، حين يدور الحديث حول بلغاريا الكثيبيية ، بيني وبينك .
اذن ؟ هل ستقول انني غير منصف ؟ وهناك ملاحظة اخرى . لا اعتقد
انك ستخاطبه بضمير المفرد ولا احد فعل ذلك من قبل . وانا
كفنان ، ممقوت له ، وانا فخور بذلك . جاف ، جاف ، ولكنك
يستطيع ان يطحننا جميعاً . انه مرتبط بأرضه . وليس مثل
قربنا الفارغة التي تتردد للشعب قائلة : يا ماء الحياة ، انصب
فينا ! (١٨) ومهمته ، الى جانب ذلك ، سهلة ، وايسر على الفهم

النخلص من الترك ، ولا اكثر ! ولكن هذه الخصال كلها ، والحمد
لله ، لا تروق للنساء . انه بلا جاذبية ، بلا شارب * ، اي بدون
ما لدينا انت وانا .

غمغم بيرسينيف :
- وما شأني انا في هذا ؟ ثم انك في البقية ايضا غير محق .
فهو لا يملكك البتة . وهو يخاطب ابنا وطنه بضمير المفرد . . .
انا اعرف ذلك .

- هذا شيء آخر ! انه ، بالنسبة لهم ، بطل . واعترف لك
ان لي فكرة مغايرة عن الابطال . البطل يجب ان لا يجيد الكلام ،
البطل يجار ، كالنور ، الا انه اذا ضرب بقرنه انهارت الجدران .
ولا ينبغي له ان يعرف لماذا يستخدم قرنيه ، ولكنه يستخدمهما .
ثم ربما زماننا يحتاج الى ابطال من عيار آخر .

سال بيرسينيف :
- لماذا يشغل اينساروف بالك الى هذه الدرجة ؟ هل معقول
انك جنت واكضاً الى لغرض واحد ، هو ان تصف لي خصاله ؟
قال شويين :

- جنت اليك ، لانني احسست بكآبة شديدة في بيتي .
- هكذا اذن ! لعلك تريد ان تبكي مرة اخرى ؟
- لك ان تضحك مني ! لقد جنت الى هنا لانني مستعد ان
التف شعري ، لان اليأس والضيق والغيرة تعذبني .
- الغيرة ؟ الغيرة ممن ؟

- منك ، ومنه ، ومن الجميع . يعذبني حين افكر مع نفسي ،
آه لو كنت فهمتها من قبل ، لو استطعت ان ادبر الامر بحذق . . .
ولكن لا جدوى من الكلام ! في النهاية سأظل اضحك ، واتعاقق ،
واتهازل كما تقول هي ، وبعد ذلك سأشئق نفسي .
قال بيرسينيف :

- كل شيء تفعل الا الشئق .
- لا بالطبع ، في مثل هذه الليلة . ولكن تمهل حتى حلول
الغريف . الناس ايضا في مثل هذه الليلة لا يموتون الا من السعادة .
آه ، السعادة ! كل ظل من شجرة ملقى عبر الطريق يبدو وكأنه

* كلمة فرنسية charme تعني فيتنة . المترجم .

يهمس الآن : « انا اعرف اين السعادة . . . هل تريد ان ادلك ؟ »
وددت لو ادعوك الى النزومة ، ولكنك الآن تحت تأثير الشر . ثم ،
عسى ان تحلم بالمعادلات الحسابية ! اما انا فروحي تفيض . انتم ،
ايها السادة ، حين ترون احداً يضحك تتصورون ان الحياة سهلة
عليه . وتستطيعون ان تثبتوا له انه يناقض نفسه ، يعني انه
يعاني . عفا الله عنكم !

ابتعد شوبين عن النافذة بسرعة . اراد بيرسينيف ان يصيح في
اثره : « آنوشكا ! » ولكنه امسك نفسه . لقد كان شوبين شاحب
الوجه حقاً . حتى ان بيرسينيف بعد دقيقتين ، تصور انه يسمع
نشجات . فنهض ، وفتح النافذة ، ولم يسمع شيئاً . وفي البعيد
فقط ، كان ريفي ، عابر سبيل ربما ، يغني ، « يا سهر
موزدوك » . *

لم يزر اينساروف آل ستاخوف اكثر من اربع او خمس مرات
خلال الاسبوعين الاولين من اقامته بجوار كونتسوفو . وكان
بيرسينيف يزورهم بين يوم ويوم . وكانت يلينا تسر به دائماً ،
وينعقد بينهما حديث طريف حيوي على الدوام . ومع ذلك فقد كان
في الغالب يعود الى البيت مكتئب الوجه . وانقطع شوبين عن الزيارة
كلياً تقريباً . فقد انغمر في فنه كالمحموم ، فكان تارة يغلق عليه
حجرته ، ويخرج من هناك فجأة في بلوزة ، وقد تلمطخ كله بالطين ،
وتارة يقضي اياماً في الاستوديو الذي اتخذ في موسكو ، حيث
كان يستقبل الموديلات والمقولين الايطاليين ، واصدقائه
واساتذته . ولم تتح ليلينا مرة واحدة فرصة للتحدث الى
اينساروف كما تهوى . كانت في غيابه تنهيا لسؤاله عن اشياء
كثيرة ، ولكنها كانت تخجل من استعداداتها ، حين كان يأتي .
وكانت رصانة اينساروف بالذات تربكها ، فيخيّل اليها انها غير
محقة في حمله على ان يفصح عن مكنون صدره ، فقررت ان تترث

ومع كل هذا كانت تشعر بأنه كان يجذبها اليه اكثر فاكتر ، مع كل
زيارة يقوم به ، ومهما كانت الكلمات المتبادلة قليلة الاهمية ،
ولكن لم تسنح لها فرصة الخلو به ، بينما الدنو من شخص يقتضي
التحدث اليه على انفراد ، مرة واحدة على الأقل . وكانت تتحدث عنه
الى بيرسينيف كثيراً . وكان بيرسينيف يدرك ان اينساروف اثار
خيال يلينا ، فكان يبتهج بأن صديقه لم يسقط ، كما كان شوبين
يؤكد . فكان يحدثها بحرارة وبأدق التفاصيل عن كل ما كان يعرفه
عنه (نحن في الغالب ، حين نريد ان نثير اعجاب شخص نظري في
احاديثنا معه اصدقاءنا وفي الوقت ذاته لا يكاد يخطر على بالنا
اننا بذلك نظري انفسنا ايضاً) . واحياناً فقط ، كانت تعتمل في
قلبه تلك الكتابة غير اللطيفة المعروفة له ، حين كانت وجنتا يلينا
الشاحبتان تكتسيان حمرة خفيفة ، وعيناها تتألقان وتتسعان .
ذات مرة جاء بيرسينيف الى آل ستاخوف في غير الوقت
المعتاد ، في نحو الحادية عشرة صباحاً . وخرجت يلينا اليه في
القاعة .

انشأ يقول بابتسامة متكلفة :

- تصوري ان صاجنا اينساروف اختفى .

قالت يلينا :

- كيف اختفى ؟

- اختفى . خرج في مساء امس الاول ، ولم يعد حتى الآن .

- ألم يقل الى اين ذهب ؟

- لا .

حملت يلينا على مقعد .

- اغلب الظن انه ذهب الى موسكو .

قالت ذلك ، وهي تحاول ان تبدو غير مكترثة ، ويدهشها في
الوقت ذاته انها تحاول ان تبدو غير مكترثة . اعترض بيرسينيف
قائلاً :

- لا اظن . لم يخرج وحده .

- مع من ؟

- يوم امس الاول جاء اليه ، قبيل الغداء ، شخصان لا بد
انهما من ابناء وطنه .

- بلغاريان ؟ لماذا تصور ذلك ؟

لأنهم ، اذا لم يخني سمعي ، كانوا يتكلمون لغة لا افهمها
ولكنها سلافية . . . وانت ، يا يلينا ثيقولايانا ، لا تجددين في
شخصية اينساروف غير القليل من الغموض . فاي شيء اكثر غموضاً
من هذه الزيارة ؟ فتصوري . جاء آ اليه وراحا يصيحان ويتجادلان
وبكثير من الوحشية والحق . . . وكان هو ايضاً يصرخ .
- هو ايضاً ؟

- نعم ، كان يصرخ بهما . يبدو ان احدهما يشكو من الام
له . ليتك نظرت الى هذين الزائرين ! الوجهان اسمران عريض
الوجنت ، بأنفهم كأنوف الصقور ، وقد تخطى كل واحد منهما
الاربعين من العمر . وثيابهما رديئة مغبرة مبللة بالعرق ، وهما
حيث المظهر ليسا حرفيين ولا من السادة . . . الله يعلم اي رجل
هما .

- وخرج معهما ؟
- نعم . اطعمهما ، وخرج معهما . وقد اخبرتني ربة البيت بان
الاثنين اكلا سلطانية ضخمة مملوءة بالعصيدة . حسب قولها كانا
يتسابقان بالتهام الطعام كذئبين .
ابتسمت يلينا ابتسامة مقتضبة خفيفة . وقالت :
- ستري ان كل ذلك سيتكشف عن شيء اعتيادي جداً .
- عسى ان يكون ! ولكن ما كان عليك ان تستخدمي هذه
الكلمة . ليس في اينساروف شيء اعتيادي ، رغم ان شوبين
يؤكد . . .

- شوبين ! - قاطعته يلينا ، وهزت كتفها - ولكن بعد
ان تقر بان ذينك السيدين الملتهمين العصيدة . . .
فلاحظ بيرسينيف مبتسماً :

- نيميسستوكليس اكل ايضاً في عشية معركة سالومي (١٩)
- صحيح . ولكن في اليوم التالي حدثت معركة . وعلى اية حال
اعلمني حين يعود .

اضافت يلينا ، وحاولت تغيير الحديث ، ولكن الحديث انفرط
جاءت زويا ، واخذت تسير في الحجرة على اطراف اصابعها
ملمحة بذلك ان آنا فاسيليفنا لم تستيقظ بعد .
انصرف بيرسينيف .
وفي مساء ذلك اليوم ارسل تذكرة الى يلينا يقول فيها :

في نحو الساعة الثانية من اليوم التالي كانت يلينا واقفة في
الحديقة امام وجار صغير يضم جروين . (وجدهما البستاني مرميين
عند السياج ، فحملهما اليها ، بعد ان اسرت له الغسالات ان
السيدة الشابة تشفق على كل انواع الحيوانات . ولم يخطأ في
تقديره . فقد اعطته يلينا خمسة وعشرين كوبيكاً .) نظرت في
الوجار ، وتيقنت من ان الجروين سالمان معافيان ، وان قشاً طرياً
قد فرش لهما ، واستدارت ، وكادت تند منها صيحة ، حين رأت
اينساروف مقبلاً عليها وحده عبر الدرب المعرّش .
- مرحباً - قال وهو يقترب منها ، رافعاً قبعته عن راسه .
وقد لاحظت ايضاً ان بشرته قد تلوّحت كثيراً بالفعل في الايام
الثلاثة الاخيرة - اردت ان اجيء مع اندريه بيتروفيتش ، ولكنه
تاخر في تحضير نفسه ، فجلت بدونه . لا احداً عندكم في البيت .
اما لائمون ، او يتنزهون ، فجلت الى هنا .
ردت يلينا :

- كان في كلامك نبذة اعتذار . لا حاجة الى هذا اطلاقاً . نحن
جميعاً نسر كثيراً في رؤيتك . تفضل اجلس هنا ، على المسطبة ، في
الظل .

وجلست هي ، وجلس اينساروف الى جانبها .
قالت :

- اظن انك لم تكن في البيت في المدة الاخيرة ؟
اجاب :

- نعم . سافرت . . . هل اخبرك اندريه بيتروفيتش بذلك ؟
ونظر اينساروف اليها ، وابتسم ، واخذ يلعب بقبعته . وكان ،

وهو يبتسم ، يرمش بسرعة ، ويمط شفثيه ، مما اضفى عليه مظهراً سمحاً جداً .

وقال ، وهو ما يزال يبتسم :

- اغلب الظن ان اندريه بيتروفيتش اخبرك انني سافرو مع شخصين زريين .

ارتبكت يلينا قليلاً ، ولكنها شعرت فوراً بضرورة قول الصدق مع اينساروف دائماً .

قالت بحزم :

- نعم .

فاذا به يسألها فجأة :

- وماذا فكرت في ؟

رفعت يلينا بصرها اليه ، وقالت :

- فكرت ، فكرت انك دائماً تعرف ما تفعل ، وانك غير قادر على ان تفعل شيئاً غير محمود .

- طيب ، وشكراً لك على ذلك . المسألة ، يا يلينا نيقولايفنا - بدأ قوله مقترباً منها في وثوق - لدينا هنا جماعة

صغيرة من رجالنا . وبيننا اناس قليلو التعليم ، ولكن الجبر اوفياء للقضية العامة وفاء قوياً . ومن سوء الحظ ان الامر لا يحضر

دون مشاحنات . ولكن الجميع يعرفونني ، ويتقنون بي ، ولها دعوني الى البت في احدى المشاحنات . فسافرت .

- الى مكان بعيد ؟

- الى ترويتسكي باساد ، على بعد ستين فرسخاً . فإن لنا رجالاً في الدير ايضاً . ولم تذهب جهودي عبثاً ، على اقل تقدير . قد

سويت الامر .

- وواجهت صعوبة ؟

- نعم . ظل احدهم متصلباً طوال الوقت . لا يريد ان ي

النقود .

- كيف ؟ كان الشجار بسبب النقود ؟

- نعم ، كما انها ليست كثيرة . وانت ، ماذا كنت تظنين ؟

- وتقطع ستين فرسخاً من اجل هذه التوافه ؟ تضيع ثلاثة ايام

- ليست هذه توافه ، يا يلينا نيقولايفنا ، اذا كان

وطني متورطين . فالرفض هنا غير معذور . ها انا اراك لا تعجب

عورك حتى عن الجراء . ولك مني الشناء على ذلك . لا ضير في ان اصبح الوقت . وبعد ذلك اعوضه . وقتنا ليس ملكاً لنا .

- ملك من ، اذن ؟

- ملك كل من بحاجة اليها . وانا اعرب لك عن كل هذا ، فجأة ، لانني اعتر برأيك . واتخيل كيف ادهشك اندريه

بيتروفيتش .

قالت يلينا بصوت خافض :

- ولماذا تعتر برأيي ؟

ابتسم اينساروف مرة اخرى .

- لانك فتاة طيبة ، ولست ارسقراطية . وهذا كل ما في الامر .

ومناد صمت قصير .

قالت يلينا :

- هل تدري ، يا دميتري نيكانوروفيتش ، انك لاول مرة بعثل هذه الصراحة معي ؟

- وكيف ذاك ؟ اتصور انني دائماً كنت احدثك بكل ما افكر فيه . لا ، هذه هي المرة الاولى . وانا مسرورة جداً بذلك . وانا

ايضاً احب ان اكون صريحة معك . فهل هذا ممكن ؟ ضحك اينساروف وقال :

- ممكن .

- احذر من انني فضولية جداً .

- لا بأس ، تفضلني .

- حدثني اندريه بيتروفيتش بالكثير من القصص عن حياتك ، وعن شبابك . وانا اعرف حقيقة واحدة ، حقيقة مريضة . . . اعرف

انك سافرت الى بلادك فيما بعد . . . ارجوك ، لا ترد علي ، اذا كان سؤالي يبدو لك غير لائق ، ولكن فكرة معينة تعذبني . . . خبرني ، هل التقيت بذلك الرجل . . .

وتقطعت انفاس يلينا . فقد اخذها الخجل والارتعاب من جسارتها . وكان اينساروف يتفرس فيها ، مقلصاً عينيه قليلاً ، جاساً ذقنه باصابعه .

واخيراً شرع يقول بصوت اوطلا من صوته الاعتيادي ، فكاد ذلك يفرغ يلينا :

- يلينا نيقولايفنا . انا اعرف الى مَنْ تشيرين بالرجل الذي ذكرته الآن . لا ، لم التق به ، والحمد لله ! لم ابحت عنه ابحت عنه ، لا لانني لم اعتبر نفسي محققاً في قتله - كان من الممكن ان اقتله بهدوء اعصاب - ولكن لأن النار الشخصي لا يجزئ شيئاً ، حين يتعلق الامر بانتقام شعبي جماعي . . . او ، لا ، الكلمة لا تفني بالغرض . . . حين يتعلق الامر بتحرير الشعب عندئذ سيكون الاول منافياً للآخر . وحتى ذاك سيأتي وقته سيأتي وقته .

كرر الجملة الاخيرة ، هازأً راسه .
نظرت يلينا اليه من جنب ، وقالت بتهيب :
- اتحب وطنك كثيراً ؟

اجاب :
- هذا غير معروف الآن . ولكن حين يموت احدنا في سبيله عندئذ يمكن القول انه كان يحب وطنه .
فتابعت يلينا قولها :
- اذن ، لو منعت من العودة الى بلغاريا لضقت من العجز في روسيا ؟

اطرق اينساروف براسه . ثم قال :
- يبدو لي ان ذلك لن اتحملة .
وعادت يلينا تقول :

- قل لي : هل من الصعب تعلم اللغة البلغارية ؟
- لا ، قطعاً . من العيب على الروسي ان لا يعرف البلغارية . الروسي يجب ان يعرف كل اللغات السلافية . هل تريد ان اجلب لك كتباً بلغارية ؟ وسترين كم ذلك سهلاً . واية اغانٍ لنا ! ليست اسوا من الاغاني الصربية . دعيني اترجم لك واحدة منها . انها تتحدث عن . . . ولكن هل تعرفين شيئاً من تاريخنا ؟
اجابت يلينا :

- لا ، لا اعرف شيئاً .

- انتظري ، وساجلب لك كتاباً . على الاقل ستعرفين من حقائق رئيسية . اذن ، اسمعي الاغنية . . . على العموم من الافضل ان اجلب لك ترجمة مكتوبة . انا واثق من انك ستحبيننا . فانت تحبين جميع المضطهدين . آه ، لو تعرفين كم هو موفور اقليمتنا !

ومع ذلك ينداس ، ويعذب - اضاف بحركة لا ارادية من يده ، واكتسى وجهه دكنة - سلبونا كل شيء . سلبوا كنائسنا ، وحقوقنا ، وارضينا . والاتراك الملاعين يسوقوننا سوق القطيع ، وبليحوتنا . . .
وهتفت يلينا :
- دميتري نيكانوروفيتش !

توقف .
- اعذريني . انا لا استطيع ان اتكلم عن ذلك ببرودة اعصاب . ولكنك قبل لحظات كنت تسالينني : هل احب وطني ؟ واي شيء غير يمكن ان يحب الانسان في الدنيا ؟ ما هو الوحيد الثابت ، الاعلى من كل الشكوك ، والذي يأتي الايمان به بعد الايمان بالله ؟ وحين يكون هذا الوطن بحاجة اليك . . . لاحظي ان اشد الفلاحين فقراً ، اكثر البائسين مسغبة في بلغاريا وانا تجمعنا الرغبة في شيء واحد ، للجميع هدف واحد . فتصورني روح الثقة والصلابة التي يقدمها هذا !

صمت اينساروف لحظة ، ثم عاد يتحدث عن بلغاريا . واصغت يلينا له بانتباه متلهف عميق وحزين ايضاً . وعندما انتهى عن كلامه سألته ثانية :

- اذن ، لن تبقى في روسيا ، مهما يكن من شيء ؟
وحينما انصرف ظلت تحقق في اثره وقتاً طويلاً . في ذلك اليوم صار ، بالنسبة لها ، انساناً آخر . ودعته انساناً آخر ، غير الذي استقبلته قبل ساعتين .

ومنذ ذلك اليوم صار اينساروف يتردد اكثر فاكثر ، ويرسنييف اقل فاقلاً . ونشأ بين الصديقين شيء غريب كان كلاهما يحسه جيداً ، ولكنه لا يستطيع تسميته ، ويخشى من توضيحه . وانقضى شهر على هذا المنوال .

كانت آنا فاسيليفنا تحب البقاء في البيت ، كما يعرف القاري ، الا ان رغبة القاهرة كانت تستولي عليها احياناً ، بشكل مفاجئ

تماماً ، في شيء غير اعتيادي ، في * partie de plaisir مذهلة ، وكانت هذه الـ partie de plaisir أصعب على التحقيق ، تتطلب اعلاناً وتحضيرات أكثر وقلقاً أشد لأننا فاسيليفنا نفسها كانت تطيب لها أكثر . فإذا اعترتها هذه النزوة شتاءً أمرت بأن تحجز مقصورات أو ثلاث مقصورات متجاورة ، وجمعت كل معارفها وذهبت الى المرسى وحتى الى حفلة تنكرية . اما اذا جاءتها صيفاً طلعت الى خارج المدينة ، الى ابعد ما تستطيع . وفي اليوم التالي كانت تشكك صداعاً ، وتتأوه ، وتلازم الفراش ، وبعد شهرين أو نحوهم تنأجج في نفسها نفس الرغبة في «شيء غير اعتيادي» مرة أخرى وهذا ما حصل الآن أيضاً . فقد ذكر احد في حضورها محاسن تساريتسينو ، فاعلنت بغتة انها تنوي السفر الى تساريتسينو غد . وحدث جيشان في البيت . وهرع رسول الى موسكو يطلب نيقولاي ارتيميفيتش الزوج ، وذهب كبير الخدم معه لشراء النبيذ ومعجون الطيور ومختلف المأكولات . وعهد الى شوبين باستئجار عربة ركوب (لأن مركبة البيت وحدها لا تكفي) والحصول على خيول اضافية . وذهب صبي خادم مرتين الى بيرسينيف واينساروف حاملاً معه مذكرتي دعوة كتبنا اولاً بالروسية ، وبعد ذلك كتبنا زويا بالفرنسية . واهتمت أنا فاسيليفنا نفسها باعداد لوازم السفر للأنستين . وفي غضون ذلك كادت partie de plaisir تفسد ، فقد عاد نيقولاي ارتيميفيتش من موسكو كدر المزاج وعل متذمراً (كان لا يزال يغضب على افغوستينا خريستيانوفنا) ولما عرف جليلة الامر اعلن بحزم انه لن يسافر ، وان من الحق الانتقال من كونتسوفو الى موسكو ، ومن موسكو الى تساريتسينو ، ومن تساريتسينو مرة أخرى الى موسكو ، ومن موسكو مرة أخرى الى كونتسوفو . واضاف اخيراً : ليثبتوا لي اولاً ان هذه النقطة من الكرة الارضية اكثر بهجة من تلك فساسافر . بالطبع ، ما كان في وسع احدهم ان يثبت له ذلك . فقد كانت أنا فاسيليفنا مستعدة لالغاء partie de plaisir بسبب افتقارها الى مرافق معتبر ، ولكنها تذكرت اوفار ايفانوفيتش ، ومن شدة الضيق ارسلت من يطلب في غرفته ، قائلة : «الفريق يتشبث بالقشة» . وواقظ اوفار

* نزوة مبهجة (بالفرنسية في الاصل) .

ايفانوفيتش من نومه ، فنزل الى الاسفل ، واستمع الى عرض أنا فاسيليفنا صامتاً ، وحرك اصابعه قليلاً ، ووافق ، وسط دهشة الجميع . قبلته أنا فاسيليفنا من خده ، وقالت له انه لطيف جداً . ابتسم نيقولاي ارتيميفيتش بازدياد ، وقال : «Quelle bordes» . (وكان عند سنوح الفرصة يحب ان يستعمل الكلمات الفرنسية «الانيقة») . وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي خرجت من فناء منزل آل ستاخوف المركبة والعربة المستأجرة محملتين الى فوق . وفي المركبة جلست السيدات وخادمة بيرسينيف ، وجلس اينساروف الى جانب الحوذي ، بينما جلس في العربة المستأجرة اوفار ايفانوفيتش وشوبين . وكان اوفار ايفانوفيتش نفسه قد دعا شوبين باشارة من اصبعه ، وكان يعرف ان شوبين سيناكده اثناء الطريق ، الا ان «قوة الارض السوداء» والفنان الشاب كانا مشدودين برابطة غريبة وصراحة مناكفة . وعلى أية حال ، لم يتحرش شوبين بصديقه البدين هذه المرة ، وتركه بسلام . فقد كان ميالاً الى الصمت شارد الفكر ، ناعماً .

كانت الشمس قد ارتفعت عالياً في السماء اللازوردية الصافية ، حين كانت العربتان تدنوان من اطلال قلعة تساريتسينو ، الكثيبة الجهاء حتى في الظهيرة . نزل جمع المسافرين بكليته الى العشب ، وسار ، في الحال ، الى الحديقة . كانت يلينا وزويا واينساروف في المقدمة ، وسارت أنا فاسيليفنا وراءهم وعلى وجهها سيماء السعادة التامة ، متأبلة ذراع اوفار ايفانوفيتش . وكان هذا يلهث ويسير متناقلاً وقبعة القش الجديدة تنغرز في جبينه ، وقدماء تنلظيان في الحذاء الطويل الرقبة ، ولكنه كان يحس بمتعة أيضاً . وكان شوبين وبيرسينيف آخر الموكب . همس شوبين لبيرسينيف : «ستكون ، يا اخ ، في الاحتياط كقدامى المحاربين» ثم اضاف ، وهو يشير بحاجبيه الى يلينا : «هناك بلغاريا الآن» .

كان الطقس رائعاً ، وكل شيء حولهم يزهر ويطن ويشدو . ومن بعيد كانت مياه الغدران تتلألأ ، والنفس يغمرها احساس وضاء بالعبور . وكانت أنا فاسيليفنا لا تفتأ تردد «آه ، ما الطف ذلك ، ما الطف» . وكان اوفار ايفانوفيتش يهز راسه بتأييد ،

* اية سخافة (بالفرنسية في الاصل) .

وهو يرد على تعجبها المتهلل ، بل ونبس ذات مرة : «مسن غي كلام!». وكانت يلينا تتبادل مع اينساروف الكلمات من حين لآخر . وكانت زويا تمسك حافة قبعتها العريضة باصبعين ، وتحرك بفنح ، من تحت ثوبها الوردي الشفاف ، قدميها الصغيرتين هذا رمادي فاتح مدور البوز ، وتنظر تارة الى الجنب ، وتارة الى الخلف . هتف شوبين فجأة بصوت خفيض : «ها ! زويا نيكيتيشنا تلتفت كما يبدو . فلاذهب انا اليها . يلينا نيقولايفنا تزودين الآن ، وتحترمك انت ، يا اندريه بيتروفيتش ، والامر سيان لاذهب . كفافي فتوراً . اما انت يا صديقي ، فأنصحك بان تفر من النباتات ، فذلك في وضعك احسن ما تستطيع ان تفكر فيه . نافع من الناحية العلمية ايضاً . مع السلامة !» واسرع شوبين زويا ، وقدم لها ذراعاً معكوفة قائلاً : « * Your Hand, Madame » وامسكها ، وانطلق معها الى الامام . توقفت يلينا ، وكانت بيرسينيف ، وتأبطت ذراعه ايضاً ، ولكنها استمرت في حديثها مع اينساروف . كانت تساله ما ذا تسمى في لغته زنبقة الوادي والقيقب ، والبلوط ، والزيزفون . . . (وكان اندريه بيتروفيتش المسكين يقول في سره : «بلغاريا !»).

وفجأة صدرت صيحة من الامام . رفع الجميع رؤوسهم . طارت علبة سيكائر شوبين ووقعت في اجمة ، بعد ان قذفها يد زويا صاح : «انتظري ، وساحاسبك على هذا !» . وانسل الى الاجمة وعثر فيها على علبة السيكاثر ، وعاد الى زويا . ولكن ما كاد يقرب منها حتى طارت علبة السيكاثر مرة اخرى عبر الطريق . وتكررت هذه المزحة حوالي خمس مرات ، فكان يضحك في كل مرة ، ويهدد . زويا فكانت تبسم في سرها ، وتتكور كالقطة . واخيراً قبضت اصابعها ، وعصرها عصرأ جعلها توصوص ، وتنفخ على يدها ولها طويلاً ، بعد ذلك ، وتظاهر بالزعل ، بينما كان يسر هو في انفسه شيئاً .

قالت آنا فاسيليفنا الى اوفار ايفانوفيتش بمرح :

- مشاكسون ، الشباب .

فلاعب هذا اصابعه .

* اعطيني يدك ، يا سيدة (بالالمانية في الاصل) .

وقال بيرسينيف ليلينا :
- هل ترين ما تفعل زويا نيكيتيشنا ؟
فردت عليه :
- شوبين ؟

وخلال ذلك وصل الجمع كله الى تعريشة الحناء ميلوفيدوفا ، وتوقف ليستمتع بمنظر برك تساريتسينو . وكانت تمتد عدة فرسات واحدة بعد الاخرى ، ومن ورائها كانت الغابات الكثيفة تبدو سوداء . وكان العشب البارض الذي يكسو منحدر التل كله حتى البركة الرئيسية يضفي على الماء لوناً زهردياً يانعاً على نحو فذ . وما من موجة تسري حتى عند الشاطئ ، وما من زبد ، بل ولا رفرقة تدب في سطح الماء الصقيل . وبدا وكان كتلة زجاج متجمدة قد استقرت في جرن ضخمة ثقيلة وضاءة ، وغطست السماء فيها الى الفجر . وراحت الاشجار الفرعاء تحديق ساكنة في اعماقها الشفافة . ظل الجميع يتمتعون ابصارهم في المنظر بصمت ولوقت طويل ، وحتى شوبين هذا ، وزويا غرقت في سهوم . واخيراً رغب الجميع بالاجماع في ركوب متن الماء . ركض شوبين واينساروف وبيرسينيف متسابقين على العشب الى الاسفل . وعثروا على قارب كبير مصبوغ ، ووجدوا مجذفين ، ودعوا السيدات . نزلت السيدات اليهم . وهبط اوفار ايفانوفيتش خلفهن بخذر . وبينما كان ينزل الى القارب ، ويتخذ مكانه فيه ارتفع ضحك كثير . قال احد المجذفين ، وهو شاب افطس في قميص قطني احمر مخطط : «حذار ، يا سيد ، ان تغرقنا» فرد اوفار ايفانوفيتش : «هس ، هس ، يا عرييد !» . وتحرك القارب . وتناول الشباب المجاذيف ، ولكن اينساروف وحده كان يحسن التجديف . اقترح شوبين ان يغنوا جميعاً اغنية روسية ، وشرع هو يغني : «بانحدار الفولغا الام . . .» . وانضم اليه بيرسينيف وزويا ، وحتى آنا فاسيليفنا (كان اينساروف لا يحسن الغناء) ولكن الاصوات تنافرت ، وتسرّبك المغنون في البيت الثالث من الاغنية ، وبيرسينيف وحده حاول ان يعضي بالاغنية بصوته الواطئ : «لا شي» يرى في الامواج ولكنه سرعان ما ارتبك هو الآخر . وتغامز المجذقان ، وكشرا عن اسناتهما بصمت . قال لهم شوبين : «ها ؟ الظاهر ان السادة لا يعرفون كيف يغنون ؟» اكتفى الشاب ذو القميص الاحمر المخطط

بهز رأسه . قال شوبين : « على مهلك ، اذن ، يا افطس . سنترك
يا زويا نيكيتشنا ، غني لنا : « Le lac » لنيدرميير (٢٠) . اترك
التجذيف ! » ارتفعت المجاذيف المبيلة في الهواء ، كالاجنحة ، وجمعت
في مكانها ، تقطر قطرات ترن في سقوطها في الماء . انساب القارب
قليلاً ، ثم وقف ، ودار قليلاً في الماء كالبحجة . تمتعت زويا
فقالت آنا فاسيليفنا بلطف : « Allons ! » . خلعت زويا قبعتها
وغنت : « O lac ! l'année à peine a fini sa carrière... »

وانطلق صوتها الصافي ، وان كان ضعيفاً ، متداحاً على
البركة . وكانت كل كلمة ترجع صدى بعيداً في الغابات ، حيث
كان ثمة من يغني بصوت صدادح وغامض ، ولكنه لانساني
يمت بصلة الى المكان . وحين فرغت زويا من الغناء ترددت « براف
عالية من احدى التعريشات على الشاطئ » ، وطلع منها بعض الالوان
الحمر الوجوه الذين جاءوا الى تساريتسينو للهو والسمر . و
بعضهم قد خلعوا سترهم واربطه العنق ، وحتى الصدادات ، وظهر
يصيحون « bis ! » بالحاف ، حتى ان آنا فاسيليفنا امرت بالنظر
الى طرف البركة الآخر باسرع وقت . ولكن قبل ان يرسو القارب
الى الشاطئ لحق اوفار ايقانوفيتش ان يدهش اصحابه مرة اخرى
فقد لاحظ ان الصدى في مكان معين من الغابة كان يرجع كل كلمة
بوضوح مميز ، فراح فجأة يصيح بصوت السمّان . في باق
الامر جفل الجميع ، ولكنهم شعروا على الفور بارتياح حقيقي
لاسيما وان اوفار ايقانوفيتش كان يصيح بمهارة شديدة وشبه كيم
بالسمان . وقد شجعه هذا الامر ، فحاول ان يموء كما تموء النحلة
ولكن مواءه لم يكن موفقاً كثيراً . فاطلق صياح السمان ، وظهر
الى الجميع وصمت . اندفع شوبين يقبله فدفعه عنه . وفي تلك
اللحظة رسا القارب ، وهبط الجميع الى الشاطئ .

وخلال ذلك كان الحوذي والخادم والخادمة قد جلبوا السلا
من المركبة ، واعدوا الغداء على العشب ، تحت اشجار الزيزفون
المعمرة . وجلس الجميع متحلقين حول الخوان المفروش على العشب
وشرعوا يأكلون معجون الطيور والاطايب الاخرى . وكانت شوبين

* هيا ! (بالفرنسية في الاصل) .

* * ايه ، ايها البحيرة ! ما كاد العام يقطع شوطه (بالفرنسية)

(الاصل) .

الجميع ممتازة ، وكانت آنا فاسيليفنا من حين لآخر ترجو ضيوفها
ان يتذوقوا الاطعمة ، وتحثهم على ان يأكلوا اكثر ، مؤكدة ان الاكل
في الهواء الطلق صحة وعافية . وكانت تتوجه بمثل هذه الجمل الى
اوفار ايقانوفيتش ، فكان هذا يتمم من فم عملوه : « كونسبي
مطمئنة » . وكانت هي تؤكد باستمرار : « حمداً للرب على هذا اليوم
الرائع ! » وقد تغيرت كثيراً ، فكانها ارتدت الى الشباب عشرين
الرائع ! ذكر بيرسينيف ذلك لها فقالت : « نعم ، نعم . كنت في زمان
عاماً ، اذا عدت عشر من النساء كنت واحدة منهن » . وانضم
ميرزة ، اذا عدت عشر من النساء كنت واحدة منهن » . وانضم
شوبين الى زويا ، وراح يصب لها النبيذ دون انقطاع ، فكانت
ترفض ، فيلج في استضافتها ، حتى انتهى به الامر الى ان يشرب
هو القدح كله . ثم عاد يستضيفها من جديد . كما كان يؤكد لها
انه يود ان يسند رأسه الى ركبتيها ، ولم ترد هي ان تبيح له
« مثل هذه الفتلة الكبيرة » . وكانت يلينا اكثر الجميع جدية ، ولكن
قليلها كان تغمره سكينه عجيبة لم تذوقها منذ زمان . وكانت تشعر
بانها طيبة الى ما لا حد له ، فتود ان يرافقها بيرسينيف ايضاً ، لا
ايساروف وحده وكان اندريه بيتروفيتش يدرك على نحو
مبهم ما معنى ذلك ، ويرسل الزفرات خلصة .

انقضت الساعات سراعاً ، واقترب المساء . وفجأة لاح القلق
على آنا فاسيليفنا ، فقالت : « آه ، يا ربي ، الوقت متأخر . اكلم
وشريتم ، يا سادة . والآن حان وقت الانصراف » . واستعجلت ،
واستعجل الجميع معها ، ونهضوا ، وساروا باتجاه القلعة ، حيث
تلق العريتان . ولما مروا بالبرك وقفوا جميعاً ليمتعوا انظارهم
في تساريتسينو للمرة الاخيرة . كانت الوان ما قبيل المساء تتوهج
ساطعة في كل مكان . توردت السماء ، والتمعت اوراق الشجر
متناوجة الالوان ، مستتارة بهبوب النسيم . وكانت المياه البعيدة
تسبح كالذهب المذاب . وكانت الابراج الضاربة الى الحمرة
والتعريشات المتناثرة في الحديقة تبرز حادة المعالم من بين خضرة
الاشجار القاتمة . قالت آنا فاسيليفنا : « وداعاً ، يا تساريتسينو ،
لن نسي ابدأ رحلة اليوم ! » وفي تلك اللحظة وقع حادث غريب ليس
من السهل نسيانه بالفعل ، وكان في حدوثه تأكيداً على قولها .

وهذا ما حدث : ما كادت آنا فاسيليفنا ترسل تحية الوداع الى
تساريتسينو حتى ترددت فجأة ، من وراء اجمة ليلق عالية ، على

بعد عدة خطوات منها ، هتافات وضحكات ، وصيحات متنافرة وطلعت الى الدرب عصابة من الرجال الشعث ، هم نفس هواة الغناء الذين صفقوا لزويا بحماس . وكان السادة الهواة هؤلاء في سكر شديد . توقفوا عند مرأى السيدات ، الا ان احدهم ، وهو مديبر القامة ذو رقبة كرقبة الثور ، وعينين حمراوين كعيني الثور ايضا انفصل عن رفاقه ، وتقدم من آنا فاسيليفنا التي ستمرهم الفرع ، منحنيًا بحركة خرقاء ، متمايلاً في مشيته . وقال بصوت اجتر - بونجور ، مدام . كيف صحتك ؟

تراجعت آنا فاسيليفنا قليلاً : فمضى العملاق يقول بلفس روسية ركيكة :

- لماذا لم تريندي ان تعيدي الغناء ، عندما كانت جماعتنا تصيح « bis ! » وبرافو وفورو ؟
فترددت اصوات من جماعته :
- نعم ، نعم ، لماذا ؟

تقدم اينساروف الى الامام ، الا ان شوبين اوقفه ، وجبه بنفسه آنا فاسيليفنا قائلاً :

- اسمح لي ، ايها الغريب المحترم ، ان اعرب لك عن الدهشة الصادقة التي تثيرها تصرفاتك فينا جميعاً . انت ، بقدره يستعفى حكيم ، من الفرع الساكسوني لقبيلة الففباس ، وبالتالي نفترض فيك الاطلاع على آداب السلوك الراقية ، بينما انت تنك مع سيدة ليست لك معها سابق معرفة . تاكد انني في طرف من هذا الظرف ساكون بشكل خاص مسروراً جداً للتعرف عليك ، لان الحظ فيك تطوراً جباراً في عضلات biceps, triceps, deltoideus ، ما ساعته شرفاً حقيقياً لي ، كنهات ، ان اتخذك موديلاً . ولكن هذه المرة اتركنا وشأننا .

اصغى «الغريب المحترم» الى خطبة شوبين كلها مميلًا راساً جانباً بازدياء ، متخوضراً بيديه . واخيراً قال :
- انا اعرف لا شيء مما يقول انت . ربما انت يحسب اسكافاً او اوسطه ساعات ؟ اي ! انا ضابط ، انا موظف نعم .
قال شوبين :

- انا لا اشك في ذلك .
- الذي اقله - مضى الغريب يقول مزيجاً اياه بيده الجب

كما يمزاج غصن من الطريق - اقول لماذا لم تغن bis ، لما صحننا هنا ؟ والان سانسرف في هذه اللحظة لو ان هذه الفراولان ، وليست تلك المدام ، لا حاجة لي بها ، لو ان هذه او تلك (واشار الى يلينا والى زويا) اعطتني einen Kuss ، كما نقول بالالمانية ، بوسه . نعم . ها ؟ هذا لا شيء .

وترددت اصوات في صفوف الجمع مرة اخرى :
- لا شيء ، einen Kuss ، هذا لا شيء .

قال الماني مغرور للغاية مختنقاً بضحكته :
Ach! Der Sakramenter!

امسكت زويا بيد اينساروف ، الا انه انقلبت منها ، وصار امام العملاق الوقح وجهاً لوجه . وقال له بصوت حاد وان لم يكن عالياً :

- تفضل ، انصرف .
قهقهه الالمانى بثقل .

- كيف انصرف ؟ انا احب هذه ايضا ! يعني لا استطيع انا ايضا ان اتزده ؟ كيف انصرف ؟ ولماذا انصرف ؟

- لانك تجاسرت على ازعاج سيدة - قال اينساروف ، وشحب لونه فجأة - لانك سكران .

- كيف ؟ انا سكران ؟ سامعون ؟ Hören Sie das, Herr Provisor? انا ضابط ، وهو يجسر . . . الآن اطالب Satisfaction! Einen Kuss will ich!***

قال اينساروف :
- لو خطوات خطوة اخرى . . .

- طيب ؟ ماذا سيكون ؟
- ساقذفك في الماء .

- في الماء ؟ . . . Herr Je!! فقط ؟ طيب ، لئر ، هذا طريف جداً ، كيف هذا في الماء . . .

ورفع السيد الضابط ذراعيه ، وتقدم الى الامام . ولكن شيئاً

آه ، الملعون (بالالمانية في الاصل) .
هل تسمع هذا ، ايها السيد السيدلي ؟ (بالالمانية في الاصل) .
تمويشا ! اريد قبلة (بالالمانية في الاصل) .
ايها السيد المسيح (بالالمانية في الاصل) .

غير اعتيادي حصل فجأة . تأوه ، وترنح جسده الضخم كله
وارتفع عن الارض ، ورفست رجلاه في الهواء ، وقبل ان تلحس
السيدات على الصباح ، وقبل ان يعي احد كيف حصل ذلك انقلب
السيد الضابط في البركة بكل جرمه متيراً رشاشاً ثقيلاً ، واختلج
في الحال ، تحت الماء الجياش .

زعت السيدات في صوت واحد :

- آي !

وتردد من الجانب الآخر :

- Mein Gott !

وانقضت دقيقة . . . وظهر من تحت الماء رأس مدور وشعر
المبلل ملتصق به ، والفقااعات خارجة منه . وتخبّطت ذراعان
بارتعاض قرب الشفتين تماماً . . .

صاحت آنا فاسيليفنا باينساروف :

- انه يفرق ، انقذه ، انقذه !

وكان اينساروف يقف على الشاطئ منفرج الساقين ، ثقيلاً
الانفاس . فقال بلامبالاة قاسية ومزدريّة :

- سيخرج سباحة - ثم اضاف ، وهو يمسك بيد آنا
فاسيليفنا - لنذهب ، لنذهب ، يا اوفار ايفانوفيتش ، يلينا
نيقولاييفنا .

وفي تلك اللحظة صدرت صيحة :

- آ . . . آ . . . آ . . .

رددها ذلك الالماني التعيس ، وقد استطاع ان يتشبّث بقص

قرب الشاطئ .

وسار الجميع في اثر اينساروف ، وكان على الجميع ان يعرفوا
ب«الجماعة» ذاتها ، وقد خسرت رئيسها ، فهدات ولم تنبس بكلمة
سوى ان احد افرادها ، وهو اكثر جراءة ، تمتم ، وهو يهز رأسه
«أوه ، هذا . . . على اية حال . . . الله يعلم ماذا . . . بعد هذا»
بل ان آخر رفع قبعته . لقد بدا اينساروف لهم رهيباً جداً ، وعن
صدق فقد ارتسم على وجهه شيء منذر ، شيء خطير . هرع الالماني
ليخرجوا رفيقهم ، وما كاد هذا يقف على ارض صلبة حتى اخذ يشتم

* يا الهي (بالالمانية في الاصل) .



بعبارة ، ويصرخ في اثر هؤلاء «المحتالين الروس» بأنه سيرفع
شكوى ، وسيذهب الى سيادة الكونت فون-كيزيرتس نفسه . . .
الا ان «المحتالين الروس» لم يعيروا لصياحاته التفاتاً ، وساروا
نحو القلعة بأسرع ما يستطيعون . التزم الجميع الصمت ، حين كانوا
يسبرون في الحديقة ، الا ان آنا فاسيليفنا كانت تتأوه بغفوت .
يسبون ما كادوا يقتربون من العربتين ، وتوقفوا ، حتى ارتفع منهم
ولكنهم ما كادوا يقتربون من العربتين ، وتوقفوا ، حتى ارتفع منهم
ضحك متواصل لا يكبح ، مثل ضحك الآلهة لدى هوميروس (٢١) .
في البداية انفجر شوبين في ضحك موصوف ، كالمجنون ، وتبعه
بيرسينيف ، في ضحك مكرر ، ثم لحقته زويا في ضحك ناعم ،
وانفجرت آنا فاسيليفنا هي الاخرى فجأة ، وحتى يلينا لم تستطع
ان تكبح بسمتها وتلاشت مقاومة اينساروف اخيراً ، فضحك .
ولكن اوفار ايفانوفيتش كان اعلاهم ضحكاً واطولهم فيه ، واكثرهم
حماساً . ضحك حتى وخزته خاصرته ، وسعل ، واختنقت انفاسه .
وكان بهذا قليلاً ، ليقول والدموع في عينيه : «فكرت . . . ما هذا
. . . يلبط ؟ . . . فهذا . . . هو . . . مبطوح . . .» وكانت الكلمة
الاشيرة المزعومة تكتمها نوبة ضحك اخرى تهز كيانه كله .
وكانت زويا تحضه اكثر قائلة : «رايته . . . رجلاه في الهواء . . .»
فيقول اوفار ايفانوفيتش : «نعم ، نعم ، رجلاه ، رجلاه . . .»
ربما ! فهذا هو . . . مبطوح ! . . . - فتسال زويا : «وكيف
تعايل عليه . . . والالمانى اكبر منه بثلاث مرات ؟» فيقول اوفار
ايفانوفيتش ، وهو يمسح الدموع من عينيه : «ساقول لك . رايت
بمنى . طوقه بيد ، ووضع قدماً امامه فتشقلب ! سمعت
الصوت . ما هذا ؟ . . . فاذا هو مبطوح . . .»

ولم بهذا اوفار ايفانوفيتش حتى بعد ان تحركت العربتان ،
واختلت قلعة تساريتسينو عن الانظار . وكان شوبين يجلس معه
في طريق العودة ايضاً ، فاخذ يعيب عليه ليسكت .
وكان اينساروف يشعر بالخجل . كان يجلس في المركبة قبالة
يلينا لانذا بالصمت (كان بيرسينيف يجلس الى جانب الحوذي)
وكانت يلينا صامتة ايضاً . كان اينساروف يفكر في انها تدينه ،
ولم تكن هي تدينه . كانت قد فزعت فزعاً شديداً في الوهلة الاولى ،
لم اذعنها التعبير الذي كان مرتسماً على وجهه ، وبعد ذلك ظلت
تفكر . ولم يكن واضحاً لها تماماً ما كانت تفكر فيه . لقد اختفى



الشعور الذي كانت تحس به خلال النهار ، وكانت تعي ذلك . ان شعوراً آخر لم تكن تفهمه بعد قد حل محله . لقد استمرت partie de plaisir وقتاً اطول من اللازم ، وتحول المساء الى ليل دون ان يلحظ . وكانت المركبة تنطلق بسرعة خلال حقول محاصيل ناضجة ، حيث الهواء كثيف وآرج ، وفواح برائحة الخبز ، ثم خلال مروج واسعة تمر نداوتها المفاجئة على الوجوه مثل موجة خفيفة . وكانت السماء تبدو داخنة في حوافها . واخيراً انساب القمر امر شاحباً . كانت آنا فاسيليفنا تهوم ناعسة ، وزويا تطل برأسها من النافذة ، تتطلع الى الطريق . خطر في بال يلينا اخيراً انها لم تتحدث مع اينساروف منذ اكثر من ساعة . فتوجهت اليه بسؤال بسيط ، فاجابها على الفور بفرح . وسرت في الهواء اصوات مبهمة حتى لكان آلاف الاصوات تتكلم في مكان بعيد : صارت موسكو تقرر مندفعة نحوهم . وتوامضت اضواء الى الامام ، ظلت تكثر وتكثر . واخيراً صارت احجار الطرق المرصوفة ترن تحت العجلات . استيقظت آنا فاسيليفنا ، واخذ جميع مَنْ في المركبة يتكلمون ، رغم ان واحد منهم لم يستطع ان يلتقط كلمات الحديث ، بسبب القرع الشديدة التي كانت ترسلها العربتان واثنان وثلاثون حافراً في الطريق المبلط . وبدا الطريق من موسكو الى كونسوفو طويلاً ومضجراً . نام الجميع او لاذوا بالنصمت ، متكئين برؤوسهم الى زوايا مختلفة .. ويلينا وحدها لم تغمض عينيها . فقد كانت تصوبهما الى شبح اينساروف المعتم . وجثمت الكتابة على شويين . كانت الريح تهب في عينيها ، وتضايقه ، لف رأسه في ياقة معطفه ، وكاد ان ينفجر باكياً . وكان اوفار ايفانوفيتش يشخر في هناءة مترنحاً يميناً وشمالاً . واخيراً توقفت العربتان . اخرج خادمان آنا فاسيليفنا من المركبة . فقد خارت قواها كلياً ، واعلنت ، وهي تودع المسافرين معها ، انها تكاد تموت اعياء ، صاروا يشكرونها ، بينما ظلت م تردد «أكاد اموت» . صافحت يلينا (للمرة الاولى) يد اينساروف وبقيت جالسة الى النافذة وقتاً طويلاً دون ان تخلع ملابسها وسنحت لشويين الفرصة ليهمس لبيرسينيف اثناء خروجه :
- بطل ، بالطبع . يقذف الالمان السكاري في الماء .
- اما انت فلم تقدم حتى على هذا .
ردّ بيرسينيف عليه ، واتجه الى البيت بصحبة اينساروف

وعندما عاد الصديقان الى بيتهما كان الفجر يتراى في السماء . والشمس لم تنهض بعد ، وفي الجو شيء من برودة الليل ، والندى النفس يغطي العشب ، والقنبرات الاولى تصدح عالياً في الغور الهوائي الفاسق ، حيث نجمة الليل الكبيرة الاخيرة تطل من هناك مثل عين وحيدة .

كانت يلينا ، بعد وقت قصير ، من تعرفها على اينساروف قد شرعت تكتب يوميات (للمرة الخامسة او السادسة) . وهذه مقتطفات من هذه اليوميات :
... **حزيران** . يجلب اندريه بيتروفيتش لي كتباً ، ولكنني لا استطيع قراءتها . وانا اخجل من الاعتراف له بذلك ، ولا ارجب في رد الكتب اليه قائلة اليه كاذبة : لقد قراتها .. اظن ذلك سيكدره . انه يلحظ كل شيء يخصني . يبدو انه متعلق بي جداً . اندريه بيتروفيتش رجل لطيف جداً .
... ماذا اريد ؟ ولماذا قلبي مثقل ومنقبض بهذا الشكل ؟ ولماذا انظر الى الطيور العابرة بحسد ؟ يبدو انني اتمنى ان اطيّر معها . اطيّر ، ولا ادري الى اين ، فقط ان اطيّر بعيداً ، بعيداً ، عن هنا . اوليست هذه رغبة آثمة ؟ ان لي ، هنا ، امأً واثماً وعائلة . اولست احبهم ؟ لا ، لست احبهم الحب الذي اهوى . ويرعيني ان اقول ذلك . ولكنه حق . فلعلني آثمة كبيرة ، ولربما لهذا السبب احس بهذه الكتابة ، واقتقر الى سكينه النفس . ان يداً تهبط عليّ ، وتسحقني . وكأنني في سجن ، وجدرانها ستتهار عليّ بين لحظة واخرى . لماذا لا يشعر الآخرون شعوري هذا ؟ ومنّ صاحب ، اذا كنت باردة الاحساس مع اهلي ؟ يبدو ان ابي على حق ، حين يؤنبني بانني لا احب غير الكلاب والقطط . يجب ان افكر في ذلك . انا قليلة الصلاة ، يجب ان اصلي ... يبدو انني قادرة على ان احب ، على اية حال !
... انا ما ازال اتعيب من السيد اينساروف ، ولا اعرف السبب . لا اظنني صغيرة جداً . انه رجل بسيط وطيب . ووجهه ،

في بعض الاحيان ، رزين جداً . ولعل في ذهنه ما يشغله عنا
اشعر بذلك ، واخجل ، على ما يبدو ، من ان انتزع منه وقت
واندرية بيتروفيتش شيء مختلف . وانا مستعدة لان اثرثر معه
النهار بطوله ، اذا اردت . ولكنه هو الآخر يحدثني دائماً عن
اينساروف . وبأية تفاصيل مرعبة ! الليلة حلمت به ، والخبر لي
يده ، وهو يقول لي : «سأقتلك ، واقتل نفسي» . اية سخافات !
... آه ، لو ان احداً قال لي : هذا ما ينبغي ان تفعله
قليل ان يكون الانسان خيراً . المهم ان يفعل الخير . اجل ، ذلك
هو الاساسي في الحياة . ولكن كيف يفعل الخير ؟ آه ، لو كنت
استطيع ان امسك بزمام نفسي ! انا لا ادري لماذا افكر في السيد
اينساروف ، وبهذه الكثرة . حين يأتي الينا ، ويجلس ، ويصغر
باتجاه ، دون ان يبدو عليه تكلف او اجهاد ، احدث فيه ، واحس
بارتياح ، ولكن لا شيء آخر . غير انه حين ينصرف اظل اذكر
كلماته ، واضيق من نفسي ، بل وانفعل . . . ولا اعرف لماذا
(انه يتكلم الفرنسية بطريقة سيئة ، ولكنه لا يخجل من ذلك ، وهذا
ما يعجبني منه .) وعلى العموم انا دائماً افكر كثيراً في الوجه
الجديدة . عندما كنت اتحدث معه تذكرت فجأة ساقينا فاسيلير
الذي اخرج عجزاً مبتور القدمين من كوخ يحترق ، وكاد يؤدي
بحياته . وقد نعته ابي بالشاطر ، واعطته ابي خمسة روبلات
بينما اردت انا ان انحنى امامه . ان له ايضاً وجهاً بسيطاً ، بل
وبليداً ، ثم صار ، بعد ذلك ، سكيراً .
... اليوم اعطيت قرشاً لشحاذة . ولكنها قالت لي : لماذا
انت حزينة بهذا الشكل ؟ انا لا احس ان لي مظهراً حزيناً . اظن
ان ذلك راجع الى انني وحيدة ، طوال الوقت وحيدة ، مع كل طيبي
ومع كل شري . لا احد امد له يدي . لا اريد من يتقرب الي .
بل اريد من يتخاطبني .
... لا ادري ماذا بي اليوم . رأسي غائم . انا مستعدة ان
ان اركع على ركبتي ، واطلب واستجدي الرافة . يخيل الي انني
اقتل ، لا اعرف كيف ، ولا من يقتلني ، واصرخ في سري واحرق
ابكي ، ولا استطيع ان اصمت . . . يا الهي ! يا الهي ! اكبح في
هذه السورات ! فانت وحدك قادر على ذلك . ولا شيء غيرك .
شيء يستطيع ان يسعفني ، لا حسناتي الصغيرة ، ولا اشغالي

لا شيء . ليتني اخرج لخدم في احد البيوت ، حقاً ، فان ذلك سيخفف
مما اقاوس .
ما جدوى الشباب ، ما جدوى ان اعيش ، ولیم لي روح ،
لم كل هذا ؟
... اينساروف ، السيد اينساروف - لا اعرف كيف اسميه -
ماخذ في الاستحواذ على انتباهي . اود لو اعرف ماذا يجري في قلبه .
وهو يبدو لي صريحاً جداً ، وميسراً على الفهم ، ومع ذلك لا انفذ الى
شيء . احياناً ينظر الي بعينين سابرتين . . . ام ذلك ما اتصوره لا
غير ؟ بول لا يزال يناكدني وانا غاضبة عليه . ماذا يريد ؟ انه
يعشقني ، ولكنني لست بحاجة الى هذا العشق . وهو يعشق زويا
ايضاً . انا لست منصفة معه . قال لي يوم امس انني لا استطيع
ان اكون غير منصفة الى النصف . . . هذا صحيح . هذا سمي جداً .
آه ، انا احس بان الانسان يحتاج الى بلية او شقاء او الى
مرض . والا فانه يشمخ .
... لماذا حدثني اندرية بيتروفيتش اليوم عن هذين البلغاريين !
يبدو انه تقصد ذلك . وما شأني بالسيد اينساروف ؟ انا غاضبة
على اندرية بيتروفيتش .
... امسك الريشة ، ولا اعرف كيف ابدا . يالها من مفاجأة حديثه
اليوم معي في الحديقة ! كم كان ودوداً وواثقاً ! وكيف حصل هذا
بهذه السرعة ! وكأننا صديقان قديمان ، قديمان ، والان فقط عرف
احدهما الآخر . كيف لم استطع ان افهمه حتى الآن ! وما اقربه الي
الآن . والشئ المذهل انني الآن صرت اهدأ بكثير . يضحكني انني
نحسبت يوم امس على اندرية بيتروفيتش ، وعليه ، بل ناديت
السيد اينساروف . اما اليوم . . . عثرت اخيراً على انسان صادق
يمكن الاعتماد عليه . انه لا يكذب ، انه اول انسان التقية ، لا
يكذب . الآخرون جميعاً يكذبون ، كل شيء كذب . يا عزيزي ،
اندرية بيتروفيتش ، الطيب لماذا تراني اجور عليك ؟ لا ! ربما
اندرية بيتروفيتش اكثر منه علماً ، بل ولربما اكثر ذكاء . . .
ولكن يبدو امامه صغيراً جداً ، ولست ادري لماذا . وحين يتكلم
ذلك عن وطنه ينمو وينمو ويكتسب وجهه رونقاً ، وصوته كالفلواذ ،
فيبدو لي ، آنذاك ، ان ما من انسان في العالم يمكن ان ينكس بصره
امامه . وهو لا يتكلم فقط ، بل هو يعمل وسيعمل . ساكثر من

سؤاله . . . واذا به يستدير الي* ، ويتسم لي ! . . . الآخر فقط يتسمون بهذا الشكل . آه ، كم انا راضية ! عندما جانا في المرة الاولى لم اكن اتصور قط ان احدنا سيقترب من الآخر بهذه السرعة . بل يعجبني الآن انني بقيت في المرة الاولى غير مبالية . . . غير مبالية ! وهل معقول انني مبالية الآن ؟ . . . منذ زمان لم اشعر بمثل هذه السكينة . هادئة نفسي هادئة جداً . وليس لي ما ادو*نه . غالباً ما اراه ، وهذا كل ما لي الامر . فماذا ادو*ن اكثر ؟

. . . صار بول يعتكف مع نفسه ، وقلت زيارات اندريه بيتروفيتش . . . مسكين ! يبدو لي انه . . . على العموم هو غير ممكن . انا احب التحدث الى اندريه بيتروفيتش . لم ينعقد بكلمة عن نفسه قط ، دائماً عن شيء جدي ونافع . وليس من شويين المتأنق كالفراشة ، ويعجب بقيافته . وهو شيء لا تفقد الفراشات . وشويين واندريه بيتروفيتش كلاهما ، على اية حال . انا اعرف ماذا اريد ان اقول .

. . . انه يرتاح لزيارتنا ، ويمكنني ان ارى ذلك . ولكن لماذا ؟ وما وجد في* ؟ حقاً ان ذوقينا متشابهان ، وكلانا ، - م وانا - لا يحب الشعر ، فكلانا ليس عليماً في الفن . ولكنه افكر مني بكثير ! انه هادى* ، وانا في اضطراب دائم . ان له طريقاً هدفاً ، وانا الى اين اذهب ؟ اين عشي ؟ انه هادى* ، ولكن افكاره تحلق في البعيد . سيأتي وقت ، وسيتركنا الى الابد ، يرحل الى وطنه ، وراء البحر ، هناك . وما في ذلك ؟ مع عون الله اغير اية حال ساكون مسرورة لانني عرفتة ، حين كان هنا . ولماذا هو غير روسي ؟ لا ، ما كان ممن الممكن ان يكون روسياً .

امي تحبه ، وتقول انه رجل متواضع . امي طيبة ! انها تفهمه . وبول صامت ، حذس ان تلميحاته لا تعجبني . ولكنه يفار منه . صبي خبيث ! وهل له حق في ذلك ؟ هل كنت يوماً . . .

كل هذه توافه ! ولم يدور كل هذا في ذهني ؟ . . . ولكن من الغريب ، على اية حال ، انني حتى الآن ، وانا في العشرين من العمر لم احب احداً ! يبدو لي ان صفاء قلب

داساسيه د ، فان اسمه «دميتري» يعجبني ان صفاء قلبه بهذا الشكل عائد الى انه وهب نفسه كلها لقضيته ، لامنيته . وما الداعي الى ان يقلق ؟ ان كل من* وهب نفسه كلها . . . كلها لا يضطرب ، ولا يابه لشيء . لست انا التي تريد بل ذلك يريد . بالمناسبة ، انا وهو نحب نفس الزهور . اليوم اقتطفت وردة . سقطت تويج فرغه . . . قدمت له وردتي .

خلعت منذ بعض الوقت احلاماً غريبة . فما معنى هذا ؟ . . . د يتردد علينا كثيراً . يوم امس قضى المساء كله عندنا . انه يريد ان يعلمني اللغة البلغارية ، وانا احس بارتياح معه ، وكاتما بين اهلي ، بل احسن . . . الايام تمر سراعاً . . . وانا احس بارتياح ، وخوف لسبب ما ، واريد ان احمد الله ، والعبرات توشك ان تطفر من عيني . آيه . ايتها الايام الدافئة الوضيئة ! . . . ما زلت احس بانسراح ، كالسابق ، ولكن شيئاً من

الحزن ينشأ من حين لآخر . انا سعيدة . هل انا سعيدة ؟ . . . سأظل طويلاً اذكر رحلة يوم امس . اية انطباعات غريبة ، جديدة ، مخيفة ! عندما رفع ذلك العملاق فجأة ، والقاء في الماء ، كما تلقى كرة ، لم ارتعب . . . ولكن هو الذي ارعبني . رأيت وجهه بعد ذلك منذراً بالشؤم ، يكاد ان يكون فظاً ! كيف عبر عند ذلك : سيخرج سباحة ! اتر في* هذا جداً . يعني انا لم افهمه . وفيما بعد ، اخذ الجميع يضحكون ، وضحكت انا ايضا ، تأملت له ! شعر بالخجل . هذا ما احسسته . خجل مني . وقد قال لي ذلك ، فيما بعد ، حينما كنا في المركبة ، في الظلام ، حين كنت اتفرس فيه ، واخشاه . اجل ، لا مجال للمزاح معه ، وهو بعيد الدفاع . ولكن لم هذا الغيظ ، هاتان الشفتان المرتعشتان ، هذا السم في العينين ؟ ام لعل هذا لا بد منه ؟ ولا يجوز ان تكون رجلاً ، مناضلاً ، وتظل وديعاً ناعماً في الوقت ذاته ؟ قبل حين قال لي الحياة فظة . وقد كررت هذه الكلمة على اندريه بيتروفيتش ، فلم يتفق مع د . فايهما على حق ؟ ثم ما اروع ما ابتدأنا به النهار ! وما اعنائني وانا اسير الى جانبه ، ولو نصمت . . . ولكنني مسرورة بما حدث ، الظاهر ان هذا ما كان ينبغي .

... القلق مرة أخرى . . . لست في حالة صحية جيدة . . .
 . . . خلال هذه الايام كلها لم اكتب شيئاً في هذا الدفتر
 لانني لم اجد في نفسي الرغبة في الكتابة . شعرت بانني مهما كتبت
 لن اعبر عما في قلبي . . . ولكن ماذا في قلبي ؟ جرى بينه وبين
 حديث طويل كشف لي الكثير . حدثني عن مشاريعه (بالعشوائية)
 انا اعرف الآن سبب الجرح على رقبتة . . . يا ربي ! حين روى
 افكر بانه قد حكم بالاعدام ، وما كاد ينجو ، وانه قد جرح . . .
 وهو يستشعر بوقوع الحرب ، ويفرح بها ، ومع كل هذا لم
 قط حزناً بهذا الشكل . . . ما الذي يمكن ان يحزنه هو ؟
 بابا من المدينة ، ووجدنا جالسين سوياً ، فنظر اليها نظرة غريبة
 زارنا اندريه بيتروفيتش ، فلاحظت انه قد نحف كثيراً وشعر
 لونه . وعاتبني زاعماً انني اعامل شويين ببرود شديد وباعمال
 ولكنني نسيت بول هذا تماماً . اذا رايته سأحاول ان اصلح
 البين . لي ما يشغلني عنه الآن ، وعن اي شخص آخر في الدنيا
 كان اندريه بيتروفيتش يتكلم معي بشيء من الاسف . فما يعر
 كل هذا ؟ ليم اشعر بالظلام حولي ، وفي داخل نفسي ؟ يبدو لي
 ما يحدث حولي وفي داخلي ملغز ، وانا احتاج الى العنور على الك
 المعبرة عنه . . .
 . . . لم اتم الليل . راسي يؤلمني . ولیم اكتب ؟ اليوم اضرب
 بسرعة ، وكنت في شوق الى ان اتحدث اليه . . . يبدو وكأن
 يتحاشاني . نعم ، انه يتحاشاني .
 . . . وجدت الكلمة . غمرني ضوء ! يا الهي ، ارحمني . . .
 عاشقة !

في نفس اليوم الذي كانت يلينا فيه تسجل تلك الكلمة الفدا
 في يومياتها ، كان اينساروف جالساً في حجرة بيرسينيف
 بيرسينيف يقف امامه والحيرة مرتسمة على وجهه . وكان اينساروف
 قد ابلغه لتوه عن نيته في الانتقال في اليوم التالي الى موسكو
 هتف بيرسينيف :

- رحماك ! الآن سيبدأ اجمل وقت هنا . فما الذي تفعله في
 موسكو ؟ اي قرار فجائي هذا ! ام لعلك تلقيت خبراً معيناً ؟
 قال اينساروف :
 - لم اتلق اي خبر . ولكن لا يجوز ان ابقى هنا ، حسب ما
 ارى . ولكن كيف يمكن هذا . . .
 قال اينساروف :
 - اندريه بيتروفيتش ، اعمل معروفًا ، ولا تلج . ارجوك . انا
 نفسي يعز عليّ ان افارقك . ولكن لا بد مما ليس منه بد .
 تفرس بيرسينيف فيه . ثم قال اخيراً :
 - انا اعرف انه لا يمكن اقتناعك . يعني قرارك نهائي ؟
 - نهائي تماماً .
 ردّ اينساروف ، ونهض وانصرف .
 ذرع بيرسينيف حجرته ذهاباً ومجيئة ، ثم تناول قبعته ،
 وذهب الى آل ستاخوف .
 قالت له يلينا حين بقيا وحيدتين :
 - لديك ما تخبرني به .
 - نعم ، وكيف حدثت ؟
 - هذا لا يهم . قل لي ماذا وراك ؟
 واخبرها بيرسينيف بعزم اينساروف .
 شحبت يلينا . ونطقت بعسر :
 - ماذا يعني هذا ؟
 قال بيرسينيف :
 - انت تعرفين ان دميتري نيكانوروفيتش لا يحب الكشف عما
 وراء تصرفاته . ولكنني اعتقد . . . لنجلس ، يلينا نيقولايفنا ،
 يبدو عليك التوعل . اظن انني استطيع ان احسن السبب
 الحقيقي لسفره المفاجئ .
 - ما هو السبب الحقيقي ؟
 كررت يلينا ، وهي تعصر بقوة يد بيرسينيف في يدها الباردة ،
 دون ان تلاحظ ذلك .
 شرع بيرسينيف يقول بابتسامة حزينة :
 - وكيف اشرح لك ذلك ؟ يتعين عليّ ان اعود الى الربيع

الماضي ، الى الوقت الذي تعرفت باينساروف عن كتب . التفتت
آنذاك ، في بيت احد اقاربي . وكانت لقريبي هذا ابنة ، مليحة جدا
وكان يخيّل اليّ ان اينساروف شغوف بها ، وقلت له ذلك
ضحك واجاب بانني مخطئ ، وان قلبه سليم ، وان ذلك لو حصل
له فسيرحل على الفور ، لانه لا يرغب في ان يخون قضيته ووليم
من اجل اشباع عاطفة شخصية . وكانت هذه كلماته بالذات وقيل
«انا بلغاري ، ولا حاجة بي الى حب روسي . . .»

- طيب . . . وماذا . . . الآن انت . . .

همست يلينا مشيخة رأسها لاراديا ، كمن يتوقع صلفا
ولكنها بقيت تمسك بيد بيرسينيف .

قال بيرسينيف :

- اظن - ثم خفض صوته وكرر - اظن ان ما كنت اخشاه
قبل بدون موجب ، قد تحقق الآن .

ندت من يلينا فجأة :

- يعني . . . انت تظن . . . لا تعذبني . . .

اسرع بيرسينيف ليقول :

- اظن ان اينساروف الآن قد احب فتاة روسية ، فعزم
الفرار ، وفاء بعهده .

زادت يلينا من ضغطها على يد بيرسينيف ، وطاقات راس
اكثر ، وكأنها تريد ان تخفي عن بصر الغريب حمرة الخجل ثم
ضربت فجأة وجهها وعنقها . قالت :

- انت ، يا اندريه بيتروفيتش ، طاهر كلاك . ولكن اليا
ليودعنا ؟

- نعم ، هذا ما اظن . سيأتي بالتأكيد ، لانه غير راغب
الرحيل . . .

- قل له ، قل . . .

ولكن هذه الفتاة المسكينة لم تسيطر على مشاعرها في هذه
اللحظة ، فقد ترقرت الدموع في عينيها ، فركضت خارجة من
الحجرة .

صار بيرسينيف يفكر ، وهو يعود الى بيته بطيء الخطى
«اذن ، فهي تحبه بهذه الصورة . لم اكن اتوقع ذلك ، لم اكن
اتوقع ان ذلك قوي الى هذه الدرجة - ومضى في افكاره - تقوا

اتى طاهر النفس . فمن يدري اية مشاعر وبواعث دفعتني الى ان
اخبر يلينا بكل ذلك ؟ كل شيء الا طهارة النفس ، الا طهارة النفس .
بل مجرد الرغبة اللعينة في ان اقتنع بان النصل قد نفذ الى الجرح
بالفعل ؟ يجب ان اكون راضيا . احدهما يحب الآخر ، وقد ساعدتهما
على ذلك . شويين يدعوني «الوسيط المقبل بين العلم والجمهور
الروسي» . والظاهر ان القدر كتب عليّ منذ الولادة ان اكون
وسيطا . ولكن ماذا لو كنت على خطأ ؟ لا ، لست على خطأ . . .»

وكان اندريه بيتروفيتش يحس بالمرارة . ولم يفكر في قراءة
«راومر» .

في نحو الساعة الثانية من اليوم التالي وصل اينساروف الى
بيت آل ستاخوف . ومن نكد الطالع ان آنا فاسيليفنا كانت
تستضيف في حجرة الجلوس ، في ذلك الوقت ، جارة ، زوجة قس ،
وهي امرأة طيبة ومحترمة ، ولكن مشكلة صغيرة كانت قد حصلت
لها مع الشرطة ، حين خطر في ذهنها ان تسبح في اوج الحر ، في
بركة قرب طريق كان كثيراً ما تسلكه عائلة جنرال ذي شأن . في
بادي الامر كانت يلينا مرتاحة بوجود الضيفة الغريبة ، وقد غاض
الدم من وجهها حالما سمعت وقع اقدام اينساروف ، ولكن قلبها
تقلص . حين فكرت في انه قد ينصرف مودعاً ، دون ان يتكلم معها
على الفراد . اما اينساروف فقد بدا مرتبكاً ، وقد تحاشى نظراتها .
كانت يلينا تفكر : «معقول انه سيودع الآن ؟» وبالفعل توجه
اينساروف نحو آنا فاسيليفنا . اسرعت يلينا بالنهوض ، وانتحت
به جانباً ، قرب النافذة . دهشت زوجة القس ، وحاولت ان تلتفت ،
ولكنها كانت مضغوطة جداً ، حتى ان ميسد الوسط كان يصير عند
كل حركة . فبقيت جامدة في موضعها . اسرعت يلينا تقول :

- اسمع . انا اعرف لماذا جئت . فقد ابليغي اندريه
بيتروفيتش بنيتك ، ولكنني ارجوك ، اتوسل اليك ان لا تودعنا
اليوم ، بل تعال غداً في وقت مبكر ، في نحو الحادية عشرة . فانا
اريد ان اقول لك كلمتين .

احنى اينساروف رأسه صامتاً .

- لن اؤخر . . . فهل تعدني ؟

انحنى اينساروف ثانية ، ولكنه لم يقل شيئاً .

قالت آنا فاسيليفنا :

- لينوتشكا ، تعالي هنا . وانظري اية محفظة يدوية رائعة هذه .

قالت زوجة القس :

- طررتها بيدي .

ابتعدت يلينا عن النافذة .

قضى اينساروف لدى آل ستاخوف ما لا يزيد عن ربع ساعة . كانت يلينا تراقبه خلسة . كان يراوح في مكانه ، ولا يعرف ، في عهده السابق ، الى اين يصوب بصره ، وانصرف على نحو غريب وخطاف ، وكأنه تلاشى .

انقضى ذلك اليوم ببطء ، بالنسبة ليلينا ، والليل الطويل ترانم اكثر بطناً . كانت احياناً تجلس على السرير محتضنة ركبتيها بيديها . واضعة راسها عليهما ، وحياناً تقترب من النافذة ، ملقبة جبينها الحار على زجاجها البارد ، وتظل تفكر وتفكر بنفس الافكار الى الابد . وكان قلبها يصير كالحجارة تارة او يختفي من صدرها . فلا تحس به ، ولكن العروق في راسها كانت تدق متوترة ، وشعرها يلسعها ، وشفتاها تتيبسان . كانت تقول لنفسها : «سيأتي . . . اذ لم يودع امي . . . وهو لن يخدع . . . هل معقول ان اندربا بيتروفيتش كان صادقاً في قوله ؟ غير ممكن . . . لم يعد بلساً انه سيأتي . معقول انني فارقت الى الابد ؟» ولم تغب هذه الافكار عن ذهنها ، لم تغب بالضبط ، لم تات ولم تعد - ظلت تطوق فيها كالضباب دون انقطاع . وفجأة توهج «انه يحبني !» في كيان كله فحمة متفجرة في الظلمة ، وافترت شفتاها عن ابشاش سرية لا يراها احد . . . ولكنها هزت راسها على الفور ، ورفعت الى علبائها اصابع يديها المعقودة ، ومن جديد طافت الافكار السابقة في راسها كالضباب . . . وقبيل الصباح خلعت ملابسها واستلقت على الفراش ، ولكنها لم تستطع ان تغفو . وقعت شعاعات الشمس النارية الاولى في حجرتها ، فهتفت فجأة : «آه ! لو كان يحبني» ، وبسطة ذراعيها دون ان تعجل من الضوء المضاء . . .

نهضت ، وارتدت ملابسها ، ونزلت الى الاسفل . لم يكن احد في البيت قد استيقظ بعد ، فخرجت الى الحديقة ، ولكنها احست بالرهبة مما حولها من سكون وخضرة ونداوة ، ومن الطيور تصاح

بنقة ، ومن الزهور تتفتح ببهجة . وفكرت : «آه ! لو كان ذلك صحيحاً ، لكنت اسعد من كل عشب ، ولكن هل هذا صحيح ؟» وعادت الى حجرتها ، واخذت تغيّر ثوبها تزجية للوقت . ولكن كل شيء كان يقلت وينزلق من بين يديها ، وكانت ما تزال جالسة امام مرآة الزينة دون ان تكمل ملابسها ، حين نادوها لتنزل وتشرب الشاي . لاحظت انها شحوبها ، ولكنها لم تقل سوى : «انت اليوم لثابت . فلاحظت انها شحوبها ، ولكنها لم تقل سوى : «انت اليوم جذابة جداً» . والقت نظرة اليها من راسها حتى اخمص قدميها ، واصافت : «هذا الثوب لائق لك كثيراً فالبسبه دائماً ، كلما اردت ان تنيري اعجاب احد» . لم ترد يلينا بشيء ، وجلست في ركن . وخلال ذلك دقت الساعة معلنة التاسعة ، ما تزال هناك ساعتان حتى تحل العادية عشرة . اخذت يلينا كتاباً ، ثم انتقلت الى الخياطة ، وبعد ذلك عادت الى الكتاب ، ثم آلت على نفسها بأن تقطع درباً معشياً واحداً مائة مرة ، وقطعته ، ثم راقبت لوقت طويل كيف نفرش آنا فاسيليفنا الورق في لعبة الصبر . . . ثم نظرت في الساعة . لم تصل الى العاشرة بعد . . . دخل شوبين الى حجرة الجلوس . حاولت ان تتحدث معه ، واعتذرت له عن شيء . هي نفسها لا تعرف ما هو . . . وكانت كل كلمة تنطقها لا تكلفها جهداً ، بل تنير في نفسها حيرة . مال شوبين نحوها ، فتوقعت سخرية . رفعت بصرها قرات امامها وجهاً حزناً ودوداً . . . ابتسمت لهذا الوجه . ابتسم شوبين لها ايضاً في صمت ، وخرج بهدوء . ارادت ان توقفه ، ولكنها تريثت ولم تتذكر على الفور لتناديه . واخيراً دقت العادية عشرة . راحت تنتظر ، وتنتظر ، وتنتظر ، وترهف سمعها . وتعذر عليها ان تفعل اي شيء ، بل وكفت عن التفكير . وسرت الحيوية في قلبها فصار يدق اقوى فاقوى . والغريب ان الوقت بدا وكأنه يمر اسرع من ذي قبل . مر ربع ساعة ، مر نصف ساعة ، مرت بضع دقائق آخر ، حسب تصورهما ، وفجأة ارتعدت يلينا . دقت الساعة لا الثانية عشرة ، بل الواحدة : «لن يأتي ، سيرحل دون ان يودع» . . . واندفعت هذه الفكرة مع الدم الى راسها . واحست بان انفاسها تنقطع ، وانها على وشك ان تبكي . . . ركضت الى حجرتها ، وارتمت على الفراش ، ووجهها على ذراعيها المطويتين .

* نوع من لعب الورق . الناشر .

استلقت نصف ساعة بلا حراك ، وقد انهمرت الدموع من خلال اصابعها على المخدة . وفجأة ، رفعت جسمها ، وجلست ، فان شبيهاً غريباً قد حدث في داخلها . تغير وجهها ، وجفت عينها الدامعتان تلقائياً ، فاخذتا تلمعان ، وانعقد حاجبها ، وانطبقت شففتها من نصف ساعة آخر . وارهقت يلينا سمعها للمرة الاخيرة ، لعلها تلتقط صوته الاليف . ثم نهضت ، ولبست قبعتها وقفازيها . والقت العباءة على كتفيها ، وانسلت من البيت دون ان تلاحظ وسارت بخطى سريعة في الطريق المؤدي الى مسكن بيرسيثيف .

سارت يلينا مطرقة الرأس ، مصوبة بصرها الى الامام . لم تكن تخاف شيئاً ، ولم تكن تعي شيئاً ، كانت تريد ان ترى اينساروف مرة اخرى . سارت دون ان تظن ان الشمس قد غابت من وقت طويل محجوبة بسحب سوداء ثقيلة ، وان عصفات الريح تهب في الاشجار ، وتنفخ ثوبها ، وان الغبار قد ارتفع فجأة وتطاير اصداء في الطريق . . . اخذ المطر ينزل بقطرات كبيرة ، وحتى هذا لم تلاحظه . ولكن المطر ظل يهطل متزايداً قوياً ، وومض البرق . وهدر الرعد . توقفت يلينا تنظر فيما حولها . . . ومن حسن حظها انها رأت ، صومعة متداعية مهجورة فوق خرائب بئر غير بعيد عن المكان الذي داهمها الرعد فيه . ركضت اليها ، ودخلت في كهف الواطى . انهمر المطر جداول ، وتلبدت السماء كلها . نظرت يلينا بقنوط اخرس الى الشبكة الكثيفة التي تصنعها قطرات المطر المنهمرة بسرعة . واختفى آخر امل في الالتقاء باينساروف . دخلت الصومعة عجوز ، ونفضت قطرات المطر عن ثيابها ، وقالت بانحناء : «احتمى من المطر ، يا عزيزتي» وجلست على نتوء قرب البئر ، وهم تتأوه وتتوجع . دست يلينا يدها في جيبها ، ولحظت العجوز هذه الحركة ، وسرت الحياة في وجهها المتغضن الاصفر الذي كان جليلاً في يوم ما . وقالت : «شكراً لك ايتها المحسنة العزيزة» . لم تلاحظ يلينا محفظة النقود في جيبها ، بينما كانت العجوز قد مدت يدها قالت يلينا :

- ليس عندي نقود ، يا جدة . خذي هذا لعله ينفعك في شيء . واعطتها منديلها . فقالت المتسولة : - اوي ، يا حسناي . وما نفع منديلك لي ؟ الا اذا اهديته لعبيدتي عندما تتزوج . جازاك الله على طيبتك ! انفجر مزيم رعد . وتمتمت المتسولة : - ايها السيد ، عيسى المسيح - ورسمت علامة الصليب ثلاثاً . واضافت بعد هنيهة - يبدو لي انني رايتك . ربما اعطيتني صدقة ذات مرة ؟

لمعت يلينا في العجوز ، وعرفتھا . اجابت : - نعم ، يا جدة . قد سالتني : لماذا انا حزينة بهذا الشكل ؟ - نعم ، يا عزيزتي ، نعم . ولذلك عرفتک في الحال . الآن ايضاً يبدو عليك الغم . والمندبل مبلل ، يعني من الدموع . آه ، يا بنات ، كلكن في هم وغم حقيم ! - اي هم ، يا جدة ؟

- اي هم ؟ اوه ، يا ابنتي الطيبة ، لا تتحايلي عليّ ، انا العجوز . انا اعرف لماذا تغتمين . ليس غمك غم اليتيم . عندما كنت شابة ، يا عزيزتي ، ذقت هذه العذابات ايضاً . اجل . وساقول لك جزاء على احسانك : اذا صادفك رجل طيب ، لا يعبت ، فتمسكي به وتشبثي تشبث الموت . فان حصل هذا حصل ، وان لم يحصل ، فتلک مشيئة الله . اجل . ولكن لماذا تنظرين اليّ مندهشة ؟ انا قارئة قال . هل تريدان ان آخذ مع منديلك كل بلواك ؟ اخذها ، وينتهي الامر . ها انت ترين ان المطر قد خف . انتظري قليلاً هنا ، اما انا فذاهبة . تعودت على بلل المطر . تذكرني ، يا عزيزتي : كان حزن ، وولّى ، وانقضى الآن . يا الهي ، رحمتك !

ورفعت المتسولة جسمها من النتوء ، وخرجت من الصومعة ، وسارت مجررة قدميها . نظرت يلينا في اثرها مذهولة ، ووجدت نفسها تهمس لارادياً : «ما يعني هذا ؟»

صار المطر اخف فافخ ، ولاحت الشمس للحظة . وتهيات يلينا لتخرج من ملجئها . . . وفجأة رأت اينساروف ، على بعد عشر خطوات من الصومعة . كان يسير ملفعاً بمعطفه في نفس الطريق الذي كانت يلينا تسلكه . كان يبدو في عجلة للوصول الى بيته .

استندت يدها على الدرايزين المتداعي عند مدخل الصومعة
وارادت ان تناديه ، ولكن صوتها خانها . . . مرّ اينساروف بها
دون ان يرفع بصره . . .
واخيراً نطقت :

- دميتري نيكانوروفيتش !

توقف اينساروف فجأة ، والتفت . . . في الوهلة الاولى لم
يتعرف على يلينا ، الا انه تقدم منها على الفور . وهتف :

- انت ! انت هنا !

تراجعت الى الصومعة صامتة ، وتبعها اينساروف . وعاد يقول :

- انت هنا ؟

مضت في صمتها ، سوى انها حدقت فيه تحديقة طويلة ناعمة
غضّ اينساروف بصره . سأله :

- هل انت قادم من بيتنا ؟

- لا ، ليس من بيتكم .

- لا ؟ - كررت يلينا وحاولت ان تبتسم - بهذا الشكل تفر
بعودك ؟ انتظرتك منذ الصباح .

- تذكري ، يلينا نيقولايفنا ، انا لم اعد بشي . يوم امس
ابتسمت يلينا مرة اخرى ابتسامة باهتة ، ومررت يدها على
وجهها . وكان الوجه واليد بنفس الشحوب .

- اذن ، كنت تريد ان ترحل ، دون ان تودعنا ؟

قال اينساروف بصوت صارم فاقد الرنين :

- نعم .

- وكيف ؟ بعد تعارفنا ، بعد تلك الاحاديث ، بعد كل
شيء . . . يعني . . . لو لم التق بك هنا مصادفة (اكتسى صوت
يلينا رنة ، فتوقفت لحظة) . . . لرحلت ، ولم تصافحني مودعاً آخر
وداع وما كنت ستأسف ؟

اشاح اينساروف بوجهه .

- ارجوك ، يلينا نيقولايفنا ، لا تتحدثي بهذا الشكل . لانا
مغموم حتى بدون ذلك . وتأكدي ان قراري كلفني جهوداً كثيرة . لو
كنت تعرفين . . .

قاطعته يلينا بذعر :

- لا اريد ان اعرف السبب في رحيلك . . . الظاهر انه

ضروري . الظاهر ان علينا ان نفرق . وانت ما كنت لتريد ان تكدر
اصداقك بلا موجب . ولكن اهكذا يفترق الاصدقاء ؟ ونحن
صديقان . اليس كذلك ؟
قال اينساروف :

- كلا .

- كيف ؟

وضرحت حمرة خفيفة وجنتي يلينا .
- لهذا السبب بالذات رحلت ، كوننا غير صديقين . ولا
تجبريني على ان اقول ما لا اريد ان اقله ، ولن اقله .
قالت يلينا بعتاب خفيف :

- من قبل كنت صريحاً معي . هل تذكر ؟

- آنذاك كان في وسعي ان اكون صريحاً ، آنذاك لم يكن هناك
ما اخفيه ، والآن . . .

فسالت يلينا :

- والآن ؟

- والآن . . . والآن يجب ان انصرف ، وداعاً .

ولو ان اينساروف ، في تلك اللحظة ، رفع بصره الى يلينا لراى
وجهها يتألق اكثر فاكثر كلما ازداد وجهه جهامة واسوداداً . ولكنه
كان يشب بصره في الارض باصرار . قالت يلينا :

- حسناً ، وداعاً ، يا دميتري نيكانوروفيتش . ولكن ما دعنا
قد التقينا فعل الاقل هات يدك لاصافحها .

هم اينساروف بان يمد يده .

- لا ، لا استطيع ذلك ايضاً .

قال واشاح وجهه ثانية .

- لا استطيع ؟

- لا استطيع ، وداعاً .

واتجه نحو باب الصومعة . قالت يلينا :

- انتظر قليلاً . يبدو انك تخشاني . ولكنني اشجع منك -
اضافت واعترتها رعشة مفاجئة سرت في كل جسدها - استطيع ان
اقول لك . . . هل تريد ؟ لماذا وجدتنى هنا ؟ اتدري الى اين كنت
ذاهبة ؟

نظر اينساروف الى يلينا بذهول .

- كنت متجهة اليك .

- الي ؟

غطت يديها وجهها .

- تريد ان تجبرني على ان اقول : انا احبك - همست يديها بذلك - طيب . . . ها قد قلت .

هتف اينساروف :

- يلىنا !

اسبلت يديها ، ونظرت اليه ، وارتجت على صدره .

عانقها بقوة ، ولم يقل شيئاً . لم يكن بحاجة الى ان يقول لها انه يحبها . فقد كان في وسع يلىنا ان تفهم انه يبادلها حباً بحب . من مجرد ندائه ، من ذلك التحول المفاجئ في كيانه كله ، من لهاث صدره الذي التصقت به مؤتمنة ، ومن لمسات اطراف اصابعها في شعرها . لم يقل شيئاً ، ولم تكن هي بحاجة الى كلمات . « يا اخي ، انه يحبني . . . فماذا اريد اكثر ؟ » وشملتها سكين النعيم ، سكينه المرفا الآمن ، والغاية المحققة ، تلك السكينه السماوية التي تعطي للموت نفسه معنى وجمالاً ، غمرتها بفيضها الإلهي . ولم تكن في نفسها اية رغبة ، لأنها امتلكت كل شيء . همست شفتاها : « يا اخي ، يا صديقي ، يا حبيبي ! . . » ولم تكن تعرف اي قلب كان يدق ويدوب في صدرها بعدوبة ، قلبه لم قلبها .

وقف بلا حراك ، كان يحيط بذراعيه القويين هذه الحياة الشابه التي اعطته قيادها ، وكان يحس على صدره هذا العيب الجديد العزيز الى ما لا حد له . وقد غشت صلابه روحه عاطفه حنان . عاطفه امتنان تعز على التعبير ، وقد تفرقت عيناه بدموع لم يكن له عهد بها من قبل .

اما هي فلم تبك ، بل كانت تكرر فقط : « يا صديقي ، يا اخي ! »

وبعد ربع ساعة ، وهو ما يزال يطوقها ويسندهما بذراعيه كما يقول :

- وكيف ستجوبين * معي كل مكان ؟

* في هذه الجملة تحول اينساروف الى مخاطبتها لأول مرة بصيغة الفرد رفعا للكلفة كما في طريقة المخاطبة الروسية . المترجم .

- اقصى الدنيا . ساكون حيث تكون انت .

- ربما تخادعين نفسك في ذلك ، فانت تعرفين ان والدك لن يوافقا على زواجنا ؟

- انا لا اخادع نفسي . انا اعرف ذلك .

- وهل تعرفين انني فقير ، مدقع تقريباً .

- اعرف .

- وانني لست روسياً ، ولا مقسوماً لي ان اعيش في

روسيا ، وسيتعين عليك ان تقطعي علاقاتك مع وطنك ، ومع

اقاربك ؟

- اعرف . اعرف .

- وهل تعرفين ايضاً انني نذرت نفسي لقضية صعبة لا تمين

على احد ، وانني . . . اننا سننتعرض لا الى المخاطر فقط ، بل والى

حرمانات ، ولربما الى اذلال ؟

- اعرف ، اعرف كل شيء . . . احبك .

- وان عليك ان تتخلي عن كل عاداتك ، وانك لربما

ستضطرين هناك ، ان تعملي وحيدة ، وسط غرباء . . .

وضعت يدها على فمه .

- احبك ، حبيبي .

اخذ يقبل يدها الشقيقة الوردية بحرارة . ولم تبعدها عن

شفتيه ، وراحت تنظر اليه بفرح طفولي ، وبفضول ضاحك ، وهو

يغطي بالقبلات يدها تارة ، واصابعها تارة اخرى . . .

واحمرت فجأة ، وخبات وجهها في صدره .

رفع راسها برقة ، وحدق في عينيها ، وقال لها :

- اهلاً بك اذن ، زوجة لي امام الناس وامام الرب .

بعد ساعة كانت يلىنا تدخل حجرة الجلوس في البيت الريفي بهدوء ، وقبعتها في يد ، وعباها في اليد الاخرى . وقد انحلت شعرها قليلاً ، وعلت وجنتيها طرة صغيرة من التورد ، والبسمة على شفتيها لا تريم ، وعيناها المنطبتان نصف انطباقه تبسمان

ايضاً . كانت تجرر قدميها تعباً ، وكانت تتلذذ بهذا التعب . كانت تتلذذ بكل شيء . كل شيء كان يبدو لها قريباً الى القلب . وحنوناً . كان اوفار ايفانوفيتش جالساً عند النافذة ، دنت منه ووضع يدها على كتفه ، وتمطت قليلاً ، وضحكت ضحكة بيت لارادية .

سألتها مندهشاً :

- مم ؟

لم تعرف ماذا تقول . احبت ان تقبل اوفار ايفانوفيتش . وقالت اخيراً :

- مبطوح . . .

ولكن اوفار ايفانوفيتش لم يحرك ساكناً ، وظل ينظر الى يلينا باندهاش . فرمت عليه العباءة والقبعة ، وقالت :

- يا عزيزي اوفار ايفانوفيتش ، اريد ان انام ، انا متعبة .

وضحكت مرة أخرى ، وانهدت على كرسي وثير بالقرب منه .

- حم - تمت اوفار ايفانوفيتش ، ولاعب اصابعه - هذا . . .

يجب ، نعم . . .

وتلفتت يلينا فيما حولها ، وكانت تفكر : «يجب ان افارق

كل هذا عن قريب . . . والغريب انني لا اشعر بفزع ولا رغبة ،

ولا اسف . . . ولكن لا ، اتاسف على أمي !» ثم تراءت لها الصومعة

مرة أخرى ، وتردد صوته في اذنيها مرة أخرى . وكانت تحس

بذراعيه تطوقانها . وتململ قلبها في صدرها بفرح وبهمن ايضاً ،

كانت السعادة تسترخي عليه . وتذكرت المتسولة العجوز .

وفكرت : «اخذت معها بلواي حقاً ، آه ، كم انا سعيدة سعادة لا

استحقها ابداً ! وتهل بهذه السرعة !» وما كان سيكلفها غير شيء

من الحرية لعاطفتها الحبيسة حتى تنهمر من عينيها دموع حلوة لا

تجف . كانت تضغط عليها باسترسالها في الضحك الخفيف ، ولا

شيء آخر . وكان اي وضع تتخذه يبدو لها افضل واروح من اي وضع

آخر . وكأنها كانت تهدد لتنام . صارت كل حركاتها بطيئة

وناعمة ، فاين تخلي عنها استعجالها وتناقلها ؟ دخلت زويا ، فتصورت

يلينا بأنها لم تر محيلاً افتن من محياها . ودخلت آنا فاسيليفنا ،

فاحست بوخزة ، ولكنها عانقت امها الطيبة برقة بالغة ، وقبلت

جبينها عند منبت الشعر ، الشائب قليلاً ! ثم ذهبت الى حجرتها .



فراحت كل شيء فيها يبتسم لها ! وجلست على سريرها بشعور عميق
من الانتصار الخجل والوداعة ، جلست على نفس السرير الذي كانت
قبل ثلاث ساعات قد قضت فيه لحظات شديدة الحرارة ! وفكرت :
« متى في تلك الساعة كنت اعرف انه يحبني . . . كنت اعرف من قبل
ايضاً . . . آه ، لا ! لا ! هذه خطيئة » . وهمست وركعت على ركبتها
مغطية وجهها بيديها : « انت زوجتي . . . »

ومع حلول المساء صارت اكثر سهواً واستغراقاً . غشيها
الحزن حين اخذت تفكر في انها لن ترى اينساروف عن قريب . لم
يكن في إمكانه ان يبقى مقيماً مع بيرسينيف دون ان يثير الشكوك .
ولهذا اتفق معها على ان يعود الى موسكو ، ويزور آل ستاخوف مرة
او مرتين حتى فصل الخريف . ووعدته ، من جانبها ، بان تراسله ،
وان تعين له موعداً للقاء بجوار كونتسوفو ، اذا سنحت الفرصة .
نزلت الى حجرة الجلوس في الساعة المحددة لشرب الشاي ، فرات
جميع اهل البيت هناك ، وشوبين الذي صوّب عليها نظراً حاداً ، ما
إن اطلت . فارادت ان تتحدث معه بود ، كما كانت في الماضي ،
ولكنها خشيت حدة ذكائه ، خشيت نفسها . بدا لها مقصوداً تغاضيه
عنها اكثر من اسبوعين . وبعد قليل وصل بيرسينيف ، ونقل تحيات
اينساروف لآنا فاسيليفنا ، مع اعتذاره لعودته الى موسكو ، دون
ان يزورها ويودعها . كان اسم اينساروف يذكر لأول مرة هذا
اليوم في حضور يلينا ، فاحست بالحيرة تصعد الى وجهها ، كما
ادركت في الوقت ذاته ان عليها ان تعرب عن الاسف لهذا الرحيل
المفاجئ لرجل طيب من معارفها ، ولكنها لم تستطع ان تحمل نفسها
على التصنع ، وبقيت جالسة في صمت وبلا حراك ، بينما راحت آنا
فاسيليفنا تتحسر ، وتبدي حزنها . جاهدت يلينا ان تبقى قرب
بيرسينيف ، فهي لم تكن تخشاه ، رغم انه كان يعرف جزءاً من
سرهما . كانت تلوذ بحماة من شوبين الذي ما يزال يلاحقها بنظرات
نفاذة ، وان لم تكن ساخرة . كما ان الحيرة استولت على بيرسينيف
ايضاً . خلال الامسية ، فقد كان يتوقع ان يرى يلينا اكثر حزناً .
ومن حسن حظها ان جدالاً نشأ بينه وبين شوبين عن الفن . تنحت
جانباً ، وراحت تسمع صوتيهما ، وكأنها في حلم . وشيئاً فشيئاً
صار الحلم يتخطاهما الى الحجرة كلها ، حيث بدت كل الاشياء وكأنها
في حلم : السماور على المائدة ، وصدار اوقار ايفانوفيتش القصير ،

قال شوبين لبيرسينيف حالما توادع الاخير مع آنا فاسيليفنا :
- تعال الى حجرتي لدقيقة . عندي ما اريد ان اريك اياه .
سار بيرسينيف معه الى ملحق البيت . بهره العديد الكبير
من التخطيطات ، والتماثيل الصغيرة ، والنصفية التي كانت مغطاة
بفرق مبللة ، وموضوعة في كل اركان الحجرة .

قال له بيرسينيف :

- ارى انك تعمل بهمة .

فاجاب هذا :

- يجب ان اعمل شيئاً . اذا فشل الانسان في شيء . وجب ان
يجرب حظه في شيء آخر . وعلى العموم انا كالكورسيكي ، اهتم
بنار الدم اكثر من الفن الخالص * Trema Bisanzia! (٢٢) .

قال بيرسينيف :

- انا لا افهمك .

- طيب ، انتظر . تفضل انظر ، يا صديقي الكريم والفاضل .
هذا ناري رقم واحد .

واذاح شوبين الغطاء عن احد التماثيل فرأى بيرسينيف تماثلاً
اصلياً لابنيساروف ممتازاً ومشابهاً له بشكل رائع . وكان شوبين
قد التقط ملامح وجهه بصدق ، وبأدق التفاصيل ، واعطى لها مسحة
رالعة باستقامتها ونبلها وجراتها .

وتهلل بيرسينيف بشراً ، وهتف :

- هذه هي الروعة بعينها ! تهاني* . تستحق ان تعرض !
ولماذا تسمى هذه التحفة ثاراً ؟

- لانني ، يا صاحب السيادة ، انوي ان اقدم هذه التحفة ،
كما سميتها ، الى ييلينا نيقولايفنا في عيد ميلادها . هل تفهم هذه
الرموز ؟ لسنا عمياناً ، ونحن نرى ما يجري حولنا ، ولكننا اصحاب
شهامة ، يا حضرة المحترم ، ونثار بشهامة .

ومضى شوبين يقول ، وهو يزيح الغطاء عن تماثل صغير آخر :

- اما هذا ، فما دام الفنان ، حسب احداث الجماليات ، يستخدم

* ارجعتي ، يا بيزنطية (بالايطالية في الاصل) .

وساقا زويا الملساوان ، والصورة المرسومة بالزيت للامير الكبير
قسطنطين بافلوفيتش والمعلقة على الحائط . تغور كل شيء
وتغطي بغشااء دخاني ، ولم يعد له وجود . سوى انها كانت تسكن
عليهم جميعاً ، وتقول لنفسها : «من اجل اي شيء يعيشون ؟»
سالتها امها :

- هل انت نعسى ، يا لينوتشكا ؟

ولم تسمع سؤال امها .

- هل تقصد تلميهاً نصف عادل ؟ - نفذت هذه الكلمات التي
نطقها شوبين بحدة الى وعي ييلينا فجأة فانتبهت . ومضى شوبين
يقول - في هذا بالذات تكمن النكهة . التلميح العادل يثير الجزع
وهو مناف للروح المسيحية . والانسان لا يعيا بالتلميح غير
العادل . فهذه حماقة . ولكنه يشعر نحو التلميح نصف العادل
بالانزعاج ونفاذ الصبر . فمثلاً لو قلت : ان ييلينا نيقولايفنا تعنى
احدنا ، فاي نوع من التلميح سيكون هذا ؟ ها ؟

قالت ييلينا :

- آه ، مسيو بول . وددت لو اظهر لك انزعاجي ، ولكنني
متعبة جداً ، فلا اقدر حقاً .

- ولماذا لا ترقدين ؟ - قالت آنا فاسيليفنا التي كانت تنعم
دائماً في المساء ، ولهذا تحب ان تبعت الآخرين الى مضاجعهم -
قبليني قبلة المساء ، واذهبي والله معك . اندريه بيتروفيتش
سيعذرک .

قبلت ييلينا امها ، وانحنى للجميع ، وانصرفت . صاحبها
شوبين الى الباب . وهمس لها عند العتبة :

- ييلينا نيقولايفنا ، انت تدوسين مسيو بول وتمشين عليه
شفقة . بينما مسيو بول يعبدك ، ويعبد قدميك والحداء الذي
تلبسين ، وتعل الحداء .

هزت ييلينا كتفيها ، ومدت له يدها على مضض - ليست تلك
التي قبلها اينيساروف - وعادت الى حجرتها فطفقت تخلع ثيابها
على الفور ، واستلقت ، وغفت . نامت نوماً عميقاً هادئاً . لا
ينامه حتى الاطفال ، لا ينامه غير الطفل الناقه ، حين تجلس امها
عند مهده ، تنظر اليه ، وتنصت الى انفاسه .

حقه الذي يحسد عليه في ان يجسد في نفسه كل الحقارات (٢٣) مرتفعاً بها لتكون جوهره من الابداع ، فأننا في تكويننا لهذه الجوهره ، رقم اثنين ، كنا قد انتقمنا ليس كشهما ، على الاطلاق . بل en canaille .

ورفع الغطاء بحذق ، ورأى بيرسينيف تمثالاً صغيراً لاينسارو ايضاً منحوتاً على طريقة دانتان تمثل فيه الضغن وحدة البديهة بأكثر ما يمكن . فقد صُوِّرَ البلغاري الشاب خروفاً واقفاً على قائمب الخلفيتين ، مميلاً قرنيه للنطاح . وقد ارتسمت على وجه الزوج الشاء الناعمة الصوف « هذا العظمة اليهيا ، والتوفز ، والعناد والرعونة ، والضحالة ، كما كان الشبه مذهلاً لا ريب فيه ، حتى ان بيرسينيف ما كان في وسعه الا ان يضحك .

قال شوبين :

- ماذا ؟ مضحك ؟ عرفت البطل ؟ هل تنصحنى بان اعرض في المعرض ايضاً ؟ وهذا ، يا اخي ، سأهديه لنفسى ، في عيد ميلادي . . . فاسمع لي ، يا صاحب السيادة ، ان ارقص طرباً واقفز شوبين مرتين او ثلاثاً ، ضارباً اياه بالنعل . رفع بيرسينيف قطعة الخيش من الارض ، وغطى بها التمثال . قال شوبين :

- اوه ، ايها الشهم . فأتني من كان في التاريخ معروفاً بشهات على نحو خاص ؟ طيب ، لا يهم ! اما الآن - تابع وكشف بحركة استعراضية حزينة عن القطعة الثالثة ، وهي كبيرة جداً من الصلصال - امامك شيء . يثبت لك تواضع صديقك الحكيم وحده ذهنه . وستقتنع بأنه ، كفنان اصيل على أية حال ، يشعر بحاجة وفائدة اذلال النفس . انظر !

وارتفعت الستارة ، وابتصر بيرسينيف رأسين متقاربين وكأنها خارجان من رقبة واحدة . . . ولم يدرك حقيقة الأمر رأساً ، ولكنه حين امعن النظر ، عرف في احد الرأسين رأس آنوشكا ، وفي الآخر رأس شوبين نفسه . وعلى العموم كان ذلك رسماً كاريكاتورياً أكثر منه صورة شخصية . صُوِّرَت آنوشكا بهيئة فتاة جميلة ممثلة

* كسافل (بالفرنسية في الاصل) .

ذات جبين ضيق ، وعينين منتفختين ، وانف مرفوع يتحد . وكانت شفتاها الغليظتان تنفرجان عن ابتسامة ساخرة وقحة . وكان وجهها كله يعبر عن الحساسية وخلو البال والاندفاع ، ولا يخلو من طيبة . وصوِّرَ شوبين نفسه متهكاً منحولاً منهوكاً ، غائر الوجنتين ، نصلات شعره الخفيف متدلّية باسترخاء ، وانفه مدبب كأنف الميت ، وعيناه المنطفتان تنطلقان بالبلاهة .

اشاح بيرسينيف وجهه باشمزاز . فقال شوبين :

- ما رأيك في هذا الزوج ، يا اخ ؟ الا تكرم بوضع تسمية معتبرة لهما ؟ للموضوعين الاولين اهديت الى تسمية . سأضع تحت التمثال النصفي عبارة : «البطل الناري انقاذ وطنه» وتحت التمثال الصغير : «احترسوا ، يا صانعي النقانق !» اريد ان اكتب تحت هذه القطعة «مستقبل الفنان بافل ياكوفليف شوبين . . .» ما رأيك ؟ اليس لطيفاً ؟

فرد بيرسينيف قائلاً :

- كف عن هذا . ايعقل أنك ضيَّعت وقتك على هذه . . . ولم يعثر فوراً على الكلمة المناسبة . - القذارة ؟ تريد ان تقول . لا ، يا اخ ، وارجو المَعذرة ، اذا كان هناك شيء يستحق ان يعرض فهي هذه المجموعة . كرر بيرسينيف :

- قذارة بالضبط . ثم ما هذه السخافة ؟ انت لا تملك اطلاقاً ما يمتلكه قنانونا حتى يومنا هذا ، وبوفرة ، لسوء الحظ ، من مقومات تمثل هذا النوع من التطور . مجرد أنك كنت تفترى على نفسك .

قال شوبين بعبوس :

- هذا ما تراه ، اذن ؟ اذا كنت لا امتلكها ، واذا لُقِّحت بها ، فالذنب في ذلك سيعود الى انسانية ما . هل تدري - وقطَّبَ حاجبيه بشكل مأساوي - انني جربت ان اشرب ؟ - الا تكذب ؟ !

- جربت ، وحق الرب - قال وافتش عن تكشيرة فجأة ، وتناول وجهه - ولكنه غير لذيد ، يا اخ ، ولا يدخل الى البلعوم ، والرأس بعده يصير كالطبل . ولوتشيخين العظييم نفسه ، خارلامبي لوتشيخين ، الشريب الاول في موسكو ، وفي كل روسيا حسب آراء

أخرى ، قال لي : لن تبرز في هذا الميدان . فالزجاجة . حسب قول
لا توحى اليّ بشي .
رفع بيرسينيف ذراعه على قطعة ذات الراسين ، الا ان شرب
اوقفه :

- كفى ، يا اخ ، لا تكسرهما ، فستنفع كدرس ، كقزاعة
ضحك بيرسينيف . وقال :
- في هذه الحال سأسفك على قزاعتك ، على ما اظن . وليس
الفن الخالد الصافي .
فثنى شوبين :

- ليعش ! الشئ الحسن معه احسن ، والسبي لا يضر .
وتصافح الصديقان بقوة ، واقتربا .

٢١

كان الفزع الفرح اول احساس شعرت به يلينا ، حين
استيقظت . سألت نفسها : «معقول ؟» وجمد قلبها من السعادة
وتدفقت الذكريات عليها . . . ففرقت فيها . ثم اهلت عليها ثانيا
تلك السكينة الهائلة المستبشرة . ولكن القلق اخذ ينتابها شيئا
فشيئا خلال الصباح ، وفي الايام التالية بدا عليها الفتور والضمير .
لقد كانت تعرف الآن ، في الحقيقة ، ما كانت تريد . ولكن ذلك لم
يخفف عنها . فان ذلك اللقاء الذي لا ينسى قد اخرجها الى الابد عن
منوالها القديم ، ولم تعد فيه ، بل كانت بعيدة عنه ، بينما كان
كل شي ، حولها يسير سيره المألوف ، كل شي على منواله .
وكان شيئا لم يتغير . فالحياة السابقة تجري كالسابق ، وتعود .
كالسابق ، على مشاركة يلينا ومساهمتها . حاولت ان تبدأ رسالة
الى اينساروف ، ولكنها لم توفق حتى في هذا ، فكانت الكلمات تخرج
على الورقة اما ميتة ، واما كاذبة . وقد فرغت من يومياتها ، وخطت
بعد السطر الاخير فيها خطا كبيرا . كان ذلك في الماضي ، وله
تحولت الآن الى المستقبل بكل افكارها ، بكل كيائها . وكانت تشعر
بضيق . فقد بدا لها جرماً ان تجالس امها التي لا ترتاب في شئ .
وتستمع اليها وتجييبها ، وتتحدث معها . كانت تحس بالكذب يغالب

١١٤

نفسها . فكانت تعشق ، رغم انها لم تفعل شيئا تخجل منه . واتبعت
نفسها . اكثر من مرة ، رغبة قاهرة او تكاد في ان تبوح كل شي .
في نفسها . تخفي خافية ، وليكن بعد ذلك ما يكون . وكانت تفكر :
دون ان تخفي دميتري حينذاك ، من تلك الصومعة ، الى حيث
لماذا لم ياخذني دميتري حينذاك ، من تلك الصومعة ، الى حيث
يريد راساً ؟ ألم يقل لي انني زوجته امام الله ، فلماذا انا هنا ؟
و فجأة صارت تتحاشى الجميع ، حتى اوفار ايفانوفيتش ، الذي كان
و فجأة صارت تتحاشى الجميع ، حتى اوفار ايفانوفيتش ، الذي كان
اكثر حيرة واكثر لعباً باصابعه من اي وقت مضى . وبدا كل ما
يعيط بها فاقداً رفته وعذوبته ، وحتى مشابته للحلم . فكان
كالكاپوس يهبط على صدرها كنقل ميت لا يتزحزح ، فكانما كان
يغرقها ، ويستغل عليها ، ولا يريد ان يعرف من امرها شيئا . . .
كأنه كان يقول انت من بيتنا ، على اية حال . وحتى صغارها المساكين ،
طيورها وحيواناتها المشردة كانت تنظر اليها - او هكذا ما
تصورته . على اقل تقدير بشي من الريبة والعداء . وصارت تخجل
من مشاعرها . كانت تقول لنفسها : «هذا بيتي ، على اية حال ،
عالمتي ، ووطنى . . .» فيرد عليها صوت آخر مؤكداً : «لا ، لم يعد
وطنك . ولم تعد عائلتك» . وكان الرعب يستولي عليها ، فكانت
تضيق بكل خورها . فقدت صبرها ما ان اصابها العسر . . . لهذا
ما وعدت به ؟

ولم تتمالك يلينا نفسها بسرعة . ولكن اسبوعاً مضى وتبعه
آخر . . . وهذات يلينا بعض الشئ ، وتعودت وضعها الجديد .
كتبت رسالتين صغيرتين لاينساروف ، اخذتهما بنفسها الى البريد .
لم ترد على الاطلاق ان تاتمن الخادمة خجلاً وكبرياء . واخذت تنتظر
مجيبته هو . . . ولكن عوضاً عنه جاء نيقولاي ارتيميفيتش ذات
صباح .

٢٢

كان ضابط الحرس المتقاعد ستاخوف ملولاً ، وفي الوقت
ذاته ، واثقاً بنفسه ومتعاطفاً على نحو لم يره احد من اهل بيته على
منه قبل هذا اليوم . دخل الى حجرة الجلوس في معطفه وقبعته .
دخل ببطء ، وبخطوات عريضة ، ضارباً الارض بكعبيه ، واقترب

١١٥

من المرأة ، ونظر الى نفسه فيها وقتاً طويلاً ، هازأً رأسه ، عاصاً على شفتيه بصرامة هادئة . استقبلته أنا فاسيليفنا بمظهر قلق ، وفرح خفي (لم تستقبله قط بغير ذلك) وقدم يده في قفازها السوداء في صمت الى يلينا لتقبلها ، حتى دون أن يخلع قبعته ، ودون أن يقرأ زوجته التحية . اخذت أنا فاسيليفنا تساله عن دورة العلاج فلم يجيبها بشيء . جاء اوفار ايفانوفيتش ، ونظر اليه ، وقال «ها !» . وكان ستخوف ، بشكل عام ، يعامل اوفار ايفانوفيتش ببرود وباستعلاء ، رغم انه كان يعترف فيه «بإلزام الدم الستخوفي الاصيل» . والمعروف ان العوائل النبيلة الروسية جميعها تقريباً تعتقد بأن لها ميزات استثنائية من ناحية النسب ، مختصة بها وحدها . فكم سمعنا احاديث «بين الاهل» عن الاتوف «اليودسلافسكية» والقفا «البيربريفية» * . دخلت زويا ، واتحنت لنيقولاى ارتيميفيتش احتراماً . تنحى ، وانهد على كرسي وثير ، وطلب قهوة ، وعند ذلك فقط خلع قبعته . قدمت له القهوة ، فاحتسى الفجآن . ونظر الى الجميع بالتوالي ، وقال من خلال اسنانه : «Sortez, s'il vous plait» واصلت مخاطباً زوجته : «Et vous, madame, restez, je vous prie»***

خرج الجميع ما عدا أنا فاسيليفنا . كان رأسها يرتعش من الانفعال . ادهشتها نبرة الظفر في سلوكه . فكانت تتوقع شيئاً غير اعتيادي .

ما ان غلق الباب حتى هتفت :

— ما هذا !

لقى نيقولاى ارتيميفيتش عليها نظرة غير مكرثة .

— لا شيء على وجه الخصوص . اية طريقة لك في ان تظهر نفسك حالاً بمظهر الضحية ؟ — شرع يقول مرخياً طرفي شفتيه لدى كل كلمة دون اية حاجة — مجرد انني اردت ان اعلمك ان ضيفاً جديداً سيتناول الغداء عندنا اليوم .

— من هو ؟

* اسماء عوائل . — المترجم .

** اخرجوا ، ارجوكم (بالفرنسية في الاصل) .

*** اما انت ، يا مدام ، فابقي ، ارجوكم (بالفرنسية في الاصل) .

— يغور اندرييفيتش كورناتوفسكي . انت لا تعرفينه ، يشغل منصب السكرتير الاول في مجلس الشيوخ .

— وسيتناول الغداء عندنا اليوم ؟

— نعم .

— ولأجل ان تقول لى ذلك امرت الجميع بان يخرجوا ؟

— وعرة اخرى القى نيقولاى ارتيميفيتش على أنا فاسيليفنا نظرة . كانت تهكمية هذه المرة .

— ادهشك هذا ؟ انتظري وستندهشين اكثر .

— وصمت ، وصمت أنا فاسيليفنا قليلاً ، ثم قالت :

— حبذا . . .

وفجأة قال نيقولاى ارتيميفيتش :

— انا اعرف انك دائماً كنت تعتبرينني انساناً . . «بلا اخلاق» .

تمت أنا فاسيليفنا بذهول :

— انا ؟

— وقد تكونين على حق . ولا اريد ان انكر انني بالفعل كنت اعطيك احياناً حجة عادلة لعدم الرضى (وطاف في ذهن أنا فاسيليفنا «انها الخيول الرمادية») رغم انك لا بد ان تقري بأن عضويتك في حالتها المعروفة لك . . .

— ولكنني لا اتهمك ابداً ، يا نيقولاى ارتيميفيتش .

— C'est possible . وفي كل الاحوال لا انوي تبرير نفسي .

الزمن سيبررني . ولكنني ارى من واجبي ان اؤكد لك انني اعرف التزاماتي ، واستطيع ان اهتم . . . مصالح . . . العائلة المؤكل بها .

فكرت أنا فاسيليفنا مع نفسها : «ماذا يعني كل هذا ؟» (ما كان في امكانها ان تعرف ان جدلاً نشأ في عشية اليوم ، في ركن من حجرة الارائك في النادي الانجليزي ، عن عدم قدرة الروس على تدبيج الحديث . وهدف احد المتجادلين : «من» يجيد الحديث عندنا ؟ هل تسبون لى احداً ؟» ، فرد آخر : «لناخذ ستخوف مثلاً» وأشار الى نيقولاى ارتيميفيتش الذي كان بين المتحدثين . وكادت تند منه صيحة فرح) .

* هذا محتمل (بالفرنسية في الاصل) .

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

- لنأخذ ابنتي يلينا ، ألا تجددين أن الوقت قد حان أخيراً لأن تقوم بخطوة ثابتة في طريق الحياة . . . أريد أن أقول أن تتزوج . لا ضير في كل تلك التفلسفات وأعمال البر والاحسان ، ولكن بقدر معين ، وإلى عمر معين . وقد آن لها أن تترك ضباياتها وأن تخرج من مجتمع أوزاع الفنانين والطلبة والجبلين السود . وتصبح كالآخرين .

سألت أنا فاسيليفنا :

- كيف عليّ أن أفهم كلامك ؟

رد نيقولاي ارتيميفيتش بنفس تهدل الشفتين :

- دعيني أكمل . سأقول لك بصراحة ودون لف ودوران . لقد تعرفت وتصاحبت مع هذا الشاب ، السيد كورناتوفسكي ، على أمل أن يكون صهري . وأجرؤ على الظن بأنك ، حين تريته ، لن تهمني بالمحابة أو بالتسرع في الرأي . (كان نيقولاي ارتيميفيتش يتكلم ، ويعجب بذلاقة لسانه .) تعليمه ممتاز ، فهو قانوني ، وتربيته جيدة ، وهو في الثالثة والثلاثين ، وسكرتير أول ، ومستشار مخرج ، وحامل وسام ستانيسلاف . وآمل في أنك ستنصفيني ، ولا تضعيني في عداد أولئك * * pères de comédie الذين تسرحهم المناصب وحدها . وانت نفسك كنت تقولين لي أن يلينا نيقولايفنا يعجبها الأكفاء ، الإيجابيون . ويغور اندرييفيتش الأول في حقله من حيث الكفاءة . وابنتي ، من الناحية الأخرى ، ميالة إلى أفعال الشهامة ، فاعلمي ، إذن ، أن يغور اندرييفيتش ، حالما اتاحت له إمكانية ، وأرجو أن تفهميني ، إمكانية العيش على راتبه دون عوز . تخلى على الفور لأخوانه عن المبلغ السنوي الذي عينه له أبوه .

فسألت أنا فاسيليفنا :

- ومن أبوه ؟

- أبوه ؟ أبوه أيضاً انسان مشهور في مضمماره ، ذو أخلاقيات

* الجبل الاسود (وموته يغور) - مقاطعة في البلقان هي الآن

داخلية في حدود يوغوسلافيا .

* * الأباء في التمثيليات الفكاهية (بالفرنسية في الأصل) .

عالية جداً . un vrai stoïcien . رائد متقاعد ، على ما اظن ، يدير كل شئ الكونتات من آل ب . . . قالت أنا فاسيليفنا :

أها !

فاسرخ نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

أها ! ماذا أها ؟ هل معقول أنك أيضاً مصابة بداء التحاملات ؟

فصرخت أنا فاسيليفنا تقول :

- ولكنني لم أقل شيئاً . . .

- لا ، قلت أها ! . . . ومهما يكن من شئ ، رأيت من اللازم

أن أذهبك إلى ما يدور في ذهني ، وأجرؤ على الاعتقاد . . . أجرؤ على

أن أأمل في أن السيد كورناتوفسكي سيستقبل * * à bras ouverts

ليس من الجبلين السود أو ما شاكل .

- بالطبع . ولكن يجب أن نبليغ الطباخ فأنكا ليضيف اصنافاً

جديدة .

- انت تعرفين انني لا ابدخل في ذلك - قال نيقولاي

ارتيميفيتش ونهض ، ولبس قبعته ، وذهب ليتنزه في الحديقة .

وهو يصغر (وكان قد سمع أن الصغير لا يجوز إلا في بيت ريفي

تطه أو في حلبة الخيول) . نظر شوبين إليه من نافذة مسكنه

السلق ، وأخرج له لسانه صامتاً .

في الساعة الرابعة الا عشر دقائق وصلت إلى واجهة بيت

ستانوف الريفي عربة مستأجرة ، ونزل منها رجل لم يتخط بعد سن

الشباب ، مهذب المظهر اتفق اللباس ، بسيطه ، وأمر بأن يعلن

عن وصوله . ذلك هو يغور اندرييفيتش كورناتوفسكي .

وبالمناسبة ، هذا ما كتبته يلينا لاينساروف في اليوم التالي :

«عشتي ، يا عزيزي دميتري ، فقد صار لي خطيب . ويوم

امس تناول طعام الغداء عندنا ، وكان أبي قد تعرف عليه في النادي

الانجليزي . على ما يبدو ، ودعاء لزيارتنا . وطبيعي انه لم يأت

يوم امس كخطيب ، الا أن أمي الطيبة التي ابلغها أبي بأمنيته ،

عشت في أذنسي من هو ضيفنا . يدعى يغور اندرييفيتش

* ديتونوي حقيقي (بالفرنسية في الأصل) .

* * بأدع مفتوحة (بالفرنسية في الأصل) .

كورناتوفسكي ، ويعمل سكرتيراً اول في مجلس الشيوخ . ولا أحد لك مظهره الخارجي اولاً . انه ربع القامة ، اقصر منك ، حسن البنيان ، متناسق القسمات ، قصير الشعر ، طويل القدال . عيناه صغيرتان (كعينيك) بنيتان ، سريعتان ، وشفاه مسطحتان ، عريضتان ، وفي عينيه وعلى شفثيه بسمة دائمة ، رسمية على امر ما ، وكأنما لاداء الواجب . طريقة سلوكه بسيطة جداً ، وكلامه واضح ، وكل شيء لديه واضح ، فهو يسير ، ويضحك ، ويأكل وكأنه يؤدي عملاً . ولربما انت تفكر في هذه اللحظة «درست بدقة !» اجل ، لكي اصفه لك . ثم كيف لا ادرس خطيبي ! ان في شيئاً حديدياً . . . وبليداً وفارغاً في الوقت ذاته ، ونزيباً . يقال انه نزيه جداً ، حقاً . وانت ايضاً حديدي ، ولكن لست كمثل جلس الى المائدة جنبي ، وجلس شوبين قبالتنا . في البداية دار الحديث عن مؤسسات تجارية يقال انه يفهم فيها ، وكاد يترك وظيفته ليشرف على معمل كبير . ولكنه فوت عليه الفرصة ثم اخذ شوبين يتحدث عن المسرح ، وهنا ذكر السيد كورناتوفسكي وبدون اي تواضع كاذب - ويجب ان اقر بذلك - انه لا يفقه شيئاً في الفن . وقد ذكرني ذلك بك . . . ولكنني قلت لنفسي : لا ، لا ، ودميتري لا نفهم الفن بطريقة مغايرة ، على اية حال . بينما هذا كما لو انه كان يريد ان يقول : انا لا افهمه ، كما انه ليس ضرورياً . ولكنه مسموح به في دولة حسنة التنظيم . ان هذا الرجل ، عز العموم ، يستهين كثيراً ببطرسبورغ ، و *comme il faut* بل وقد سمى نفسه بروليتارياً مرة واحدة . ويقول : نحن عمال بسطاء . وقد فكرت مع نفسي : لو ان دميتري قال ذلك لما اعجبني ذلك منه ، ولكن ليقول هذا عن نفسه ما يشاء ، وليتيجج ! كان جدمهذب معي ، ومع ذلك فقد كان يبدو لي دائماً ان المتحدث الي رئيس يتلطف مع محدثه كثيراً . وحين يريد ان يمتدح انساناً يقول انه **صاحب اصول** . وذلك تعبيره المفضل . فلا بد انه واثق بنفسه . محب للعمل ، ومقتدر على التضحية (ها انت ترى انني منصف) اقصد التضحية بمنافعه ، ولكنه مستبد كثيراً . ومن المصيبة الوقوع في يده ! جرى الحديث على المائدة عن الرشاوى . . . قال :

- انا ادرك ان الذي يأخذ الرشوة غير مذهب في كثير من

الاحوال . فهو لا يستطيع ان يفعل خلاف ذلك . ومع هذا يجب سحبه . اذا اكتشف امره .

هتفت :

- سحق بريثا !

- نعم ، في سبيل المبدأ .

فسال شوبين :

- اي مبدأ ؟

فيما على كورناتوفسكي الارتباك او الدهشة وقال :

- لا يحتاج ذلك الى شرح .

فتدخل ابي الذي كان يجثله ، كما يبدو ، وقال : لا يحتاج ، بالطبع ، وانتهى هذا الحديث ، مع الاسف . وفي المساء جاء بيرسينيف ، ودخل معه في جدال مريع . حتى ذلك الحين لم ارقط صديقنا اندريه بيتروفيتش الطيب على مثل تلك الدرجة من الانفعال . لم يتكر السيد كورناتوفسكي ، على الاطلاق ، فائدة العلم والعامات وغيرها . . . ومع ذلك فقد كنت اتفهم استياء اندريه بيتروفيتش . كان الآخر ينظر الى كل ذلك وكأنه نوع من التمارين الرياضية . جاءني شوبين ، بعد الفراغ من المائدة ، وقال : «ان هذا وشخصاً آخر (انه لا يستطيع ان يلفظ اسمك) عمليان كلاماً ، ولكن انظري اي فارق بينهما . الآخر مثال حقيقي حي طرخته الحياة نفسها ، اما هذا فحتى الشعور بالواجب غير متوفر فيه ، بل مجرد لزامة وظيفية ، وكفاءة فارغة من اي محتوى » . ان شوبين ذكر ، وانا اتذكر ما قاله خصيصاً لك . ولكن اي جامع يمكن ان يكون بينكما برأيي ؟ انت تؤمن ، وهو لا ، اذ لا يجوز الايمان بالنفس فقط .

غادر السيد كورناتوفسكي في ساعة متأخرة ، ولكن ماما لحقت ان تخبرني بانني رقت له ، وان ابي في غاية الغبطة . . . لعل السيد كورناتوفسكي قال ايضاً عني انني صاحبة اصول ؟ وكنت ارد على امي بانني آسفة جداً ، ولكن لي زوجاً بالفعل . لماذا لا يعبك ابي الى هذه الدرجة ؟ مع امي يمكن ان تدبر الامر بطريقة او باخرى . . .

آه ، يا عزيزي . لقد اسهبت لك في وصف هذا السيد لا تغلب على وحشتي . لا حياة لي بدونك . وانا ، على الدوام ، اراك

واسمعه... انا انتظرك ، ولكن ليس في بيتنا ، كما كنت تريد -
تصور ما سنحسه من ضيق وحرجة - بل في المكان الذي كنت
لك عنه - في ذلك الحش . . . آه ، يا عزيزي ، كم احبك !»

٢٣

بعد ثلاثة اسابيع من زيارة كورناتوفسكي الاولى انتقلت آنا
فاسيليفنا الى موسكو ، مثيرة بذلك فرحاً عظيماً في نفس يلينا
ونزلت في بيتها الخشبي الكبير قرب شارع بريتشستينكا ، وهو
بيت ذو اعمدة تكمل كل نافذة من نوافذه قيثارات واكاليل بيضاء
وللبيت طابق علوي ، ومرافق للخدمات ، وحديقة خضروات ، وفناء
اخضر واسع ، فيه بئر يجاورها وجار للكلاب . من قبل لم تكن
آنا فاسيليفنا تغادر البيت الريفي الى المدينة في مثل هذا الوقت
المبكر من الخريف . ولكن موجات البرد الخريفية الاولى في هذا العام
اثارت خراجات اللثة عندها . كما ان نيقولاي ارتيميفيتش ، من
ناحيته ، قد انهى دورة علاجه ، واشتاق الى زوجته ، لاسيما وان
افغوستينا خريستيانوفنا قد سافرت لزيارة ابنة عمها في ريفيل
ووصلت الى موسكو اسرة اجنبية كانت تعرض اوضاعاً بلاستيكية
des poses plastiques اثار وصفها في صحيفة «موسكوفسكيه
فيدوموستي» فضول آنا فاسيليفنا الشديد . وباختصار كان
استمرار الإقامة في البيت الريفي غير ملائم ، بل ولا يتفق ، كما قال
نيقولاي ارتيميفيتش ، مع تنفيذ «مخططاته» . وبدأ الاسبوعان
الاخيران طويلين جداً ليلينا . وكان كورناتوفسكي يزورهم مرتين
يوم الاحد ، وكان في بقية الايام مشغولاً . وكان يأتي خصباً
ليلينا ، ولكنه كان يتحدث اكثر مع زويا التي اعجبت به كثيراً .
وكانت تقول لنفسها ، وهي تنظر الى وجهه الاسمر الرجولي وتسمع
كلامه الواثق المتسامح : * «Das ist ein Mann!» . فان احداً ، حسب
رايها ، لم يمتلك صوتاً مدهشاً مثل صوته ، ولا احد يضارعه في
نطقه بشكل رائع : «لي الشرف» او «انا مرتاح جداً» . ولم يزد

* هذا رجل حقيقي (بالألمانية في الاصل) .

اينساروف آل ستاخوف ، ولكن يلينا التفتت ذات مرة خلسة في
حش صغير على نهر موسكو ، كانت قد حددت له موعداً فيه . وما
كاد الوقت يتسنى لهما ليتبادلا بعض الكلمات ، وعاد
شربل الى موسكو مع آنا فاسيليفنا ، وبعد بضعة ايام تبعه
برسينيف .

كان اينساروف جالساً في حجرته يقرأ للمرة الثالثة رسائل
وسلته من بلغاريا مع رسول سانح ، فقد كانوا يخافون ان
يرسلوها في البريد . وقد اقلقت الرسائل كثيراً . الاحداث تتطور
بسرعة في الشرق . وكان احتلال القوات الروسية للامارتين (٢٤)
بشغل بال الجميع . واشتدت العاصفة ، وفاحت رائحة حرب قريبة
لا مرد لها . وبدأ الحريق ، ولم يكن في مستطاع احد ان يتنبا الى
اين يتجه ، واين يتوقف . تحركت المظالم القديمة والاماني التي
طال امدها . وكان قلب اينساروف يخفق بشدة ، فاخذت آهاله
تتحقق . وكان يفكر عاصراً يديه : «ولكن اليس ذلك مبكراً ؟ بدون
جدوى ؟ فنحن غير مستعدين الآن . ولكن ما العمل ! يجب ان
اسافر» .

حدثت حركة خفيفة وراء الباب ، وانفتح بسرعة ، ودخلت يلينا
العجوة .

ارتعش كيان اينساروف كله ، واندفع نحوها ، وركع امامها ،
وطوق قامتها ، وضغط راسه عليها بقوة .

- لم تكن تتوقعني ؟ - قالت ، وهي لا تكاد تلتقط انفاسها
(وكانت قد ارتقت السلم بسرعة) - عزيزي ! عزيزي ! - ووضعت
كلتا يديها على راسه ، وتلفتت - هنا تعيش ، اذن ؟ عثرت عليك
بسرعة . دلتني ابنة صاحب البيت . انتقلنا الى موسكو يوم امس
الاول . وادرت ان اكتب لك ، ولكنني فكرت في ان مجيئي اليك
افضل . ساقط معك ربع ساعة . انهض ، واغلق الباب .

انهض ، وخف ، لغلق الباب ، وعاد اليها ، واخذ يديها . لم
يستطع ان يتكلم ، فقد عقدت الفرحة لسانه . وكانت تحديق في
عينيه مبسمة . . . كان في عينيه الكثير من السعادة . . . وخجلت
يلينا .

- على مهلك - قالت له ، واسترجعت يديها منه بلطف -
دعني اطلع القبة .

وفكت شريطي القبعة ، ورمتها والقت العباءة عن كتفها ، وعلمت
شعرها . وجلست على اريكة صغيرة قديمة . جمد اينساروف يمس
فيها كالمسحور .
- اجلس .

قالت دون ان ترفع اليه عينها ، مشيرة له الى مكان جنبها
جلس اينساروف ، ولكن على الارض ، عند قدميها ، لا
الاريكة .

قالت بصوت مضطرب ، اذ شعرت برهبة :

- خذ ، اخلع القفازين من يدي .

اخذ يفك الازرار في البداية ، ثم يسحب احد القفازين ، وسحب
الى النصف ، ولثم في نهم الكف الناعمة الرقيقة التي لاحت بيضا
من تحت القفاز .

ارتعشت يلينا ، وارادت ان تدفعه بيدها الاخرى ، ولكن
راح يقبل هذه اليد ايضاً . سحبتها يلينا نحوها ، فدفع رأسها
الى الوراء ، فنظرت في وجهه ، وانحنى ، والتقت الشفاه . . .
مرت لحظة . . . انتزعت يلينا نفسها ، ونهضت ، وهست
«لا ، لا» واقتربت بسرعة من منضدة الكتابة .

- انا ربة بيت هنا ، ولا يجوز ان تخفي عني خافية - قالت
محاولة ان تبدو خلية البال ، مديرة له ظهرها - ما اكثر الاوراق
ما هذه الرسائل ؟

قطب اينساروف حاجبيه . وقال ، وهو ينهض من الارض :

- هذه الرسائل ؟ تستطيعين ان تقرئيها .

قلبت يديها .

- انها كثيرة جداً ، ومكتوبة بخط دقيق ، بينما يجب ان
انصرف الآن . . . ساتركها ! اليس من غريبة لي ؟ ولكنها ليست
بالروسية .

اضافت ذلك ، وهي تتصفح الاوراق الخفيفة .

دنا اينساروف منها ، ومس قدماً . فاستدارت نحوه فجأة
وابتسمت له ابتسامة مشرقة ، واستندت على كتفه .
- ان هذه الرسائل من بلغاريا ، يا يلينا . اصدقائي يكتبون

لي ، ويدعونني الى السفر .

- الآن ؟ الى هناك ؟

نعم . . . الآن . ما دام الوقت لم يفت ، وما دام السفر
ممكناً .

وفجأة طوقت رقبتة بكلتا يديها .

- ولكن ستأخذني معك ؟

ضمها الى صدره .

- آه . يا فتاتي العزيزة ، يا بطلتي ، ما الطف نطقك لهذه

الكلمات ! ولكن اليس خطيئة ، اليس جنوناً مني ان اجرك معي -

انا الذي لا بيت له ولا اهل . . . والى أين !

وضعت يدها لتسد فمه قائلة :

- هسس . . . والا فساوعل ، ولن اعود لزيارتك ابداً .

ولكن ألم يحس كل شيء بيننا ، ويئيت ؟ اولست زوجتك ؟ وهل

الزوجة تفارق زوجها ؟

قال بابتسامة شبه حزينة :

- الزوجات لا يخرجن للحرب .

- اجل ، اذا يقدرن على البقاء . وهل في امكاني ان ابقى هنا ؟

- يلينا ، انت ملاك ! . ولكن فكثري ، ربما اضطر الى ترك

موسكو . . . بعد اسبوعين . ولا مجال لان افكر في محاضرات

الجامعة ، ولا في اكمال اعمالتي .

قاطعت يديها :

- ما هذا الذي تقوله ؟ هل يجب ان تسافر قريباً ؟ اذا اردت ،

فساقي معك الآن ، هذه اللحظة ، واظل معك الى الابد ، ولن اعود

الى البيت ، هل تريد ؟ لنسافر الآن ، هل تريد ؟

ضمها اينساروف بين ذراعيه بقوة مضاعفة ، وهتف :

- ليعاقبني الرب ، ان قمت بعمل سوء ! منذ اليوم نحن

مرتبطان الى الابد !

فسالت :

- يعني ، ساقى ؟

- لا ، يا فتاتي الطاهرة ، لا ، يا كنزي . ستعودين اليوم الى

البيت ، ولكن كوئي على احبة ، فان هذا الامر لا يجوز ان يؤتى دفعة

واحدة . يجب التروي في كل شيء . ونحن نحتاج الى نقود ، وجواز

سفر . . . قاطعت يديها :

- عندي نقود . ثمانون روبلاً .

فقال اينساروف :

- هذا ليس مبلغاً كبيراً . ولكنه ينفع على اية حال .

- واستطيع ان احصل على اكثر ، استدين . اطلب مني امي . . . لا ، لا اريد ان اطلب منها . . . ولكن يمكن ان اطلب مني . . . وعندى اقراط ، وسواران . . . مغرمات .

- ليست المسألة مسألة فلوس . يا يلىنا . جواز السفر جواز سفرك . كيف تدبره ؟

- نعم . كيف تدبره ؟ لا بد من جواز سفر ؟

- لا بد .

وضحكت ضحكة مقتضبة ساخرة .

- هذا ما خطر في بالي ! اتذكر ، وانا صغيرة . . . من منا خادمة ، قامسكوا بها ، وصفحوا عنها ، وظلت تعيش معانا طويلاً . . . ومع ذلك كان الجميع يلقيونها بتاتيانا الهاربة . اكن اتصور في حينها ، انني ربما ساكون ايضاً هاربة . مثلها - عيب عليك ، يا يلىنا !

- وماذا في الامر ؟ الافضل ، بالطبع ، ان اسافر بجواز سفر ولكن اذا تعذر ذلك . . .

قال اينساروف :

- سنسوي كل ذلك ، فيما بعد ، فيما بعد ، انتظري . اعطى فرصة لان اتفحص اموري ، اتركيني افكر . سنبتاح في كل شيء سووية ، وكما ينبغي . اما النقود فعندي منها ايضاً . ازاحت يلىنا بيدها الشعر الذي تساقط على جبينه . - آه . دميثري ! ما امتع ان نسافر سووية !

قال اينساروف :

- نعم ، وهناك الى اين نذهب . . .

قاطعته يلىنا :

- وماذا في ذاك ؟ اليس الموت سووية ممتعاً ايضاً ؟ ولكن لماذا نموت ؟ سنعيش ، فنحن شبابان . كم عمرك ؟ ستة وعشرون - ستة وعشرون .

- وانا في العشرين . امامنا العمر بطوله . ها ! وكنت ان تهرب مني ؟ لم تكن بحاجة الى حب روسي ، ايها البلغاري !

الآن كيف ستتخلص مني ! ولكن ماذا كان سيحصل لنا ، لو لم اتجه اليك آنذاك !

- انت تعرفين ، يا يلىنا ، ما الذي كان يحملني على الابتعاد عنك .

- اعرف . احببت . وارتعبت . ولكن هل من المعقول انك لم تعدس انني كنت ابادلك الحب ؟

- لا . يلىنا قسماً بالشرف . قبلته بغتة وبسرعة .

- ولهذا بالذات احبك . والآن ، وداعاً .

فسال اينساروف :

- الا تستطيعين ان تبقي اكثر ؟

- لا . يا عزيزي . هل تتصور انه كان سهلاً علي ان اسفل واخرج وحيدة ؟ ربع الساعة انقضى منذ زمان - ولبست عباؤها وقبعاتها - تعال عندنا غدا في المساء ، لا ، بعد غد . سيكون الجو صافياً مضجراً ، ولكن لا حيلة لنا عليه . سيرى احدنا الآخر على اقل تقدير . وداعاً . دعني اذهب - وعانقها للمرة الاخيرة - آه ! انظر ، قطعت سنسليتي . آه . يا فتاتي الاخرق ! طيب ، لا يهم . هذا احسن . ساذهب الى شارع "كوزنتسكي موس" ، واعطيها للتسليم . فاذا سالوني اقول كنت في كوزنتسكي موس -

وامسكت مقبض الباب - بالمناسبة ، نسيت ان اقول لك : من التحل ان مسيو كورناتوفسكي سيطلب يدي خلال ايام . ولكنني سامنعه له . . . هذا - ووضعت ايها يدها اليسرى على ارنبة انكها ، وحركت اصابعها الآخر في الهواء - وداعاً ، والى اللقاء . اعرف الطريق الآن . اما انت فلا تضيع الوقت . . .

فتحت يلىنا الباب قليلاً ، وتسمعت ، واستدارت نحو اينساروف . واومأت برأسها ، وانسلت من الحجرة .

وقف اينساروف امام الباب دقيقة ، وتسمع ايضاً . انصفق الباب المؤدي الى الفناء في الاسفل . اقترب اينساروف من الاربكة ، وجلس ، وغطى عينيه بيده . ان مثل هذا الشيء لم يحدث له من قبل . وفكر : "لاي شيء اجازى بهذا الحب ؟ العله علم ؟"

الا ان رائحة البليحاء الخفيفة التي ابقتها في حجرته البائسة

المظلمة كانت تذكر بزيارتها . كما بقيت عالقة في الهواء ، يبدو ، رنات صوتها الفتي ، وحفيف خطواتها الفتية الخفيفة ، وغلغلة وغضارة جسدها العذري الفتي .

قرر اينساروف ان ينتظر اخباراً اكثر ايجابية . وبدأ ينهي للسفر . وكان الامر صعباً جداً . وفي الحق لم تكن هناك اية عقبات امامه . اذ لم يكن عليه الا ان يطالب بجواز سفر . ولكن كبر سيكون الامر مع يلينا ؟ كان من المستحيل الحصول لها على جواز سفر بطريق مشروع . ام يعقدان قرانهما خلسة ، ثم يتوجهان الى والديها وكان يفكر : «عندئذ سيسمحان لنا بالسفر . وان لم يسمحا ؟ سنسافر ، في كل الاحوال . وان اشتكيا علينا ان . . . لا ، من الافضل السعي للحصول على جواز سفر بطريقة ما» .

وعزم على التشاور (دون ان يسمى اسماً ، بالطبع) مع مدع عام يعرفه ، متقاعد او مقال ، وعجوز ضليع محنك في شتى القضايا السرية . وكان هذا الرجل المحترم يعيش بعيداً من مسكنه ، وفقر اينساروف ساعة كاملة للوصول الى بيته في عربة مستاجرة بالسة . والانكى من ذلك انه لم يجد في بيته ، وفي طريق العودة بله حرج العظام وابل هطل على حين غرة . وفي الصباح التالي ذهب اينساروف للمرة الثانية الى بيت المدعي العام المتقاعد ، رغم الصداق الشديد . اصغى اليه المدعي العام المتقاعد بانتباه ، وهو يستنشق التبغ من علبة تبغ مزينة بصورة حورية مكتنزة النهدين ، وينظر الى خيله بحول من عينين صغيرتين ماكرتين بلون التبغ ايضاً . كان يصم ويطلب «دقة اكثر في طرح المعطيات الفعلية» ، ولما رأى كرامها اينساروف للدخول في التفاصيل (وكان قد جاء اليه على مضض) اكتفى بتوجيه النصيح له بأن يتزود بـ«القروش» قبل كل شيء . وطلب اليه ان يزوره للمرة الثانية . واضاف ، وهو يستنشق التبغ منكباً على علبته المفتوحة «عندما تزداد لديك الثقة ، وتقلل عدم الثقة» . ومضى يقول كمن يخاطب نفسه : «اما جواز السفر فتمت

متناول يد الانسان . فانت لو سافرت مثلاً ، فمن سيعرف من انت : ماريا بريديخينا ، ام كارولينا فرغيلمير ؟» واحس اينساروف بشعور القرف يتململ في نفسه ، الا انه شكر المدعي العام ، ووعده بالعودة اليه خلال ايام .

في ذلك المساء ذهب لزيارة آل ستاخوف . استقبلته آنا في ذلك المساء بفرحة ، وعاتبته على نسيانه لهم كلياً ، ولما رآته غاسيليفنا بركة . واستفسرت عن صحته . ولم يقل نيقولاى ارتيميفيتش صاحب الوجه استفسرت عن صحته . ولكنه نظر اليه بفضول ساهم ذاهل ، ولا شيء له اية كلمة . ولكنه نظر اليه بفضول ساهم ذاهل ، ولا شيء آخر . وعامله شوبين ببرود ، ولكن يلينا ادهشته . فقد كانت تنتظره . ومن اجله ليست نفس الثوب الذي كانت ترتديه يوم لقائهما الاول في الصومعة ، ولكنها رحبت به بهدوء شديد ، وكانت لطيفة جداً ، ومرحة في خلو بال ، فما كان في وسع احد ينظر اليها في تلك الساعة ان يظن ان مصير هذه الفتاة قد حُسم ، وان الاحساس الخفي بالحب السعير وحده كان يضفي الحيوية على ملامحها ، والخفة والفتنة على كل حركاتها . كانت تصب الشاي ، بدلاً من زويا ، وتمزج ، وتكثر من الكلام ، فقد كانت تعرف ان شوبين سيراقبها وان اينساروف لا يحسن التمويه ، ولا يجيد النفاذ بعدم الاكترات ، فسلحت نفسها مسبقاً . ولم تخطئ في ذلك . فقد كان شوبين لا يصرف عينيه عنها . وكان اينساروف صبوراً جداً وعبوساً خلال الامسية كلها . وكانت يلينا تشعر بالسعادة تغمر نفسها ، حتى انها رغبت في مناكذته .

سألته فجأة :

- ماذا ، اذن ؟ هل مشروعك في تقدم ؟

ارتبك اينساروف ، وقال :

- اي مشروع ؟

- هل نسيت ؟ - ردت عليه ضاحكة في وجهه . وكان وحده يستطيع ان يدرك مغزى هذا الضحك السعيد - كتاب المطالعة البلغاري للروس الذي كنت تنوي تأليفه ؟

نعم نيقولاى ارتيميفيتش من خلال اسنانه :

Quelle bourde !

يا اللطافة ! (بالفرنسية في الاصل) .

جلست زويًا الى البيانو . هزت يلينا كتفها بشكل لا يلاحظ ، وأشارت لاينساروف بعينيهما الى الباب ، وكأنها تأذن له بالانصراف . ثم مسّت العائدة بأصبعها مستين ، ونظرت اليه . ففهم انها قد حددت له موعداً بعد يومين ، وابتسمت ابتسامة سريعة حين رأت انه قد فهم اشارتها . نهض اينساروف ، واخذ يستأذن بالانصراف ، لانه يشعر بتوعك . جاء كورناتوفسكي . فقبل نيقولاي ارتيميفيتش واقفاً ، ورفع يده اليمنى الى اعلى من راسه . وانزلها بنعومة على كف السكرتير الاول هذا . بقي اينساروف يضع دقائق آخر ، ليتفحص غريمه . هزت يلينا رأسها خلسة وبمكر . فان رب البيت لم ير من الضروري ان يعرف احدهما بالآخر ، وخرج اينساروف متبادلاً النظرات مع يلينا للمرة الاخيرة . فكر شوي وفكر ، ثم دخل في نقاش ضار مع كورناتوفسكي عن مسألة قانونية لم يكن يفقه فيها شيئاً .

أرق اينساروف الليلة بطولها ، وفي الصباح كان يشعر بسوء في صحته . ومع ذلك اخذ يرتب اوراقه ، ويكتب الرسائل ، الا ان رأسه كان ثقيلاً ، ومضطرباً . وعند الغداء ارتفعت حرارته . فلم يستطع ان يأكل شيئاً . واشتدت الحرارة بسرعة عند المساء . واصابه انحلال في كل اعضائه ، وصداع مؤلم في رأسه . استلقى اينساروف على نفس الاركة الصغيرة التي كانت يلينا تجلس عليها قبل وقت قصير . وفكر مع نفسه : «هذا عقاب عادل على ذهابي الى ذلك المحتال العجوز» وحاول ان يغفو . . . ولكن العرض كان قد تمكن منه آنذاك . وراحت عروقه تنبض بقوة رهيبة ، والدم يغلي بحرارة في داخله ، والافكار تدور في ذهنه كالطيور . وغرق في غيبوبة . انطرح على ظهره كالمسحوق ، وفجأة تراءى له شخص يضحك فوقه بخفوت ويهمس . فتح عينيه بجهد . فنفذ اليهما صوت السمعة المحترقة كالسكين . ما هذا ؟ كان المدعي العام العجوز امامه في روب بيتي حريري محزم بنطاق من الحرير الخفيف ، كما رآه قبل يوم . وتمتم الفم الادرد «كارولينا فوغيلميير» . ويحدث اينساروف والعجوز يكبر ، وينتفخ ، وينمو ، حتى لم يعد رجلاً ، بل شجرة . . . وكان على اينساروف ان يتسلق اغصانها العالية . فيتشبك ويسقط بصدره على صخرة حادة ، وكارولينا فوغيلميير تجلس القرفصاء ، في زي بائعة ، وتغمغم : «فطائر ، فطائر ، فطائر» .

يتدفق دم ، والسيوف تلعب لمعاناً لا يطاق . . . يلينا ! . . . واختفى كل شيء في هبولى حمراء . . .

- جاءك شخص ، والله يعلم من هو . . . ربما هو سمكري .
ويريد ان يراك .
قال ذلك لبيرسينييف في المساء التالي ، خادمه الذي كان يتميز بالصرامة في التعامل مع سيده ، وبنزعة التشكك في تفكيره .
قال لبيرسينييف :
- دعه يدخل .
ودخل «السمكري» . فعرف لبيرسينييف فيه الخياط صاحب المسكن الذي يقيم فيه اينساروف .
سأله :

- ماذا تريد ؟
- اريد ان اكلم حضرتك - قال الخياط منقلاً قدميه ببطء ، ورافعاً من حين لآخر يده اليمنى ، وقد امسك بأصابعه الثلاث الاخيرة طرف كفه - نزيلنا مريض جداً والله يعلم .
- اينساروف ؟

- بالضبط ، نزيلنا . والله يعلم . حتى صباح امس كان ما يزال على قدميه ، وفي المساء لم يطلب غير شيء يشربه ، فجلبت له ام بيتنا ماء ، وفي الليل راح يهذر ، وكنا نسمعه من خلال الحاجز . واليوم صباحاً فقد لسانه ، وهو مطروح كالخشبة ، متوهج بحمى ، نعوذ بالله منها ! وفكرت : الله يعلم ، قد يموت بين لحظة واخرى ، ويجب اخبار الشرطة . لانه وحيد ، ولكن ام البيت قالت لي : «اذهب الى الساكن الذي كان نزيلنا يستأجر حجرة في بيته الريفي . فلعله يشير لك بشيء ، او يأتي بنفسه» . ولهذا جئت الى حضرتك ، لانه لا يجوز لنا ، اقصد . . .

اختطف لبيرسينييف قبعته ، ودس في يد الخياط قطعة معدنية من فئة الروبل . واسرع معه في عربة مستأجرة الى مسكن اينساروف على الفور .

وجده راقدًا على الاركة فاقد الوعي ، في ثيابه الكاملة . وقد

تغير وجهه تغيراً رهيباً . اسرع بيرسينيف فامر صاحب البيت وربته بأن يخلعا عنه ثيابه ، وينقلاه الى السرير ، وانطلق هو الى الطبيب ، وجاء به . وصف له الطبيب دفعة واحدة علقتا واصفاد وملح الزئبق كما امر بقصد الدم .

سأله بيرسينيف :

- هل هو في حالة خطرة ؟

اجاب الطبيب :

- نعم ، جداً . التهاب شديد للغاية في الرئتين ، والنهاس الغشاء البلوري في اوجه . ولربما الدماغ مصاب ايضاً ، بينما الشخص ما يزال شاباً . قواه الآن انقلبت ضده . تأخرت استدعائي ولكننا ، على العموم ، سنقوم بكل ما يتطلبه العلم . كان الطبيب نفسه ما يزال شاباً ، ويصدق بالعلم .

وبقي بيرسينيف لقضاء الليلة . وكان رب البيت وربته طيبين بل ومقتدرين ، حالما توفر الشخص الذي اخذ يقول لهما ماذا يجب ان يفعلوا . وجاء المطيب وبدأت التعذيبات الطبية .

وعند مطلع الصباح افاق اينساروف على نفسه بضع دقائق ، وعرف بيرسينيف ، وسأله : « يبدو أنني معتل الصحة ؟ » . ونظر فيما حوله بالحيرة المتبلدة الفاترة التي يتسم بها المريض الذئب . ثم غاب عن الوعي ثانية . ذهب بيرسينيف الى بيته ليستبسل ملابسه ، واخذ معه بعض الكتب ، وعاد الى مسكن اينساروف . وقد عزم ان يسكن معه في فترة المرض الاولى على الاقل . سار سريريه ببراقان ، وهيا لنفسه موضعاً قرب الاريغة . ومرت اليوم حزناً متباطئاً ، ولم يغيب بيرسينيف الا ليتناول لقمة . ومرت المساء ، واشعل بيرسينيف شمعة ذات ظليلة ، واخذ يقرأ . كان الصمت يشمل كل شيء . ومن خلف الحاجز كان يُسمع لاهل البيت همس مكبوت تارة ، وتثاؤب تارة اخرى ، وزفرة تارة ثالثة . . . وعطس احدهم ، فقرع همساً ، وكانت تصدر من وراء اليراقان اعاس ثقيلة متقطعة يتخللها ، احياناً ، انين قصير ، وتقلب رأس ملول على الوسادة . . . وتواردت افكار غريبة على ذهن بيرسينيف . كان في حجرة رجل كانت حياته معلقة بخيط رفيع ، رجل - وهو يعرف ذلك - كانت يلينا تحبه . . . وتذكر تلك الليلة التي لفظ فيها شوبين ، وابلغه انها تحبه هو ، بيرسينيف ! والآن . . .

سأل نفسه : « ماذا علي ؟ ان افعل الآن ؟ اخبر يلينا بمرضه ؟ ام انتظر قليلاً ؟ هذا الخبر اشد حزنًا من ذلك الذي نقلته لها يومها . غريب ان القدر يضعني دائماً شخصاً ثالثاً بينهما ! » . وقرر ان ينتظر قليلاً . فذلك افضل . وقع بصره على المتضدة المغطاة بتلال من الاوراق . . . فكر بيرسينيف : « ترى ، هل سيحقق مخططاته ؟ معقول ان يختفي كل شيء ؟ » واشفق على الحياة الفتية المحترقة ، وقطع على نفسه عهداً بأن ينقذها . . .

كانت الليلة سيئة . ظل المريض يهذي كثيراً . نهض بيرسينيف غير مرة من مرقدته على الاريغة ، ودنا من السرير على اطراف اصابعه . واصغى في حزن الى هذيانه غير المترابط . مرة واحدة فقط نطق اينساروف بوضوح مباغت : « لا اريد ، لا اريد ، ينبغي ان لا تفعل . . . » جفل بيرسينيف ، ونظر الى اينساروف . . . كان وجهه المعبذب ، والميت في نفس الوقت ، جامداً ، ويداه ترتجيان بلا حول . . . وكرر المريض بصوت لا يكاد يسمع : « لا اريد » .

جاء الطبيب في الصباح ، وهز رأسه ، ووصف ادوية جديدة . وقال وهو يلبس قبعته :

- ما زال هناك شوط بعيد الى ان تحل الازمة .

فسأله بيرسينيف :

- وبعد الازمة ؟

- بعد الازمة ؟ امام امرين (٢٥) * aut Caesar, aut nihil .

غادر الطبيب . سار بيرسينيف في الشوارع عدة مرات رواحاً ومجئاً . كان يحتاج الى هواء طليق . وعاد ، وتناول كتاباً . وكان قد فرغ من راومر منذ زمان ، وهو الآن يدرس غروت (٢٦) .

وفجأة صر الباب بخفوت ، واطل رأس ابنة صاحب البيت على العتبة بعذر ، معصوباً بحنديل سميك ، كالعادة . وقالت صاحبته بصوت خافت :

- جاءت آنسة الاكابر التي نفتحني يومها بعشرة كوبيكات . . . واخفى رأس ابنة صاحب البيت فجأة ، وظهرت يلينا مكانه . لغز بيرسينيف كالمخدوغ . ولكن يلينا لم تبد حركة ولا ندت

* اما القيصر ، واما لا شيء (باللاتينية في الاصل) .

منها صيحة . . . بدا وكأنها فهمت كل شيء في لحظة واحدة .
وجهها شحوب رهيب ، وتقدمت من البرافان ، ونظرت الى ورائه
ورفعت ذراعيها ، وجمدت . وكانت سترتمي على اينساروف
لحظة أخرى ، لو لم يوقفها بيرسينيف . قال لها بهمس مرتعش
- ما هذا الذي تفعلينه ؟ يمكنك ان تسببي موته !
وترنحت . قادها الى الاركة ، واجلسها .

نظرت في وجهه ، ثم طوفت عليه ببصرها ، وبعدها ثبتت عينيه
في الارض .

- انه يحتضر ؟

سالت ببرود شديد وهدوء اربعيا بيرسينيف . قال :

- يلينا نيقولايفنا ، ما هذا منك ، بحق الرب ؟ انه مريض
حقاً ، وبخطر شديد . ولكننا سننقذه ، اتعهد لك بذلك .

سالت بنفس لهجتها السابقة :

- فاقد الوعي ؟

- نعم ، انه الآن في غيبوبة . . . هذا ما يحصل دائماً في بداية
هذه الامراض ، ولكن هذا لا يعني شيئاً ، لا شيء صدقيني . انشري
قليلاً من الماء .

رفعت بصرها اليه وادرك بيرسينيف انها لم تسمع رده .

- إن يَمُتْ - قالت بنفس الصوت لم تغيره - امت انا

ايضاً .

في تلك اللحظة صدرت من اينساروف انثة خفيفة . فاخذت
يلينا ترتجف ، امسكت رأسها ، ثم اخذت تفك شريطي قبعتها . سال
بيرسينيف :

- ما هذا الذي تفعلينه ؟

لم تجب ، فكر بيرسينيف :

- ماذا تفعلين ؟

- سابقى هنا . . .

- كيف . . . لمدة طويلة ؟

- لا اعرف ، ربما النهار كله ، والليل ، او الى الابد . . . لا

اعرف .

- بحق الرب افريقي على نفسك ، يا يلينا نيقولايفنا . بالطبع
لم اكن اتوقع قط ان اراك هنا . ولكنني اعتقد ، على اية حال ، انك

جئت الى هنا لوقت قصير . تذكر ان اهلك يمكن ان يفتقدوك .
وماذا في ذاك ؟

- وسيبحثون عنك . . . ويجدونك . . .

وماذا في ذاك ؟

- يلينا نيقولايفنا ! ها انت ترين . . . انه الآن عاجز عن ان

يحبك .

اطرقت براسها ، وكأنها تفكر ، ورفعت المنديل الى شفيتها .

والفجرت من صدرها فجأة ، وبقوة مروعة ، نوبات متشنجة من
التحجب . . . انكبت على الاركة ووجهها الى الاسفل ، وحاولت ان

تخفيها ، ولكن جسدها كله ظل يخفق ويرتعد كطائر اصطياد لتوه .
كرر بيرسينيف مطلقاً عليها :

- يلينا نيقولايفنا . . . بحق الرب . . .

وفجأة تردد صوت اينساروف :

- ها ؟ ما هذا ؟

رفعت يلينا جسدها ، بينما جمد بيرسينيف في مكانه . . .

وبعد وقت قصير دنسا من السرير . . . كان رأس اينساروف ،

مرتخياً على الوسادة بعجز ، كالسابق . وكانت عيناه مغمضتين .

همست يلينا :

- يهلي ؟

اجاب بيرسينيف :

- يبدو . ولكن هذا لا شيء . وهو ايضاً يحدث دائماً ، لاسيما

اذا . . .

قاطعته يلينا :

- متى مرض ؟

- منذ امس الاول . وانا هنا منذ امس . اعتمدت علي ، يلينا

نيقولايفنا . لن ابتعد عنه ، وسنستخدم كل الوسائل . واذا اقتضى

الامر استدعينا بعض الاطباء للتشاور .

صاحت وهي تلوي يديها :

- سيموت في غيابه .

- اعطيك عهداً بأن ابغك كل يوم عن سير مرضه ، واذا نشأ

خطر فعلي . . .

- احلف لي بانك سترسل علي في الحال ، في اي وقت كان ،

نهاراً او ليلاً ، اكتب مذكرة لي رأساً . . . كل شيء سواء لدي
الآن . هل تسمعني ؟ هل تعيد بأن تفعل ذلك ؟
- اعدك ، امام الله .
- احلف .
- احلف .

وفجأة أمسكت يده ، وقبل ان يلحق ليسحبها ، وقعت عليها
بشفتيها .
تمتم :

- يلينا نيقولايفنا . . . ما هذا منك .

نطق اينساروف بصوت غير واضح :

- لا . . . لا . . . لا حاجة . . .

وزفر زفرة ثقيلة .

اقتربت يلينا من البرافان ، وضعت المنديل باسنائها ، وحذر
في المريض فترة طويلة . وسالت دموع صامتة على خديها .
قال لها بيرسينيف :

- يلينا نيقولايفنا ، قد يعود الى وعيه ، ويعرفك ، ذلك
يعلم ماذا سيسفر عن ذلك . وبالإضافة انا اتوقع مجيء الطبيب
من ساعة الى أخرى .

تناولت يلينا القبعة من الأريكة ، ولبستها ، وتوقفت . وطوفت
عينها في أرجاء الحجرة بأسى . والظاهر انها تذكرت شيئاً . . .
وأخيراً همست :

- لا استطيع ان اخرج .

ضغط بيرسينيف على يدها ، وقال :

- استجمعي قواك ، واهدني . انت تتركينه في رعايتي . واليوم
مساءً سأجيئ اليك .

نظرت يلينا اليه وقالت : «اوه ، يا صديقي الطبيب !» واجهت
باكية ، وانصرفت مسرعة .

اتكا بيرسينيف على الباب . وعصر قلبه شعور كتيب ومروءة
لا يخلو من فرحة غريبة . وفكر : «صديقي الطبيب» ، وهن كتفيه .

تردد صوت اينساروف :

- من هنا ؟

اقترب بيرسينيف منه :

- انا هنا . يا دميتري نيكانوروفيتش . ماذا تحتاج ؟ كيف
حالك ؟

سال المريض :

- لوحذك ؟

- لوحدي .

- وهي ؟

قال بيرسينيف كالمذخور :

- من هي ؟

صمت اينساروف .

- البليحاء العطرية .

همس ، وانغلقت عيناه من جديد .

كان اينساروف ثمانية ايام بلياليها بين الموت والحياة . وكان
الطبيب يتردد دائماً مهتماً كشاب بحالة متعسرة . وسمع شوبين عن
حالة اينساروف الخطرة . وزاره ، كما زاره ابناء وطنه ، البلغار ،
وعرف بيرسينيف من بينهم الشخصين الغريبين اللذين اثارا
استغرابه بزيارتهما المفاجئة لاينساروف في البيت الريفي ، وكان
الجميع يظهرهم عطفهم الصادق ، واقترح بعضهم على بيرسينيف
ان يعمل محله في ملازمة سرير المريض ، ولكنه لم يوافق متذكراً
وعده ليلينا . وكان يراها كل يوم ، وينقل لها جلسة - شفاهاً
أحياناً ، وفي مذكرة صغيرة أحياناً أخرى - كل دقائق سير المرض .
كانت تنتظره واجمة القلب ، وتصغي اليه ، وتمطره بالأسئلة
بلهفة . وكانت طوال الوقت تريد ان تزور اينساروف ، ولكن
بيرسينيف يتوسل اليها ان لا تفعل ذلك لأن اينساروف نادراً ما
يكون وحده . وفي اليوم الأول ، الذي عرفت فيه بمرضه ، كادت
هي الأخرى ان تقع على عتبة . حالما عادت اغلقت عليها باب حجرتها .
ولكنها دمعت لتناول الغداء ، فجاءت الى غرفة الطعام بوجه اروع آناً
فاسيليفنا ، فأرادت هذه ان تجبرها على ملازمة السرير . الا ان يلينا
استطاعت ان تغلب نفسها . وكانت تقول لنفسها : «ان يموت»

فسأمت انا ايضاً . وهداتها هذه الفكرة ، ومدتها بالقوة لآل تبدو غير مكترثة . وعلى العموم لم يزعجها احد كثيراً . كانت آنا فاسيليفنا مشغولة بخراجاتها . وكان شوبين منكياً على عمله بحماس ، وابدت زويا سوداوية ، وتهيأت لتقرأ «آلام فرتر» (٢٧) . وكان نيقولاى ارتيميفيتش منزعجاً جداً من زيارات «الطالسة المتكررة» ، لاسيما وان «مخططاته» بشأن كورناتوفسكى لم تنظم كثيراً . فقد كان السكرتير الاول العملى هذا في حيرة من امره . يترقب . ولم تشكر يلينا بيرسينيف ، فان هناك خدمات يغفل المرء ويرتعب من شكر صاحبها . وفي زيارة بيرسينيف الرابعة فقط (وكان اينساروف قد قضى ليلة سيئة جداً ، ولمسح الطبيب الى وجوب استدعاء بعض الاطباء للتشاور) ذكرته بالقسم الذي اقسمه . عندئذ قال لها «حسناً ، لنذهب ، في هذه الحال» ونهضت . وذهبت لترتدي ملابس الخروج ، الا انه قال : «لا ، لننتظر حتى الغد» . وفي المساء حفت وطاة العرض على اينساروف .

استمر هذا التعذيب ثمانية ايام . وابدت يلينا هادئة . ولكنها لم تستطع ان تاكل شيئاً ، ولم تنم في الليالي ، طغى على اطرافها كلها الممض ، وبدا وكان دخاناً ساخناً يملأ رأسها . وكانت خادمتها تقول عنها : «سيدتنا الشابة تذوب كالشمعة» .

واخيراً حدث التحول في اليوم التاسع . كانت يلينا تجلس في حجرة الجلوس قرب آنا فاسيليفنا ، تطالع جريدة «موسكوفسكيه فيدموستي» دون ان تعي شيئاً . ودخل بيرسينيف . ونظرت يلينا اليه (وكم كانت سريعة ومتخوفة ونافذة وقلقة تلك النظرة الاول التي تعدجه بها في كل مرة !) ولكنها حدست في الحال انه جاء بخبر سار . كان يبتسم ، ويهز رأسه لها قليلاً . فنهضت للقاء . همس لها :

- افاق على نفسه . وزال الخطر عنه . وبعد اسبوع سيكون متعافياً تماماً .

مدت يلينا ذراعيها ، وكأنها تصد ضربة ، ولم تقل شيئاً . سوى ان شفتيها ارتعشتا ، وشاعت الحمرة في كل وجهها . اخذ بيرسينيف يتحدث الى آنا فاسيليفنا ، بينما ذهبت يلينا الى حجرتها ، وركعت ، وراحت تصلي ، تحمد الله على عقباء . . . وسالت من عينيها دموع خفيفة وضاءة . وفجأة احست بوصب تام ، فارخت

رأسها على الوسادة . وهمست «يا اندريه بيتروفيتش المسكين !» وغفت على الفور . مبلة رموشها وخديها . ولم تكن قد نامت ولم يلك منذ زمن طويل .

لم تحقق كلمات بيرسينيف الا جزئياً . زال الخطر ، ولكن اينساروف كان يستعيد قواه ببطء ، وكان الطبيب يتحدث عن الهزة العميقة الشاملة التي اصابته كيانه كله . ومع كل هذا فقد لعادر المريض فراشه ، وصار يسير في الحجرة . وكان بيرسينيف قد انتقل الى مسكنه ، ولكنه كان يزور كل يوم صديقه الذي ما يزال واعياً ، ويبلغ يلينا عن حالته الصحية كل يوم ، كما كان يفعل في السابق . وكان اينساروف لا يجسر على الكتابة اليها ، سوى انه كان يلجأ اليها بشكل عابر في احاديثه مع بيرسينيف ، وكان هذا يحدثه ، بلامبالاة مصطنعة ، عن زيارته لآل ستاخوف ، محاولاً في الوقت ذاته ، ان يدعه يعلم بأن يلينا كانت في غم شديد ، وانها الآن قد اطمانت . كما ان يلينا لم تكتب لاينساروف ، فقد كان يسفل ذهنها شيء آخر .

ذات مرة وكان بيرسينيف قد ابلغها لتوه والمرح باد على وجهه بان الطبيب سمح لاينساروف بأن ياكل كفتة ، ومن المحتمل انه سيخرج عما قريب ، استغرقت يلينا في التفكير ، واطرقت برأسها . . . وقالت :

- احس ماذا اريد ان اقول لك .

ارتبك بيرسينيف . لقد فهمها . نظر في ناحية واجاب :

- لعلك تريدان ان تقولي لي انك ترغبين في رؤيته .

احمرت يلينا ، وقالت بصوت لا يكاد يسمع :

- نعم .

- وليكن . اعتقد ان ذلك سهل عليك جداً .

وقال في سره : «أوف ! اي شعور مفرز يجثم على قلبي !»

قالت يلينا :

- تريد ان تقول انني من قبل ايضاً . . . ولكنني اخاف . فانت تقول انه الآن نادراً ما يكون لوحده .

قال بيرسينيف ، وهو ما يزال يتعاشى النظر اليها :
- ليس من الصعب مساعدتك في ذلك . بالطبع ، لا يستطيع
ان اعلمه مسبقاً ، ولكن اعطيني مذكرة . فمن يستطيع ان يمنحك
من الكتابة اليه ، كواحد من معارفك القريبين ، تهتمين بمصيره
لا شيء ، يلام عليه في هذه الكتابة . حدي له . . . اقصدا انك
له متى ستزورينه . . .

همست يلىنا :

- انا خجلة .

- اعطيني المذكرة ، وسأحملها اليه .

- لا حاجة الى ذلك . ولكن اردت ان اطلب اليك . . . لا تفضب
علي ، اندريه بيتروفيتش . . . لا تذهب اليه غداً .
عض بيرسينيف على شفته .

- اها ! نعم ، فهمت ، حسن جداً ، حسن جداً .

وبعد ان اضاف كلمتين او ثلاثاً ، خرج بسرعة .

وراح يفكر ، وهو يسرع الى بيته : «هذا افضل ، افضل . لم
اعرف شيئاً جديداً ، ومع ذلك افضل . فما حاجتي الى ان اتشبت
بطرف عش لا يخصني ؟ لقد فعلت ما املاه ضميري ، دون ان اقدم
على شيء . والآن كفى . هما وشأنهما ! كان ابي على حق ، حين كان
يقول لي : «انا وانت ، يا اخ ، لسنا مترفين ولا ارسقراطيين ، ولا
ممن حباهم القدر والطبيعة ، ولا حتى شهيدين ، بل نحن كادحان ،
ولا اكثر من كادحين . فالبس مثزرك الجلدي ، ايها الكادح ، والزم
مكانك وراء الدكة ، في مشغلك المظلم ! واترك الشمس تضيئ
للآخرين ! فان لحياتنا الكالحة فخرها ايضاً ، وسعادتها !»

في صباح اليوم التالي تلقى اينساروف عن طريق بريد المدينة
مذكرة قصيرة كتبت يلىنا فيها له : «انتظرنى ، واطلب ان لا يندم
عليك احد . اما ا . ب . فلن ياتي» .

قرا اينساروف مذكرة يلىنا ، واخذ على الفور يرتب حجرته ،
وطلب من ربة البيت ان تخرج قارورات الدواء ، وتخلع روبي

البيتي . وليس سترته . كان رأسه يدور وقلبه يخفق ضعفاً
وهرجاً . وتراخت رجلاه ، فجلس على الارىكة ، واخذ ينظر في الساعة .
قال لنفسه : «الساعة الآن الثانية عشرة الا ربعاً . ولا يمكنها ابدأ
ان تاتي قبل الثانية عشرة ، فلا فكر في شيء آخر خلال ربع الساعة
هذا . والا فلن اتحمل . لا يمكنها ابدأ ان تاتي قبل الثانية
عشرة . . .»

ودخلت يلىنا مع الحفيف الخفيف من ثوبها
وانفتح الباب ، ودخلت يلىنا مع الحفيف الخفيف من ثوبها
الحريري ، شاحبة تماماً ، نضرة كلياً ، فتية ، سعيدة ، وارتمت على
صدره بصيحة فرح ضعيفة . وقالت ، وهي تعانقه ، وتداعب
رأسه :

- انت حي ، انت لي .

وجمد كلية . واحتبست انفاسه من قربها منه ، ومن ملامساتها
له . ومن هذه السعادة .

جلست بالقرب منه ، وانكششت عليه ، وراحت تحلق فيه
بتلك النظرة الضاحكة الناعمة الحنون ، التي لا تتألق الا في عيون
الماضيات .

وعلا وجهها حزن مفاجئ ، وقالت وهي تمرر يدها على خده :

- كم تحلت ، يا مسكينى ديميتري ! واية لحية لك !

اجابها وهو يمس اصابعها بشفتيه :

- وانت ايضاً ، نحفت ، يا مسكينتى يلىنا .

عزت خصلاتها بمرح .

- لا بأس . سترى كيف سنمتلى صحة ! هبت عاصفة ، كما

في ذلك اليوم الذي التقينا فيه في الصومعة . هبت وانقشعت . والآن
سنعيش !

لم يجيبها الا بابتسامة .

- آه ، يا ديميتري ، اية ايام ، اية ايام قاسية ! كيف

يستطيع الناس ان يعيشوا اطول من الذين يحبونهم ؟ والحق
التي كنت اعرف مسبقاً ما سيقوله اندريه بيتروفيتش كل مرة .
فلقد كانت حياتي تهبط وترتفع مع حياتك . حبيبتي ، يا عزيزي
ديميتري !

ولم يعرف ماذا يقول لها . كان يود لو يركع على قدميهما .

استطردت ، وهي تدفع شعره الى الوراء :

- ولأحظت أيضاً (خرجت بالكثير من الملاحظات ، طوال هذه المدة ، أثناء فراغي) عندما يكون الانسان تعيساً جداً ، جداً ، يشبه بعمق الى كل ما يجري حوله ! أحياناً ، اذا اردت الحقيقة ، كنت اتمعن في ذبابة ، بينما تسري في روحي برودة ورعب ! ولكن كل ذلك ولى وانقضى . اليس كذلك ؟ وكل شيء نير مستقبلاً . اليس كذلك ؟

اجاب اينساروف :

- انت لي مستقبلاً ، فكل شيء نير في وجهي .

- وانت لي ايضاً ! اذكر عندما كنت عندك ، ليس في المرة

الاخيرة ، لا ، ليس في المرة الاخيرة - كررت في ارتعاش لا ارادية - عندما كنا نتحدث سوية ، لا ادري لماذا خطر الموت على بالي ، ولم اكن اتوحيس بانه كان يترصد خطانا . ولكنك الآن معافي ، اليس كذلك ؟

- احس بتحسن شديد ، معافي تقريباً .

- انت معافي ، ولم تمت . آه ، ما اسعدني !

وساد صمت قصير . ناداها اينساروف متسائلاً :

- يلينا ؟

- ماذا ، يا عزيزي ؟

- قل لي ، ألم يخطر في ذهنك ان هذا المرض جاء عقاباً لنا ؟

نظرت يلينا اليه نظرة جادة :

- خطرت لي هذه الفكرة ، يا دميتري . غير انني فكرت على

اي شيء ، أعاقب ؟ وبأي واجب فرطت ، وبحق اي شيء اجرت !

ربما لم يكن ضميري كضمان الآخرين ، ولكنه لم يحاسبني ، او

ربما كنت مذنباً ازاءك ؟ فانا ساعيقك ، اوقفك . . .

- انت لن توقفي ، يلينا ، سنسير سوية .

- نعم ، دميتري ، سنسير سوية ، سنسير وراك . . . ذلك

واجبي . أنا احبك ، ولا اعرف واجباً آخر .

قال اينساروف :

- آه ، يلينا ! بآية سلاسل لا تقهر تطوقني كل كلمة

تقولينها !

فانبرت تقول :

- ولهم تقول سلاسل ؟ نحن احرار ، انت وانا . اجل - مضت تقول . ناظرة ، في سهوم الى الارض ، وهي تسوي شعره بيده واحدة ، كالسابق - ذقت في المدة الاخيرة ، الكثير مما لم تكن لي اية فكرة عنه من قبل . لو ان احداً تكهن لي في الماضي بانني ، أنا المهذبة الحسنة التربية من عائلة الاسياد سأخرج لوحدي من البيت بملابس مختلفة مختلفة ، والى أين ؟ الى شاب في مسكنه ، لاحسنت بملابس شديدة ! وكل هذا قد تحقق ، ولم اشعر بأي حق ، وحق الرب !

قالت هذا والتفتت الى اينساروف .

كان ينظر اليها بهناء عظيمة ، حتى انها ارخت يدها بهدوء

وانزلتها من شعره الى عينيه . وانشأت تقول :

- دميتري ، انت لا تعرف انني رايتك مطروحاً على ذلك السرير

العري . - رايتك بين برائن الموت ، فاقد الوعي . . .

- رايتني ؟

- نعم .

صمت لحظة .

- وبيرسينيف كان هنا ؟

هزت رأسها . انحنى اينساروف نحوها ، وهمس :

- آه ، يلينا ! انا لا اجسر على النظر اليك .

- ولماذا ؟ اندريه بيتروفيتش طيب جداً ، ولم اخجل منه .

ولماذا اخجل ؟ انا مستعدة لأن اعلن للعالم كلها بانني لك . . .

وانا اثق باندريه بيتروفيتش ، كأخ .

هتف اينساروف :

- هو الذي انقذني . انه انبل الناس خلقاً ، واكثرهم طيبة !

- نعم . . . وهل تعرف انني مدينة اليه بكل شيء ؟ هل

تعرف انه هو اول من قال لي بأنك تحبني ؟ ليتني استطعت ان

اكتشف كل شيء . . . نعم ، انه انبل الناس خلقاً .

حقق اينساروف في يلينا بتفرس .

- انه مغرم بك ، اليس كذلك ؟

قالت منكسة الرأس ، خافتة الصوت :

- نعم ، كان يحبني .

شفط اينساروف على يدها بقوة وقال :

- اوه ، ايها الروس ، ان لكم قلوباً من ذهب ! وكان يرتعش ولم ينم الليالي . . . وانت ، وانت ، يا ملاكي . . . لا تأنيب ولا تردد ، وكل ذلك لي ، لي . . .
- نعم ، نعم ، كل شيء لك ، لانني احبك . آه ، دميتري ! ما اغرب ذلك ! يبدو لي انني حدثتك بذلك من قبل ، ومع هذا يطيب لي ان اكرره ، وسيطيب لك ايضاً سماعه . عندما رأيتك لأول مرة . . .

قاطعها اينساروف قائلاً :

- ولماذا الدموع في عينيك ؟

- الدموع ؟ في عيني ؟ - ومسحت عينيها بالمتدليل - اوه ، ما احملك ! انت لا تعرف حتى الآن ان الناس تبكي من فرط السعادة . كنت اريد ان اقول لك : عندما رأيتك لأول مرة ، لم اجد فيك شيئاً يلفت النظر . . . حقاً . اذكر ان شوبين ، في البداية ، كان يروى لي اكثر منك بكثير ، ولكنني لم احببه قط ، اما اندريه بيتروفيتش ، اوه ! مررت برهة فكرت فيها : ربما هو سيكون من نصيبي ؟ اما عنك فلم افكر في شيء . ولكن ، فيما بعد ، فيما بعد . . . اخذت قلبي بقلتا يدك .

قال اينساروف :

- اشفقي علي . . .

واراد ان ينهض ، ولكنه انهد على الاركة في اللحظة التالية . سألته مهتمة :

- ماذا بك ؟

- لا شيء . . . ما زلت ضعيفاً . . . وهذه السعادة ليست في حدود طاقتي الآن .

- اذن ، اجلس بهدوء . لا تتحرك ، ولا تنفعل - اضافت متوعدة اياه باصبعها : - ولماذا خلعت روبك البيتي ؟ ما زال الوقت مبكراً لتتغندر ! اجلس ، وساروي لك الحكايات . فاسمع ، ولا تقل شيئاً . الكلام الكثير مضر لك بعد المرض . . .

واخذت تعدته عن شوبين ، وعن كورناتافسكي ، وعما فعلت في الاسبوعين الاخيرين ، وعن حتمية الحرب ، حسب اقوال الصحف ، وبالتالي سيتعين ، حالما يسترد صحته تماماً ، ايجاد السبل

للسفر . دون تضييع الوقت . . . وكانت تقول كل ذلك ، وهي جالسة الى جانبه ، مستندة الى كتفه .
كان يسمعها ووجهه يشحب تارة ويحمر اخرى . . . وحاول ان يوقها اكثر من مرة ، ثم رفع جذعه فجأة . قال لها بصوت غريب حاد :

- اتركيني ، يلينا ، واذهي .

فردت باندهاش :

- كيف ؟ - ثم اضافت بسرعة - هل تحس بتوعدك ؟

- لا . . . انا في حالة جيدة . . . ولكن اتركيني ، ارجوك .

- انا لا افهمك . . . هل تطردني ؟ . . . ما هذا الذي تفعله ؟ -

قالت فجأة ، وقد رآته ينزلق من الاركة الى الأرض تقريباً ، ويمس قدميها بشفتيه : - لا تفعل ذلك ، دميتري . . . دميتري . . .

رفع جسده عن الأرض .

- اتركيني ، اذن ! عندما وقعت مريضاً ، لم افقد الوعي رأساً ، وكنت احس بانني على شفا الموت ، حتى وانا في وهج العمى . في حالة الهذيان ، كنت ادرك ، اشعر بشكل مبهم بان الموت مقبل علي ، فاخذت اودع الحياة ، اودعك ، اودع كل شيء ، وتخلّيت عن الامل . . . وفجأة يأتيني هذا البعث ، هذا النور بعد الظلمة ، انت . . . انت بالقرب مني في حجرتي . . . صوتك ، انفاسك . . . هذا اكثر مما تتحمّله قواي ! اشعر بانني احبك يداف ، واسمعك تقولين انك لي ، انا لا اتحمل هذا . . . اخرجي ! - دميتري . . .

عمست يلينا ، وخبات رأسها في كتفه . الآن فقط فهمته . ومضى اينساروف يقول :

- يلينا ، احبك . وانت تعرفين ذلك ، وانا مستعد الى التخلي عن حياتي فداء لك . . . ليم جنت الي اليوم ، وانا واهن القوى ، ولا استطيع السيطرة على نفسي ، ودمي كله يحترق . . . تقولين انت لي . . . انت تحبينني . . .

- دميتري .

عادت تناديه ، واحمرت كلية ، وانكمشت عليه اكثر .
- يجب ان تشفقي علي ، وتخرجي ، يلينا . . . انا اشعر ، بان من الممكن ان اموت . . . لا اتحمل هذه السورات . . . روعي

كلها تصبو اليك . . . فكري في ان الموت كاد يفرق بيننا .
والآن ، انت هنا ، في احضاني . . . يلينا . . .
واخذت تهتز بكل جسدها . وهمست بصوت لا تكاد يسمع :
- خذني ، اذن . . .

٢٩

كان نيقولاي ارتيمييفيتش مقطب الحاجبين يتمشى في مكتبه حين
وذهوباً . وكان شوبين يجلس عند النافذة ، ويدخن سيجاراً بهيماً .
واضعاً رجلاً على رجل . وقال وهو ينفخ رماد السيجار :
- ارجوك ، كف عن الرواح والمجىء . طول الوقت اتوقع ان
تتكلم ، وراقب حركاتك ، حتى ان رقبتي اخذت تؤلمني ، فضلاً
عن ان في مشيتك شيئاً متوتراً ميلودرامياً .
اجابه نيقولاي ارتيمييفيتش :
- لا شيء لك غير المزاح . انت لا تريد ان تفهم وضعي .
تريد ان تفهم انني تعودت على تلك المرأة ، وارتبطت بها وان
غيابها اخيراً يعذبني لا محالة . ها هو تشرين الاول والشتاء على
الابواب . . . فماذا يمكن ان تفعل في بقائها هذه المدة في ريفيل ؟
- ربما تحرك جورباً لها ، لنفسها ، لا لك .
- اهزل ، اهزل ، ولكنني اقول لك انني لا اعرف امرأة مثلها
قط في النقاء والنزاهة . . .
فسأله شوبين :

- هل اعطت سنداً يكفل دفع ما يترتب على ذلك ؟

كرر نيقولاي ارتيمييفيتش رافعاً صوته :

- هذه النزاهة شيء مذهل . يقولون لي ان في العالم ملبون
امراة اخرى ، فاقول لهم : دلوني اين هذا المليون ، ودلوني اين
هذا المليون ، ودلوني اين هذا المليون اقول - ces femmes
qu'on me les montre ! والذي يقتل انها لا تكتب !

قال شوبين :

* دعمهم يدلونني على هؤلاء النساء ! (بالفرنسية في الاصل)

- انت بليغ اللسان ، مثل فيثاغورس (٢٨) . ولكن هل
تدري لماذا انصحك ؟
- لماذا ؟
- حين تعود افغوستينا خريستيانوفنا . . . اتفهمني ؟
- اي نعم ، وبعد ؟
- حين تراها . . . هل تلاحظ تطور افكاري ؟
- اي ، نعم ، نعم .
- حاول ان تضربها ، لتعرف ماذا يحصل من ذلك ؟
استدار نيقولاي ارتيمييفيتش بسخط .
- ظننت ان سيقدم لي ، بالفعل ، نصيحة مجدية . ولكن ماذا
تتوقع منه ! فتان ، انسان بلا اصول . . .
- بلا اصول ! ويقال ان محبوبك السيد كورناتوفسكي انسان
صاحب اصول . ربح منك يوم امس مائة روبل فضي . وهذا عمل
غير لائق ، ارجو ان توافقني على ذلك .
- وماذا في ذلك ؟ كنا نلعب للربح . بالطبع ، كان من الممكن
ان اتوقع . . . ولكنه لا يُقدَّر في هذا البيت كثيراً . . .
سارع شوبين ليقول :

- حيث راح يفكر : «من» يدري ! هل سيكون نسيبي ام لا ،
فذلك رهن بالاقدار ، ولكن العائة روبل تنفع لرجل لا يأخذ رشوة» .
- نسيب ! اي نسيب انسا ؟ * Vous rêvez, mon cher
بالطبع ، مثل هذا الخطيب كان من الممكن ان يكون مسرة لكل فتاة
اخرى . حكتم نفسك : انه انسان نشيط ، ذكي ، عصامي ارتقى
بنفسه ، كان يعمل في وظيفة في ولايتين . . .

قال شوبين :

- في ولاية . . . كان يضلل الحاكم .
- من المحتمل جداً . وهذا ، في الظاهر ، ما كان ينبغي ان
يفعل . انه واقعي ، رجل عمل . . .
فعاد شوبين يقول :

- ويجيد لعب الورق .

- اي نعم ، ويجيد لعب الورق . ولكن يلينا نيقولايوفنا . . .
هل ممكن فهمها حقاً ؟ اود ان اعرف اين ذلك الرجل الذي يستطيع
* انت تهذي ، يا عزيزي (بالفرنسية في الاصل) .

ان يفهم ما تريد ؟ مرحة تارة ، وضجرة اخرى ، تنحف فجأة بحيث تقوى على النظر اليها ، ثم واذا بها تصبح ، وكل ذلك بدون اي سبب ظاهر . . .

دخل خادم دميم يحمل على صينية فنجان قهوة وطاسة من الحليب وبقسماطاً .

ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول ملوحاً ببقسماطة :

- الاب معجب بالخطيب ، والابنة لا تعير التفاتاً لذلك ! كان الامر مضبوطاً في الازمنة البطريقية السالفة ، اما الآن فقد غيرنا كل شيء . * Nous avons changé tout ça . الانسة الآن تتحدث الى كل من يطيب لها ، وتقرأ كل ما يطيب لها ، تطوف وحدها في موسكو بدون خادم ، ولا وصيفة ، كما في باريس . وكل ذلك مقبول . في ايام سالت : اين يلينا نيقولايفنا ؟ فقيل لي : انها خرجت . ال اين ؟ لا احد يعرف . هل هذا هو النظام ؟

قال شوبين :

- خذ الفنجان ، واترك الخادم يذهب - ثم اضاف بصوت خافض - انت نفسك تقول لا يجوز * devant les domestiques .

نظر الخادم الى شوبين من طرف عينه ، وتناول نيقولاي ارتيميفيتش الفنجان ، واطاف شيئاً من الحليب ، وغرف زهاء عشر بقسماطات . وحالما خرج الخادم اخذ يقول :

- اردت ان اقول ان لا اهمية لي في هذا البيت . وهذا كل ما في الامر . لان الناس في عهدنا لا يحكمون الا بالمظاهر . فاذا راوا شخصاً يشمخ بنفسه احترامه ، وان كان فارغاً احمق . اما صاحب المواهب ، الذي ربما يجلب النفع العميم ، فانهم لتواضعه . . . ساله شوبين بصوت نحيل :

- هل انت رجل دولة ، يا صغيري نيقولاي ؟

هتف نيقولاي ارتيميفيتش مهتاجاً :

- كفافك مسخرة ! انت تتجاوز حدك ! هذا شاهد آخر على اني

لا اعني شيئاً في هذا البيت ، لا شيء على الاطلاق !

قال شوبين متمطياً جذعه :

- آنا فاسيليفنا تضيق عليك ! . . يا للمسكين ! آه ، يا

* فقد غيرنا كل شيء . (بالفرنسية في الاصل) .
** امام الخدم (بالفرنسية في الاصل) .

نيقولاي ارتيميفيتش ، عيب علينا انا وانت ! كان من الافضل ان نهين هدية ما لآنا فاسيليفنا . فسيحل عيد ميلادها بعد ايام ، وانت تعرف انها تعتز باي اهتمام صغير يبدي من جانبك .

وانت تعرف نيقولاي ارتيميفيتش ليقول :

امرغ نيقولاي ارتيميفيتش على تذكيرك لي . بالطبع ، نعم . نعم . شكرآ جزيلآ على تذكيرك لي . بالطبع ،

بالطبع ، من كل بد . عندي شيء لا بأس به ، قلادة اشتريتها من محل روزينشتروخ قبل ايام ، ولكن لست ادري ، هل ستناسبها ؟

- لكنك اشتريتها لتلك التي تعيش في ريفيل ؟

- اقصد . . . انا . . . نعم . . . كنت اتصور . . .

- في هذه الحال ستصلح بالتأكيد .

نهض شوبين من مقعده ، فسأله نيقولاي ارتيميفيتش محدقاً في عتيه بلطف :

- اين سنقضي المساء ، يا بافل ياكوفليفيتش ؟ ها ؟

- ولكنك ستذهب الى النادي .

- بعد النادي . . . بعد النادي .

تمطى شوبين مرة اخرى .

- لا ، يا نيقولاي ارتيميفيتش ، عليّ ان اعمل في الغد . في

مرة اخرى . وخرج .

تعبس نيقولاي ارتيميفيتش ، وذرع الحجرة مرة او مرتين ،

واخرج من مكتبه علبة مخملية فيها «القلادة» ، وتمعن فيها طويلاً ،

ومسحها بمشيدل حريري . ثم جلس الى المرأة ، وراح يمشط شعره

الاسود الكثيف بعناية ، مميلاً رأسه بعظمة تارة الى اليمين ، وتارة

الى الشمال ، مدطياً خده بطرف لسانه ، دون ان يصرف بصره عن

مطرق الشعر . سعل احد وراء ظهره . التفت فراى الخادم الذي جاءه

بالقهوة . ساله :

- ليم انت هنا ؟

قال الخادم بتبرة فيها شيء من المهابة :

- نيقولاي ارتيميفيتش ! انت سيدنا !

- اعرف ، وماذا بعد ؟

- نيقولاي ارتيميفيتش ، ارجو الا تغضب عليّ . انا الذي

اخدم سيادتكم ، منذ الصغر ، اقصد من واجبي كعبد لك ان اخبر

سيادتكم . . .

- ولكن ماذا في الأمر ؟

راوح الخادم في مكانه ، وقال :

- سمعت سيادتك تقول انك لا تعرف الى اين تذهب يلىنا
نيقولايونا . ولكنني صرت اعرف الى اين .

- العلك تكذب ، ايها الاحمق ؟ !

- انا رهن ارادتك ، ولكنني منذ اربعة ايام وانا اراها تفكر
في بيت غريب .

- اين ؟ كيف ؟ في اي بيت ؟

- في زقاق . . . قرب شارع بوفارسكيا . غير بعيد عن هنا
وقد سألت البواب عن الذين يسكنون البيت .

ضرب نيقولاي ارتيميفيتش الارض بقدميه :

- اسكت ، ايها الارعن ! كيف تجسر على ذلك ؟ يلىنا نيقولايونا
تزور المساكين لان قلبها طيب . وها انت . . . اخرج ، ايها
الاحمق !

اندفع الخادم نحو الباب مرعوباً . وهتف نيقولاي ارتيميفيتش
- توقف ! ماذا قال لك البواب ؟

- لا . . . لم يقل شيئاً . . . يقول انه . . . طا . . .
لب . . .

- اسكت ، ايها الارعن ! اسمع ، يا وغد ، حذار ان تقول
شيئاً عن ذلك ، حتى في منامك . . .

- ارجو المعذرة . . .

- اسكت ! حتى لو انك المحت . . . لو ان احداً . . . لو
اعرف . . . لن تختفي عني ولو تحت الارض ! هل انت سامع ؟ الغريب
عن وجهي !

واختفى الخادم .

وفكر نيقولاي ارتيميفيتش حين بقي وحيداً :

"يارب ، يا إلهي ! ما يعني هذا ؟ ماذا قال لي هذا الاحمق
ها ؟ على كل حال ، يجب ان اعرف اين هذا البيت ، ومن يعيش فيه
اذهب بنفسي . الى هذه الحال وصل الامر ، اني
« Un laquais ! Quelle humiliation. . . ! »

* خادم ! اي احتقار ! (بالفرنسية في الاصل) *



وكرر «Un laquais» بصوت عال ، واغلق المكتب على الثلاثة ، وذهب الى آنا فاسيليفنا . فوجدها في السرير ، معصوبة الغد . ولكن مظهرها المعذب لم يزد الا حثقا ، وبعد وقت قصير جثا جعلها تبكي .

٣٠

وفي غضون ذلك انفجرت الزوبعة التي كانت تتجمع في الشرق ، واغلقت تركيا الحرب على روسيا . وانتهى الموعد الذي حدد للجلاء عن الامارتين ، ولم يكن يوم الهزيمة في سينوب (٢٩) بعيداً . وكانت الرسائل الاخيرة التي تسلمها اينساروف تدعوه الى المجيء الى الوطن بالراح . وصحته ما تزال معتلة . كان يسعل ، ويشعر بوهن ، وبنوبات خفيفة من الحمى . ولكن لم يكن يستقر في بيته تقريباً . كانت نفسه تلتهب ، فلم يعد يفكر في المرض . وكان يتنقل في موسكو باستمرار ، ويجتمع خلصة باشخاص مختلفين ، ويكتب في ليال بطولها ، ويغيب نهارات كاملة ، وابلغ صاحب البيت بأنه سيترك البيت قريباً ، واهدى له مسبقاً اثنائه البسيط . كما كانت يلينا تنهيا للسفر من جانبها . وفي احدى الامسيات المطيرة كانت جالسة في حجرتها ، تخطط الحواشي لمناديلها ، وتستمع الى عويل الريح بجزع لارادي . دخلت خادمتها ، وابلغتها بان اياها يدعوها الى مخدع امها . وهمسست لها ، وهي تغادر حجرتها : «اعاما تبكي ، وبابا حائق . . .»

هزت يلينا كتفها هذا خفيفاً ، ودخلت الى مخدع آنا فاسيليفنا . كانت عذبة نيقولاى ارتيميفيتش الطيبة هذه تستلقي نصف استلقاة على مقعد مسرّج ، وتنشعب منديلاً فيه رائحة كولونيا ، بينما كان ابوها يقف عند موقد الحائط مزوراً سترته بكاملها في ياقة متشاة جيداً ، وبرباط صلب عالٍ ، في هيئة تذكر بعض الشيء بخطيب برلمانى . اشار لابنته بحركة خطابية من يده الى مقعد ، وحينما نظرت ابنته اليه نظرة متسائلة ، وهي لم تفهم اشارته ، قال بمهابة ، ولكن دون ان يدير رأسه : «تفضلن ، اجلسن» (ونيقولاى ارتيميفيتش يخاطب زوجته دائماً بضمير

الجماعة ، وابنته بهذا الضمير في الحالات الاستثنائية .
جلست يلينا .

تمخطت آنا فاسيليفنا بعبارة في الصوت . ووضع نيقولاي
ارتيميفيتش يده اليمنى وراء طية ستريته الفراك . وبعد صر
مطوّل قال :

- استدعيتك * ، يلينا نيقولايانا لكي استفسر منك ، او
بالاخرى ، لكي اطالبك باستيضاح . انا غير راض عنك ، او ، لا ،
هذا خفيف جداً ، ان سلوكك يعنى كثيراً ، يسمى "الى" الى امك
ايضاً . . . امك التي تريها هنا .

واطلق نيقولاي ارتيميفيتش نبرات صوته الجهيرة وحنها
نظرت يلينا اليه صامتة ، ثم الى آنا فاسيليفنا ، وشجبت .
ومضى نيقولاي ارتيميفيتش يقول :

- كان هناك حين من الدهر لم تكن فيه البنات ينظرن الى
والديهن باستعلاء ، وكانت سلطة الوالدين تجعل العاصيات
يرتجفن . وقد ولى ذلك العهد ، مع الاسف ، او هذا ، على اثر
تقدير ، ما يظنه الكثيرون ، ولكن ما تزال هناك قوانين ، وارو
ان تصديقني ، لا تبيح . . . لا تبيح . . . باختصار ما تزال توجد
قوانين . وارجو ان تنبهي الى ذلك ، توجد قوانين .

قالت يلينا :

- ولكن ، يا بابا . . .

- ارجو الا تقاطعيني . لنعد باذهاننا الى الماضي . . . لقد
قمنا ، آنا وآنا فاسيليفنا ، بواجبنا . لم نبخل ، آنا وآنا فاسيليفنا
بشيء لتعليمك ، لا من ناحية المصروفات ولا من ناحية الاهتمام .
مسألة اخرى ماذا حصلت من كل هذه المصروفات وهذه الاهتمامات .
ولكن كان لي الحق ان اتصور . . . كان لي ولآنا فاسيليفنا الحق
في ان نتصور انك ستحافظين بقدسية على تلك القواعد الاخلاقية
* * * que nous vous avons inculqués كائنة وحيدة لنا . . . كان لنا
الحق في التصور بان اية «افكار» جديدة لن تمس هذا الحرم
المقدس . فماذا حصل ؟ لم اعد اتحدث عن الطيش المتميز بها

* الضمائر في النص للجماعة ، ولكنها حذفت لتخفيف النطق . المترجم
* * التي دخلناها في ذهنك (بالفرنسية في الاصل) .

جنسك ، وعمرك . . . ولكن من كان يتوقع انك تفقددين صوابك الى
هذا الحد . . .

قالت يلينا :

- بابا ، انا اعرف ماذا تريد ان تقول . . .
- كلا ، انت لا تعرفين ماذا اريد ان اقول ! - هتف نيقولاي
ارتيميفيتش بصوت رفيع ، وتحول فجأة عن عظمة القيافة البرلمانية ،
ومهاة الكلام المسترسل ، والنبرات الجهيرة الرنين - انت لا
تعرفين ، ايها الفتاة الجسور !

تمخمت آنا فاسيليفنا :

- Nicolas بحق الرب ، * Vous me faites mourir .

- لا تقولي لي * * que je vous fais mourir آنا فاسيليفنا .
انت لن تتصورى ماذا ستسمعين الآن . هيني نفسك لان تسمعي
اسوا من ذلك ، دعيني احذرك !
فتهاقت آنا فاسيليفنا مسترخية . وخاطب نيقولاي ارتيميفيتش
ابنته :

- لا ، انت لا تعرفين ماذا اريد ان اقول .

قالت :

- انا مقصرة ازاءكما . . .

- اخيراً ، اذن !

مضت يلينا تقول :

- انا مقصرة ازاءكما . لانني لم اعترف منذ زمان . . .

قاطعها نيقولاي ارتيميفيتش :

- ولكن هل تعرفين انني استطيع ان اقضي عليك بكلمة
واحدة ؟

رفعت يلينا بصرها اليه .

- نعم ، يا سيدتي ، بكلمة واحدة ! فلا توجهي الى هذه
النظرة ! (وصالب يديه على صدره) اسمحي لي بأن اسألك هل
تعرفين البيت في زقاق . . . قرب شارع بوفارسكيا ؟ وهل كنت
تترددين على هذا البيت ؟ (ضرب الارض بقدمه) اجيبي ، ايها

* انت تقتلني (بالفرنسية في الاصل) .
* * التي افنتك (بالفرنسية في الاصل) .

السائبة ، ولا تحاولي التملص ! الخدم ، الخدم يا سيدتي
des vils laquais • راوك تدخلين هناك الى صاحبك . . .
احمرّت يليينا ، والتمعت عيناها . قالت :

- لا شيء ، احاول التملص منه . نعم ، كنت اتردد على هذا البيت .

- رائع ، هل تسمعين يا آنا فاسيليفنا ؟ ومن المحتمل انك تعرفين من يسكن هذا البيت ؟

- نعم ، اعرف ، انه زوجي . . .

بحلق نيقولاي ارتيميفيتش عينيه .

- زوجك . . .

كررت يليينا :

- زوجي . لقد تزوجت دميتري نيكانوروفيتش اينساروف .

قالت آنا فاسيليفنا بهجد وبصوت لا يكاد يسمع :

- انت ؟ تزوجت ؟

- نعم ، ماما . . . اعذريني . . . تزوجنا قبل اسبوعين سرأ .

استلقت آنا فاسيليفنا على ظهر الكرسي ، وتراجع نيقولاي ارتيميفيتش خطوتين .

- تزوجت ! تزوجت ذلك الجبلي الاسود الفقير ! ابنة النبيل

العريق نيقولاي ستاخوف تزوجت صعلوكا ، لا اصل له ولا فصل !

دون مباركة الابوين ! وتظنين انني ساتركك وحالك ؟ ولا ارفع

شكوى ؟ واسمح لك . . . وانك . . . ان . . . سادخلك الى الدير ،

وارسله هو الى الاعمال الشاقة ، الى فرق السجناء ! آنا فاسيليفنا

قولي لها الآن من فضلك انك ستحرمينها من الميراث .

قالت آنا فاسيليفنا والانين في نبرة صوتها :

- نيقولاي ارتيميفيتش ، بحق الرب .

- متى وباية صورة تم ذلك ؟ من عقد قرانك ؟ اين ؟

كيف ؟ يا الهي ! ماذا سيقول الآن معارفي كلهم ، الدنيا كلها .

وانت ، ايتها المتصنعة العديمة الحياء استطلعت ان تعيشي في كنف

والديك بعد هذه الفعلة ! ولم تخافي غضب السماء ؟

* الخدم الحقراء (بالفرنسية في الاصل) .

- بابا - قالت يليينا (وكانت ترتعش من راسها الى قدميها ،
ولكن صوتها كان متعاسكا) افعل بي ما تشاء ، ولكن لا مبرر لك

في اتهامي بعدم الحياء والتصنع . لم ارد ان اكدركما قبل الاوان ،

ولكنني كنت ساضطر الى ابلاغكما عن كل شيء خلال ايام ، لاننا

عزمنا على الرحيل انا وزوجي في الاسبوع القادم .

- ترحلون ؟ الى اين ؟

- الى وطنه ، الى بلغاريا .

- الى الاتراك !

هتفت آنا فاسيليفنا ، وفقدت الوعي .

الدفعت يليينا الى امها .

- ابتعدي ! - صرخ نيقولاي ارتيميفيتش ، وامسك ابنته

من يدها - ابتعدي ، ايتها العاقا !

ولكن باب المخدع فتح في تلك اللحظة ، واطل راس صاحب

الوجه ذو عينين لامعتين . كان ذلك راس شوبين . صرخ باعلى

صوته :

- نيقولاي ارتيميفيتش ! افغوستينا خريستيانوفنا وصلت

وهي تدعوك اليها !

التفت نيقولاي ارتيميفيتش بجئون ، وتوعد شوبين بقبضته ،

وتوقف لحظة ، وخرج من الحجرة بسرعة .

سقطت يليينا على قدمي امها ، وطوقت ركبتها .

كان اوفار ايفانوفيتش مستلقيا في سريره وقد طوى رقبته

الممتلئة قميص بلا ياقة له زر علوي كبير ، واسترخى على

صدره الشبيه بصدر النسوة بطيات غريضة سارحة ، كاشفا

عن صليب كبير من خشب السرو ، وحجاب . وكان لحاف خفيف

يفضي اطرافه الرحبة . والشمعة تشتعل باهتة على المنضدة الليلية

الصغيرة ، قرب قدح كبير من الكفاس . وكان شوبين يجلس على

السريير عند قدمي اوفار ايفانوفيتش مكسور الخاطر . كان يقول

في تفكير :

- اجل ، تزوجت ، وتنوي السفر . وابن اخيك هدر ، وملا

البيت كله بالصياح ، واغلق عليه مخدعه ، للسرية ، ولكن

صوته كان يصل لا الى الخدم والوصيفات فقط ، بل والى السواقين

جميعاً ! وهو حتى الآن يزار ويصهل ، وكاد يتعارك معي . بلعنة الايوة كما يهدر دب بقطعة خشب . ولكن ليست لديه القوة . وأنا فاسيليفنا منهارة ، ولكن سفر ابنتها يفتك بها اكثر بكثير من الزواج .

لاعب اوفار ايفانوفيتش اصابعه . وقال :

- ام . . . هذا . . . معلوم .

قال شوبين :

- ابن اخيك يهدد برفع القضية الى المطران ، الى المحافظ ، الى الوزير ، ولكنها ستسافر على اية حال . لا احد يطاوعه قلب ليقتل ابنته ! سيزعق ويصيح ، ثم يسبل ذيله .

- ليس لهم . . . الحق .

قال اوفار ايفانوفيتش ، وشرب شيئاً من القدح .

- نعم ، نعم . ثم اية موجة من الادانات والاقاويل والشائعات ستسري في موسكو كلها . انها لا تخشاه . . . انها ارفع منها ، على العموم . ستسافر ، ولكن الى اين ؟ حتى التفكير في ذلك يرعب القلب . اى بقعة نائية ، مغفورة ! وماذا ينتظرها هناك ؟ اراما بعيني خيالي طالعة من خان ، في الليل ، والعاصفة الثلجية . ودرجة البرودة ثلاثون تحت الصفر . تفارق وطنها ، وعائلتها . ولكنني افهمها . فمن ستترك هنا ؟ من كانت ترى من الناس كورناتوفسكي وامثاله ، وبيرسينيف وامثاله ، وانا وامثالي ايضا وهؤلاء ، على اية حال ، خيرة الناس . فعلى اي شيء تأسف هنا ؟ شيء واحد سيئ . يقال ان زوجها - اوه ، اللعنة ، اللسان غير متعود على النطق بهذه الكلمة - يقال ان اينساروف يسعل ويصيح دماً . وهذا سيئ . رايته قبل ايام ، وجهه يصلح لان يصاغ منه بروتوس (٣٠) في الحال . . . هل تعرف من هو بروتوس ، اوفار ايفانوفيتش ؟

- وماذا لا يُعرف هنا ؟ انسان .

- بالضبط «كان انساناً» (٣١) . اجل . الوجه رائع ، سوي

انه عليل ، وعليل جداً .

قال اوفار ايفانوفيتش :

- لا يهم . . . سيقاقل . . .

- بالضبط ، لا يهم ، سيقاقل . انت اليوم منصف تماماً

ولكن سيهم اذا كان الامر متعلقاً بحياته . بينما هي تريد ان تعيش معه .

رد اوفار ايفانوفيتش :

- انها شابان .

- نعم . انهما شابان وقضيتهما رائعة جريئة . الموت ، الحياة ، التضال ، السقوط ، الانتصار ، الحب ، الحرية ، الوطن ، كل ذلك جيد ، جيد ، وليهب الله ذلك لكل واحد منا ! وليس مثل البروك في مستنقع الى الاذقان ، والتظاهر بان الامر لا يهمك ، وهو في الواقع لا يهمك ، من حيث الجوهر . بينما هناك الاوتار مشدودة ، فاما ان ترون للعالم كله ، او تنقطع !

والقى شوبين رأسه على صدره . وبعد صمت طويل مضى يقول :

- اجل ، اينساروف يستحقها . ولكن اي سخف هذا ! لا احد يستحقها . اينساروف . . . ليم هذا الخنوع الكاذب ؟ طيب ، لنفرض انه شاطر ، يستطيع ان ينافح عن نفسه ، رغم انه حتى الآن فعل ما فعلناه نحن ، الآثمين ، ولكن المسألة هل نحن تفاهة مينوس منها ؟ طيب ، هل انا تفاهة ، يا اوفار ايفانوفيتش ؟ هل الرب جردني من كل شيء ؟ لم يعطني اية قابليات ، اية مواهب ؟ ومن يدري ، ربما سيكون اسم بافل شوبين ، مع مرور الزمن ، علماً من الاعلام ؟ ومن يدري ، ربما تلك القطعة النحاسية الزهيدة الموضوعة على منضدتك الآن قد تُعطى ، في يوم ما ، بعد مائة عام لنصب تمثال لبافل شوبين يقيمه ابناء ذريته تكريماً له ؟

اتكا اوفار ايفانوفيتش على كوعه ، وتفرس في الفنان المتأجج . واخيراً قال وهو يلعب اصابعه كعادته :

- ظنّ بعيد . كنا نحكي عن الآخرين . . . واذا بك تنتقل الى الحديث عن نفسك .

هتف شوبين :

- ايها الفيلسوف العظيم للارض الروسية . كل كلمة من كلماتك ابريز خالص . والتمثال لا يجدر ان يقام ، لي ، بل لك ، وانا اتعهد لك بذلك . ها انت مستلق في وضع لا احد يعرف باي شيء مشبع اكثر : بالكسل ، بالقوة ؟ سألتك لك تمثلاً بهذا الوضع . كنت محقاً جداً في تقريعبك لانائيتي وغروري ! نعم !

نعم ! لا يجوز ان اتحدث عن نفسي ، لا ينبغي ان اتباهى . ما زلت
نفتقر الى الرجال ، مهما اطلت النظر ودققت . الجميع اما تافهون .
من القوارض ، وعاملتون صغار ، ومتوحسون ، وامسا جهلة في
الخصيصة الاسفل ، واما نافخو ابواق ، مهتمون بالصغار
وعصوات طبول ! كما ان هناك اناسا درسوا انفسهم بدقة مخزية .
يسبرون نبض كل احساس لهم دون انقطاع ، ويعلمون لانفسهم
هذا ما احسه ، هذا ما افكر فيه . . . يا له من شغل نافع عملي
لا ، لو كان بيننا اناس حقيقيون لما انصرفنا عنا تلك الفتاة
تلك النفس المرفهة ، ولما انزلت كما تنزل سمكة في الماء .
ماذا يعني هذا كله ، يا اوفار ايفانوفيتش ؟ متى سيأتي زماننا
متى سيولد عندنا اناس حقيقيون ؟

اجاب اوفار ايفانوفيتش :

- تمهل وسيكونون .

- سيكونون ؟ يا تربة ! يا قوة الارض السوداء ! قلت
سيكونون ؟ احذر ، فساسجل كلمتك هذه . ولكن لماذا تظن
الشمعة ؟

- انا نعسان ، مع السلامة !

٣١

كان شوبين صادقا في قوله . كاد نبا زواج يلينا المفاجئ
يودي بحياة آنا فاسيليفنا . صارت طريحة الفراش . طالها
نيقولا ارتيمفيتش بان لا تسمح لابنتها بان تراه . وكان يبدو
كالمبتهج بسنوح الفرصة لان يظهر نفسه ربا لبيته بالمعنى
الكامل ، رأس عائلة متمتعاً بكامل السلطة . كان يهدر ويصبح
بالخدم دون انقطاع ، ويقول من حين لآخر : «سأريكم من» .
ساجعلكم تعرفون ، فانتظروا !» وطوال ما هو موجود في البيت لم
تكن آنا فاسيليفنا ترى يلينا ، وتكتفي بوجود زويا التي كانت
تخدمها بعناية شديدة ، بينما هي تقول لنفسها : Diesen Insaroff
vorziehen — und wem! ولكن حالما كان نيقولا ارتيمفيتش

* تفصيل اينساروف هذا - وعلى من ! (بالالمانية في الاصل) -

١٦٠

بشرة البيت (وكان هذا كثيراً ما يحدث فقد عادت افغوستينا
حريسيانوفنا . بالفعل) حتى تذهب يلينا الى امها ، فتظل هذه تعدق
فيها طويلاً وبصمت . وعيناها مغرورتان بالدموع . وكان هذا
التأنيب الصامت ينفذ الى قلب يلينا اعماق من غير . عندئذ لم
تكن يلينا تشعر بالندم . بل بشفقة عميقة لا حدود لها شبيهة
بالندم .

وكانت تقول مقبلة يديها :

- يا عزيزتي ، يا ماما . ماذا كان علي ان افعل ؟ انا لست
مدلية ، لقد احببته . وما كان في امكاني ان اتصرف بغير هذا
الشكل . اتهم القدر ، فهو الذي ساقني الى رجل لا يروق ليابا ،
رجل سيأخذني منك .

فكانت آنا فاسيليفنا تقاطعها قائلة :

- آه ! لا تذكريني بذلك . ما ان اتذكر الى اين ستسافرين
حتى يفوس قلبي في صدري !
فتجيب يلينا :

- يا عزيزتي ماما . لتلهك السلوان هذه الحقيقة على الاقل ،
وهي ربما كان من الممكن ان يكون الامر اسوأ ، كان الموت . . .
- ولكنني بهذا الشكل ايضاً لا آمل في ان اراك بعد الآن ،
لانك ستنهين حياتك هناك ، في خُص في مكان ما (كانت آنا
فاسيليفنا تتصور بلغاريا كالتونдра السيبيرية) او سيقتلني
غرافك . . .

- لا تقولي هذا ، يا امي الطيبة ، سنلتقي ، بمشيئة الله .
ثم ان في بلغاريا مدنا مثلما عندنا هنا . . .
- اي مدن عندهم ! الحرب قائمة الآن هناك ، واتصور ان
المدافع تطلق في كل مكان ، اينما ذهبت . . . هل تنوين السفر
قريباً ؟

- قريباً . . . ولكن ابي . . . انه يريد ان يرفع شكوى ،
ويهدد بطلاقنا .

رفعت آنا فاسيليفنا بصرها الى السماء . . .
- لا . يا عزيزتي يلينا ، لن يرفع شكوى . وما كنت انا
ساوافي على هذا الزواج ابداً ، وافضل الموت عليه ، ولكن لا
مرد لما حصل ، ولن اتركه يشين ابنتي .

كان يوم الرحيل يقترب . وتشيرين الثاني في ايامه الاخيرة
والمواعيد الاخيرة تمضي . وكان اينساروف قد فرغ من
استعداداته منذ زمان ، وهو يتحرق شوقاً الى مغادرة موسكو
باسرع وقت . وكان الطبيب يستعجله ايضاً ، ويقول له : « انت
بحاجة الى طقس دافئ ، لن تسترد صحتك هنا » . وكانت اللهفة الى
السفر تضني يلينا ايضاً ، فقد كان يفرعها شحوب اينساروف ،
وتحوله . كانت غالباً ما تنظر الى ملامح وجهه المتغير بفرع
لازادي . ان وضعها في بيت والديها صار لا يطاق . كانت امها
تنوح عليها ، وكانما تنوح على ميتة ، وابوها يعاملها ببرود
وازدراء . فقد كان هو الآخر يتعذب سراً من دنو الفراق . ولكن
كان يرى من واجبه ، واجب اب مهان ، ان يخفي مشاعره ،
ضعفه . واخيراً رغبت آنا فاسيليفنا في ان ترى اينساروف . اتوا
به اليها خلسة ، ومن باب خلفي . وعندما دخل عليها غرفتها ،
استصحب عليها الكلام معه وقتاً طويلاً ، بل ولم تستطع حتى ان
تستجمع قواها وتنظر اليه . جلس بالقرب من كرسيها ، وانتظر
با احترام هادئ حين بدأت تتحدث معه . وكانت يلينا تجلس هناك
واضعة يد امها في يدها . واخيراً ، رفعت آنا فاسيليفنا بصرها ،
وقالت : « الله يحاكمك ، يا دميتري نيكائوروفيتش . . . »
وتوقفت ، وجمدت كلمات التائب على شففتها .
وهتفت :

- ولكنك مريض . يلينا ، صاحبك مريض !

اجاب اينساروف :

- كنت مريضاً ، يا آنا فاسيليفنا . ولم استرد كل صحتي
بعد . ولكن آمل ان هواء وطني سيسفييني تماماً .

تخففت آنا فاسيليفنا :

- نعم . . . بلغاريا !

وفكرت مع نفسها : « الهي ، انه بلغاري ، يحضر ، وصوته
فائد الرنين ، وعيناه خاويتان ، وجسده هيك عظمي ، وسترتة
مترهلة على كتفيه ، وكانها ليست سترتة ، ولونه اصفر

وبهذا الشكل انقضت عدة ايام . وفي آخر الامر تسجعت
واختلت بزوجها في احدى الاماسي في مخدعها . وكان كل شيء في
البيت قد هدا واستقر . في البداية لم يسمع شيء من هناك . ثم
اخذ صوت نيقولاي ارتيمييفيتش يطن ، وبعد ذلك نشأ جدال .
وارتفعت صيحات ، بل وتوهمت تاوهات . . . ونهيا شويين مع
الوصيفات وزويا ان يهب مرة اخرى للنجدة . ولكن الضجة قر
المخدع اخذت تضعف شيئاً فشيئاً ، وتحول الى كلام ، وسكنت
من حين لآخر فقط كانت تتردد نشجات واهنة . وحتى هذه ثلاث
ورنت مفاتيح ، وصدر صريف مكتب يفتح . . . وانفتح الباب
وظهر نيقولاي ارتيمييفيتش . نظر بصرامة الى جميع الذين التاقم
وتوجه الى النادي . واستدعت آنا فاسيليفنا ابنتها اليها . وعانتها
بقوة ، وقالت ذارفة دموعاً مرة :

- كل شيء سيأتي . ولن يثير ضجة . ولا شيء الآن بعيد
عن السفر . . . وتركنا .

وسالت يلينا حالما هدأت الام قليلاً :

- هل تسمحين بأن يأتي دميتري لتقديم الشكر لك ؟

- انتظري قليلاً ، يا روجي ، لا استطيع الآن ان ارى هذا
المفرق بيننا . . . سيتسنى لنا الوقت قبل السفر .

كررت يلينا باكتئاب :

- قبل السفر .

وافق نيقولاي ارتيمييفيتش على ان لا « يثير ضجة » . ولكن
آنا فاسيليفنا لم تقل لابنتها باي ثمن اعطى موافقته . لم تقل
لها انها وعدته ان تدفع كل ديونه ، كما سلمته الف روبل
فضي نقداً . وفوق ذلك ابلغ آنا فاسيليفنا بشكل حاسم انه لا
يريد ان يقابل اينساروف الذي مضى في نعتة بالجبلي الاسود .
وحين وصل الى النادي ، صار ، بدون اية ضرورة ، يتحدث عن
زواج ابنته ، مع ملاعبه ، وهو مهندس متقاعد برتبة جنرال . قال
بلا مبالاة متكلفة : « هل سمعت بأن ابنتي قد تزوجت طالباً بسبب
ولوعها الشديد بالعلم » . نظر الجنرال اليه من خلال نظارته
وهمهم « حم ! » وسأله اي لعبة يلعب ؟

كالكرام . . . بينما هي زوجته ، تحبه . . . هذا مجرد حلم . . .
الا انها تداركت الامر حالاً ، وقالت :
- دميتري نيكانوروفيتش . . . هل حتم ، حتم عليك ان
تسافر ؟

- حتم ، أنا فاسيليفنا .

نظرت أنا فاسيليفنا اليه .

- آه ، دميتري نيكانوروفيتش ، ارجو من الله الا يجعل
تعاني ما اعانيه الآن . . . ولكنك تعدني بأن تصونها ، تحبها
ولن تشكوا عوزاً ما دمت أنا في الحياة !
وخنقت العبرات صوتها ، وبسطة ذراعيها ، وارتمت يديها
واينساروف عليها .

واخيراً جاء اليوم المحتوم ، وجرى الاتفاق على ان تودع يليينا
والديها في البيت ، وتبدأ سفرها من مسكن اينساروف . وعين
الساعة الثانية عشرة موعداً للانطلاق . وجاء بيرسينيف قبل الموعد
بربع ساعة . فقد كان يظن انه سيوجد ابناً وطن اينساروف الذي
يرغبون في توديعه ، ولكنهم انصرفوا جميعاً قبل الموعد ، وانصرف
كذلك الشخصان الغامضان اللذان يعرفهما القاري (كانا شاهدي
الزواج لاينساروف) . استقبل الخياط "السيد الطيب" بانحناء
احترام ، وكان سكران كثيراً ربما حزناً ، او ربما فرحاً لحصوله
على الاثاث ، الا ان زوجته سرعان ما ابعده . كان كل شيء في
الحجرة قد رتب . وعلى الارض حقيبة مربوطة بحبل . وغرق
بيرسينيف في افكاره . فلقد مرت في خاطره ذكريات عديدة .

دقت الساعة الثانية عشرة منذ وقت طويل ، والحويذ جاء ،
بزلاجة السفر ، و"العروسان" لم يأتيا بعد . واخيراً ترددت
خطوات عجول على الدرج ، ودخلت يليينا بصحبة اينساروف
وشوبين . كانت عينا يليينا حمراوين ، فقد تركت امها فائدة
الوعي . فقد كان الوداع شاقاً جداً . ولم تكن يليينا قد رأت
بيرسينيف اكثر من اسبوع ، فقد صارت زيارته الى بيت ستاخوف
نادرة في المدة الاخيرة . ولم تكن تتوقع ان تجده فهتفت : «انت
هنا ! شكراً !» وارتمت عليه . وعانقه اينساروف ايضاً . وهبط

صمت مرهق . فماذا كان من الممكن ان يقول هؤلاء الثلاثة ، ماذا
كانت تشعر هذه القلوب الثلاثة ؟ وادرك شوبين ضرورة الصوت
الحي ، الكلمة التي تقطع هذا الارهاق . وانشأ يقول :

- واجتمع ثلاثتنا من جديد ، للمرة الاخيرة ! فلنخضع
لحسنة الاقدار ، لنذكر الماضي بالخير . وليبارك الرب الحياة
الجديدة واشد - «وعلى بركة الله في الطريق الطويل» (٣٢) .
والوقف . احس فجأة بالغزل والخرج . فمن الاثم الغنا ، حيث يرقد
المحتضر . وفي هذه الحجرة . وفي هذه اللحظة ، كان يحتضر الماضي
الذي ذكره ، ماضي الناس المجتمعين فيها . كان يحتضر لبعث حياة
جديدة ، ولنقل ذلك . . . ولكنه كان يحتضر على اية حال .
قال اينساروف مخاطباً زوجته :

- حسناً ، يليينا . هذا كل شيء ، كما يبدو ؟ دفع كل شيء ،
وحزمت جميع الامتعة . بقي انزال هذه الحقيبة فقط . يا صاحب
البيت !

دخل صاحب البيت الى الحجرة مع زوجته وابنته . واستمع الى
ابعار اينساروف متمايلاً قليلاً ، وطرح الحقيبة على كتفه ، وهبط
الدرج الى الاسفل بسرعة ، طارقاً الارض بعذائه .
قال اينساروف :

- والان لنجلس لحظة ، حسب العادة الروسية .

جلس الجميع . وقعد بيرسينيف على الاريكة القديمة ، وجلست
يليينا بالقرب منه . وانكمشت ربة البيت وابنتها على العتبة .
والجميع صامتون ، والجميع يتسمون بجهد ، ولا احد كان يعرف
لم يتسم . كان كل واحد يود ان يقول شيئاً في الوداع ، وكان
كل واحد (باستثناء صاحبة البيت وابنتها ، بالطبع ، حيث كانتا
تعلقان لا غير) يشعر بأن في مثل هذه اللحظات ، لا يباح الا
المبتذل من القول ، فان كل كلمة مهمة ، او ذكية ، او نابعة من
القلب ، لا غير ، ستبدو في غير مكانها ، وكاذبة تقريباً . كان
اينساروف اول من نهض ، وراح يرسم علامة الصليب ، وهتف :
«وداعاً ، يا حجرتنا !»

وترددت قبلات رنانة ، ولكنها باردة ، قبلات فراق ، وتمنيات
لم سفر ميمون ، لم تنقل كاملة ، وفي الوعد بالمراسلة ، وكلمات
وداع اخيرة نصف مكتومة . . .

كان يوماً مشرقاً من أيام نيسان . وكان جندول حاد المقدمة
ينساب بانزان كلما دفع الجندولي مجذافه الطويل ، لينزل في
المنبسط العائى العريض الذي يفصل فينيسيا عن ليدو ، وهو
الاسم الذي يطلق على شريط ضيق من رمل البحر المجروف .
كانت يلينا واينساروف جالسين تحت سقفه الواطى على نضد
جلدية ناعمة .

لم تتغير سمات وجه يلينا كثيراً منذ مغادرتها موسكو ، الا
انها اكتست مسحة اخرى ، فكانت اكثر استغراقاً وصرامة ،
وكانت عينها اجسر . تفتح كل جسدها ، وبدا شعرها اكثر نعومة
واكثر مؤطراً جبينها الابيض وخديها النضين . وشفتاها وحدها ،
حين لا تبسمان ، تكشفان عن انشغال مستديم خفي يلوح كفضن
لا يكاد يبين . اما اينساروف ، فبالعكس ، ظل تعبير وجهه كما
كان ، الا ان ملامحه تغيرت بشدة . نحف ولاح عليه الكبر ،
وشحب ، وتقوس ظهره بعض الشيء . وكان يسعل ، باستمرار
لقرباً ، سعالاً قصيراً جافاً ، وكانت عيناه الغائرتان تلمعان
لمعاناً غريباً . وكان في طريق سفره من روسيا ، قد اقعده المرض
في الفراش ما يقارب الشهرين قضاها في فينا ، وفي نهاية آذار
فقط وصل الى فينيسيا مع زوجته . وكان يأمل ان يسافر منها ،
غير زارا ، الى الصرب ، وبلغاريا . فكانت جميع الطرق الاخرى
مغلقة عليه . وكانت الحرب ما تزال تهدر في الدانوب ، وقد
اغلتت فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا ، وجميع الامصار
السلافية مضطربة تنهيا للانتفاضة (٣٣) .

رما الجندول على الحافة الداخلية لليدو . وتوجهت يلينا
واينساروف منها الى البحر ، خلال درب رملي ضيق ، غرست
فيه اشجار عجفاء (تغرس كل عام ، وتموت كل عام) .
سارا بمعاذة الساحل . وكان بحر الادرياتيک يسوق امامهما
امواجه الزرقاء الكدرة مزينة مرغية ، صاعدة هابطة مخلقة على
الرمل ، في تراجعها ، اصداقاً صغيرة ، ومزقاً من الاعشاب
البحرية .

قالت يلينا :

جلست يلينا في الزلاجة ، والدموع تغمر وجهها ، ولحظ
اينساروف قدميها بالسجادة بعناية . وكان الجميع واقفين
مدخل البيت : شوبين ، وبيرسينيف ، وصاحب البيت ، وصاحبة
وابنتهما في المنديل الذي لا يفارق رأسها ، والابواب ، وحرق
عابر يرتدي روب عمل مخططاً . واذا بزلاجة مترفة تدخل الفسفا
فجأة يجرها حصان جيد سريع العدو ، ويقفز منها نيقولاوي
ارتيميفيتش مزيجاً الثلج من ياقة معطفه . ويهتف وهو يدنو من
زلاجة السفر راكضاً :

- حمداً لله على انني وجدتك لم ترحلي بعد . يلينا ، هذا
لك ، بركتنا الابوية الاخيرة .

وادخل رأسه تحت سقف الزلاجة واخرج من جيب سترته
ايقونة صغيرة ، مخاطة بحافظة مخملية صغيرة ، ووضعها في
رقبتها . انفجرت يلينا باكياً ، وراحت تقبل يديه ، وخلال ذلك
اخرج الحوذي من مقدمة الزلاجة زجاجة من الشمبانيا ، وثلاث
اقداح .

- طيب ! - قال نيقولاوي ارتيميفيتش ، والدموع تقطر غزيرة
على ياقة معطفه من فراء القندس - يجب توديعكما . . . والتعير
عن التمنيات - واخذ يصب الشمبانيا ، ويداه ترتعشان ، وطلع
الحبيب على الحوافي ، وسقط على الثلج . تناول قدحاً واعطى القدين
الاخرين ليلينا واينساروف الذي كان قد لحق ليجلس جنبها .
وشرع نيقولاوي ارتيميفيتش يقول :

- يعطيكم الله . . . - ولم يستطع ان يكمل . فشرب
قدحه ، وشرب الآخرا أيضاً - والآن ينبغي عليكما ، ايها
السيدان - اضاف مخاطباً بيرسينيف وشوبين ، ولكن الحوذي ساق
الحصان في تلك اللحظة . ركض نيقولاوي ارتيميفيتش قرب العرب
وراح يقول بصوت متقطع - لا تنسي ، اكتبني لنا . - اخرجت
يلينا رأسها ، وقالت : «وداعاً ، بابا ، اندريه بيتروفيتش» .
بافل ياكوفليفيتش ، وداعاً ، الجميع ، وداعاً ، يا روسي
وارتدت الى الخلف . لوح الحوذي بسوطه ، وصفر ، وصرفت
زلاجة السفر بمزلجتيها ، واستدارت من بوابة الفناء الى اليمين
واختفت .

- يا له من مكان مقبض ! أخشى أن يكون البرد هنا أكثر ما تتحملة . ولكنني حزرت ليم أردت أن تأتي إلى هنا .
قال اينساروف بتكشيرة سريعة مريرة :

- برد ! ولكن أي جندي ساكون إذا أخاف من البرد . ساقول لك ، لماذا جئت إلى هنا . انظر إلى البحر ، وأشعر وأنا في هذه البقعة ، بأنني اقرب إلى بلادي - وأضاف ماداً ذراعاً إلى الشرق - فهي هناك . وهذه الريح قادمة من هناك .
قالت ييلينا :

- ألا تسوق هذه الريح تلك السفينة التي تنتظرها ؟
شراع أبيض في الأفق ، أعله شراعها ؟
نظر اينساروف في المدى البحري ، إلى حيث أشارت ييلينا وقال :

- وعد رينديتش أن يرتب كل شيء لنا ، خلال أسبوع . يبدو أن الاعتماد عليه ممكن . هل سمعت ، ييلينا - أضاف بعينية مفاجئة - يقال أن الصيادين الفقراء في دالماسيا كانوا يتخللون تلك القطع الرصاصية الصغيرة التي تنقل الشباك وتنزلها إلى القاع - ليصنعوا منها طلاقات (٣٤) ! لم تكن لديهم نقود . كانوا يعيشون على صيد الأسماك وحده ، ولكنهم أعطوا آخر ما يملكون بفرح ، وهم يتضورون جوعاً الآن . أي أناس هؤلاء !

• Aufgepasst !

صدر هذا الصوت بعجرفة من الخلف . وترددت كركبة حوار حصان خافتة الرنين ، ومرّ على فرسه ضابط نمساوي في سترة رمادية قصيرة ، وقبعة خضراء ذات ظليلة . . . وما كاداً يلمح ليتنحياً عن طريقه .

شيعته اينساروف بنظره جهماً ، قالت ييلينا :
- ليس ملوماً ، ليس لهم مكان آخر للتدريب على ركوب الخيل ، كما تعرف .
قال اينساروف :

- ليس ملوماً ، ولكنه أثار دمي بصيخته ، وشاربيه وقبعته العسكرية ، وبكل مظهره (٣٥) . لنعد .

* احتس : (بالألمانية في الأصل) .

- لنعد ، ديميتري . هناك تيار من الريح ، بالفعل . لم تحرص أنت على نفسك ، بعد مرضك في موسكو ، فدفعت ثمن ذلك في فينا . يجب أن تكون أكثر حذراً ، الآن .

صمت اينساروف ، إلا أن التكشيرة العريضة السابقة ، رفّت على شفتيه . وتابعت ييلينا تقول :

- هل تريد أن نركب جندولاً في القناة الكبيرة ؟ نحن حتى الآن لم نركب فيينا ، بشكل طيب . وفي المساء نذهب إلى المسرح . نعمي تذكرتان في المقصورة . يقال أن أوبرا جديدة تعرض هناك . أتريد أن نوقف هذا اليوم على أنفسنا ، وننسى السياسة ، والحرب ، وكل شيء . ولا نعرف إلا شيئاً واحداً وهو أننا نعيش ، ونستشق الهواء سوية ، ونفكر سوية ، وأننا قد ارتبطنا إلى الأبد . . . هل تريد ؟

اجاب اينساروف :
- أنت تريدين ذلك ، يا ييلينا ، ومعنى ذلك أنني أريده أيضاً .

قالت ييلينا مبتسمة :
- كنت أعرف ذلك . لنذهب ، لنذهب .
وعادا إلى الجندول ، وجلسا فيه ، وأمر الجندولي أن يسير بهما في القناة الكبيرة على مهل .

ومن لم يركب فيينا في نيسان لا يكاد يعرف فتنة هذه المدينة الساحرية ، الفتنة التي تعز على الوصف . وداعة الربيع ونعومته تناسبان فيينا مثلما تناسب شمس الصيف الساطعة مدينة جنوى الرائعة ويناسب الخريف الذهبي القرمزي مدينة روما العظيمة . العريقة . وجمال فيينا ، كالربيع ، يمس رغائب النفس ويوقظها . ويداعب القلب الغرير ويناكده ، وكأنه وعد بسعادة دائية القلوب ليست لغزاً ، وإن كانت مبهمة . كل ما في المدينة وخير . قريب إلى الفهم ، كل ما فيها مغشّى بنقاب ناعس من السكون العاشق . كل ما فيها صامت ، حفي ، أثوي ابتداءً من أسماء . فليس محض مصادفة أن يطلق عليها وحدها لقب «العشاء» . عمار قصورها وكنائسها تنتصب بخفة وروعة ، على حلم رهيف لاهة شابة . هناك شيء ساحري ، شيء غريب فتان في الألق الرمادي المخضوضر ، في الالتعاعات الناعمة لوج قنواتها

الاحرس ، في سرحان جندولاتها الصموت ، في خلوها من اصوات المدن الخشنة ، ومن الطرْق الفظ ، والقرقة ، والدندنة . وبقول لك اهل فينيسيا : «فينيسيا تحتضر ، فينيسيا تنقر» . ولكنها ربما كانت تفتقر الى هذه الفتنة الاخيرة ، فتنة ذبول جمال في ذوبه تفتحها وانتصاره . والذي لم يرها لا يعرفها . فلا كاناليتي ولا غواردي (٣٦) (ودع عنك الرسامين المحدثين) استطاع ان ينقل رقة الهواء القضية هذه ، ولا ذلك العرمى المتناهي والقريب . ولا ذلك التناسق العجيب لأرشق الملامح والالوان الذائبة . ومن ولى زمانه ، وحطمته الحياة لا داعي له ان يزور فينيسيا . فستكون مريرة المذاق في ذهنه ، كذكرى احلام لم تتحقق في مطلع حياته . ولكنها ستكون حلوة المذاق لمن ما يزال العنطوان في اعطافه ، ولمن يشعر بالسعادة في ذات نفسه . فليات بسعادته الى كنف سمائها الساحرة ، وليغمرها القها الذهبي الأبد . بها يكن لسعادته من لالا .

مرّ جندول اينساروف ويلينا رخيّا ^{Riva dei Schiavoni} . وبقصر الدوجي * ، وبيادزيتا ، وخرج الى القناة الكبيرة . كانت القصور الرخامية تمتد على الجانبين ، فكانت تبدو وكأنها تمر عالما بهدوء ، لا تكاد تتيح للمرء ان يشمّلها ببصره ويفهم كل معانيها . كانت يلينا تشعر بسعادة غامرة . لم تكن في سماء قلبها الازوردية غير سحابة داكنة واحدة ، وحتى هذه راحت تبتعد . لان اينساروف في هذا اليوم كان يشعر بتحسّن اكثر . مضى بهما الجندول حتى طاق رياتو العالي ، وعاد بهما . كانت يلينا تخشى برودة الكنائس على اينساروف ، ولكنها تذكرت اكاديمية ^{delle Belle Arti} * . (٣٧) ، وطلبت من الجندولي ان يأخذهما اليها . طاقا في قاعات هذا المتحف الصغير بسرعة . ولم يتوقفا امام كل لوحة ، ولم يزحما نفسيهما ، وهما ليسا خبيرين في ذلك ، ولا متفهمين . وغمرها فرح نضير مفاجئ . فقد بدا لهما فجأة ان كل شيء مسلي جدا (الاطفال يعرفون هذا الشعور جيداً) . اثارَت يلينا الغيظ الشديد

* كورنيس شيافوني (بالايطالية في الاصل) .

** رئيس جمهورية فينيسيا التجارية المنتخب مدى الحياة .

*** الفنون الجميلة (بالايطالية في الاصل) .

ثلاثة من الزوار الانجليز ، حين ضحكت ، حتى سالت دموعها . من القديس ماركو لتييتوريتو (٣٨) ، وقد قفز من السماء كما تقفز السلطنة الى الماء لينقذ عبداً من التعذيب . كما تهلل اينساروف بشرا . من ناحيته ، حين رأى ظهر وربلتي الرجل النشيط في ازار انظر . وهو يقف في صدر لوحة تيتسان «الرفع» ، ماداً يديه الى اتر العذراء . بينما العذراء نفسها ، وهي امرأة جميلة قوية ، مندفعة بسكينة وعظمة الى احضان الاله الأب ابهرت اينساروف ويلينا كليهما . كما اعجبتهما ايضاً لوحة الشيخ تشيما دا كوتيليانو (٣٩) الصارمة القدسية . وعندما خرجا من الاكاديمية نظرا مرة اخرى الى الانجليز الثلاثة الذين خرجوا وراءهما باسنانهم الطويلة كاستنان الارانب ، وقذالاتهم المرتخية ، وضحكا . ورأيا صاحب الجندول الذي جاء بهما بسترته القصيرة وبنتلولونه القصير ايضاً ، وضحكا . ورأيا بائعة قد لفّت شعرها الاشيب على شكل صرة صغيرة فوق يافوخها تماماً ، فضحكا اصدق من ذي قبل ، واخيراً نظرا احدهما في وجه الآخر ، وانفجرا ضاحكين . وحالما استقرا في الجندول ضم احدهما يد الآخر بقوة . ذهبا الى الفندق ، وهرما الى حجرتهما ، وطلبا ان يجلب لهما الغداء فيها . ولم يرايلهما العرج ، وهما على مائدة الطعام . اطعم احدهما الآخر ، وشربا في صحة اصدقائهما في موسكو وصفقاً للحاجب ثناء على طبق السمك اللذيذ ، وراحا يلحان عليه لتقديم ^{frutti di mare} * . وخرجوا ، بل وهمس مرة في زفرة ^{poveretti} ! (مساكين !) . وبعد الغداء توجهوا الى المسرح .

في المسرح عرضت اوبرا لفيردي مبتذلة جداً ، اذا اردنا الصق ، ولكنها استطاعت ان تطوف في مسارح اوربا كلها . اوبرا مشهورة جداً عندنا ، نحن الروس ، وهي «ترافياتا» (٤٠) . كان الموسم قد انتهى في فينيسيا ، وجميع المغنين لم يرتفعوا عن المستوى الوسط . وكان كل مغن يصرخ باعلى ما تستطيع منجسته . وقد مثلت دور فيوليتا ممثلة مغمورة ، لا يحبها الجمهور كثيراً ، اذا حكمنا بالبرود الذي جوبهت به ، ولكنها لم

* ثمار البحر ، أي المحار المأكول . (بالايطالية في الاصل) .

تكن تغلو من موهبة . وكانت هذه فتاة شابة سوداء العنبر
وليست على حظ كبير من الجمال لها صوت غير متسق تماماً
وتألف . وكانت في ملابس مزركشة الى حد السذاجة . وبلا ذوق
كان شعرها مغطى بشبكة حمراء ، وفستانها من الاطلس الازرق
الناصل يضغط على نهديها ، وقفازاها السويديان السميكان يصلان
الى كوعيهما المديبين ، ثم من أين لها ان تعرف ، وهي ابنة راء
من رعاة برغامو ، كيف تلبس غادات الكاميليا الباريسيات
انها لم تحسن الوقوف والحركة على المسرح . ولكن تمثيلها كان
يحفل بالكثير من الصدق ، ومن البساطة العالية من التحايل
وكانت تغني بتلك العاطفية في التعبير والايقاع ، تلك التي يشه
بها الايطاليون وحدهم . كانت يلينا واينساروف جالسين لوحدهما
في مقصورة مظلمة عند خشبة المسرح تماماً ، وهما ما يزالان تحت
سيطرة ذلك المرح اللعوب الذي غمرهما في اكاديميا
delle Belle Arti . وحين ظهر على المسرح والد الشاب النعيس التي
وقع في شرك الغاوية ، مرتدياً سترة فراك بلون الحمص ، وياقوت
بيضاء منقوشة الشعر ، وفتح فمه باعوجاج ، وأطلق «ترميلو»
خفيضة النبرة كثيبة ، مرتبكاً هو نفسه ، قبل الاوان . كادت ان
تند منهما ضحكة . . . ولكن تمثيل فيوليتا اثر فيهما ، قال
يلينا :

- لا يكاد احد يصفق لهذه الفتاة المسكينة بينما انا افضلها
الف مرة على اية شهيرة من الدرجة الثانية معتدة بنفسها كانت
ستتلقى ، وتتنسى ، وتسعى طوال الوقت الى اثاره الاعجاب . اما
هذه فتبدو وكأنها تشعر بحالها جديدة . انظر اليها . انها لا تلتفت
الى الجمهور .

مال اينساروف الى خافة المقصورة . وتفرس في فيوليتا
وقال :

- نعم ، انها لا تمزح . تتوجس الموت .
سمكت يلينا .

وبدا الفصل الثالث . وارتفعت الستارة . . . وجفلت يلينا من
مراى السرير ، والستائر المسدلة ، وقارورات الدواء ، والمصابيح

* ارتعاشة في الاوتار الصوتية . المترجم .

المحبوب . . . تذكرت الماضي غير البعيد . . . وطاف في ذهنها :
«المستقبل ؟ والحاضر ؟» . ومن نكد الطالع ان الممثلة سعلت
سعالاً تمثيلاً فرد عليه من المقصورة سعال جاف حقيقي من
جانب اينساروف . . . اختلست يلينا النظر اليه ، ولكنها
امرعت فطبعته الرصانة والهدوء على قسمات وجهها .
فيهما اينساروف . واخذ يبتسم . مترنماً بلحن الاغنية
لليلة .

ولكنه سرعان ما سكنت . وصار تمثيل فيوليتا احسن فاحسن
واكثر ملاقة . تغلّت عن كل ما هو دخيل ، عن كل ما هو زائد .
ووجدت نفسها . وتلك سعادة نادرة عالية جداً للفنان ! تجاوزت
فجأة العد الذي يستحيل تحديده ، ولكن الجمال يكمن وراءه . سرت
حركة بين الجمهور . واخذته الدهشة . لقد بدأت الفتاة القبيحة
ذات الصوت التألف تأخذ بزمامه ، وتسيطر عليه . ولم يعد
صوتها تألفاً . فقد اشاع الدفء فيه واشتد . وظهر «الفريدو»
وكادت صبيحة فيوليتا الفرحة تثير تلك العاصفة التي تسمى
«fanatismo» والتي لا تهزم امامها كل صياحاتنا الشعالية
الكثيرة . . . وما هي الا لحظة . واذا بالجمهور قد جمد مرة اخرى .
وبدا اللحن الثنائي ، اروع قطعة في الاوبرا ، والذي استطاع فيه
الموسيقي ان يعرب عن كل الاسف على تبذير الشباب بطيش ،
والصراع الاخير لحب يائس عاجز . واستسلمت المغنية للموجة
التي ارتفعت بها مأخوذة ومغمورة بدفق التجاوب الشامل ، وفي
منبها دموع الفرح الفني والعذاب الحقيقي ، وتغير وجهها ، وامام
شبح الموت الرهيب المقترّب فجأة اندفعت من شفيتها كلمات الرجاء
التي تصل الى عتات السماء . «Lascia mi vivere... morir si
giovane» (دعني اعيش . . . اموت وانا شابة !) واذا بالمسرح
كله يهتز بالتصفيق العارم ، وهتافات الحماس والاعجاب .

واحست يلينا بالبرودة تجتاح جسدها كله . اخذت تبحث
بيدا ، خلسة ، عن يد اينساروف ، ووجدتها وضغطت عليها
بقوة . استجاب هو لحركة يدها ، ولكنه لم ينظر اليها ، ولم

يلاحظ .
* نفس (بالايطالية في الاصل) .
* ارتعاشة في الاوتار الصوتية . المترجم .

تنظر هي اليه . ان ضم اليدين هذا لم يكن يشبه ذلك المثل
حدث بينهما في الجندول قبل بضع ساعات ، واحدهما يحترق
بالآخر .

في طريق العودة الى الفندق سار بهما الجندول في القناة الكبرى
ثانية . كان الليل قد هبط وضيئاً ناعماً . واستقبلتهما للسر
القصور على امتداد القناة ، الا انها بدت مختلفة . كان القمر يضي
بعضها فيبدو ابيض مذهباً ، وكأنما قد ابتلع ببياضه تفاصيل
الزخارف ومعالم النوافذ والشرفات ، بينما برزت هذه بوضوح
اكثر في المباني المسربلة بنقاب خفيف من الظل السبيل . وبعد
الجندولات باضوائها الحمراء الصغيرة اخفت صوتاً واسرع حركة
وكانت قيادتها الفولاذية تلمع غامضة غموض مجاذفها التي كانت
تعلو وتهبط فوق الالتصاقات الفضية للماء المستثار . وهنا وعنا
كان الجندوليون يتبادلون نداءات قصيرة خافتة (انهم الآن لا يغنون
ابداً) ؛ وما من اصوات اخرى تقريباً . كان الفندق الذي نزل فيه
اينساروف ويلينا في Riva dei Schiavoni ، وقد نزلا من الجندول
قبل الوصول اليه ، وطافا عدة مرات حول ساحة القديس ماركو
تحت الاطواق التي كان عدد كبير من المتبطلين يزدهمون امام
مقاهيها الصغيرة . لطيف جداً ان يسير الانسان مع محبوبه في
مدينة غريبة ، وسط اناس غرباء . فقد كان كل شيء يبدو جميلاً
مهماً ، فتمتني للجميع الخير والسلام والسعادة التي تملأ جوانحك
ولكن يلينا لم تعد الآن قادرة على الاستسلام للشعور بسعادتها
بخلو بال . وما كان في وسع قلبها ان يهدأ ، وقد روتت
الايحاءات قبل وقت قصير . اما اينساروف فقد اشار بصمت ، كما
مرّاً بقصر الدوجي ، الى مواسير المدافع النمساوية المطلة
تحت عقود السقوف الواطئة ، ودفع قبعته الى حاجبيه . وكان
يشعر بالتعب فضلاً عن ذلك . نظرا للمرة الاخيرة الى كاتدرائية
القديس ماركو ، وإلى قبائها ، وقد اشعلت اشعة القمر نقاطاً من
الضوء الفوسفوري على قصديرها المزورق ، وعادا الى الفندق
مهل .

كانت حجرتهما تطل بنوافذها على المنبسط البحري العريض
الممتد من Riva dei Schiavoni الى جيوديكيا . ومقابل فندقهم
تقريباً كان يرتفع برج القديس جيورجي المذهب الطرف ، وال

البحر تلتصق كرة دوغانا الذهبية المرتفعة في الهواء وتنتصب
كنيسة Redentore ، لبالاديو (٤١) ، وهي واحدة من اجمل
الكنائس ، مزدانة كعروس ، وإلى اليسار تلوح صواري السفن
وجبالها . ومدائن البواخر سوداء اللون . وهنا وهناك كان احد
الاشعة المنشورة الى النصف يتدلى كجناح كسير ، واعلام السفينة
الضللت لا تكاد ترفرف . جلس اينساروف امام نافذة ، ولكن يلينا
لم تتركه يستمتع بالمنظر طويلاً . اذ احس بحمى مفاجئة ،
ولم يملكه ضعف مؤمن . فارقده في الفراش ، وانتظرت حتى غفا ،
وعادت الى النافذة بهدوء . آه ، كم كان الليل ساجياً حنوناً ،
والهواء اللازوردي مشبعاً بوداعة الحمام ، وكل عذاب ، كل بلية
لا يمكن لها الا ان تهجع وتغفو تحت هذه السماء الصافية ، وتحت
تلك الاشعة القدسية الطاهرة ! وفكرت يلينا مع نفسها : «يا
الهي ! لم الموت ، لم الفراق ، والمرض والدموع ؟ او لم هذا
الجمال ، هذا الشعور اللذيذ بالامل ، ولم الاحساس المهدى
بالمجا الأمان ، بالحماية الوثقى ، والرعاية الخالدة ؟ ما تعني
هذه السماء الباسمة المباركة ، هذه الارض السعيدة المستريحة ؟
ايمن ان يكون هذا كله فينا فقط ، وفي خارجنا البرودة الابدية
والسكون ؟ ايمن ان تكون نحن هنا . . . وحدنا . . . وكل شيء
هناك ، في كل مكان من هذه الاعماق السحيقة التي لا تسير ،
تريباً علينا ؟ اذن ، فما نفع هذا الظلم وفرحة الصلاة ؟ (تردد في
داخل نفسها «Morir si giovane») الا يجوز للمرء ان يتضرع
ويتعاضد وينجو . . . اوه ، يا الهي ، الا يجوز الايمان بمعجزة ،
حقاً ؟ - ووضعت راسها على ذراعيها المطويتين ، وهمست -
«هذا كل شيء ؟ معقول انه كل شيء ؟ كنت سعيدة ، لا لدقائق ،
ولا لساعات ، ولا لايام بطولها ، بل لاسبوع متتالية . ولكن باي
حق ؟ » وحسنت بالرهبة من سعادتها ذاتها . وفكرت : «ماذا لو ان
ذلك غير مباح ؟ ماذا لو كان لا يُعطى بلا مقابل ؟ انه السماء . . .
بيتنا نحن بشر ، مساكين ، خاطئون . . . Morir si giovane
اوه ، ايها الشبح الاسود المشؤوم ، انصرف ! حياته ضرورية
ليست لي وحدي ! »

وفكرت ثانية : «ولكن ماذا لو كان هذا عقاباً ، ماذا لو كان
علينا الآن ان ندفع الثمن كاملاً على ذنوبنا ؟ كان ضميري هادئاً ،

استيقظ اينساروف في ساعة متأخرة يطوق رأسه صداع
اصم ، ويغمغمه احساس بضعف لثيم ، على حد تعبيره ، يسري في
جسده كله . ولكنه نهض وكان سؤاله الاول :
- ألم يأت رينديتش ؟
- لم يأت بعد .

ودت يلينا عليه ، وقدمت له العدد الاخير من
« Osservatore Triestino » (٤٢) . وكان فيه حديث كثير عن
الحرب ، وعن البلدان السلافية ، وعن الامارات . شرع اينساروف
يقرا ، وانشغلت هي بتحضير القهوة له واذا بطرق على
الباب .

وفكر كلاهما مع نفسه : «رينديتش» ، ولكن الطارق تكلم
بالروسية : «هل ممكن ان ادخل ؟» تبادلت يلينا واينساروف
النظرات في استغراب ، وقبل ان يردا دخل الحجرة رجل انيق
المليس ذو وجه صغير مذهب ، وعينين حركتين . كان يتألق
بكلبته ، وكانما قد ربح لتوه مبلغاً ضخماً من المال ، أو سمع
لباً ساراً .

رفع اينساروف جسمه عن الكرسي .
قال الغريب متقدماً نحوه بمشية متخلخلة ، منحنيّاً ليلينا
بادب :

- لا تعرفني . انا لوبوياروف ، هل تذكرني ؟ التقينا في
موسكو عند آل

قال اينساروف :

- نعم ، عند آل

- بالتأكيد ، بالتأكيد ! ارجو ان تقدمني لعقيلتك . كنت
دالماً . يا سيدتي ، احترم ديميتري فاسيليفتش (وصحح نفسه)
نيكانور فاسيليفتش احتراماً عميقاً وانا سعيد جداً في ان
يكون لي الشرف ، آخر الامر ، ان اتعرف عليك - ومضى يقول
مقاطعاً اينساروف - تصور انني مساء امس فقط ، عرفت انكما

* ومراقب تريست ، (بالايطالية في الاصل) .

وهو الآن هادئ ، ولكن اهذا برهان على البراءة ؟ يا الهي
اي عقل اتنا مجرمون بهذا الشكل ؟ اي عقل انك ، خالق هذا الليل
وهذه السماء ، تريد ان تعاقبنا لان احبنا الآخر ؟ واضاف
بصورة لا ارادية : «واذا كان كذلك ، اذا هو مذنب ، وانا مذنب
فاجعله يموت ، يا الهي ، اجعل كليتنا يموت على الاقل ميتاً
شريرة ماجة ، في رحاب وطنه ، هناك ، وليس هنا ، ليس في
هذه الحجرة المعزولة» .

«وفاجعة المسكين» ، الام الوحيدة ؟ - سألت نفسها .
واضطربت من سؤالها هذا ، ولم تجد اعتراضاً عليه . ولم تكن
تعرف ان سعادة انسان قائمة على تعاسة انسان آخر ، بل دار
نفعه وراحته ، كالتمثال ، تتطلبان قاعدة من خسارة الاخرين
ومضايقتهم .

غمغم اينساروف اثناء نومه : «رينديتش !»
سارت يلينا اليه على اطراف اصابعها ، وانحنى
عليه ، ومسحت العرق من وجهه . تقلب على المغدة قليلاً
وسكن .

عادت الى النافذة ، وعادت افكارها تتوارد . اخذت تقنع نفسها
وتؤكد لها ان ليس هناك سبب للخوف . بل وخجلت من ضعفها
وغمست : «وهل هناك خطر حقاً ؟ او ليست صحته قد تحسنت ؟»
ولو لم تكن اليوم في المسرح ، لما طافت في ذهني هذه الغواطر .
وفي تلك اللحظة رأت نورساً ابيض يحلق عالياً فوق الماء ، ربما
روعه صياد ، فطار بصمت ، صاعداً هابطاً ، وكانما يبحث
مكان يحط فيه . وفكرت يلينا : «ان طار الى هنا ، كان قلاً
حسناً » حام النورس دائراً في مكان واحد ، واطبق جناحيه
وسقط بعيداً وراء سفينة مسودة ، مطلقاً صيحة شاكية ، وكانما
اصيب بطلقة . جفلت يلينا ، ثم خجلت من جفولها هذا ، فاستلقت
على السرير ، دون ان تخلع ثيابها ، جنب اينساروف الذي كان
انفاسه تتلاحق ثقيلة سريعة .

هنا . انا ايضا اقيم في هذا الفندق . اية مدينة ، فينيسيا علم
انها الشعر بعينه ! شي ، واحد فظيع هو ان النمساويين الملعونين
في كل خطوة ! ضقت من هؤلاء النمساويين ! بالمناسبة ، لعنة
سمعت بان معركة حاسمة جرت في الدانوب قتل فيها ثلاثمائة ضابط
تركي . واحتلت سيلبستريا ، واعلنت بلاد الصرب استقلالها
(٤٣) . الا يبهجك هذا وانت المناضل ؟ انا ، السلافي ، يجعل الم
يفور في عروقي ! ومع ذلك انصحك بان تكون اكثر حذرا ، وانا
واتق من انك مراقب . الجاسوسية هنا مريعة ! بالامس دنا منسى
شخص مريب ، وسألني «هل انت روسي ؟» قلت له انت
دنماركي . . . لا بد انك عليل ، يا نيكاتور فاسيليفيتش الغافل
وعليك ان تعالج نفسك . سيدتي ، عليك ان تعالجي زوجك
بالامس كنت اطوف كالمجنون في القصور والكنائس . لا بد انك
كنتما في قصر الدوجي ؟ يا له من ثراء في كل مكان ! لاسيما تلك
القاعة الكبيرة وموضع مارينو فالباري (٤٤) ، كتب فيه *decapitati*
pro criminibus * . وقد زرت السجون الشهيرة ، حيث افعلت
شديد الانفعال . لا بد انك تذكر . كنت دائما احب الازم
بالمسائل الاجتماعية ، ووددت لو ارسل المدافعين عن الارستقراطية
الى هذه السجون . كان بايرون محقا في قوله *Wood in Venice*
on the bridge of sighs ** (٤٥) وكان ، بالمناسبة ، ارستقراطيا
كنت دائما في صف التقدم . الجيل الفتى كله في صف التقدم
والانجليز والفرنسيون ؟ سنرى هل سيفعل بومسترايا وبالمرستون
(٤٦) الشبي ، الكثير . انت تعرف ان بالمرستون اصبح الوزير
الاول . على كل حال ، القبضه الروسية ليست مزحة . ان بومسترايا
هذا محتال فظيع . هل تريد ان اعطيك *les Châtiments*
(٤٧) * * * de Victor Hugo شي 'مدهش ! *devenir le gendarme*
(٤٨) * * * * *de Dieu* وهو قول جرى 'بعض الشبي' ، ولكنه القوة
القوة . وما قاله الامير فيازيمسكي جيدا ايضا : «اوربا لا تقفنا تروء

وطل لوبوياروف يثرثر بهذا الشكل وقتا طويلا ، ووعد ، لدى
خروجه ، بزيارة ثانية .

استلقى اينساروف على الاريقة وقد اتعبته هذه الزيارة غير
المنظرة .

نظر الى يلينا وقال بمرارة :

- هذا هو جيل الشباب في روسيا : بعضه يتعاطف ويتباهى ،
ولكنه في قرارة فارغ كهذا السيد .

ولم ترد يلينا على زوجها ، فقد كان ضعف اينساروف في تلك
اللحظة يقلقها اكثر بكثير من وضع كل الجيل الفتى في روسيا . . .
جلست الى جانبه ، وتناولت التطريز . اغمض اينساروف عينيه ،
وانسد بلا حراك ، وبدأ شديد الشحوب نحيل . نظرت يلينا الى
صفحة وجهه الحادة الخلو ، والى ذراعيه المسبلتين ، واعتصر
قلبها بخوف مفاجئ . قالت :

- دميتري . . .

جلل اينساروف .

- ماذا ؟ جاء رينديتش ؟

- لا ، لم يات بعد . . . ولكن ما رأيك ، هل

* وقطع رأسه لجرائمه (باللاتينية في الاصل) .
** ووقفت في فينيسيا على جسر التنهدات (بالانجليزية في الاصل)
*** والعقوبات لفكتور هوغو . (بالفرنسية في الاصل)
**** والمستقبل منفذ حكم الرب (بالفرنسية في الاصل)

نستدعي طبيباً ؟ صحتك ليست على ما يرام ، وحرارتك مرتفعة حقاً .

- اخافك ذلك الثرثار . لا حاجة . ساستريح قليلاً .
ويزول كل شيء . وسنخرج مرة أخرى بعد الغدا

انقضت ساعتان ، واينساروف ما يزال ممتدداً على الاركة ولكنه لم ينم ، رغم ان عينيه مغمضتان . ولم تبتعد يلينا عنه جعلت التطريز على ركبته ، ولم تتحرك . واخيراً سأله :
- ولماذا لا تنام ؟

- على مهلك - وتناول يدها ، وتوسدها - هكذا .
لطيف ايقظيني ، حالما يأتي رينديتش اذا كان المركب جاهزاً سافرناس في الحال يجب ان نصفك امتعتنا .

اجابت يلينا :

- لا يحتاج ذلك الى وقت طويل .

وبعد قليل قال اينساروف :

- ما قاله ذلك الرجل عن المعركة وعن بلاد الصرب لابد ان قد اختلفه كله . ولكن يجب ان نسافر . ولا يجوز تضيق الوقت كوني متهيئة .

وغفا . وهذا كل شيء في الحجرة .

القت يلينا رأسها على ظهر الكرسي ، واستغرقت تنظر من النافذة وقتاً طويلاً . ساء الطقس ، هبت ريح ، وراحت تجوب افكار السماء بسرعة غيوم بيضاء كبيرة . تمايلت صارية نخيلة في الافق البعيد ، وراح العلم المثلث الطويل بصليبه الاحمر يرفرف . انقطاع ، يسترخي ويرتفع من جديد . وكان رقاص الساعة القديسة يدق ثقيلًا ، وبهسيس حزين . اغمضت يلينا عينيها . وكانت قد نامت نومًا سيئًا في الليل . فغفت ، هي الاخرى ، شيئًا فشيئًا .

حلمت حلمًا غريبًا . تراءى لها في النوم انها في قارب على بحيرة تساريتسينو بصحبة اناس غرباء يجلسون صامتين بلا حراك ، ولا احد يجنق ، والقارب يسير من تلقاء نفسه . ولم تكن يلينا مرتعبة ، ولكنها ضجرة ، فقد كانت تريد ان تعرف من هؤلاء

الناس . ولم هي معهم . وتحقق ، فاذا بالبركة تتسع ، والضفاف تختفي . ولم تعد البركة بركة ، بل صارت بحرًا مضطربًا . والامواج اللازوردية الصامتة الهائلة تؤرجع القارب ببطء ، ويطلع من القاع شيء هادر مربع واذا بالغرباء يقفزون على ارجلهم ، ويصبحون ويلوحون باذرعهم وتتعرف يلينا على وجوههم ، وابوها بينهم ولكن الاعصار الابيض يدوم في الامواج وراح كل شيء يدور ، ويختلط

وتنظر يلينا فيما حولها . كل شيء ابيض كالسابق ، ولكن الثلج يتساقط الى ما لانهاية ، ولم تعد جالسة في القارب ، بل في الزلاجة التي نقلتها من موسكو ، وليست وحيدة ، بل مع مخلوق صغير ملتف بمعطف نسائي قديم . وتتمعن يلينا فتعرف فيه كاتيا ، صاحبته المتسولة المسكينه . وترتعب . ويجول في ذهنها : «الم تمت بعد ؟»

- كاتيا ، الى اين نحن ذاهبتان ؟

ولا تجيب كاتيا ، وتلتف بمعطفها . كانت ترتعد برداً . وتحس يلينا بالبرودة ايضاً . وترسل بصرها عبر الطريق ، فترى مدينة تلوح في البعيد ، خلال رذاذ الثلج . ابراج بيضاء عالية برؤوس فضية كاتيا ، كاتيا ، اهذه موسكو ؟ تفكر يلينا مع نفسها : لا ، هذا دير سولوفيتسكي ، وفيه الكثير ، الكثير من الصوامع الصغيرة الضيقة ، والجو هناك خائق ، ودميتري محتجز هناك ، ويجب ان اطلق سراحه وفجأة تنشق امامها هاوية بيضاء فائقة . وتسقط الزلاجة ، وتضحك كاتيا . ويتردد صوت من الهاوية : يلينا ، يلينا !

ويصدر صوت واضح في اذنيها - «يلينا !» رفعت رأسها بسرعة ، والتفتت ، وجمدت على حالها ، فقد رأت اينساروف مبيضاً كالثلج ، كالثلج الذي رآته في حلمها ، يرفع جسمه على الاركة الى النصف ، ويعدق فيها بعينين واسعتين وضاءتين مرعبتين . وشعره متناثر على جبينه وشفتاه منفرجتان بشكل غريب ويرسم على وجهه المتغير فجأة رعب مزوج بحنان وكأبة وقال :

- يلينا ! انا احتضر .

ركعت على ركبتيها صارخة ، وانضغطت على صدره .
اينساروف :

- كل شيء انتهى . انا احتضر . وداعاً ، يا زوجتي المسكينة .
وداعاً ، يا وطني ! . . .

وانطرح بظهره على الاركة .

خرجت يلينا من الحجرة راكضة ، وراحت تنادي طاليس
النجدة ، وانطلق خادم لاستدعاء طبيب . وارتمت يلينا على
اينساروف .

وفي تلك اللحظة ظهر على عتبة الباب رجل عريض المنكبين
ملوَّح البشرة في معطف سميك من الفانيلا ، وقبعة واطنة من
المشمع . وتوقف في حيرة . هتفت يلينا :

- رينديتش ! انت هذا ! انظر ، بحق الرب ، انه في غيبوبة !
ماذا به ؟ يا الهي ، يا الهي ! بالامس خرج ، وقبل لحظات كان
يتكلم معي . . .

لم يقل رينديتش شيئاً ، سوى انه تنحنى . وتجاوزوه خطاً
شخص صغير يضع على رأسه شعراً مستعاراً ، ولبس
نظارة . انه طبيب كان يقيم في نفس الفندق . وتقدم من
اينساروف .

وبعد لحظات قال :

- سينيورا . السيد الاجنبي مات - *il signore forestiere*
e morto - من تمدد الاوعية الدموية مع اختلال الرئتين .

٣٥

في اليوم التالي كان رينديتش واقفاً عند النافذة . في نفس
الحجرة وقد جلست يلينا امامه ملتفة بشال . وكان اينساروف
ممدداً في تابوت في الحجرة المجاورة . كان وجه يلينا مذعوراً وبها
حياة ، وقد ظهر غضنان على جبينها بين الحاجبين كانا يضلحيان على
عينيهما الجامدتين مسحة الاجهاد . وعلى النافذة رسالة من آنا
فاسيليفنا مبسوطة تستدعي فيها آنا فاسيليفنا ابنتها الى موسكو .
ولو لشهر ، وتشكو من وحدتها ، ومن نيقولا ارتيميفيتش .

وتسلم على اينساروف ، وتستفسر عن صحته ، وترجوه ان يسمح
لزوجته بالسفر .

كان رينديتش يحار من دالاسيا تعرف اينساروف عليه اثناء
سفره الى وطنه ، ووجده في فينيسيا . وكان رجلاً صارماً خشناً
جسوراً مخلصاً للقضية السلافية . وكان يحتقر الاتراك ، ويبغض
التساوين .

سالت يلينا بالاطالية :

- كم ينبغي ان تمكث في فينيسيا ؟

وكان صوتها بلا حياة كوجهها .

- يوماً لشحن الحمولة ، ولعدم اثاره الريبة ثم نتجه الى
زارا داسا . لن افرح ابناً وطني . كانوا ينتظرونه منذ زمان ،
ويعولون عليه .

ردت يلينا بالية :

- يعولون عليه .

سال رينديتش :

- متى ستدقنيته ؟

تلكت يلينا في الجواب .

- غداً .

- غداً ؟ سابقى . اريد ان القي حفنة تراب على قبره .
ورحب ان اساعدك ايضاً . كان الافضل ان يرقد في تربة
سلافية .

نظرت يلينا الى رينديتش ، وقالت :

- يا قبطان ، خذني واياه ، وانقلنا الى ذلك الجانب من البحر
بعيداً عن هنا . اهذا ممكن ؟

غرق رينديتش يفكر .

- ممكن . ولكنه شاق . لا بد من تدبير الامور مع الرؤوساء
البلاتين هنا ، لنفرض اننا تجاوزنا كل ذلك ، ودفناه هناك ،
ولكن كيف ساعدوك ؟

- لا حاجة عند ذاك ان تعود بي .

- كيف ؟ واين ستبقين ؟

- ساجد للنسبي مكاناً الجا اليه ، فقط ان تأخذنا ،
لنأخذنا . . .

حك رينديتشس علياءه .

- كما تشائين ولكن كل ذلك يقتضي جهداً كبيراً . انا ذاهب وسأحاول . انتظريني هنا بعد حوالي ساعتين .
وانصرف . ذهبت يلينا الى الحجرة المجاورة ، وانكاثت على الحائط ، وبقيت واقفة لفترة طويلة كالمتحجرة . ثم ركعت على ركبتيها ، ولكنها لم تستطع ان تصلي . لم تحس في روحها بشئ من الوهم ، ولم تتجاسر على ان تسأل الله لم لم يرحمهما . ولم يشفق عليهما ، ولم يصنهما ، ولم عاقبهما اكثر من ذنبهما . لو كانا مذبذبين ؟ ان كل واحد منا مذنب اصلاً لكونه يعيش . وما من مفكر عظيم ، ولا اي محسن للانسانية ، يمكن ان يأمل . بعك ما فعل من خير ونفع ، بأن يكون له الحق في ان يعيش . . . ولكن يلينا لم تستطع ان تصلي ، فكانت متحجرة .

في تلك الليلة غادر قارب عريض مرسى الفندق الذي كان اينساروف وزوجته يقيمان فيه . وفي القارب يلينا ورينديتشس . وصندوق طويل مغطى بقماشة سوداء . وساروا زهاء ساعة ، حر وصلوا ، اخيراً الى سفينة صغيرة ذات صاريين كانت تقرر مرساتها عند المخرج من المرفأ تماماً . وصعدت يلينا ورينديتشس الى السفينة ، وحمل البحارة الصندوق . وعند منتصف الليل هز زوبعة ، ولكن السفينة كانت ، في باكر الصباح ، تمر بالليدو . وخلال النهار كانت الزوبعة تعربد بقوة رهيبة ، وكان البحارة المحنكون في مكاتب شركة «لويد» يهزون رؤوسهم ، ولا يتوقعون اي خير . والبحر الادرياتيكي بين فينيسيا وتريست والساحل الدالماسي خطر للغاية .

وبعد ثلاثة اسابيع من خروج يلينا من فينيسيا تلقت فاسيليفنا في موسكو الرسالة التالية :

«والدي العزيزين . اودعكما الى الأبد . لن ترياني بعد الآن . يوم امس قضى ديمتري نحبه ، وانتهى كل شئ . بالنسبة لي اليوم ساسافر مع جثمانه الى زارا . سادفنه هناك ، ولا اعرف ماذا سيكون معي ! ولكن لم يعد لي وطن ، غير وطن د . يعني الاعداد لانتفاضة هناك ، والناس يتهيئون للحرب . وسأكون ممرضة فيها ، واعتني بالمرضى والجرحى . انا لا اعرف ماذا سيجت

لي ، ولكنني ساضل ، بعد وفاته ، مغلصة لذكراه ولقضية حياته . اعرف الآن اللغتين البلغارية والصربية . ولعلني لا اتحمل كل ذلك . وهذا افضل . لقد وصلت الى حافة الهاوية ، ويجب ان اسقط . ان القدر لم يجمع بيننا جزافاً . من يدري فقد اكون انا التي قتلتها . والان جاء دوره ليحزني وراه . كنت ابحت عن السعادة ، ولكنني ربما ساجد الموت . والظاهر ان هذا ما كان يجب ان يكون . الظاهر ان خطيئة قد ارتكبت . . . ولكن الموت يعني كل شئ . ويسوي كل شئ . اليس كذلك ؟ سامعاني عن كل الاحران التي سببتها لكما . ان ذلك لم يكن بارادتي . ثم لم اعود الى روسيا ؟ ماذا افعل في روسيا ؟
تقبلاً قبلاني الاخيرة وتبريكاتي ، ولا تديناني .

ي .

القضى على ذلك زهاء خمسة اعوام ، ولم يأت اي خبر آخر من يلينا . ولم تجد نفعاً كل الرسائل والاستفسارات كما لم يأت بشئ . سفر ليقولاي ارتيميفيتش نفسه الى فينيسيا وزارا ، بعد انعقاد الصلح . في فينيسيا لم يعرف الا ما يعرفه القاري حتى الآن ، وفي زارا لم يستطع احد ان يمدّه بمعلومات ايجابية عن رينديتشس ، ولا عن السفينة التي استأجرها . وسرت شائعات غامضة تزعم ان تابوتا قد قذف الى الساحل ، بعد زوبعة شديدة ، منذ عدة سنوات . وقد وجدت في هذا التابوت جثة رجل . . . وتقول معلومات اكثر وثوقاً ان هذا التابوت لم يقذفه البحر اطلاقاً ، بل جاءت به سيدة اجنبية قادمة من فينيسيا ودفتته قرب الساحل ، واصاف آخرون ان هذه السيدة قد شوهدت بعد ذلك في الهرسك مع قوات كانت تؤلف آنذاك ، بل ووصفت ملابسها السوداء من الرأس حتى القدمين . ومهما يكن من شئ ، فان اثر يلينا قد اختفى ، والى الابد ، ولا احد يعرف هل ما تزال حية متخفية في مكان ما ام ان لعبة الحياة الصغيرة قد انتهت ، وانتهى نورها الخفيف . وحلّ الاجل . يحدث ان يستيقظ انسان في نوم ، ويسأل نفسه بذعر مباغت : اصحيح انني بلغت الثلاثين . . . الاربعين . . . الخمسين ؟ وكيف مرت الحياة بهذه السرعة ؟ ودنا الموت هذا الدنو ؟ ان الموت كالصياد الذي اصطاد

سمكة ، وابقاها في شبكته في الماء لبعض الوقت ، والسمكة
تزال تسبح ، ولكن الشبكة تطلقها ، والصيد يخرجها متى شاء .

ماذا جرى لاشخاص قصتنا الآخرين ؟

ما تزال آنا فاسيليفنا حية ترزق ، وقد ظهر عليها الكبر كثيراً بعد
الضربة التي صعدتها ، وقلّت شكاواها ، ولكنها صارت أشد
حزناً . كما ظهر الكبر على نيقولاي ارتيميفيتش أيضاً ، وغشاء
الشيب ، وانقطعت علاقته بافغوستينا خريستيانوفنا
الآن يشتم كل ما هو اجنبي . ومديرة بيته ، وهي امرأة روسية
جميلة في نحو الثلاثين من العمر ترفل بالحرير ، وتتعلّى بغوام
واقراط ذهبية . وكورناتوفسكي ، ذو المزاج العاد ، والولول
بالشقرواات الوسيمات ، لكونه اسود الشعر حيويًا ، تزوج زوا
التي طاعته كثيراً ، بل وكفت عن التفكير بالالمانية . وبيرسينيد
في هايدلبورغ ؛ ارسل الى الخارج على نفقة الحكومة ، وزار بول
وباريس ، وهو لا يضع الوقت سدى . وسيطلع منه معلم
صاحب كفاءة . وقد لفتت انظار الجمهور المتعلم مقاتلتان له هما
"عن بعض خصائص القانسون الالمانى القديم في مسائل
العقوبات القضائية" ، و"عن اهمية نشوء المدن في مسائل
الحضارة" .

والمؤسف فقط ان كلتا المقاتلتين قد كتبتا بلغة ثقيلة قبيلا
تتخللها الكلمات الاجنبية . وشوبين في روما ، وقد انقطع بكلية
الى فنه ، ويعتبر واحداً من ارواح النحاتين الشبان الواعدين كثيراً .
ويرى الصفاثيون المتشددون انه لم يدرس القدامى دراسة
كافية ، وانه يفتقر الى "اسلوب" ويعدونّه من المدرسة
الفرنسية ، وله طلبيات كثيرة جداً من الانجليز والامريكين . وفي
الفترة الاخيرة اثار نحت "الباخوسية" ضجة كبيرة . وكان الكونت
الروسي يوبشكين ، وهو ثري شهير ، ينوي شراء باقة
سكودي ، ولكنه فضل ان يعطي ثلاثة الاف سكودي لنحات آخر
فرنسي * pur sang ليقتني نحت "ريفية شابة تموت من الحب

* نقي الدم (بالفرنسية في الاصل) .

الصدر ملاك الربيع" . وكان شوبين يرسل ، من حين لآخر ،
ارفار ايفانوفيتش الذي هو وحده لم يتغير قط في اي شيء . وقد
كتب شوبين له منذ حين : "هل تذكر ما قلته لي في الليلة التي
عرفنا فيها بزواج يلينا المسكينة ، حين كنت جالساً على سريرك ،
وانحدث اليك ؟ هل تذكر حين سألتك : هل سيكون عندنا بشر ؟
واسالك مرة اخرى من هنا ، من "بعدي المريح" : "حسناً ، يا اوفار
ايفانوفيتش ، هل سيكونون ؟"
لاعب اوفار ايفانوفيتش اصابعه ، وثبت نظراته اللغزية في
البعيد .

في التسليّة والتمتعة الوحيدة تقريباً ، في تلك الفترة غير البهيجة جداً ،
بالنسبة لي .

وحين اندلعت حرب القرم ، وسرى التجنيد لما سُمي وبجحفل
المتطوعين ، على الاشراف ، اتفق اشراف قضائنا فيما بينهم ، اذ انهم لم
يكونوا يحترمون كارائيف ، على ان يزجوه ، كما يقال ، ويختاروه شاباً
في جعل المتطوعين هذا . ولما علم كارائيف بتعيينه جاء الي . وقد
اراحتني على الفور حياته المنهارة والهلهة . وكان اول ما قاله : «لن اعود
من هناك . لن احمل ذلك . ساموت هناك» . كانت صحته ليست موضع
شغل ، فقد كان صدره يمرض باستمرار ، وبنيته ضعيفة . ورغم خوفي
عليه ، انا ايضاً ، من كل مشقات المسيرة ، الا انني حاولت ان ابدد توجساته
القائمة ، واخذت اؤكد له اننا ستلتقي ثانية في اقليمنا الثاني ، حتى قبل ان
يتم عام ، وستزاور ثانية ، وتحدث ، وتجادل ، كما من قبل . الا انه
لم يصر على رايه بعناد ، وبعد نزعة طويلة بما فيه الكفاية في حديثي ،
وجه الي فجأة بهذه الكلمات : «وان لي رجاء لديك . انت تعرف انني قضيت
عدة سنوات في موسكو ، ولكنك لا تعرف ان قصة حصلت لي هناك اثارت
في نفسي الرغبة في ان ارويها لنفسي وللآخرين . وقد حاولت ان اقوم
بذلك . ولكن اقتنعت بانني لا املك اية موهبة ادبية . وتمخض الامر كله
من هذه الكرامة التي كتبتها ، وما انا اضعاها بين يديك» . وبعد ان قال
ذلك اخرج من جيبه كراسة صغيرة فيها زهاء خمس عشرة صفحة . وتابع
حديثه قائلاً : «ولما كنت مؤقناً بانني لن اعود من القرم ، رغم كل تسرياتي
الوردية ، فاعمل معروفًا ، وخذ هذه التخطيطات الأولية ، واصنع منها شيئاً
ما ، حتى لا يذهب جزافاً ، كما ساذب انا !» . اخذت ارفض ، ولكنني ،
حين رأت رفضي يغمره ، اعطيته عهداً بان سأنفذ وصيته . وفي ذات
النساء ، بعد خروج كارائيف قرأت الكراسة التي تركها ، قراءة عجل .
كانت تحتوي ، بخطوط عريضة ، ما صار فيما بعد محتوى «في العشي» .
والقصة ، على العموم ، لم تكن قد اوصلت الى ختامها ، وبترت بترا . كان
كارائيف ، أثناء اقامته في موسكو ، قد احب فتاة بادلته حباً بحب .
ولكنها بعد ان تعرفت على بلغاري يدعى كاترانوف (وهو شخص ، كما
عرفت بعد ذلك ، كان معروفًا جداً في وطنه في وقت من الاوقات ، وهو ما
برز لي غير متبني هناك) احبته الفتاة ، ورحلت معه الى بلغاريا ، حيث توفي
فيها بعد وقت قصير . وقد صوّرت قصة الحب هذا بصدق ، ولكن بلا
مهاارة . وبالفعل لم يكن كارائيف ادبياً بالسليقة . وهناك مشهد واحد
فقط ، وهو السفر الى تساريتسينو ، قد صور بقدر كاف من الحيوية ، وقد
حافظت في الرواية على ملامحه الرئيسية . في الحقيقة كانت تدور في ذهني ،
اذاً ، شخصيات اخرى . فقد تهيأت لكتابة «ورودين» ، ولكن المهمة التي
حاولت ، فيما بعد ، ان اقوم بها في رواية «في العشي» كانت تظهر امامي
من حين لآخر . وشخصية البطلة الرئيسية ، يلينا ، التي كانت في ذلك

... كتبت «ورودين» في القرية ، في ذروة حملة القرم ، ولقيت ادبياً
محضاً بين هيئة تحرير «سوفريمنيك» حيث نشرت ، بل وما كنت
خارجها كان اكثر .

وحظيت «عش التبلد» باكبر نجاح لنته في اي وقت من الاوقات .
ومنذ الزمن الذي ظهرت فيه هذه الرواية صرت اعتبر من عداد الكتاب الذين
يستحقون اهتمام الجمهور .

ولقيت «في العشي» نجاحاً اقل بكثير ، رغم ان اية رواية من رواياتي
لم تثر ما اثارته من المقالات في المجلات (وكانت مقالة دوبرولنوف
ايرضا ، بالطبع) . . .

وليسمح لي القراء بان اروي عن «في العشي» هذه بالذات ، حين
صغيرة من حياتي الادبية .

قضيت عام ٥٥ كله (شانه شان الاعوام الثلاثة التي سبقتها) مقبلاً
اقامة دائمية في قريتي ، في قضاء متسينسك ، من ولاية اوريول ، لا ارجع .
وكان اقرب جيراني الي شخص يدعى فاسيلي كارائيف ، وهو صاحب
اراض شاذ في نحو الخامسة والعشرين . كان كارائيف رومانياً ،
متحمساً ، وهاوى ادب وموسيقى كبيراً ، موهوباً في الوقت ذاته بعبارة
فريدة ، سريع الوقوع في الحب ، سريع التأثر ، مستقيماً . وقد درس في
جامعة موسكو ، وكان يقيم في القرية عند ابيه الذي كانت تنتابه كثر
ثلاث سنوات ، سوداوية كالجئون . وكانت لكارائيف اخت - وهي شابة
رائعة جداً - انتهت ايضاً الى الجئون . وكل هؤلاء الاشخاص قد توفوا منذ
زمن بعيد ، ولهذا اتحدث عنهم بهذه الصراحة . اجبر كارائيف نفسه على
ممارسة الزراعة التي لم يكن يعرف فيها اي شيء من قبل ، وكان يحس
المطالعة بشكل خاص ، والتحدث الى الذين ينسجم معهم . ومثل هؤلاء قلة
لم يكونوا بالكثيرين . وكان كارائيف لا يروق للجيران بسبب
تفكيره ، ولسانه الساخر . بالاضافة الى انهم كانوا يخشون من ان يعرفوا
بيناتهم وزوجاتهم ، لان شهرة قد علقت به - وهو لا يستحقها كلياً ،
اردنا الحق - شهرة زير لساء كبير . وكان غالباً ما يزورني وكانت زيارتي

الحين نموذجا جديدا في الحياة الروسية ، كانت تتكون في مخيلتي بغير
كاف من الوضوح . ولكن ما كان ينقصني البطل ، هو ذلك الشخص ، الذي
كان من الممكن ايلينا ان تتفانى فيه ، وهي في نزوحها القوي ، والمهم له
يزال ، نحو الحرية . وقد وجدت نفسي احتف لا اراديا ، وانا اقرا كتابا
كارايبف : وذلك هو البطل الذي كنت ابحت عنه ! ، ولم يكن له وجه
بعد بين الروس في ذلك العهد . وحين رايت كارايبف في اليوم التالي ، لم
اكتف بتاكيد عزمي على تنفيذ رجائه ، بل وشكرته على انه قد خرجني من
وضع صعب ، والتقى شعاعا من النور على مداركي وافكاري التي كانت ممسكة
حتى ذلك الحين . وفرح كارايبف بذلك ، وكبر قوله : « لا تنك كل ذلك
يفنى » وسافر للخدمة في القرم ، ولم يعد من هناك ، مع اسلي الشديد
لقد تحققت مخاوفي . توفي بالتييفوس في معسكر قرب بحر غيلويه ، حيث
كانت فرقة المتطوعين من ولايتنا اوريول تراكب هناك « في الملاحي » لترايب
دون ان ترى ، طوال حرب القرم ، ايا من الاعداء ، ومع ذلك فقدت احدى
نصف رجالها بسبب شتى الامراض . غير انني ارجأت تنفيذ وديتي
واشتغلت بعمل آخر . وحين فرغت من « رودين » بدأت العمل في دفتر
النبلاء ، وفي الشتاء فقط ، لعام ٥٨ الى عام ٥٩ ، حيث وجدت اسم
في نفس القرية ، وفي نفس الوضع ، اللذين كنت قد تصادقت فيها مع
كارايبف ، احسست بان الانطباعات الغافية اخذت تتعلم . وحين
كرامته ، واعدت قراءتها . والشخصيات التي تفهقرت الى المقام الذي
عادت لتحتل المقام الاول ، واشرعت ريشتي على الفور . وصار مطروحا
لبعض معارفي انذاك كل ما رويته الآن . ولكنني اجد لزاما علي الآن ، في
الطبعة النهائية لرواياتي ، ان افضي بذلك الى الجمهور ، وبذلك ارد ان
ولو في وقت متأخر ، لذكرى صديقي الشاب المسكين .

وبهذه الطريقة صار البلغاري بطل روايتي . بينما السادة النقاد لا يرون
جماعيا على تصنع هذه الشخصية ومجافاتها للحياة ، وابدوا دهشهم من
غرابية مقصدي في اختيار شخص بلغاري بالذات ، متسائلين : لماذا ؟
وباي وجه حق ؟ والى اي مرمى ؟ وها ان النقاب قد انزاح . ولنتي
لم اجد من الضروري انذاك الدخول في مزيد من التفاصيل . . .

ايقان تودغيت

الآباء والبنون (١٥)

تكريما للذكرى فيساريون بيلينسكي

١

هل ترى شيئا يا بيوتر ؟ - سأل السيد خادمه الشاب ذا
الوجهتين الممثلتين والذقن المكسو بزغب يميل الى البياض
والعينين الصغيرتين الداويتين . كل شيء في هذا الخادم : حركاته
اللقبة وشعره المدهون وقرط الفيروز المتدلى من احدى اذنيه ،
يشم عن انتمائه الى الجيل العصري المتقدم . القى الخادم بنظرة
متعالية على طول الطريق واجاب : «لا ارى شيئا ، يا سيدي ، لا
شيء» .

كان ذلك في العشرين من مايو ١٨٥٩ . وكان السيد الذي
تجاوز الاربعين قد خرج ، حاسر الرأس بمعطف مغبر وسروال
مقطب ذي مربعات ، من خان يقع على احد الطرق الكبيرة . توقف
على دكة مدخل الخان الواطئة وكرر السؤال :
- لا شيء ؟

- لا شيء ، - اجابه الخادم ثانية .
تهد السيد وجلس على المصطبة فلوى ساقيه تحتها واخذ
ينظر حواليه وهو غارق في خضم افكاره . وما دام على حاله هذه
فلنعرف القارى عليه .

اسمه نيكولاي بتروفيتش كيرسانوف . ولديه ، على بعد ١٥
كيلومتراً عن الخان ، ضيعة جيدة قيمتها مئتا نسمة كما يقال عادة ،
او مساحتها الفا هكتار ، كما يقول هو منذ ان انفصل عن الفلاحين
وانشأ «مزرعة» له . كان ابوه جنرالاً روسياً فظاً غليظاً ، ولكنه
لا يعتقد على احد . قاتل في حرب ١٨١٢ ، وادى خدمته الروتينية
طوال حياته . قاد في بادى الامر لواء ثم فرقة ، وقضى حياته في
الاطراف حيث لعب دوراً كبيراً بحكم رتبته . ولد نيكولاي

بتروفيتش في جنوب روسيا ، شان اخيه الاكبر بافل الذي ستحدث عنه فيما بعد . وترعرع حتى الرابعة عشرة من العمر في داره وسط جمع من المربين الرخيصين والياورية الوقحين المتزلفين وغيرهم من العسكريين . وكانت امه ، وهي من آل كوليازين ، واسمها قبل الزواج (اغاتا) * . وبعده اغافوكليا كوزمينيشنا كيرسانوفا ، تعتبر في عداد «امهات الجنود» ، وقد اعتادت على ارتداء قلنسوات فاخرة وفساتين حريرية ذات حفيف صاحب . كانت اول من يقترب من الصليب في الكنيسة . وهي كثيرة الكلام ذات صوت جهوري عال . في كل صباح تسمح لاطفالها بان يقبلوا يدها ، وتباركهم عندما يرقدون في الليل . وباختصار فقد كانت تعيش كما يحلو لها . كان على نيكولاي بتروفيتش الذي لم يتميز بالشجاعة ابداً ، بل استعفى نعت الجبان ، ان ينخرط في الخدمة العسكرية مثل اخيه بافل : فهو ابن جنرال . ولكن رجله انكسرت في اليوم الذي ورد فيه الاضرار باستدعائه للخدمة . لازم الفراش شهرين ثم ظل طوال حياته «اعرج» . ينس منه ابوه فتركه وشأنه للحياة المدنية اصطحبه الى بطرسبورغ حالما بلغ الثامنة عشرة وادخله الجامعة . وفي تلك الاثناء تخرج اخوه وعين ضابطاً في فوج الحرس . عاش الشقيقان معاً في منزل واحد تحت رعاية غير ثقيلة من جانب ابن عم امهما ايليا كوليازين الذي كان يشغل منصباً هاماً . عاد ابوهما الى فرقته والى عقيلته . وصار من حين لآخر يبعث الى ولديه رسائل مكتوبة بحروف عريضة ويخط متقن على ورق رمادي اللون ومزينة بالكلمات التالية المرسومة «بالتواءات» ورتوش زاهية : «المير جنرال بيوتر كيرسانوف» . في عام ١٨٣٥ تخرج نيكولاي بتروفيتش من الجامعة بدرجة ماجستير . وفي العام نفسه وصل الجنرال كيرسانوف مع زوجته بطرسبورغ ليقع فيها بعد ان احيل على التقاعد بسبب اخفاق احد الاستعراضات . كان يستأجر داراً قرب منزله تافريتشيسكي وينتسب الى نادي النبلاء الانجليزي ، ولكنه تولى فجأة بالسكتة الدماغية . وسرعان ما لحقت به اغافوكليا كوزمينيتشنا التي لم تستطع التعود على الحياة المبهمة في العاصمة

* في الاصل بالفرنسية Agathe . آثونا ان نترجم بين هلاين ما ورد في النص الروسي بلغات اخرى - المترجم .

حيث تهشتها كآبة عيشة التقاعد . وفي اثناء ذلك وقع نيكولاي بتروفيتش ، منذ ان كان والداه على قيد الحياة ، الامر الذي كدرها كثيراً . فسي هوى ابنة الموظف بريبولوفينسكي صاحب المنزل الذي سكنه سابقاً . وهي فتاة مليحة ، ومتطورة كما يقال : فقد كانت تطالع مقالات جادة في ركن «العلوم» في المجلات . تزوج نيكولاي بتروفيتش منها حالما انقضت فترة الحداد . فترك ودارة المقاطعات ، حيث كان قد عين بتوصية من ابيه ، وصار يتمتع بالتعليم مع زوجته ماشا في دار ريفية قرب معهد الغابات اولا ، ثم في المدينة بشقة صغيرة جيدة ذات سلم نظيف وغرفة استقبال ياردة بعض الشيء . واخيراً في الضيعة حيث استقر نهائياً ورزق بعد حين بولده اركادي . عاش الزوجان حياة هائلة هادئة دون ان يفترقا ولا مرة تقريباً ، وكانا يطالعان معاً ، ويعزفان على البيانو ياربع ايد ويتشدان الاغاني بصوتين . كانت هي تغرس الازهار وتتفقد حقل الدواجن . وكان هو يدير شؤون المزرعة ويتوجه الى الصيد في احيان نادرة ، بينما يترعرع اركادي وينمو هو الآخر بهناء ومهدوء . مرت عشر سنوات كالحلم . وفي عام الف وثمانمائة وسبعة واربعين توفيت زوجة كيرسانوف . فكادت هذه الضربة تقصم ظهره . وخط الشيب شعره في بضعة اسابيع ، فشد العزم على السر الى الخارج بغية الترويح عن النفس ولو قليلاً . . . ولكن عام ثمانية واربعين (٥٢) داحمه . فعاد الى القرية مكرها . وبعد ركود طويل نسبياً شرع بممارسة شؤون الضيعة . وفي عام خمسة وخمسين اصطحب ابنه اركادي الى الجامعة وقضى معه ثلاثة شتاءات في بطرسبورغ دون ان يغادر البيت تقريباً ، وكان يسعى الى معايشة رفاق ابنه الشباب . وفي الشتاء الرابع لم يستطع ان يزور ابنه ، وما نحن نراه في شهر مايو عام ١٨٥٩ مترعلاً ، اشيب الشعر تماماً ، وعمل شيء من الاحديداب . انه ينتظر ابنه الحائز على درجة الماجستير ، شأنه شأن ابيه الذي حاز على هذه الدرجة في سائر الزمان .

انزوى الخادم وراء البوابة بدافع من اللياقة ، او ربما بسبب عدم رغبته في ان يظل عرضة لانظار سيده ، وراح يدخن غليونيه . نيكولاي بتروفيتش راسه واخذ يتفحص درجات دكة المدخل البالية : كان فرخ دجاج كبير زاهي اللون يتمشى عليها برزانة

ويصفعها صفعات شديدة برجليه الصفراوين الكبيرتين . والحق
قطرة ملوثة نظرة غير ودية عليه ، وهي تتناقص على الفرايزون
كانت حرارة الشمس لافحة . ورائحة خبز الجودار الساخن تفرح من
ممر الخان الداخلي شبه المعتم . غرق بطلنا نيكولاي بتروفيتش في
لجة الاحلام ، حيث كانت تدور في ذهنه بلا كلل كلمات
«ولدي . . . اركاشا . . . ماجستير . . .» . حاول ان يذكر
في شيء ما آخر ، ولكن تلك الكلمات كانت تعود اليه كل مرة
تذكر المرحومة زوجته . . . وهمس مفتما : «لم يطل بهما
العمر !» . . . هبطت حمامة رمادية بدينة على الطريق واسرعت
ترتشف الماء من بركة قرب البئر . صوب نيكولاي بتروفيتش
نظراته اليها ، بينما التقطت اذناه طقطقة عجلات تقترب . الخادم
من وراء البوابة وهتف :
- اعتقد انهم وصلوا .

نهض نيكولاي بتروفيتش بلمح البصر وسلط نظراته على طرف
الطريق . بانث عربة تجرها ثلاثة من جياد البريد ، ولاح من العربة
شريط القبعة الطلائية وبدت ملامح الوجه الحبيب . . .
- اركاشا ! اركاشا ! - صاح كيرساكوف وهرع ملوحاً
بيديه . . . بعد لحظات لامست شفتاه خد ابنه الاسمر الطويل
الذي لم ينبت الشعر عليه بعد .

٢

- دعني انفض الغبار يا ابتي ، كيلا الونك ، - قال اركادي
بصوت فتي جهوري مبجوح بعض الشيء . بسبب السفر ، وهو يركب
بمروح على ملاطفة ابيه .
- لا بأس ، لا تهتم ، - اصر نيكولاي بتروفيتش في ابتسامة
متيعة وطبطن مرتين على ياقة معطف ابنه وعلى معطفه هو . - اركا
كيف انت ، - اضاف مبتعداً بعض الشيء ، ثم اتجه على الفور نحو
الخان بخطوات متسارعة ، وهو يتعمق : «الى هنا ، الى هنا ، عجلوا
باخراج العبياد» .

كان نيكولاي بتروفيتش اكثر اضطراباً من ابنه . فقد بدا في
* سيفة التحبيب من اسم اركادي - المترجم *

من العيرة والتهيب . اوقفه اركادي قائلاً :
- اسمح لي ، يا ابتي ، ان اقدم اليك صديقي الطيب
بازاروف الذي كتبت لك عنه الكثير . لقد تفضل ووافق على ان
يصل غيباً علينا .

يصل غيباً علينا .
استدار نيكولاي بتروفيتش على عجل واقترب من الشاب الفارع
القامة الذي هبط توا من العربة الكبيرة في رداء طويل ذي
شرابيب ، واطبق بشدة على يده الوردية العارية التي مدها له
الشاب بثلثي ، فبادره نيكولاي بتروفيتش :
- انا مسرور من صميم القلب ، وممتن لرغبتك * في ضيافتنا ،
- اسمح لي بمعرفة اسمك الكريم .

أمل يا . . .
- يفغيني فاسيليفيتش . - اجاب بازاروف بصوت رجولي
مراخ ، وازاح ياقة رداؤه فبان وجهه كله امام نيكولاي
بتروفيتش . وجه نحيل مستطيل بجهة عريضة وانف مسطح في
الاعلاء ومدبب في اسفله وعينين واستعين خضراوين بعض الشيء
وفوقين متدليين بلون الرمل . وانطبعت ابتسامة هادئة لتزين هذا
الوجه الذي يتم عن ذكاء وثقة بالنفس .

- أمل يا عزيزي يفغيني فاسيليفيتش ان لا ينتابك الضجر
ههنا ، - واصل نيكولاي بتروفيتش كلامه .

كادت شفتا بازاروف الرقيقتان تنفرجان عن ابتسامة ، ولكنه لم
يرد بشيء ، بل اكتفى برفع قبعته . ولم يكن شعره الكث الطويل
الاسمر ليحجب النتوءات العريضة على جمجمته الضخمة .

- ما رايك يا اركادي ؟ - قال نيكولاي بتروفيتش من جديد
ملتفتاً الى ابنه . - هل تعد الجياد الآن ، ام انكما تريدان ان
ناخذنا فسطاً من الراحة ؟

- سنستريح في المنزل ، يا ابتي . فليعدوا الجياد .
فقال الاب مزيداً :

- في الحال . هل انت سامع يا بيوتر ؟ رتب الامر ، وباسرع
ما يمكن .

اختفى بيوتر وراء البوابة من جديد . وكان هذا الخادم العصري

* الروس يخاطبون الغرباء بصيغة الجمع احتراماً لهم ، ولكننا آثرنا
ان نترجم ذلك بصيغة المفرد ، هذا الحالات التي يخاطب فيها الخدم
اسيادهم - المترجم *

قد اكتفى بانحناء من بعيد لسيدة الابن دون ان يقترب منه ليقبل يده .

- عندي عربة مكشوفة ، ولكن ثلاثة جياد جاهزة لعريشة ايضا - قال نيكولاي بتروفيتش مشغول البال ، في حين راح اركادي يشرب الماء من ابريق معدني احضرته صاحبة الخان ، وشرب بازاروف يدخن غليونيه واقترب من الحوذي الذي فك اربطة الجياد . و اضاف نيكولاي بتروفيتش : - غير ان عربتي بعقدتي فقط ، ولا ادري بخصوص صديقك . . .

- سيرتحل في عربتي - قاطعه اركادي بصوت خافت . - داعى للرسميات معه . فهو شاب رائع ومتواضع للغاية . ستري ذلك بنفسك .

اقتاد حوذي نيكولاي بتروفيتش جياده . فقال بازاروف لحوذيته :

- عجل ، يا ذا اللحية الكثة !

- هل سمعت ، يا ميتيوخا ، كيف نعتك السيد ؟ - التفت الحوذي الآخر ويداه مدسوستان في الشقين الخلفيين لفروته . - لحية كثة بالضبط .

اكتفى ميتيوخا بهزة من راسه ، وسحب عنان فرس المظلة التي تصببت عرقا .

- هيا ، هيا ، يا شباب ، ساعدونا وستحصلون على اكرامية ، - هتف نيكولاي بتروفيتش .

اعدت الجياد في بضع دقائق . فاستقل الاب والابن العربة المكشوفة . وقعد بيوتر بجانب الحوذي ، بينما قفز بازاروف الى العربة الكبيرة ومال براسه على الوسادة الجلدية ، وتوكل المركبتان .

٣

- حصلت على العاجستير وعدت الى الاهل اخيرا - قال نيكولاي بتروفيتش وهو يلامس كتف اركادي تارة وركبته تارة اخرى .

- كيف حال عمي ؟ هل هو بصحة جيدة ؟ - سال اركادي معجلا في تحويل الكلام من حالة الانفعال الى الامور العادية ، بالزمن

من الفرحة الصادقة ، والطفولية تقريبا ، التي تملأ فؤاده .
- بصحة جيدة . كان عازما على الخروج معي لاستقبالك ، ولكنه غير رايه لسبب ما .

- وهل انتظرتني طويلا ؟
- خمس ساعات تقريبا .

- ما اطيعك يا ابني !
استدار اركادي بسرعة نحو ابيه وطبع على خده قبلة رنانة .

فصحك نيكولاي بتروفيتش بهدوء . ثم قال :
- جهزت لك حصانا رائعا . وستأكد من ذلك بنفسك . ثم ان جدران غرفتك مزينة بالورق .

- وهل هناك غرفة لبازاروف ؟
- ستجد غرفة له هو الآخر .

- ارجوك يا ابني ، اعتن به . فانا عاجز عن التعبير عن مدى اعترازي بصدافته .
- يبدو انك تعرفت عليه من مدة قريبة ، اليس كذلك ؟

- بلى .
- ولذا لم اره في الشتاء الماضي . ماذا يدرس ؟

- شغله الشاغل هو العلوم الطبيعية . ولكنه ملم بكل شيء ويستعد لاجتياز امتحانات الطب .

- اها ، انه في الكلية الطبية - قال نيكولاي بتروفيتش ولزم الصمت برهة ، ثم سال من بيوتر مشيرا بيده : - هؤلاء الراكبون فلاحونا ، اليس كذلك ؟

التفت بيوتر نحو الجهة التي اشار اليها سيده . كانت عدة عربات تجرها خيول مفكوكة الالجنة تنهب الدرب الريفي الضيق . وفي كل عربة فلاح او فلاحان بفروات مفتوحة الازرار .

- بالضبط ، يا سيدي ، - اجاب بيوتر .
- الى اين يقصدون ؟

- الى المدينة في اغلب الظن . الى الحانة - اضاف بيوتر بازاء ، ومال قليلا نحو الحوذي وكأنما يأمل ان يجد فيه مؤيدا لرايه . الا ان ذلك لم يتبس ببنت شفة . فهو شخص محافظ لا يهين بالاراء العصرية . فواصل نيكولاي بتروفيتش كلامه مخاطبا ابنه :

- ازدادات مشاغلي في العام الحالي بسبب الفلاحين . انهم يدفعون الجزية . فماذا افعل لهم ؟
 - وهل انت مرتاح من عمالك الاجراء ؟
 فاجاب نيكولاي بتروفيتش مكرها :
 - اجل . ولكن المصيبة انهم يندفعون بالتحريض . ثم انه ليس لديهم حماس حقيقي في العمل . وهم يتلفون عدة الخيل . انهم حرثوا على نحو لا بأس به . كل شيء سيكون على ما يرام . ولكن هل تشغل شؤون الضيعة بالك الآن ؟
 - المصيبة ان الفل ممدوم لديكم - لاحظ اركادي دون ان يجيب على السؤال الاخير . فقال نيكولاي بتروفيتش :
 - علقت ستارة كبيرة على الشرفة من جهة الشمال . واصبح بالامكان تناول الغداء في الهواء الطلق .
 - سيكون ذلك اشبه بالفلات الصيفية . . . ولكنهم بهم ، تلك امور تافهة . فما اروع الهواء المنعش هنا ! وما اروع الروائح ! يخيل الي ان الروائح الفواحة في هذه البقاع ليس لها مثيل في اي مكان في العالم . ثم ما اجمل السماء . . .
 سكت اركادي فجأة .لقى بنظرة منحرفة الى الوراء . ثم لم الصمت . فقال نيكولاي بتروفيتش :
 - بالطبع . ولدت في هذه الانحاء ولا بد ان يبدو لك شيء هنا في صبغة خاصة . . .
 - كلا ، يا ابني ، لا فارق في ذلك مهما كان المكان الذي يولد فيه المرء .
 - ولكن . . .
 - كلا ، لا فارق بتاتا .
 القى نيكولاي بتروفيتش نظرة جانبية على ابنه . ولم يستأذ الحديث بينهما الا بعد ان قطعت العربية زهاء نصف كيلومتر . حيث بدأ نيكولاي بتروفيتش كلامه :
 - لا اذكرك كتب لك ام لا ؟ توفيت مربيته القديمة يغوروفنا .
 - حقا ؟ يا للعجز المسكين ! وهل بروكوفيتش على فيه الحياة ؟
 - اجل ، ولم يتغير قيد انملة . فهو على عادته في

المصيبة . وعلى العموم لن تجد تغيرات كبيرة في مارينو .
 - وهل الوكيل باق هو نفسه ؟
 - وكيلا العزرة هو الشخص الوحيد الذي استبدلته . قررت ان لا احتفظ بعد الآن بالاقنان السابقين المعتوقين او ، على الاقل ، ان لا اكلفهم بآية مهات ذات مسؤولية - وعند ذاك اشار اركادي بعينه من عينه الى بيوتر ، فقال نيكولاي بتروفيتش بصوت يكاد يشبه الهس : - (انه معتوق فعلا) . ولكنه وصيغي المقرب . وامي الآن وكيل من المدينة . شخص فطين على ما يبدو . وقد خصصت له مائتين وخمسين روبلا في العام . - ثم اضاف نيكولاي بتروفيتش قائلا ، وهو يمسح جبهته وحاجبيه بيده ، الامر الذي يدل دوما على استحيائه الداخلي - اخبرتك الآن بانك لن تجد تغيرات في مارينو . . . والحال فليس الامر كذلك تماما . . .
 واري من واجبي تنبيهك مسبقا . مع ان . . .
 تلغثم في الحديث لحظة ثم واصل كلامه بالفرنسية :
 - مع ان الاخلاقي الصارم قد يعتبر صراحتي هذه في غير محلها . ولكن لا يمكن اخفاء ذلك ، هذا اولا ، وثانيا انت عارف بان لدي على الدوام مبادئ خاصة بشأن موقف الاب من ابنه . وعلى كل حال لك الحق طبعاً في ان تلومني . ففي مثل سني هذه . . . وباختصار ، اقصد . . . اقصد تلك الفتاة التي ربما سمعت عنها . . .
 - فينيتشكا ؟ - سال اركادي بلا تكلف .
 امر وجه نيكولاي بتروفيتش خجلا .
 - ارجوك ، لا تذكر اسمها بصوت عال . . . اجل ، هي . . . انها تعيش الآن عندنا . افردت لها مكانا في الدار . . . كانت هناك غرفتان صغيرتان . وبالمناسبة فذلك امر يمكن تغييره .
 - ما الداعي لتغييره ، يا ابني ؟
 - صديقك سيحل ضيفا علينا . . . ومن المخجل . . .
 - لا تقلق ، رجاء ، بخصوص بازاروف ، فهو انسان لا يهتم بهذه الاعتبارات .
 - انا قلق بخصوصك ، انت ، اذن ، - قال نيكولاي بتروفيتش ثم اضاف : - بناية الجناح رديئة ، يا للمصيبة .
 - لا الاصل بالفرنسية Il est libre, en effet .

فعاجله اركادي قائلا :

- عفوا ، يبدو وكأنك تعتذر ، اتق الله يا ابني .
- بالطبع ، عليّ ان اتقى الله - اجاب نيكولاي بتروفيتش
وهو يزداد احمرارا .

- كفاك ، يا ابني ، كفاك ، ارجوك ! - ابتسم له اركادي
برقة وحنان . «مِمَّ يعتذر ؟» - فكر في دخيلة نفسه
وامتلات جوانحه بشعور من الرقة المتسامحة ازاء والده الذي
الطيب ، بشعور يشوبه احساس خفى بالتفوق . - دعك من هذا
ارجوك - كرر من جديد وهو يستمتع عفويا بادراكه اهمية نظريته
وحريته .

تطلع اليه نيكولاي بتروفيتش من بين اصابع يده التي
يمسح بها جبهته ، واحس بوخزة في القلب . . . ولكنه
باللائمة على نفسه في الحال . ثم قال بعد صمت طويل :
- ها هي حقولنا .

فقال اركادي :
- يبدو لي ان تلك الغابة ، في الامام ، غابتنا ، البير
كذلك ؟

- بلى ، غابتنا . ولكنني بعثتها . وسوف تقتلع اشجارها
العام الحالي .

- لماذا بعثتها ؟
- كنت بحاجة الى نقود ، ثم ان هذه الاراضي ستحال
للفلاحين .

- اولئك الذين لا يدفعون لك الجزية ؟
- هذا امر يعود لهم . اعتقد انهم سيدفعونها في وقت ما .
- اسفني على الغابة - قال اركادي واخذ يتطلع الى ما حوالبه
الاماكن التي اجتازوها لا تستحق نعت المناظر الخلابة
فالحقول تمتد بعيدا حتى الافق ، وهي ترتفع قليلا تارة وتنخفض
تارة اخرى ، وفي بعض الجهات لاحت غابات غير كبيرة ، وكانت
المنخفضات المطرزة بشجيرات واطنة متباعدة ، تتلوى فتعبد الى
الاذهان صورها المرسومة على الخرائط القديمة المتبقية من
يكاتيرينا (٥٣) . وصادفتهم نهيرات ذات ضفاف متآكلة ، ويرة
صغيرة عليها سدود متداعية ، وقرى فيها اكواخ واطنة تحت

سقوط قائمة مهدمة حتى منتصفها في الغالب ، ومستودعات للدراس
سالت اركانها بجدرانها المجدولة من العيدان والاغصان وبواباتها
المطلوعة المتناوبة قرب الاجران الخاوية ، وكنائس قرميدية
تساقط طلاء جدرانها في بعض الاماكن ، واخرى خشبية ذات صلبان
مائلة ومقابر مدمرة . اخذ الالم يحز في فؤاد اركادي ، حتى لكان ما
رآه قد لاح امامه عمدا . فكل الفلاحين الذين صادفهم كانوا مشغولين
على خيول هزيلة . وكانت اشجار الصفصاف تنتصب على جانبي
الطريق يلحانها الممزق واغصانها المكسرة ، كالمتمسولين في
الاسمال . وكانت بقرات معروقة متحشفة ، كأنها منهوشة حتى
العظام . تقضم العشب بنهم في المنخفضات . وبدت هذه البقرات
المعاف وكأنها تخلصت توا من برائن رهيبه فتاكة . فاثار منظرها
العزيز في وضع النهار الربيعي شبحا ابيض ملفعا بالزوابع
الجليدية والصقيع والثلوج ، شبح الشتاء اللانهائي الخالي من
المسرات . وفكر اركادي : «كلا ، ليست غنية هذه البقاع . فهي
لا تدعش المرء بتروتها ولا بالمواظبة على العمل . كلا ، لا يجوز
ان تبقي على هذه الحال . ينبغي اجراء تحويلات . . . ولكن كيف
يمكن تحقيقها ؟ ومن اين نبدأ ؟ . . .»

هكذا فكر اركادي . . . في حين كان الربيع في اوجه . كل شيء
حوالبه . من اشجار وشجيرات واعشاب ، في خضرة ذهبية يانعة ،
وكل شيء يتعوج ويلمع فسيحا رقيقا في انفاس النسيم الدافئ
الهادئة . وفي كل مكان تنساب اصوات القبرات الرنانة بلا انقطاع .
والرفازيق تارة تنعق محومة فوق المروج المنخفضة وتارة تتراكم
صامتة من كومة ترابية الى اخرى ، وغربان القبط تتمشى سوداء
جميلة في خضرة سنابل الربيع الغضة الواطنة . كانت هذه الغربان
تغتر في الجودار الذي ابيضت سنابله قليلا ، ثم تلوح رؤوسها
في امواج السنايل الدخانية اللون بين الفينة والفينة . اطال اركادي
التطلع حتى تراخت تأملاته بالتدريج واخذت تختفى . . . خلع
مظله والقرى على ابيه نظرة مرحة من محيا فتى يافع جعلت الاب
يعانقه من جديد ، ويقول :

- لم يبق الا القليل . فما ان نتسلق هذه الهضبة حتى يلوح
المنزل للانظار . وسنعيش معك ، يا اركاشا ، برغد وهناك . سوف
تساعدني في امور الضيعة اذا كان ذلك لا يسبب لك ضجرا .

ينبغي لنا الآن ان نتقارب على نحو اوثق وان نتعرف على بعض البعض بصورة افضل ، اليس كذلك ؟
فاجاب ارКАДي :

- بالطبع . ولكن ما اروع النهار اليوم !

- خصيصا لمجيتك يا حبيبي . فالربيع يختال ضاحكا ولكنني اقول مع يوشكين في ملحمة "يفغيني اونيغين" :

ايها الربيع ، يا فصل الغرام !

ما اشد حزني لمجيتك .

فأي . . . (٥٤)

- ارКАДي ! - تعالى من العربية الثانية صوت بازاروف - ابعث لي تقابا ، فليس لدي ما اشغل به الغليون .

لاذ نيكولاي بتروفيتش باذيال الصمت ، بينما كان ارКАДي قد استعد ليستمع اليه بشيء من الاعجاب وبشيء من المشاطرة ولكنه اخرج من جيبه على عجل علبة تقاب فضية وبعثها مع بيوترو الى بازاروف فصاح هذا من جديد :

- هل تريد سيجارا ؟

- اجل - اجاب ارКАДي .

عاد بيوتر الى العربية وسلمه مع علبة النقاب سيجارا قائما غليظا دخنه ارКАДي في الحال وصار ينفث حواليه دخان التبغ العتيق ، ففاحت رائحة حادة لاذعة جعلت نيكولاي بتروفيتش الذي لم يجرب التدخين ولا مرة في حياته يشيح بوجهه عفويا . ولكن بصورة غير ملحوظة كيلا يغيظ ابنه .

بعد ربع ساعة توقفت العربتان امام مدخل دار خشبية جديدة مطلية بدهان رمادي وذات سطح حديدي احمر اللون . كانت تلك هي ضيعة مارينو ، او دارة الاعزب ، كما يسميها الفلاحون .

٤

لم يهرع حشد كبير من الخدم الى المدخل لاستقبال الاسياد - فقد ظهرت بنت في الثانية عشرة من العمر تقريبا ، وخرج على اثرها من الدار فتى شبيه كل الشبه ببيوتر في سترة خدم ومادية ذات

ازرار معدنية كبيرة بيضاء . انه وصيف بافل بتروفيتش كيرسانوف . فتح باب العربية المكشوفة صامتا ، ثم حل ازرار ستارة العربية الاخرى . اجتاز نيكولاي بتروفيتش وابنه وبازاروف قاعة معتمة تكاد تكون خالية الا من وجه امرأة شابة لاح للحظة من خلال بابها ، ودخلوا غرفة الاستقبال المؤنثة على احدث طراز .

- ها نحن في الدار . - قال نيكولاي بتروفيتش وخلع قبعته وراح ينفض شعره - اهم شيء الآن هو تناول طعام العشاء ثم الاستجمام .

- حقا ، هذا لو تناولنا الطعام - عقب بازاروف وهو يعدل من قامته ، ثم جلس على الاركة .

- اجل ، اجل ، قدموا طعام العشاء ، وباسرع ما يمكن . - طلق نيكولاي بتروفيتش بقدميه بدون اي سبب ظاهر - ها هو بروكوفيتش بالمناسبة .

دخل رجل نحيف اسمر في حوالي الستين ، اشيب الشعر في بزة وصيف بنية اللون ذات ازرار معدنية وعلى عنقه منديل وردي . انسم ابتسامة عريضة وقبل يد ارКАДي ثم انحنى للضيف وتراجع نحو الباب حيث اشبك يديه وراء ظهره .

فقال نيكولاي بتروفيتش :

- ها هو ولدي قد وصل اخيرا . . . فكيف يبدو في نظرك يا بروكوفيتش ؟

- في احسن حال يا سيدي - اجاب العجوز وكشر من جديد مبتسما . لكنه قلب حاجبيه الكثيفين في الحال وقال بمهابة : - هل تأمرون باعداد المائدة ؟

- اجل ، اجل من فضلك . ولكن هلا توجهت ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، الى غرفتك في بادى الامر ؟

- كلا ، متشكر ، لا داعي لذلك . - قال بازاروف ثم اضاف وهو يخلع رداءه : يكفي ان تأمر بنقل حقيبتى اليها مع هذا اللباس .

- طيب . يا بروكوفيتش خذ معطف السيد . (التقط بروكوفيتش معطف بازاروف بكلتا يديه ، في شيء من الاستغراب ، ورفعه فوق راسه عاليا وانصرف على اطراف اصابعه) . وانت ، يا

ارКАДي ، هل ستذهب الى غرفتك للحظة ؟

- اجل ، ينبغي ان اتنظف - اجاب اركادي وكاد يتجه الى الباب لو لا ان دخل غرفة الاستقبال في تلك اللحظة رجل متوسط القامة في بدلة انجليزية قاتمة وربطة عنق قصيرة حسب الموضة وجزمة واطنة لماعة . انه بافل بتروفيتش كيرسانوف . مظهره يدل على انه في حوالي الخامسة والاربعين : شعره الاشيب القصير يبعث لمعا قاتما كالفضة الجديدة ، ووجهه المتجهم الغالي من الغضون والمعتدل التقاسيم والصافي كل الصفاء ، كما لو نحن بازميل خفيف دقيق ، يحتفظ بآثار وسامة رائعة . وعيناه السوداوان الوضاءتان المستطيلتان بعض الشيء جميلتان على الخصوص . كانت ملامح عم اركادي الرشيق الاصيل الارومة له احتفظت باعتدال قوام الفتوة والتطلع الى الاعالي بعيداً عن الارض ، ذلك التطلع الذي يختفي باغلبه في سن الثلاثين .

اخرج بافل بتروفيتش من جيب سرواله يده الجميلة ذات الاظافر الوردية الطويلة ، وقد بدت اكثر جمالا بتأثير الرن الابيض الناصع كالثلج والمشدود بازميم عليه فص كبير واحد من حجر عين الشمس ، فمدها الى ابن اخيه . وبعد ان (صافحه) على الطريقة الاوروبية قبله ثلاث قبلات على الطريقة الروسية . اي انه لامس خديه ثلاث مرات بشاربيه الفواحين ، وقال : «اهلاً وسهلاً» .

عرف نيكولاي بتروفيتش بازاروف عليه ، فحنى بافـل بتروفيتش قده اللدن قليلا وانفرجت شفـتاه عن ابتسامة خفيفة ، ولكنه لم يمد له يده ، بل دسها في جيبه مجددا .

- طال الانتظار حتى ظننت انكم لن تصلوا اليوم - قال بصوت وديع وهو يتمايل بلطف ويهز كتفيه قليلا ويكشف عن اسنانه الرائعة البيضاء - فهل حدث شيء في الطريق ؟

- لم يحدث شيء - اجاب اركادي - سوى اننا تباطأنا قليلا . ولذلك فنحن جياع كالذئاب . استعجل بروكوفيتش ، يا ابتي ، اما انا فسأعود في الحال .

- تمهل ، انا ذاهب معك - هتف بازاروف وقفز من الاريكة فجأة . وخرج مع اركادي . فسأل بافل بتروفيتش :

* في الاصل بالانجليزية « shake hands » .

- من هذا ؟

- صديق اركاشا ، وهو شخص ذكي جداً ، كما يقول .

- سيبقى في ضيافتنا ؟

- اجل .

- الطويل الشعر هذا ؟

- نعم ، اجل .

- نعم بافل بتروفيتش باظافره على الطاولة ثم قال :

- يخيل الي ان اركادي (اصبح اقل تكلفاً) * - ثم اردف قائلاً : - انا مسرور لعودته .

لم يسهوا في الكلام اثناء العشاء . وخصوصاً بازاروف الذي لم يقل شيئاً في الواقع ، ولكنه اكل كثيراً . تحدث نيكولاي بتروفيتش عن حوادث مختلفة من حياته المزرعية ، على حد تعبيره ، وتناول الاجراءات الحكومية المرتقبة ، وتكلم عن اللجان وعن النواب (de) وعن ضرورة اقتناء المكائن وعلماً جراً . وكان بافل بتروفيتش يهوى لحرفة الطعام متوانيا جيئة وذهاباً (فهو لا يتناول طعام العشاء ابداً) ، ونادراً ما يرتشف جرعة من قدحه المملوء بنبينا قاتم ، وكان يبدي ، على نحو اندر ، ملاحظة ما ، او على الاصح تند عنه اصوات التعجب من طراز «أها ! هيه !» . ذكر اركادي بعض انباء بارسبورغ ، ولكنه احس بشيء من عدم الارتياح الذي ينتاب الشاب عادة حينما يكف عن ان يكون طفلاً فيعود الى المكان الذي انشأه الآخرون ان يروه فيه ويعتبروه طفلاً . كان يملط كلامه دولما داع ويتحاشى ذكر كلمة «ابتي» حتى انه استبدلها مرة بكلمة «والد» ونطقها في الواقع بصوت خافت . وصب في قدحه ، بمزيد من عدم التكلف ، قدراً اكبر مما كان يريد ، ثم تجرع النبيذ حتى السائلة . وما كانت لتحيد عنه عينا بروكوفيتش الذي لم يفعل غير ان راح يعلك شفـتيه طوال الوقت . وبعد العشاء تفرقوا في الحال .

- سمك غريب الاطوار بعض الشيء - قال بازاروف لاركادي وهو جالس يردائه البيتـي قرب سريره يمتص انفاساً من غليونه

* في الاصل بالفرنسية « s'est dégourdi » .

القصير . - منتهى التألق في الريف ، يا للغرابة ! ثم ان اظافره
اظافره تستحق ان ترسل الى المعرض !
فاجاب اركادي :

- انت لا تدري . كان في زمانه ليثاً . ساقص عليك فست
في وقت آخر . كان في منتهى الجمال ، وكان محبوب النساء .
- هكذا اذن ! يعني انه لا يزال على عاداته القديمة . ولكن
لا احد هنا يمكن اغواؤه مع الاسف . لاحظت ان ياقته منشأة على
نحو مدهش ، كما لو كانت من حجر ، وذقته حليق بكل عناية
اليس ذلك . يا اركادي . مثاراً للمضحك ؟
- ربما . ولكنه رجل طيب حقاً .

- انه ظاهرة اكل الدهر عليها وشرب . اما ابوك فهو السال
رائع بالفعل . عبثاً يتلو الاشعار ، ومن المستبعد انه يفهم شيئاً
في امور المزرعة ، ولكنه طيب القلب .
- والدي انسان من التبر الخالص .
- هل لاحظت انه خجل ؟

هز اركادي رأسه بالايجاب وكانما لم يعتوره هو نفس
الخجل . فواصل بازاروف كلامه :

- عجيب امرهم هؤلاء الرومانسيين الكهول ! انهم يرمزون
جهازهم العصبي الى حد الانفعال وعند ذاك يغتل توازنهم
ولكن الى اللقاء ! باب غرفتي دون قفل . وفيها غسال انجليزى
هذا امر يستحق الثناء . فالغسالات الانجليزية تعنى التقدم !
انصرف بازاروف . واجتاح اركادي شعور بالفرحة . فالتزم
لذيذ في المنزل الحبيب ، في السرير المعتاد ، تحت غطاء خاطئه يمان
حيبتان ، ربما هما يدا المربية ، يدان طبيبتان حنونان لا تعرفان
الكلل . تذكر اركادي مربيته يغوروفنا فتتهد وتمنى لها النعيم في
الآخرة ولكنه لم يبتهل من اجل نفسه .

سرعان ما اكتنفه الكرى هو وبازاروف . بيد ان الآخرين في
الدار لم يراودهم النعاس امدأ طويلاً . كانت عودة الابن قد هبت
مشاعر نيكولاي بتروفيتش فاضطجع على سريره دون ان يظفر
الشموع واطال التفكير مسنداً رأسه بيده . اما اخوه فقد تجاوزوا
منتصف الليل بوقت طويل وهو جالس على مقعد وثير واسع في
مكتبه امام المدفأة الحائطية التي كان الفحم الحجري يستمر فيها

يخفوت . لم يخلع بافل بتروفيتش ملابسه ، سوى انه استبدل
جزءه الوطنية اللماعة بصندل صيني احمر مكشوف المؤخرة .
امسك بأخر عدد من (غالينيانى) * ، ولكنه لم يقرأه كان يحدق
في المدفأة حيث يرتعش الذهب الازرق مندلعاً تارة وخافتاً تارة
أخرى

الله يعلم اين تحوم افكاره المركزة ، ولكنها لم تكن تجوب
الماضي وحده : فقد كانت تقاطيع وجهه عابسة مكفهرة ، الامر الذي
لا يحدث عندما ينشغل بال المرء بالذكريات وحدها . اما في الغرفة
الخلقية الصغيرة فقد جلست على صندوق كبير امرأة شابة ، هي
لينيشكا . في بلوزة زرقاء ومنديل ابيض يغطي شعرها الفاحم .
كانت تارة تتسمع ، وتارة تغفو ، وتارة تنظر الى الباب المنفرج
عن سرير صغير فيه طفل نائم تنهادي انفاسه خفيفة رتيبة .

٥

في صباح اليوم التالي استيقظ بازاروف قبل الآخرين وخرج
من الدار . تطلع حاليه وفكر في نفسه : «أها ! هذه الاماكن
يعوزها الجمال» . عندما فصل نيكولاي بتروفيتش ارضه من اراضي
فلاحيه اضطر الى انشاء الضيعة الجديدة على بقعة مستوية عارية
تماماً مساحتها زهاء اربعة هكتارات ، فبنى داراً ومنشآت للخدمة
ومزرعة . وغرس بستانا وحفر بركة وبثرين ، الا ان الشجيرات
الفضة لم تزدهر بالشكل اللازم ، وتجمعت في البركة مياه قليلة
جداً . وكان طعم ماء البثرين مالحاً بعض الشيء . ولم تنم كما
يجب الا تعريشة الاستراحة المكونة من الليلاك والاقاصيا ، حيث
كانوا يحتسون الشاي ويتناولون طعام الغداء احياناً . جاب
بازاروف في بضع دقائق جميع مماشى البستان ومر بزرية الماشية
والاسطبل وصادف اثنين من ابناء الخدم فتحدث معهما واخذهما على

* في الاسل Galignani . وهي جريدة يومية لبرالية اسمها جوفاني
غالينيانى وصدرت بالانجليزية في باريس اعتباراً من عام ١٨١٤ -
المترجم .

الفور الى المستنقع الصغير الواقع على بعد كيلومتر عن الضيعة
بغية تصيد الضفادع .
فسأله احد الولدين :

- ما حاجتك الى الضفادع يا سيدي ؟

فاجاب بازاروف الذي يجيد على نحو خاص كسب نفس
الناس الادنى منه رغم استهائته بهم وعدم تسامحه معهم
اطلاقاً :

- انني اشترح الضفدعة واراقب ما يجري في داخلها ، وبما
اننا ، انا وانت ، نفس الضفادع بفارق واحد هو اننا نسير على
رجلين اثنتين فأنني سأعرف ما يجري في داخلنا ايضاً .
وما فائدة ذلك ؟

- كيلا اخطئ عندما تعرض انت واضطر انا لمعالجتك .

- انت دختور ؟

- نعم .

- هل انت سامع يا فاسكا ؟ السيد يقول اننا والضفادع شيء

واحد ، يا للغرابة !

- انا اخاف منها ، من الضفادع - قال فاسكا ، وهو طفل
في حوالي السابعة حافي القدمين بقميصه القوزاقي الرمادي ذي
الياقة المنتصبة وشعره الابيض كالكتان .

- لماذا تخاف منها ؟ فهل تعض ؟

- هيا ، ادخلا الماء ايها الفيلسوفان !

في تلك الاثناء استيقظ نيكولاي بتروفيتش هو الآخر وتوجه
الى اركادي فوجده مرتدياً ملابسسه . خرج الاب وابنه الى الشرفة
المحجوبة بالسندرة . وعلى المائدة قرب الدرايزون كان السجاد
يغلي بين باقات كبيرة من الليلاك . حضرت نفس البنت التي
كانت بالامس اول من استقبل القادمين في المدخل وقالت بصوت
رفيع :

- فينيتشكا متوعدة ، ولا تستطيع الحضور . وطلبت ان
استفسر هل يروق لكم ان تصبوا الشاي بانفسكم ام يجب ارسال
دونياشا لتصبه ؟

- سأصبه بنفسي ، بنفسي - اجاب نيكولاي بتروفيتش على
عجل . - اي شاي تحب ، يا اركادي ، بالقشدة ام بالليمون ؟



- بالقسدة - اجاب ارКАДي ثم قال متسائلا بعد لحظة

مست : - يا ابني . . . التي نيكولاي بتروفيتش نظرة حائرة على ابنه وقال :

- ماذا ؟

لغض ارКАДي بصره وطفق يتكلم :

- اعذرنى ، يا ابني ، اذا بدا لك سؤالى في غير محله . ولكن صراحتك بالامس تحملنى على ان اكون صريحا . . . افلا تزعل منى ؟

- تكلم .

- انت تجعلنى اتجاسر على ان اسألك . . . اليس السبب في عدم حضور فيني . . . اليس السبب في عدم حضورها لتصب الشاي هو وجودي انا ؟

اشاح نيكولاي بتروفيتش بوجهه قليلا ، ثم قال اخيراً :

- ربما انها تتصور . . . انها تخجل . . .

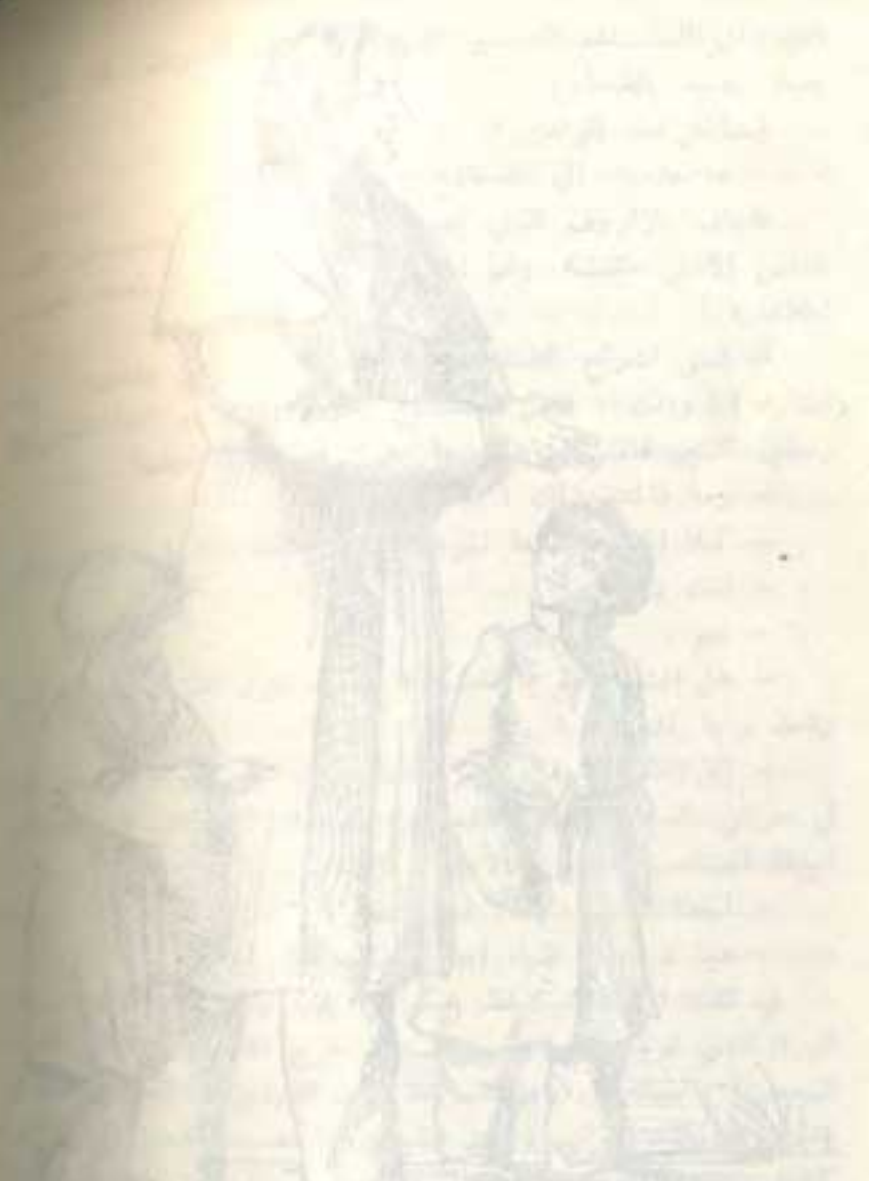
داهم ارКАДي اياه بنظرة سريعة وقال :

- لا داعى للوجل . فانت تعرف ، اولاً ، طراز تفكيرى (كان ارКАДي مسروراً كل السرور لتلفظ هذه الكلمات) . وثانياً - هل اريد انا ، يا ترى ، ان اضيق على حياتك وعلى عاداتك قيد شعرة ؟ ثم التي واثق من انك لا يمكن ان تختار السوء . فطالما سمحت لها بان تعيش معك تحت سقف واحد فذلك يعنى انها تستحقه . وعلى كل حال فالابن ليس يحاكم على ابيه ، وخصوصاً اذا كان الابن مثلى واذا كان الاب مثلك انت الذي لم تضيق على حريتي قيد املة .

كان صوت ارКАДي يرتجف في بادى الامر . فقد احس بشعور من السماع والتبل ، ولكنه ادرك في الوقت ذاته بانه يتلو على ابيه ما يشبه الموعظة . الا ان صوت المرء يؤثر عليه تأثيراً شديداً . ولذا تلفظ ارКАДي الكلمات الاخيرة بصلاية ، بل وعلى نحو مؤثر . فقال نيكولاي بتروفيتش بصوت خافت ، وراحت اصابعه من جديد تفرك حاجبيه وجبهته :

- شكراً لك ، يا اركَاشا .

تصوراتك صائبة حقاً . فلو لم تكن هذه البنية جديرة ، طبعاً . . . ذلك ليس نزوة عابرة . وليس من السهل على ان اتكلم معك بهذا الخصوص ، ولكنك تفهم جيداً



ان من الصعب عليها ان تأتي بحضورك ، وخصوصاً في اليوم الاول من وصولك .

- اذن فسادهب اليها بنفسى - هتف اركادي بنفحة جديدة من المشاعر النبيلة وقفز من كرسيه - وسوف ابين لها انى داعى للخجل منى .

نهض نيكولاي بتروفيتش هو الآخر وطفق يقول :

- اركادي ، ارجوك . . . لا تفعل ذلك . . . فانا لم . . . بيد ان اركادي لم يسمعه ، فقد ترك الشرفة راكضاً . لاهت نيكولاي بتروفيتش بنظراته ثم هوى على الكرسي خجلاً . قلبه . . . ومن الصعب التاكيد بانه تصور في تلك اللحظة لحياة العلاقات المرتقبة حتماً بينه وبين ابنه ، او انه ادرك بان اركادي ربما قدم له المزيد من الاحترام لو انه لم يتناول هذه القنبلة بتاتا ، او انه لام نفسه على ضعفها وخورها . كانت جميع هذه المشاعر تعتمل في دخليته ، ولكن بشكل احاسيس تكاد تكون غامضة ، بينما الاحمرار لا يزايل وجهه ، ولا يزال قلبه يخفق . تهادت خطوات مستعجلة . دخل اركادي الشرفة تلعو وجه مسحة من الطيبة والحنان وهتف منتصراً :

- لقد تعارفنا ، يا والدي ! وهى متزعكة حقاً اليوم وسوف تأتي فيما بعد . ولكن لم لم تخبرني بان لدي اخاً ؟ لكت قد قبلته مساء امس كما قبلته الآن .

اراد نيكولاي بتروفيتش ان يقول شيئاً وان ينهض ويضع يديه ليحتضن ابنه . . . ولكن اركادي اندفع اليه يعانقه .

- ما هذا ؟ هل تتعانقان من جديد ؟ - دوى وراءهما صوت بافل بتروفيتش .

فرح الاب والابن بقدر واحد لظهوره في هذه اللحظة . فهذه حالات مؤثرة بود المرء ان يتخلص منها مع ذلك باسرع ما يمكن فقال نيكولاي بتروفيتش مرحاً :

- ما الذي يثير دهشتك ؟ لقد طال انتظاري لاركاشا . ولم اشبع من التطلع اليه نهار امس .

فقال بافل بتروفيتش :
- لست مندهشاً اطلاقاً . فانا نفسى لا امانع في معانفته . اقترب اركادي من عمه واحس من جديد بلمسات شارب

الغواصين على خديه . جلس بافل بتروفيتش الى المائدة . وكان يرتدي بدلة صباحية انيقة على النمط الانجليزى ، وطربوشاً صغيراً يزعمو على راسه . كان هذا الطربوش وربطة العنق المعقودة بلا اعتناء ، يمان عن طلاقة الحياة الريفية . بيد ان الياقة المنتصبة لقميصه الملون ، كما يتطلب زي الصباح ، قد انغرزت بلا رحمة ، كالاعتاد ، في ذقنه الحليق . وسال العم من ابن اخيه :

- اين صديقك الجديد ؟
- خرج . فهو يستيقظ مبكراً ويتجول عادة . المهم ان لا تلتفتوا اليه . فهو لا يحب الرسميات .

- اجل ، لاحظت ذلك . وهل سيبقى عندنا طويلاً ؟ - سال بافل بتروفيتش وبدأ يضع شيئاً من الزبدة على قطعة خبز دون استعجال .

- حسب الظروف . فقد عرج علينا في طريقه الى ابيه .
- اين يقيم ابوه ؟

- في مقاطعتنا ، على بعد ثمانين كيلومتراً من هنا تقريباً . لديه هناك ضيعة غير كبيرة . وقد خدم في السابق طبيباً في احد الافواج .

- اها . . . ذلك ، اذن ، ما جعلنى اسائل نفسى اين سمعت بهذا اللقب : بازاروف ؟ . يا نيكولاي ، اذكر ان طبيباً لقبه بازاروف كان يخدم في فرقة ايبنا ، اليس كذلك ؟

- اجل ، اظن . . .

- بالضبط . يعنى ان ذاك الطبيب هو ابوه ، احم ! - مسد بافل بتروفيتش شاربيه ثم سال ممطلاً كلامه : - ولكن من هو السيد بازاروف نفسه يا ترى ؟

- تسال من هو بازاروف ؟ ! - قال اركادي وانفجرت شفثاه عن ابتسامة خبيثة - هل تريد ، يا عمى العزيز ، ان اخبرك من هو بازاروف ؟

- اعلم معروفًا يا ابن اخى .
- انه نهلستى .

- ماذا ؟ - سال نيكولاي بتروفيتش ، بينما رفع بافل بتروفيتش سكينه وعلى طرفها الزبدة وظل على هذه الحال دون حراك . فكرر اركادي قائلاً :

- نهلستي .

فقال نيكولاي بتروفيتش :

- مصطلح نهلستي ، على ما اظن ، مشتق من الكلمة اللاتينية نهيل « nihil » ، اي لاشيء ، عدم . وبالتالي فان هذه الكلمة تعني انساناً يرفض كل شيء ، اليس كذلك ؟

- الاصح : لا يحترم شيئاً - عقب بافل بتروفيتش ونابض وضع الزبدة على الخبز ، فقال ارКАДي :

- انه الانسان الذي يعالج كل شيء من وجهة نظر انتقادية - افليس ذلك سواء ؟ - سأل بافل بتروفيتش .

- كلا ، ليس سواء . فالنهلستي هو الانسان الذي لا يطاق رأسه امام اية شخصية مرموقة ولا يتقبل اي مبدأ دون تمحيص

مهما كان الاحترام الذي يحظى به ذلك المبدأ .

- ثم ماذا ؟ فهل ذلك شيء حسن ؟

- هذا امر يتوقف على الاشخاص ، يا عمي ، فهو قد يعود على البعض بالخير وقد ينقلب على البعض الآخر شراً مستطيراً .

- هكذا اذن . هذا امر لا يعنيني ، على ما اعتقد . فنحن اينما

الجيل السابق نتصور ان من المستحيل القيام بخطوة واحدة او حتى مجرد التنفس بدون المبادئ ، المبادئ المقبولة ، كما تقول ،

بدون تمحيص ، (ولكنكم غيرتم ذلك كله) * ، «الله يعطيكم العافية ورتبة جنرال» (٥٦) . اما نحن فسوف نتطلع اليكم مغرمين بكم ايها السادة ال . . . لا ادري كيف تنطقون هذه الكلمة ؟

- . . . النهلستيون ، - قال ارКАДي بوضوح .

- اجل . في السابق كان هناك الهيجليون ، اما اليوم فقد ظهر النهلستيون . فلنر كيف ستعيشون في الفراغ الخالي من الهواء

اما الآن فدىك الجرس رجاء ، يا اخي نيكولاي ، فقد حان موعد احتسا

الكاكاو .

دق نيكولاي بتروفيتش الجرس وصاح : «دونياشا !» . ولكن

فينيتشكا نفسها ظهرت في الشرفة بدلاً من دونياشا . كانت امرأة غضة في حوالي الثالثة والعشرين من العمر ، ناصعة البشرة بشعر

فاحم وعينين سوداوين وشفيتين حمراوين ممتلئتين كشفاة الاطفال

* في الاصل بالفرنسية Vous avez change tout cela

كانت ترتدي بدلة قطنية انيقة . وكان مندبل

الزرق جديد قد استقر خفيفاً على كتفها المكورتين . حملت قدماً

كبيراً من الكاكاو فوضعتة امام بافل بتروفيتش واعتراها الحياء

كلها : فنضح الدم الساخن كال موجة القانية على محياها المليح

الرقيق . غشت بصرها وتوقفت قرب العائدة مستندة اليها باطراف

اصابعها . وكانها شعرت بان مجيئها امر مخجل ، ولكنها في الوقت

ذاته تتصور بان لها الحق في ان تحضر .

فقلب بافل بتروفيتش حاجبيه بصرامة ، بينما ارتبك نيكولاي

بتروفيتش . ثم قال الاول بصوت خافت :

- مرحباً ، فينيتشكا !

- مرحباً يا سيدي ، - اجابته بصوت خفيض رنان ، ثم

خرجت بهدوء ، وهي تسترق النظر الى ارКАДي الذي ابتسم لها بود .

كانت تسير متمايلة بعض الشيء ، ولكن ذلك لم يكن يعييبها .

ساد الصمت الشرفة لحظات . وكان بافل بتروفيتش يرتشف

الكاكاو ، ثم رفع رأسه فجأة وقال بصوت يكاد يكون همساً :

- ها هو النهلستي قادم .

بالفعل كان بازاروف يسير في الحديقة متخطياً جنينات الزهور .

كان معطفه القطني وسرواله ملطخين بالاوساخ ، وقد علقت نبتة

من نباتات المستنقع بقبعته المستديرة العتيقة فطوقت اسطوانتها .

كان يحمل بيده اليمنى كيساً صغيراً تهتز داخله كائنات حية .

اقترب من الشرفة بسرعة وحنى رأسه قائلاً :

- مرحباً ايها السادة . معذرة لتأخري عن الفطور . ساضع

هؤلاء الاسيرات في اماكنهن واعود في الحال .

- ما هذا ؟ اهو علق ؟ - سأل بافل بتروفيتش .

- كلا ، ضفادع .

- اناكلها ، ام تربيتها ؟

- استعملها في التجارب ، - قال بازاروف في غير اكترات

ودّعب الى الدار . فعقب بافل بتروفيتش :

- سيشرحها . يؤمن بالضفادع ولا يؤمن بالمبادئ .

التي ارКАДي نظرة آسفة على عمه ، فهز نيكولاي بتروفيتش

كتفيه خلصة . وادرك بافل بتروفيتش نفسه بان نكته غير

موفقة فعول مجرى الحديث الى المزرعة وطلق يتكلم عن وكيلها

الجديد الذي جاءه امس يتشكى من العامل «الازعر» فوما لانه لا يطيق
احداً ، وقال عنه الوكيل : «سيعيش ويقضي نجه في غيرة مناس
ايسوب الذي سمعت في كل مكان» .

٦

عاد بازاروف . جلس الى المائدة وشرع يحسني الشاي
باستعجال . تطلع اليه كلا الاخوين بصمت ، بينما راح ارКАДني
ينقل نظراته خلسة بين ابيه وعمه . واخيراً سال نيكولاي
بتروفيتش :

- هل قطعت مسافة طويلة ؟

- هناك مستنقع قرب اجمة الحور . وقد رايت خمسة من
طيور البكاسين ، بوسعك ان تصطادها يا ارКАДني .

- حضرتك ليس صياداً ؟

- كلا .

- انت تدرس الفيزياء ، اليس كذلك ؟ - سال بافل

بتروفيتش بدوره .

- اجل الفيزياء ، بل العلوم الطبيعية على العموم .

- يقال ان الجرمن تفوقوا كثيراً في هذا الميدان خلال الآونة
الاخيرة .

- اجل ، الالمان اساتذتنا في ذلك - اجاب بازاروف

اكثر .

استخدم بافل بتروفيتش كلمة «الجرمن» بدلا من «الالمان»
للسخرية ، ولكن احداً ما لم يلاحظ ذلك .

- هل تكن كل هذا الاحترام للالمان ؟ - قال بافل بتروفيتش
بتبجيل متكلف . فقد اخذ يشعر بانزعاج خفي ، اذ ان استهانة

بازاروف المتعمدية ولدت تدمراً في طبعه الارستقراطي . فان ابن
الطبيب هذا لم يشعر بالخجل ، بل واجاب على نحو متقطع . دون

رغبة ، بصوت يشوبه شيء من الخشونة التي تكاد تقرب من
الوقاحة .

- العلماء هناك اناس حاذقون .

- هكذا ، اذن . اما بخصوص العلماء الروس فليس لديك ،
عل ما يبدو ، مثل هذا الاطراء ، اليس كذلك ؟

- اخشى ان يكون الامر كذلك . . .

- هذا نكران ذات يستحق اكبر قدر من المديح - قال بافل
بتروفيتش وهو يعدل قامته ويميل براسه الى الوراء - ولكن

كيف قال لنا ارКАДني نيكولايفيتش قبل قليل انك لا تعترف باية
شخصيات بارزة ولا تؤمن بها ؟

- ما الذي يجعلني اعترف بها ؟ وما الذي اؤمن به ؟ عندما
يعرض علي شيء معقول اوافق عليه ، هذا كل ما في الامر .

- وهل يعرض جميع الالمان شيئاً معقولاً ؟ - سال بافل
بتروفيتش واكتسى وجهه بتعبير لاابالي هائم كما لو كان قد

خلق كلياً الى ما وراء السحب .

- ليس جميعهم . - اجاب بازاروف بتناؤبة قصيرة دلت على
انه ليس راغباً في مواصلة الجدل الفارغ .

القس بافل بتروفيتش نظرة على ارКАДني وكأنما يريد ان
يقول له : «صديقك مهذب حقاً !» ، ثم قال من جديد بشيء من
الجهد :

- اما انا فخطيئتي هي اني لا اخلع النعوت على الالمان . وما
من داع للكلام عن الالمان الروسيين : فالكمل يعلمون اي نوع من

البشر هم . ولكنني لا استسيغ الالمان الالمانيين ايضاً . فالحق
منهم كانوا يصلحون لشيء ، عندما كان لديهم ، مثلاً ، شيلتر وغوته

... واخي نيكولاي معجب بهما خصوصاً . اما الآن فليس هناك
غير الكيميائيين والماديين . . .

- الكيميائي العاذق افضل بعشرين مرة من اي شاعر - قاطعه
بازاروف . فقال بافل بتروفيتش رافعاً حاجبيه قليلاً وكأنما ينوي
ان يغط في النوم :

- هكذا ، يعني انك لا تعترف بالفن ؟

- فن اكتساب المال ، او خير طريقة لعلاج البواسير ! -
عنف بازاروف بضحكة ساخرة مستهينة .

- هكذا اذن ، هكذا تفضل بالتكيت . يعني انك ترفض كل
شيء . ولا تؤمن الا بالعلم . اليس كذلك ؟

هناك علوم مثلما هناك صنائع والقاب . اما العلم عموماً فهو خير موجود على الاطلاق .

- حسناً جداً . ولكن ماذا بخصوص القواعد الاخرى المقبولة في حياة الناس ؟ هل تلتزم بنفس هذا الاتجاه السلبي ازامعا ؟

- ما هذا ، اهو استجواب ؟ - سال بازاروف . فشرح لون بافل بتروفيتش بعض الشيء . . . وراى نيكولاي بتروفيتش ان من واجبه ان يتدخل في الحديث :

- سوف نتحدث معك يا عزيزي يفغيني فاسيليفيتش فيما بعد بتفصيل اكبر حول هذا الموضوع . وسوف نطلع على رأيك ونعرض رأينا . ومن ناحيتي فانا مسرور جداً لدراستك العلوم الطبيعية . سمعت ان ليبينغ (٥٧) اجري اكتشافاً مدهشاً بخصوص تسميد الحقول . ويمكنك ان تساعدني في اعمالى الزراعية : فبوسعك ان تقدم لي نصيحة نافعة ما .

- انا في خدمتك ، يا نيكولاي بتروفيتش . ولكن شتان بيننا وبين ليبينغ ! يتعين في البداية تعلم الابدئية ثم تناول الكتاب . اما نحن فلا نزال غارقين في لجة الجهل .

«يبدو انك نهلستي حقاً» - فكر نيكولاي بتروفيتش في نفسه ، ثم اضاف قائلاً :

- ومع ذلك اسمح لي ان استعين بك عند الاقتضاء . اما الآن ، يا بافل ، فقد حان الوقت ، على ما اعتقد ، للتداول مع وكيل المزرعة .

نهض بافل بتروفيتش من كرسيه وقال دون ان ينظر الى احد : - ما اتعس ان يعيش المرء خمس سنوات في القرية بعيداً عن العقول العبقرية ! فهو يصبح اكثر بلادة . انه يحاول ان لا ينسى ما تعلمه في الماضي ، وعلى حين غرة يتضح له ان كل ذلك هراء . فيقال له ان الاذكياء لم يعودوا يدرسون مثل هذه السخافات وانه هو مجرد طرطور متخلف . فما العمل ؟ ! يبدو ان الشباب اذكى منا حقاً .

استدار بافل بتروفيتش ببطء على كعبيه وخرج متباطئاً فتمه نيكولاي بتروفيتش . وحالما أغلق الباب بعد خروج الاخوين سال بازاروف من اركادي ببرود :

- ماذا ؟ هل هو على هذه الشاكلة دوماً ؟

- فقال اركادي : - اسمع ، يا يفغيني ، تحدثت معه بخشونة بالغة . لقد اعته .

- فهل يتعين علي ان اداريهم ، هؤلاء الارستقراطيين الريفيين ؟ اكل ذلك مجرد خيلاء وحماقة وعادات السباع . الاخرى به ان يتابع مهمته في بطرسبورغ ما دام على هذه الطباع . . . آه ، ما لنا وله ، فلنتركه وشأنه . هل تعلم ؟ لقد عثرت على نوع نادر جداً من الجعلان العوامة : (ديتيسكوس مارغيناوس) * .

ساريك اياه .

فقال اركادي :

- وعدتك ان احكي لك قصته .

- قصة الجعل ؟

- كفى ، يا يفغيني . قصة عمي . وسترى انه ليس بذلك الانسان الذي تتصوره . انه يستحق الرثاء اكثر مما يستحق السخرية .

- لا اشك في ذلك . ولكن لماذا تشغل بالك به الى هذا الحد ؟

- كن منصفاً يا يفغيني .

- وما الداعي لذلك ؟

- كلا ، اسمعني . . .

وفص عليه اركادي قصة عمه التي يجدها القارى في الفصل التالي .

٧

تلقى بافل بتروفيتش كيرسانوف تعليمه في المنزل اول الامر ، شأنه شأن اخيه الاصغر نيكولاي ، ثم في «سلك الوصفاء» (٥٨) . وكان منذ طفولته يتمتع بجمال رائع . زد على ذلك انه كان معتاداً بنفسه وساخرأ بعض الشيء وحاد الطبع بشكل يثير الضحك احياناً . ولذا كان لا بد ان يروق للآخرين . حالما تخرج

* في الاصل باللاتينية Dytiscus marginatus .

ضابطاً اخذ يظهر في كل المحافل . كان يُحمل على الاكف ، ويدلاري نفسه لحد الحماقة ، بل ويتدل ويتغنج ، وما كان ذلك ليعبه بشيء . فقد كانت النساء مفتونات به لحد الجنون ، وكان الرجال ينعثونه بالمتائق ويحسدونه في سرهم . عاش ، كما ذكرنا ، في منزل واحد مع اخيه الذي احبه حباً صادقاً ، مع انه لم يكن يشبهه بشيء . نيكولاي بتروفيتش ضئيل القوام يعرج قليلاً ، وعيناه السوداوان غير الواسعتين جميلتان ولكنهما حزيتان بعض الشيء وشعره خفيف ناعم . كان يهوى الكسل ، ولكنه يهوى المطالعة ايضاً ويخشي الظهور في المحافل . اما بافل بتروفيتش فلم يصرف ولا امسية واحدة في المنزل ، وقد اشتهر بالبسالة واللبانة (فهو الذي جعل الجباز موضة لدى شباب المجتمع الراقي) . ولم يقرأ غير خمسة او ستة كتب فرنسية . وفي عامه الثامن والعشرين اصبح ضابطاً برتبة رائد تنتظره افضل المناصب . ولكن كل شيء تغير فجأة .

في ذلك الحين كانت تظهر في مجتمع بطرسبورغ الراقي من حين لآخر امرأة لم يطوها النسيان حتى الآن . وهي الاميرة ر . كان لديها زوج مهذب مزدب ، ولكنه على شيء من الغباوة . ولم يكن لديها اطفال . كانت تسافر الى الخارج فجأة ، وتعود الى روسيا فجأة . وعلى العموم كانت غريبة الاطوار ، تعيش حياة متميزة . اشتهرت بانها امرأة لعوب تنغمر بولع كبير في مختلف انواع الملذات ، وترقص حتى الاغماء ، وتقهره وتنكت مع الشباب الذين تلتقيهم قبيل الغداء في غرفة استقبال شبه معتمة . اما في الليل فكانت تنتحب وتصلي ، فلا يقر لها قرار ، وغالباً ما تظل حتى الصباح تجوب الغرفة جيئة وذهاباً ، غارقة في لجة الكتابة . او تنكب ، شاحبة باردة ، على سفر المزامير . وحالما يحل النهار تتحول من جديد الى واحدة من نساء المجتمع الراقي ، وتتفلق وتضحك وتثرثر من جديد وكأنها تندفع لملاقاة كل ما يمكن ان يوفر لها ادنى قدر من التسلية . كانت ذات قوام مدهش . صغيرتها الذهبية اللون الثقيلة كالذهب تتدلى الى اسفل الركبتين . ولكنه ما من احد بوسعه ان يطلق عليها نعت الحسناء . فلم يكن في معيها شيء جميل غير عينيها ، وليس عيناها بالضبط - فهما رماديتان غير واستعتين - بل نظرتهما السريعة العميقة اللامبالية حتى البسالة

والمتاملة حتى الكتابة - انها نظرة كلها الغاز . كان شيء ما مدهش في هذه النظرة حتى عندما تنفوه هي باتفه الالفاظ . وكانت ملابسها على قدر كبير من الاناقة . صادفها بافل بتروفيتش في إحدى السهرات ورقص معها المازوركا ، فلم تقل طوالها ولا كلمة واحدة ذات شأن . ووقع في هواها بشدة وعنف . وسرعان ما حقق هدفه هذه العرة ايضاً وهو الذي تعود على الانتصارات . الا ان سهولة هذه العرة لم تخفف من غلوائه . على العكس ، فقد تعلق تعلقاً اشد العوز لم تخفف من غلوائه . على ما يبدو ، شيء منشود واكثر مضطاً بهذه العرة التي ظل فيها ، حتى عندما تستسلم كلياً . ولا بعيد المثال لم يتوصل اليه احد ، حتى عندما تستسلم كلياً . ولا يعلم الا الله بما كان يعيش في هذه الروح ! لقد بدت وكأنها اسيرة قوى خفية مجهولة بالنسبة لها نفسها ، قوى تتلاعب بها كما يحلو لها . وما كان يوسع ذكائها غير المفرط ان يسيطر على نزوات تلك القوى . كان سلوكها بمجمله عبارة عن طائفة من الحماقات . فالرسائل الوحيدة التي يمكن ان تشير شكوك زوجها يعني هي رسائل كتبتها الى شخص غريب عليها تقريباً ، اما حبها فكان ينضح حزناً : لم تعد تضحك وتمزح مع الذي اختارته ، وصارت تستمع اليه وتحقق فيه متحيرة . وكانت تلك الحيرة تحول احياناً ، بصورة مفاجئة على الاغلب ، الى رعب بارد ، فيكتسي وجهها بتعبير وحشي موات ، وتنطوي على نفسها في غرفة النوم لتغلقها وتجهش في نحيب مخنوق بوسع الوصيفة ان تستمع اليه عندما تلتصق اذنها بقفل الباب . كان كيرسانوف ، حينما يعود الى منزله بعد لقاءات الغرام ، يحس مراراً بكآبة مرة كالتى تعتصر القلب وتمزق نياطه عادة بعد الانخاف المطبق . وكان يسائل نفسه : «ماذا اريد اكثر من ذلك ؟» . ولكن الكآبة تعتصر قلبه . وذات مرة اهداها خاتماً تحت ابو الهول الاسطوري (٥٩) على قصه . فسألته :

- ما هذا ؟ ابو الهول ؟

- اجل . وهو انت .

- انا ؟ - سألته واحتوته على مهل بنظرتها المليئة بالالغاز . ثم اضافت بسخرية غير متمادية ، وظلت عيناها تسلطان عليه نفس تلك النظرة الغريبة :

- الا تتصور ان ذلك اطراء بالغ ؟

كان الامر صعباً على بافل بتروفيتش حتى عندما احبته الاميرة ر . ولكنه كاد يجن عندما خفت حبها له عاجلاً . كان يتعذب ويغار عليها ، ويلحقها في كل مكان ولا يتركها تذوق طعم الهدوء ، حتى شتمت من لجأته وملاحقاته فسافرت الى الخارج . احوال نفسه لم تتقاعد بالرغم من رجاء اصدقائه ونصائح رؤسائه ، ولحسن بالاميرة ، ففضى اربعة اعوام في الغربية تارة يطاردها وتارة يفلتها عمداً . واخذ يشعر بالخجل من نفسه وصار يكره نفسه بسبب تغاذله . . . ولكن ما من شيء كان يوسعها ان يعينه . فقد انغرزت في اعماق روحه حتى الجذور صورتها الجذابة ، الغامضة التي لا تكاد تنطوي على اي معنى . وفي بادن عادت علاقتهما ، ذات مرة ، الى سابق عهدها . وخيل اليه انها لم تكن تحبه فيما مضى ابداً بنفس القدر الذي تحبه به الآن . . . ولكن ما ان مر شهر حتى انتهى كل شيء : فقد اندلع اللهب للمرة الاخيرة ثم انطلق الى الابد . وعندما ادرك حتمية الفراق الذي لا مفر منه اراد ، على الاقل ، ان يظل صديقاً لها وكأنها الصداقة مع مثل هذه المرأة امر ممكن . . . غادرت بادن خلصة وصارت منذ ذلك الحين تتعاضد كيرسانوف دوماً . اما هو فقد عاد الى روسيا وحاول ان يعين عيشته القديمة ، ولكنه لم يعد قادراً على العودة الى المعرى القديم . فراح يطوف من مكان لآخر كمن سلب عقله . كان لا يزال يظهر في المحافل ويحتفظ بجميع عادات الشخص المنتمي الى المجتمع الراقي ، وكان يوسع ان يتفاخر بانتصارين جديدين او ثلاثة . ولكنه لم يعد ينتظر شيئاً ذا شأن لا من نفسه ولا من الآخرين . ولم يتخذ اي اجراء يستحق الذكر . داهمته الشيخوخة ووظ الشيب شعره . وصار يشعر بحاجة الى قضاء الامسيات في النادي جالساً جلسته السوداء المضجرة او مناقشاً بلا مبالاة في معتز العزاب ، وتلك ، كما هو معروف ، دلالة سوء . يدهي انه لم يكن يفكر في الزواج حتى مجرد تفكير . مضت على هذا النحو عشر سنوات كالحة عقيمة ، مضت بسرعة ، بسرعة مرعبة . فالوقت لا ينقضي في ايما مكان باسرع مما في روسيا . ويقال انه ينقضي في السجن فقط بصورة اسرع . ذات مرة ، اثناء الغداء في النادي عرف بافل بتروفيتش بوفاة الاميرة ر . التي قضت نحبها في باريس في حالة تقرب من الجنون . نهض من المائدة واخذ يحجب غرق

النادي طويلاً . وكان يتوقف مسجراً قرب المقامين ، ولكنه لم يعد الى المنزل قبل الموعد المعتاد . وبعد حين من الوقت تسلم مشروفاً باسمه . كان في المظروف الخاتم الذي امداه للاميرة . لقد رست على ابن الهول علامة صليب وامرت حامل المظروف بان يقول له ان الصليب هو حل اللغز .

حدث ذلك في مطلع عام ١٨٤٨ ، في نفس الوقت الذي وصل فيه نيكولاي بتروفيتش الى بطرسبورغ بعد وفاة زوجته . لم يكن بافل بتروفيتش قد تقابل مع اخيه منذ ان انتقل هذا الى القرية : فقد وافق زفاف نيكولاي بتروفيتش الايام الاولى لتعرف بافل بتروفيتش على الاميرة . وعندما عاد من الخارج توجه اليه ناوياً اليها . عنده زهاء شهرين والاطلاع على حياته الهائلة ، ولكنه لم يسكت لديه غير اسبوع واحد . فقد كان الفارق في اوضاع الاخوين كبيراً جداً . وفي عام ١٨٤٨ تقلص هذا الفارق : اذ فقد نيكولاي بتروفيتش زوجته وفقد بافل بتروفيتش ذكرياته . حاول بافل الا يفكر بالاميرة بعد وفاتها . الا ان نيكولاي ظل يحتفظ بشعور انسان عاش الحياة على نحو صائب ، فقد كان ابنه يتزعزع امام نظريه . اما بافل فهو ، على العكس ، اعزب مستوحش وقد دخل مرحلة كالحة معتمة . مرحلة الندامة التي تشبه الآمال والآمال التي تشبه الندامة . حيث مضى الشباب ، بينما لم تحل الشيخوخة بعد . كانت هذه المرحلة اصعب على بافل بتروفيتش مما على اي شخص آخر : فعندما فقد ماضيه فقد معه كل شيء .

قال له نيكولاي بتروفيتش ذات مرة :

- لا ادعوك الى مارينو (اطلق نيكولاي بتروفيتش هذا الاسم على قريته تكريماً لزوجته ماريا) ، فعندما كانت المرحومة اعلى قيد الحياة شعرت هناك بالضجر ، اما الآن فسيكون ضجرك اشد على ما اعتقد .

فاجاب بافل بتروفيتش :

- كنت آنذاك لا ازال احمق متمللاً . اما الآن فقد هدأت ، ان لم اقل صرت اذكى قليلاً . وانا ، على العكس ، مستعد لاسكن عندك الى الابد . اذا سمحت .

وبدلاً من الجواب عانقه نيكولاي بتروفيتش . غير ان بافل بتروفيتش لم يشد العزم على تحقيق ما نواه الا بعد عام ونصف من

هذا الحديث . ولكنه عندما سكن القرية لم يغادرها حتى في فصل الشتاء الثلاثة التي قضاهما نيكولاي بتروفيتش مع ابنه في بطرسبورغ . اخذ يطالع باللغة الانجليزية على الاكثر ، بل وسجل حياته كلها على النمط الانجليزي . صار نادراً ما يتقابل مع الجيران ، ولا يغادر القرية الا في الانتخابات حيث يصرف القلب الوقت صامتاً ، ما عدا بعض الحالات النادرة حيث يفيض الاطفال المتمسكين بالقديم ويخيفهم بالنزوات المتحررة دون ان يتقرب اليه ممثلي الجيل الجديد . وكان هؤلاء واولئك يعتبرونه مغروراً معشاً بنفسه . بيد ان هؤلاء واولئك كانوا يحترمونه لمسلكتهم الارستقراطي الممتاز وللأشاعات عن انتصاراته ولانه مهتم على اروع ما يكون ، ولانه ينزل دوماً في افضل الغرف في ارفس الفنادق ، ولانه على العموم لا يتناول الا الاطعمة الفاخرة ، حتى انه تغدى ذات مرة مع ولشغتون (٦٠) عند لودفيغ-فيليب (٦١) . ويحترمونه لانه كان يحمل معه في ترحاله او تجواله حقيبة فضية لادوات الزينة وحوض استحمام متنقلاً ، ولانه يتطيب بعطور «كريمة» مذهشة غير معتادة ، ولانه يلعب الهويست * بهارة ويخسر فيه دوماً ، وكانوا يحترمونه ، اخيراً ، لنزاهته التي لا تشوبها شائبة . وقد اعتبرته النساء ملئخولياً فاتناً ، ولكنه ما عاد يعبأ بالنساء . . .

وقال اركادي في ختام حديثه :

- ارايت ، يا يفتيني ، كم انت مجحف بحق عمي ! ثم انقذ ابي مراراً من المصائب واعطاه كل نقوده . وحتى الضيعة ، وهذا امر ربما لا تدري به ، غير مقسمة بينهما . بل هو مستعد لمساعدة اي كان . وبالمناسبة فهو يلتزم جانب الفلاحين دوماً . لكنه ، والحق يقال ، يتقزز منهم ويتشتم الكولونيا عندما يتكلم معهم . . .

- امر واضح : اعصاب - قاطعه بازاروف .

- ربما . ولكن قلبه في منتهى الطيبة . ثم انه ليس بليداً ابداً . فما ائمن النصائح التي قدمها لي . . . وخصوصاً . . . وخصوصاً في الموقف من النساء .

* ضرب من لعب الورق . المترجم .

- طبعاً ! من لدغته الافعى يخشى من جر العجل . ليس ذلك جديداً علينا !
- خلاصة القول - واصل اركادي كلامه - انه تعيس للغاية . صدقني . وان احتقاره خطيئة .
- من يحتقره ؟ - اعترض بازاروف - ولكنني اعتقد ان الانسان الذي قامر بحياته كلها على حب امرأة وتكدر ، عندما خسر المقامرة ، فانهدر الى درجة اصبح معها عاجزاً عن القيام باي شيء ليس رجلاً وليس ذكراً . تقول انه تعيس ، فانت اعرف به ، ولكن الحقاقة لم تفارقه كلياً . انا واثق من انه لا يمزح عندما يتصور نفسه انساناً ذكياً طيباً لكونه يقرأ وريقة غالينيانى ويخلص الفلاحين مرة في الشهر من العقوبة الجسدية .
- ولكن تذكر تربيته والعصر الذي عاش فيه .
- ما شأن التربية ؟ على كل فرد ان يربي نفسه بنفسه ، كما فعلت انا ، مثلاً . . . اما العصر ، فما الداعي لان اكون تحت سلطته ؟ فليكن هو تحت سلطتي . كلا ، يا اخي ، ما ذلك الا استهتار وحماقة ! ثم ما هذه العلاقات الغامضة بين الرجل والمرأة ؟ انا الفسليجين نعرف ماهية تلك العلاقات . راجع تشريح العين ، فمن اين تنبع تلك النظرة المليئة بالالغاز ، كما تقول ؟ ما ذلك الا رومانسية مصطنعة وهذر متعفن . الافضل ان نذهب لنتفحص العجل .

وتوجه الصديقان الى غرفة بازاروف التي اكتنفتها ، منذ ان حل فيها ، روائح طبية وجراحية ممزوجة بنفخ تبغ رخيص .

٨

لم يبق باقل بتروفيتش طويلاً اثناء التداول بين اخيه ووكيل المزرعة النحيف الفارع القامة ذي العينين المراوغتين والصوت العسلي الشبيه بصوت المسلول . كان الوكيل يرد على جميع ملاحظات نيكولاي بتروفيتش بقوله «طبعاً ، يا سيدي ، امر معروف» ويحاول ان يصور جميع الفلاحين سكارى ولصوصاً . كانت المزرعة التي اصلحت على شاكلة جديدة مؤخراً تصر كمجلة بدون تشجيع وتشقق

كالاتات المصنوع كيفما اتفق من خشب لم يجف بعد . لم يكن نيكولاي بتروفيتش يائساً ، ولكنه كثيراً ما كان يتنهد ويتأمل : فهو يعرف ان الامور لن تسير على ما يرام بدون مال ، في حين انه اتفق جميع امواله تقريباً . وقد صدق اركادي عندما قال ان بافل بتروفيتش اعان اخاه اكثر من مرة . فان بافل بتروفيتش الذي رأى اخاه مراراً يشقى ويمعن التفكير في كيفية تدبير الامور ولو بشكل ما ، كان يقترب من النافذة ببطء ويدس يديه في جيبه ويقول بصوت خافت : «استطيع ان اعطيك مالا» * . ويسلم المال له بالفعل . لكنه في ذلك اليوم لم يكن لديه شيء من المال ، ولذا فضل الانسحاب . كانت المشاحنات بشأن المزرعة تبعث الغم فيه . وكان يخيل اليه دوماً ان نيكولاي بتروفيتش ، بالرغم من حرصه ومتابره ، لا يدير الامور كما يرام ، مع ان بافل بتروفيتش ما كان بوسعه ان يشير بالتحديد الى خطأ اخيه . وكان يفكر في نفسه : «ليس اخي عملياً بالقدر الكافي ، فهم يخدعونه» . وكان نيكولاي بتروفيتش ، على العكس ، يقدر كل التقدير مواهب اخيه العملية وينشد لديه النصيح دوماً . كان يقول : «انا انسان ضعيف لئيم ، عشت عمري في الريف ، اما انت فقد عشت طويلاً مع الناس . انك تعرفهم جيداً ولديك نظرة صقر» . وكان بافل بتروفيتش لا يرد على هذه الكلمات ، بل يشيح بوجهه دون ان يبين لـ اخيه العكس .

ترك بافل بتروفيتش اخاه في مكتبه وسار في الرواق الذي يفصل القسم الامامي من الدار عن قسمها الخلفي . وعندما وصل الى باب واطى توقف متفكراً ثم قتل شاربه وطرق الباب .

- من الطارق؟ ادخلوا - رن صوت فينيتشكا .

- انا - اجاب بافل بتروفيتش وفتح الباب .

نهضت فينيتشكا في الحال من الكرسي الذي كانت جالسة عليه مع طفلها ، وسلمت الطفل الى فتاة خرجت به فوراً من الغرفة ، وعدلت منديلها على عجل .

- معذرة اذا كنت قد ضايقتك - طفق بافل بتروفيتش يتكلم دون ان ينظر اليها - اريد فقط ان اكلفك . . . سيذهب احد ما

* في الاصل بالفرنسية « Mais je puis vous donner de l'argent »

الى المدينة اليوم على ما اظن . . . اطلبني منه ان يشتري لي شيئاً اضطر .

- سمعاً وطاعة يا سيدي - اجابت فينيتشكا - كم ترغبون ان تشتري ؟

- نصف رطل بكفي ، باعتقادي - اجاب ثم اضاف بعد ان القى نظرة عاجلة احاطت بها حواليه وانزلت على وجه فينيتشكا ايضاً - يبدو ان لديك تغيرات هنا . - واردف عندما رأى ان فينيتشكا لم تفهمه - هذه الستائر مثلاً .

- اجل ، هذه الستائر ، لقد تفضل بها علينا نيكولاي بتروفيتش . ولكنها معلقة منذ زمان .

- انا ايضاً لم ازرك منذ زمان . اما الآن فقد اصبحت غرفتك مريحة تماماً .

- بفضل نيكولاي بتروفيتش - اجابت فينيتشكا همساً ، فسألها بافل بتروفيتش بتأدب ولكن بدون ادنى اثر للابتسام :

- هل هنا افضل مما في الجناح السابق ؟

- افضل ، طبعاً .

- ومن اسكنوا بذلك هناك ؟

- الفسالات .

- اها !

لزم بافل بتروفيتش الصمت . ففكرت فينيتشكا في نفسها :

«سيذهب الآن» . ولكنه لم يذهب ، فظلت واقفة امامه متسمة ترك اصابعها بخفة ، الى ان قال اخيراً :

- لماذا اعطيتها طفلك ! انا احب الاطفال ، اضريه لي .

احتقن محيا فينيتشكا من الحياء والسرور . كانت تخشى بافل بتروفيتش ، فهو لم يكلمها ولا مرة تقريباً . فنادت دونياشكا قائلة :

- احضروا ميتيا (كانت فينيتشكا تخاطب كل من في الدار بصيغة الجمع) . لا بل تمهلوا : ينبغي ان البسه بدلة .

توجهت فينيتشكا نحو الباب ، فبادرها بافل بتروفيتش :

- لا فرق .

- في الحال - اجابت فينيتشكا وخرجت برشاقة .

ظل بافل بتروفيتش وحيداً ، فاخذ يتلفت هذه المرة باهتمام

خاص الى ما حو اليه . كانت الغرفة الواطئة الصغيرة التي يقف فيها نظيفة ومريحة للغاية ، تفوح فيها رائحة الارضية التي طليت مؤخراً ورائحة الاقحوان والنعناع . وعلى طول الجدران صفت كراسي ذات مساند خلفية بشكل قيثارات ، كان الجنرال الراحل قد اشترى في بولندة اiban احدى الحملات ، وفي ركن من الغرفة انتصب سرير صغير فوقه حجاب من الشاش ، الى جانب صندوق مرصع بالمسامير وذي غطاء محدب . وفي الزاوية المقابلة اشتعل قنديل امام ايقونة معتمة كبيرة للقديس نيقولاى الذي تدلت بشرط احمر على صدره بيضة فرفورية صغيرة مثبتة الى حالته . وعلى رفي النافذتين زجاجات مربى الموسم المنصرم مغلقة بعناية . ويتسرب من خلالها ضوء اخضر ، وقد كتبت فينيتشكا على اعطيتها الورقية بحروف كبيرة «عنب الثعلب» . نيكولاى بتروفيتش يحب هذا النوع من المربى خصوصاً . وكان قفص يتدلى بجبل طويل من السقف وفيه حسون قصير الذيل يشقشق ويتفافز بلا كلل . والقفص يهتز ويرتعش بلا انقطاع ، وتقع حبات القنب على الارضية بنقر خفيف . وعلى الحائط بين النافذتين علقت ، فوق الصوان ، صور فوتوغرافية لنيكولاى بتروفيتش في وضعيات مختلفة . وهي صور سينة التقطها مصور متجول . والى جانبها صورة لفينيتشكا غير موفقة ابداً ، اذ لم يكن يلوح منها غير وجه بلا عينين يتسم ابتسامة متوترة في اطار معتم . وفوقها صورة يرمولوف (٦٢) في معطف فضفاض من اللباد ، وهو يلقي نظرة عابسة رهيبة على جبال القوقاز البعيدة من تحت خف حريري للدبابيس علق فوقه وغطى جبهته كلها .

مرت خمس دقائق تقريباً . وكان يتهدى من الغرفة المجاورة خفيف وهمس . رفع بافل بتروفيتش من فوق الصوان كتاباً ملوناً . هو احد مجلدات رواية ماسالسكي «الرامة» (٦٣) ، فتصفح عدة صفحات منه . . . فتح الباب ودخلت فينيتشكا تحمل ميتيا . كانت قد البسته قميصاً احمر بشرط مقصب على الياقة ، ومسحت شعره ومسحت وجهه : كان يتنفس بصعوبة ويندفع بجسمه كله ويلوح بيديه الصغيرتين كما يفعل جميع الاطفال الاصحاء . بيد ان القميص الانيق اثر عليه ، كما يبدو ، فقد طفت على وجهه المنتفخ مسحة من الارتياح . وكانت فينيتشكا قد صغلت شعرها

من ايضاً . ارتدت منديلاً افضل . غير انه كان يوسعها ان تظل كما كانت عليه . حقاً ، فهل هناك اكثر جاذبية في الوجود من ام جميلة شابة مع طفل معاق ؟
- يالك من طفل ريتان ! - قال بافل بتروفيتش متساهلاً - ودغدغ اسفل ذقن ميتيا بطرف ظفر سبابته الطويل ، حدق الطفل في الحسون وابتمس .

- هذا عمك - قالت له فينيتشكا وقد مالت اليه بوجهها وهي تهزأ عزة خفيفة ، في حين وضعت دونياشا على رف النافذة يدوي شمعة البخور المشتعلة والصقته من الاسفل على قطعة نقد صغيرة . فسأل بافل بتروفيتش :
- كم شهراً بلغ يا ترى ؟

- ستة شهور ، وسيحل شهره السابع قريباً ، في العادي عشر .
- اليس الشهر الثامن ؟ - تدخلت دونياشا بشيء من الاستعجال .

- كلا ، السابع ، كيف ذلك ؟ ! - ابتسم الطفل من جديد وحدق في الصندوق ثم خطف اقف امه وشفتيها فجأة باصابعه الخمس ، فقالت فينيتشكا دون ان تبعد وجهها عن اصابعه : -

مشاكس .
- يشبه اخي - لاحظ بافل بتروفيتش ، ففكرت فينيتشكا في نفسها : «ومن عساه ان يشبه ؟» فواصل بافل بتروفيتش كلامه وكأنه يخاطب نفسه :

- اجل ، شبه لا شك فيه . - ثم القى على فينيتشكا نظرة منفضحة تكاد تكون حزينة .

- هذا عمك - كررت هي همساً هذه المرة . وفجأة تعالى صوت نيكولاى بتروفيتش :

- اها ! بافل ! ها قد وجدتك !
التفت بافل بتروفيتش باستعجال وتجهم وجهه ، الا ان اخاه نظر اليه بفرح وامتنان جعلاه يرد بابتسامة من كل بد . ثم قال متطلعاً في ساعته :

- طفلك رائع . اما اننا فقد عرجت الى هنا بخصوص الشاي . . .

خرج بافل بتروفيتش من الغرفة في الحال وقد اكتسى وجهه بمسحة من اللامبالاة . فسأل نيكولاي بتروفيتش من فينيتشكا - هل جاء بنفسه ؟

- بنفسه ، يا سيدي ، طرق الباب ودخل .

- واركا دي ، ألم يترك بعد تلك المرة ؟

- كلا . الا ينبغي ان انتقل الى الجناح ، يا نيكولاي بتروفيتش ؟

- ما الداعي لذلك ؟

- اعتقد ان ذلك سيكون افضل الآن .

- ٢ . . . كلا - قال نيكولاي بتروفيتش متلعنا ومصح

جبهته - كان ينبغي القيام بذلك قبل الآن . . . مرحباً ، يا عزيزي - قال بانتعاش مفاجئ واقترب من الطفل فقبله وجنته ، ثم انحنى قليلاً ومس بشفتيه يد فينيتشكا التي بدت بيضاء كالجليب على قميص ميتها الاحمر .

- ماذا دهاكم ، يا نيكولاي بتروفيتش ؟ ! - همست وغض

بصرها ، ثم رفعت عينيها بهدوء . . . كان رائعا تعبير عينيها عندما تسلط نظراتها المنبعثة من تحت الجبين وتضحك بحنان وبشر من البلادة .

تعرف نيكولاي بتروفيتش على فينيتشكا بالشكل التالي : ذات مرة اضطر قبل ثلاثة اعوام ان يصرف الليل في خان بمدينة صغيرة نائية . وقد سر ودهش لنظافة الغرفة التي خصصت له ولنظافة شراشف الفراش ، فخطرت على باله فكرة : «لعل صاحبة الخان المانية» . ولكنه اتضح له ان صاحبة الخان امرأة روسية في حوالي الخمسين من العمر ترتدي فستاناً انيقاً وتتحلى بمحيا ذكي مليح ولهجة رزينة . تحدث معها اثناء تناول الشاي ، فاعجب بها كثيراً . كان نيكولاي بتروفيتش آنذاك قد انتقل توأ الى دار الجديدة وما كان راغباً في ابقاء الاقنان معه ، فصار يبحث عن اجراء . وكانت صاحبة الخان قد تشكت ، بدورها ، من قلة عدد القادمين الى المدينة ومن مصاعب الدهر ، فاقترح عليها ان تستأجر لديه بمثابة مديرة المنزل ، فوافقت . كان زوجها قد توفي منذ زمان وترك لها بنتاً وحيدة هي فينيتشكا . وبعد زهاء اسبوعين وصلت آرينا سافيشنا (وهذا هو اسم مديرة المنزل الجديدة)

ابنتها الى ماريينسكو وسكنت في الجناح . واتضح ان نيكولاي بتروفيتش قد وفق في الاختيار ، فقد رقت آرينا شؤون الدار على ما يرام . اما فينيتشكا التي تجاوزت آنذاك السابعة عشرة من العمر فلم يتكلم عنها احد ونادراً ما كانت ترى : فقد عاشت بهدوء وتواضع . وفي الاحاد فقط كان نيكولاي بتروفيتش يلاحظ في زاوية ما من زوايا كنيسة الابرشية جانباً من وجهها الابيض الرقيق . مر

اكثر من عام على هذا المنوال . ذات صباح حضرت آرينا اليه في المكتب وانحنت ، على عاذنها ، انحناء شديدة ورجته ان يعالج ابنتها التي اصابته شراسة من الفرن في عيناها . كان نيكولاي بتروفيتش ، شأنه شأن جميع الذين يلزمون منازلهم ، قد مارس العلاج ، حتى انه اقتنى صندوق ادوية منزلياً . امر آرينا ان تحضر المصابة فوراً . وعندما علت فينيتشكا ان السيد يدعوها اليه اعتراها جبن شديد ، ولكنها تبعت امها مع ذلك . اقتادها نيكولاي بتروفيتش الى النافذة وامسك رأسها بكلتا يديه . تفحص جيداً عيناها المتورمة المحمرة ونصح باستخدام غسول اعده بنفسه في الحال ، ثم مزق منديلته الى عدة قطع وبين لها كيف ينبغي غسل العين . استمعت اليه فينيتشكا ثم همت بالخروج ، الا ان آرينا قالت لها : «قبلي يد السيد ، يا حلقاً» . ولم يمد لها نيكولاي بتروفيتش يده ، بل قبلها هو ، مرتبكاً ، في مفرق شعر رأسها المنحني . وسرعان ما شغيت عين فينيتشكا ، ولكن الانطباع الذي تركته في نيكولاي بتروفيتش لم يمح بسرعة . كان يلوح في مخيلته دوماً ذلك الوجه الضمير الرقيق المتطلع بشي من الخوف . وقد احس تحت راحتي يديه بذلك الشعر الناعم ، وشهد تينك الشفتين العذراوين المنفرجتين قليلاً عن اسنان لزؤية تلمع ندية في الشمس . صار يتطلع اليها في الكنيسة باهتمام اكبر ويسعى الى التحدث معها . كانت في بادئ الامر تتجنبه ، وذات مرة لمحته ، قبيل المساء ، في درب ضيق شقه المارة عبر حقل الجودار ، فاندست بين السنابل الكثيفة العالية المختلطة بالشيخ وبازهار العنبر ، كيلا تقع انظاره عليها . ولكنه لمح رأسها بين السنابل الذهبية وهي تتطلع كالوحش الصغير ، فهتف برقة :

- مرحباً ، يا فينيتشكا ! انا لا اعص .

- مرحباً . - همست دون ان تغادر كمينها .
وصارت تتعود عليه شيئاً فشيئاً ، لكنها ظلت تشعر بالخجل
في حضوره ، الى ان توفيت امها بالكوليرا . قال ايڤن تنبسه
فينيتشكا ؟ لقد ورثت عن امها حب النظام والتعقل والرزاقية . ولكن
ما انضر فتوتها وما اشد وحدتها ! وما اطيب نيكولاي بتروفيتش
وما اكثر تواضعه ! اما الباقي فلا داعي لذكره . . .
- دخل اخي عليك هكذا ببساطة ؟ طرق الباب ودخل ؟ -
سأله نيكولاي بتروفيتش .

- اجل ، يا سيدي .
- تلك بادرة حسنة . اعطيني ميتيا كي الابعه .
واخذ نيكولاي بتروفيتش يقذفه حتى السقف تقريباً ، مما اثار
اشد العرج لدى الطفل ، كما اثار قدراً غير ضئيل من القلق لدى
الام التي صارت تمد يديها نحو رجله العاريتين في كل قذفة
يتلقاها .

اما بافل بتروفيتش فقد عاد الى مكتبه الانيق ، الى الجدران
المزينة بورق جميل ذي لون غريب ، وبسجادة فارسية زاهية
علقت عليها اسلحة ، والاثاث الجوزي المنجذ بحريير اخضر غامق ،
والمكتبة المصنوعة من خشب البلوط الاسود القديم (على طراز
عصر النهضة) * . والتماثيل البرنز الصغيرة على طاولة الكتابة
الرائعة والمدفأة الحائطية . . . ارتقى على الاركة واشبك يديه
تحت راسه وظل جامداً ينظر الى السقف بما يشبه القنوط . ولا
احد يعلم ما اذا كان يريد ان يخفي حتى عن الجدران تلك المسحة
التي طغت على وجهه او ما اذا كان هناك سبب آخر جعله ينهض
فيسدل الستائر الثقيلة على النوافذ ، ثم يهوى على الاركة من
جديد .

٩

في نفس ذلك اليوم تعرف بازاروف على فينيتشكا . كان يتجول
مع اركادي في البستان ويبين له السبب الذي منع بعض الشجيرات
* في الاصل بالفرنسية Renaissance .

المزينة فيه ، وخصوصاً البلوط ، من ان تمد جنورها :
- ينبغي غرس المزيد من اشجار الحور القضي والشموح ، بل
والزيتون واضافة شئ من التربة الخصبة اليها . - ثم واصل
كلامه قائلاً : - لماذا نمت هذه التعريشة جيداً ؟ ذلك لان الاقاصيا
والشجيرات طيبة لا تحتاج الى رعاية . عجباً ، هناك اناس .
كانت في التعريشة فينيتشكا ودونياشا وميتيا . توقف
بازاروف ، وحتى اركادي راسه لفينيتشكا ، كما يحنيه لشخص
من معارفه القدامى . فسأله بازاروف حالما ابتعدا قليلاً :

- من هذه ؟ ما احلاما !
- عن تتكلم ؟
- ليس هناك غير واحدة حلوة .
- اوضح له اركادي باختصار وبشيء من الارتباك من هي
فينيتشكا . فقال بازاروف :
- اما ! لايبك ذوق جيد على ما يبدو . انه يعجبني ، والله !
يا له من مقدم ! ولكن ينبغي ان اتعرف عليها - اضاف بازاروف
واتبعه عائداً نحو التعريشة . فصاح به اركادي مذعوراً :
- يفتني ! احذر ، بالله عليك .
- لا تقلق . فنحن اناس محنكون ، عشنا في المدن .
اقرب بازاروف من فينيتشكا فرفع قبعته وبدأ كلامه بانحناء
مؤدبة :

- اسمحي لي بان اقدم نفسي : صديق اركادي نيكولايفيتش ،
وانا انسان وديع .
نهضت فينيتشكا من المقعد ونظرت اليه بصمت . فواصل
بازاروف كلامه :

- ما اروع هذا الطفل ! لا تقلقي فانا لم احسد احداً بعد .
لماذا احمرت وجنتاه الى هذا الحد ؟ هل بدأت اسنانه تنبت ام
ماذا ؟

- اجل ، يا سيدي . - اجابت فينيتشكا - ظهرت لديه اربع
اسنان . ولكن لنته تورمت من جديد .

- ناوليني اياه . . . لا تخش شيئاً ، فانا طبيب .
اخذ بازاروف الطفل الذي لم يبد اية مقاومة ولم يرتعب ، مما
اثار دهشة فينيتشكا ودونياشا .

- ها انا ذا ارى . . . لا بأس ، كل شيء على ما يرام :
سيكون حاد الاسنان . اذا حدث ما يسيء اخبريني . وانت هل تشكين
من شيء ؟
- كلا ، والحمد لله .

- الحمد افضل من اسواه . وانت ؟ - اضاف بازاروف ملتفتا
الى دونياشا .

اكتفت دونياشا ، وهي فتاة عبوس في الدار وضحوك لبها
عدها ، بان انفجرت ضاحكة رداً عليه .

- طيب . خذي طفلك العملاق .
اخذت فينيتشكا طفلها وقالت بصوت خافت :

- عجباً ، ما اهداء معكم .
- كل الاطفال هادئون معي ، قانا اعرف سرهم - اجاب

بازاروف ، فعلقت دونياشا :
- الاطفال يشعرون بمن يحبهم .

واكدت فينيتشكا ذلك قائلة :
- بالضبط . ميتيا لا يقبل ابدأ ان يأخذه شخص اخر .

- وانا ، هل سيقبلني ؟ - سال اركادي الذي وقف بعيدا
بعض الوقت ثم اقترب من التعريشة .

حاول اغراء ميتيا ليأتي اليه ، ولكن هذا ازاح راسه الى الوراء
وشرع بالبكاء ، مما جعل فينيتشكا ترتبك كثيراً . فقال اركادي
متساهلاً :

- في مرة اخرى ، عندما يتسع الوقت ليعود علي .
ابتعد الصديقان ، فسأل بازاروف :

- ما اسمها يا ترى ؟
- فينيتشكا . . . فيدوسيا - اجابه اركادي .

- واسم ابوها ؟ ينبغي معرفته ايضا .
- نيكولايفنا .

- (حسناً) . يعجبني فيها انها ليست خجولة جداً . يمكن
لشخص اخر ، في اغلب الظن ، ان يلومها على ذلك بالذات . ولكن
ما هذا الهراء ؟ ممّ الخجل ؟ انها ام وهي محقة .

* في الاصل باللاتينية Bene .

- هي محقة ، لا شك ، ولكن ابي . . . - قال اركادي .
- وهو محق ايضا - قاطعه بازاروف .

- كلا ، لا اعتقد .
- يبدو ان وريثاً آخر لا يعجبك ، اليس كذلك ؟

- عيب عليك ان تظن بي ذلك - قال اركادي
- عيب اعتبر والدي غير محق ليس من هذه الناحية ،

حاشا - انني اعتبر والدي غير محق ليس من هذه الناحية ،
بل اعتقد انه ينبغي عليه ان يتزوجها .

- بنح . بنح . - قال بازاروف بهدوء - ما اعظم ثبلنا !
انك لا تزال تعلق أهمية على الزواج . لم اكن اتوقع منك ذلك .

خطا الصديقان بضع خطوات صامتتين . ثم شرع بازاروف يتكلم
من جديد :

- رأيت كل شيء في مزرعة ابيك . الدواب عجاف والخيول
معلطة الخوافر والمباني في حالة يرثى لها ، والعاملون كسالى الى
القص حد . اما الوكيل فهو اما احمق واما محتال . لم اتأكد من
ذلك بعد بالشكل اللازم .

- ما اشد صراحتك اليوم ، يا يفغيني فاسيليفيتش !
- والفلاحون الطيبون يخدعون اباك من كل بد . انت تعرف

القول المأثور : «الفلاح الروسي يأكل حتى ربه» .
- اكاد اتفق مع عمي ، فلديك فكرة سيئة تماماً عن الروس .

- وما أهمية ذلك ! ليس في الروسي افضل من فكرته السيئة
عن نفسه . المهم ان اثنين في اثنين يساوي اربعة . وما عدا ذلك
فهو تفاهة .

- والطبيعة تفاهة ايضا ؟ - سال اركادي وهو ينظر متأملاً في
ابعاد الحقول الزاهية وقد انارتها على نحو جميل شفاف اشعة
الشمس المائلة الى المغيب .

- الطبيعة كذلك تفاهة بالمعنى الذي تفهمها به انت .
فالطبيعة ليست معبداً ، وانما هي ورشة ، والانسان عامل فيها .

نهادت اليهما من الدار في تلك اللحظة اصوات فيولونسيل
متباطئة . كان شخص ما يعزف «انتظار» شوبرت متحمساً بالرغم
من قلة مهارة يده ، وكانت الموسيقى العسلية تنساب في الهواء
كالشهد . فسأل بازاروف معجباً :

- من هذا يا ترى ؟

- ابي .
- ابوك يعزف على الفيولونسيل ؟
- اجل .
- وكم عمره ؟
- اربعة واربعون .
- قهقهه بازاروف فجأة .
- ما الذي يضحكك ؟
- كيف لا ! شخص في الرابعة والاربعين ، (رب عائلة) . في

الريف يعزف على الفيولونسيل !
ظل بازاروف يقهقه ، ولكن اركادي لم يبتسم هذه المرة بالرغم
من كل اعجابه بصديقه ومعلمه .

١٠

مضى اسبوعان تقريباً . سارت الحياة في مارينو على متوالها :
اركادي يتنعم وبازاروف يعمل . تعود الجميع في الدار على بازاروف
وعلى اسلوبه المستهين والفاظه المبتسرة المتقطعة . ورفعت الكلفة
بينه وبين فينييتشكا خصوصاً ، حتى انها امرت ذات ليلة بايقاظه
من النوم لان تشنجة انتاب ميتيا . حضر بازاروف وعالج الطفل
وقضى هناك زهاء ساعتين وهو على عادته تارة ينكت وتارة
يتناب . غير ان بافل بتروفيتش كره بازاروف بكل جوانحه . كان
يعتبره متعالياً سليطاً ودهماوياً وقحاً . وخيل اليه ان بازاروف
لا يحترمه ويكاد يحترقه هو بافل كيرسانوف ! وكان نيكولاي
بتروفيتش يخشى "النهلستي" بعض الشيء ويرتاب في جدوى تأثيره
على اركادي ، ولكنه يستمع الى احاديثه باهتمام ويحضر باهتمام
ايضاً تجاربه الفيزيائية والكيميائية . كان بازاروف قد اخبر
معه مكرسكوباً وصار يصرف الساعات الطوال معه . وتعلق الغد
به ايضاً ، بالرغم من انه كان يمزح معهم لا اكثر . فقد احسوا
بانه ، مع ذلك ، اخ لهم وليس سيئداً . كانت دونياشا تتضاحك

• في الاسل باللاتينية pater familias •



معه برغبة وتسلسل عليه نظرات منحرفة ذات معنى عندما تمر
به مسرعة «كالسمانة» . وحتى بيوتر ، ذلك الانسان المغالي في
التباهي والمفرط في الغباء ، بتجاعيده المتوترة دوماً على جبهته ،
والذي كان احسن ما فيه هو انه ذو نظرة تنطوي على الاحترام وانه
يقرا تهجيا ، وكثيرا ما ينظف بزته بالفرشاة ، صار يبتسم وتنفرج
اساريره حالما يلتفت اليه بازاروف . كان ابنا الخدم والخدم
يتراكون وراء «الدكتور» كالجاء . ولم يبغضه من الخدم غير
بروكوفيتش العجوز الذي يقدم له الطعام على المائدة عابسا ،
وينعته «بالجزار» و«الوغد» ، ويؤكد انه ، بفوديه الطويلين ،
خنزير حقيقي في دغل . وكان بروكوفيتش ، على طريقته الخاصة ،
ارستقراطياً ليس ادنى من بافل بتروفيتش .

حلت افضل ايام العام ، الايام الاولى من يونيو . كان الطقس
رائعاً . غير ان الكوليرا كانت تتهدد وتتوعد من بعيد ، ولكن سكان
هذا اللواء اعتادوا على زيارتها . كان بازاروف ينهض مبكرا جدا
ويتوجه الى مسافة كيلومترين او ثلاثة ليس لغرض التجوال - فلم
يكن يطيق الجولات دون هدف - بل لغرض جمع الاعشاب
والحشرات . وفي بعض الاحيان يصطحب اركادي ، فيدور بينهما ،
عادة ، في طريق العودة جدل اعتاد اركادي ان يكون الخاسر فيه
بالرغم من انه يتكلم اكثر من رفيقه .

ذات مرة تأخرا امدأ طويلاً . فخرج نيكولاي بتروفيتش
للقائهما في البستان . وعندما اقترب من التعريشة سمع فجأة
خطوات الشابين السريعة وصوتيهما . كانا يسيران في الجانب
الآخر من التعريشة وليس بوسعهما ان يرياه . قال اركادي :

- معرفتك بابي غير كافية .

فاختبا نيكولاي بتروفيتش . في حين اجاب بازاروف :

- ابوك رجل طيب . ولكنه انسان متقاعد حانت نهايته .

ارهدف نيكولاي بتروفيتش السمع . . . ولم يحر اركادي
جواباً .

صرف «الانسان المتقاعد» زهاء دقيقتين بلا حراك ثم عاد الى
الدار خلسة وببطء . بينما واصل بازاروف كلامه :

- رأيت اول امس وهو يقرأ اشعار بوشكين . قل له من
فضلك ان ذلك لا جدوى فيه . فهو ليس غلاماً : لقد حان الوقت

لترك هذه التفاهة . فمن الذي يرغب في ان يغدو رومانسياً في الآونة
الراهنة ؟ ! اعطه شيئاً ما جيداً للقراءة .
- ماذا اعطيه ؟
- اظن من الافضل ان تعطيه في البداية «المادة والقوة» .
ليوختر .
- رايت من رايتك . فان «المادة والقوة» * مكتوب بلغة
سلسلة - قال اركادي مؤيداً .
بعد ظهر ذلك اليوم حدث نيكولاي بتروفيتش اخاه وهو جالس
في مكتبه :
- هكذا صرت واياك في عداد المتقاعدين ، وقد حانت نهايتنا .
من يدري ؟ ربما بازاروف على حق . ولكن الشيء الوحيد الذي
يؤلمني ، واقلها صراحة ، هو اني كنت آمل بان اعيش مع اركادي
الآن بالذات بود ووثام ، ولكن اتضح اني بقيت متخلفاً ،
بينما تقدم هو الى الامام ، ولا يمكن ان يفهم بعضنا بعضاً .
فهتف بافل بتروفيتش بنقاد صبر :
- ما الذي جعله يتقدم الى الامام ؟ وبم يختلف اختلافاً كبيراً
عنا ؟ كل ذلك غرسه في ذهنه هذا السنيور النهلستي . انني اكره
هذا الطبيب التافه ، ويخيل الي انه دجال لا اكثر . انا واثق من
انه لم يتجز في الفيزياء شيئاً بجميع ضفادعه .
- كلا ، يا اخي ، لا تقل ذلك . بازاروف ذكي وعلامة .
- ثم ان غروره شيء مقبوت - قاطعه بافل بتروفيتش من
جديد . فوافقه اخوه :
- اجل ، انه مغرور . يبدو ان ذلك امر لا مفر منه . ولكن
الشيء الوحيد الذي لا افهمه هو اني ابذل قصارى جهدي ، على
ما اظن ، كيلا اتخلف عن العصر : دبرت امور الفلاحين وانشأت
مزرعة حتى صار الناس في اللواء كله ينتعشون بالاحمر ، وانما
اطالع واتعلم واحاول عموماً ان اكون على مستوى المتطلبات
العصرية ، ومع ذلك يقولان ان نهايتي قد حانت . بل اني بنفسني
اخذت افكر ، يا اخي ، ان نهايتي قد حانت بالفعل .
* في الاصل بالالمانية Stoff und Kraft ، كتاب العالم الفيلسوف
الالمانى فريدريك بوختر (١٨٢٤-١٨٩٩) - المترجم .
* في الاصل بالالمانية .

- لماذا ؟
- لانني عندما كنت اليوم اقرا بوشكين . . . وقعت في يدي
ملحمة «الفجر» ، على ما اتذكر . . . اقترب مني اركادي في الحال ،
وانزعج الكتاب بصمت وهدوء وبأسف حنون على وجهه كما لو
انتزع من طفل غرير ووضع امامي كتاباً آخر بالالمانية . . . ثم
ابتسم وذهب واخذ معه بوشكين .
- هكذا اذن ! واي كتاب اعطاك ؟
- ها هو .
اخرج نيكولاي بتروفيتش من الجيب الخلفي لبزته الطبعة
التاسعة من كراس بوختر بالذات .
قلبه بافل بتروفيتش بيديه ، فقال :
- احم ! اركادي مهتم بتربيتك . ماذا ، هل حاولت ان تقرأه ؟
- حاولت .
- وماذا ؟
- فاما اني غبي ، واما ان هذا كله هراء . الارجح اني غبي .
- ألم تنس الالمانية ؟
- لا ازال افهمها .
قلب بافل بتروفيتش الكتاب من جديد والقى على اخيه نظرة
عابسة . ولزم كلاهما الصمت . ثم قال نيكولاي بتروفيتش في
محاولة لتغيير مجرى الحديث على ما يبدو :
- بالمناسبة ، تسلمت رسالة من كوليازين .
- من ماتفي ايلييتش ؟
- نعم . وصل لتفتيش اللواء . واصبح من الكبار ، ويريد ،
كما كتب ، ان يرانا باعتبارنا اقرباء وقد دعانا مع اركادي الى
المدينة .
- هل ستذهب ؟ - سال بافل بتروفيتش .
- كلا ، وانت ؟
- لن اذهب انا ايضا . ليس هناك ما يستحق ان نقطع اكثر
من خمسين كيلومتراً . (ماتيو) * يريد ان يعرض علينا امجاده ،
* في الاصل بالفرنسية Mathieu ، يقصد ماتفي كوليازين -
المترجم .

فليذهب الى الشيطان ! يكفيه بخور اللواء وحده ، ولا داعي لنحرق نحن ايضا البخور امامه . ثم ما قيمة المستشار السري ؟ ! لو كنت واصلت هذه الخدمة الروتينية الغبية لغدوت الآن جنرالاً . زد على ذلك انني واياك متقاعدان .

- اجل ، يا اخي ، يبدو ان الوقت قد حان لاعداد النابون وتصليب اليدين على الصدر - قال نيكولاى بتروفيتش متنهدا . فعدم اخوه :

- كلا ، لن استسلم بهذه السرعة . امامنا بعد مناوشة مع هذا الطبيب الصعلوك ، انني اتوقع ذلك .

حدثت المناوشة في نفس ذلك اليوم اثناء احتساء شاي المساء . دخل بافل بتروفيتش غرفة الاستقبال مستعداً للمعركة . كان مستثاراً منفعلاً ، لا ينتظر غير توفر الحجة للانتقاض على العدو . ولكن الحجة لم تتوفر لامد طويل . بازاروف على العموم قليل الكلام بحضور «العجوزين كيرسانوف» (هكذا نعت الاخوين) . وفي ذلك المساء كان مزاجه متعكراً ، فاخذ يحتسي الشاي ، صامتاً ، فنجائاً اثر آخر . وظل بافل بتروفيتش على احر من الجمر حتى تحققت رغبته في آخر الامر .

تطرق الحديث الى احد الاقطاعيين المجاورين . فقال بازاروف بلا مبالاة ، وكان قد تقابل معه في بطرسنبورغ : - «ارستقراطي مزيف دني» . فبدأ بافل بتروفيتش كلامه وشفته تترعشان :

- اسمح لي ان اسالك ، هل تعني كلمتا «ارستقراطي» و«دني» ، بمفهومك ، شيئاً واحداً ؟

- قلت «ارستقراطي مزيف» - اجاب بازاروف وهو يرتشف بكسل جرعة من الشاي .

- بالضبط ، ولكنني اعتقد ان رايبك هو ذاته بخصوص الارستقراطيين الحقيقيين والارستقراطيين المزيفين على حد سواء . ارى من واجبي ان اعلن لك بانني لا اشاطرك هذا الرأي . واتجرا على القول ان الجميع يعرفونني انساناً لبرالياً محباً للتقدم ، ولذلك بالذات فانا احترم الارستقراطيين الحقيقيين . تذكر ، يا سيدي الجليل ، (رفع بازاروف بصره الى بافل بتروفيتش لدى سماعه هذه الكلمات ، فكرر هذا قوله بشدة) تذكر ، يا سيدي الجليل ، الارستقراطيين الانجليز . انهم لا يتنازلون عن ذرة من حقوقهم

ولذلك فهم يحترمون حقوق الآخرين ، انهم يطالبون بتنفيذ الواجبات ازامهم ولذلك ينفذون واجباتهم هم . الارستقراطية منحت بريطانيا الحرية وهي تحافظ عليها . فاعترض عليه بازاروف :

- سمعنا هذه الاغنية مرات عديدة . ولكن ما الذي تريد اثباته بهذا ؟

- اريد **بهيدا** ، يا سيدي الجليل ، (كان بافل بتروفيتش حينما يغضب يقول متعمداً «هيدا» ، «بهيدا» ، مع انه يعلم جيداً ان قواعد اللغة لا تسمح بذلك . وتجلت في هذه العادة الغريبة مخلفات تقاليد عهد الاسكندر (٦٤) . ففي الحالات النادرة التي كان كبار الشخصيات آنذاك يتكلمون فيها باللغة الام كان بعضهم يستخدم كلمة «هيدا» والبعض الاخر كلمة «هوذا» بدلاً من «هذا» ، ولسان حالهم يقول : نحن روس اقحاح ولكننا في الوقت ذاته وجهاء . يجوز لنا ان نستنهين بالقواعد المدرسية) اريد **بهيدا** ان اثبت انه بدون شعور الكرامة الشخصية ، وبدون احترام النفس - وهذه المشاعر متطورة لدى الارستقراطية - لا يمكن وجود اي اساس متين (لخير المجتمع) * . . . للكيان الاجتماعي . ان شخصية الفرد ، يا سيدي الجليل ، هي الامر الرئيسي . ويتعين على شخصية الانسان ان تكون متينة كالصخرة لان كل شيء يبني عليها . وانا اعلم جيداً بانك ، مثلاً ، ترى عاداتي ، وهندامي ، واناقتي في الاخير ، امراً مضحكاً ، ولكنني افعل ذلك كله بدافع من احترامي لنفسي ، وبدافع من شعوري بالواجب ، اجل ، يا سيدي ، بالواجب . انني اعيش في القرية ، في الريف ، ولكنني لا اتضع ، فانا احترم الانسان الكامن في دخيلتي .

فقال بازاروف :

- اسمح لي ، يا بافل بتروفيتش . انك تعترم نفسك وتجلس مكتوف اليدين ، فما نفع ذلك (لخير المجتمع ؟) * * بوسعك ان لا تعترم نفسك ، مثلاً ، فلا يتغير في الامر شيء . شحب لون بافل بتروفيتش :

* في الاصل بالفرنسية bien public .
* * في الاصل بالفرنسية .

- هذه مسألة اخرى تماماً . لست بحاجة لاوضح لك الآن لماذا اجلس مكتوف اليدين على حد تعبيرك . اكتفى بالقول ان النزعة الارستقراطية مبدا ، ولا يستطيع ان يعيش بدون مبادئ في عصرنا الا اللااخلاقيون او الفارغون . قلت ذلك لاركادي في اليوم التالي من وصوله واكرره لك الآن . اليس كذلك يا نيكولاي ؟
هز نيكولاي بتروفيتش رأسه بالاجاب ، في حين قال بازاروف :

- ارستقراطية ، لبرالية ، - ما اكثر الكلمات الاجنبية . . .
العديمة الجدوى ! الروسي ليس بحاجة الى هذه الكلمات مطلقا .

- فما الذي هو بحاجة اليه باعتقادك ؟ عندما نستمع اليك يخيل الينا اننا خارج البشرية وخارج قوانينها . معذرة ، ان منطق التاريخ يتطلب . . .

- ما نفع هذا المنطق ؟ - قال بازاروف - نحن في غنى عنه . كيف ؟

- بكل بساطة . انت ، على ما اعتقد ، لا تحتاج الى المنطق لكي تضع كسرة الخبز في فمك عندما تشعر بالجوع . فأين انت ، حينئذ ، من تلك التجريدات ؟

لوح بافل بتروفيتش بيده يائسا :
- انني لا افهمك بعد هذا كله . انت تهين الشعب الروسي . لا افهم كيف يمكن عدم الاعتراف بالمبادئ والاصول ! فباية قوة تعملون ؟

- قلت لك ، يا عمي ، اننا لا نعترف بالشخصيات - تدخل اركادي في الحديث . فقال بازاروف :

- نحن نعمل مدفوعين بتأثير ما نعتبره نافعا . وفي الحال الحاضر يعتبر الرفض انفع شيء . لذا فنحن نرفض . كل شيء ؟

- كل شيء .
- كيف ؟ ليس الفن والشعر فقط . . . بل وحتى ال . . . لا اتجرا على ذكره . . . يا للفظاعة . . . (٦٥)

- كل شيء - كرر بازاروف بمنتهى الهدوء .
حذق فيه بافل بتروفيتش . فلم يكن يتوقع ذلك ، بينما احتقن

وجه اركادي من شعوره بالارتياح . فشرع نيكولاي بتروفيتش يتكلم :

- معذرة ، انكم ترفضون كل شيء ، او على الاصح تهدمون كل شيء . . . ولكن يجب البناء ايضا .

- ليس ذلك من واجبتنا . ينبغي تطهير المكان اولا .
واضاف اركادي بلهجة ذات شأن :

- حالة الشعب الراحنة تتطلب ذلك . وعلينا ان ننفذ هذه المطالب ، فليس لنا حق في الانهماك بارضاء الانانية الفردية .

يبدو ان هذه العبارة الاخيرة لم تعجب بازاروف ، فقد كانت تفوح منها رائحة الفلسفة ، اي الرومانسية ، ذلك لان بازاروف

نعت الفلسفة ايضا بالرومانسية ، ولكنه لم ير ضرورة لدحض رأي تلميذه الفتى . بيد ان بافل بتروفيتش هتف بحماس مفاجئ :

- كلا ، ثم كلا ! لا اصدق بانكما ، ايها السيدان ، تعرفان الشعب الروسي حق المعرفة ، وتمثلان متطلباته ومطامحه ! كلا ،

فالشعب الروسي ليس بالشكل الذي تتصورانه . انه يحترم قدسية التقاليد ، ويمجد الآباء ، ولا يمكن ان يعيش بدون ايمان . . .

فقاطعه بازاروف :
- لن اجادل في ذلك ، بل اني مستعد للموافقة على انك

محق فيه .
- واذا كنت محقا . . .

- ومع ذلك فهذا لا يدل على شيء .
- بالفعل ، لا يدل على شيء - كرر اركادي هذا القول بثقة

لاعب الشطرنج الماهر الذي توقع نقلة الخصم الخطرة ، على ما يبدو ، ولكنه لم يرتبك قيد شعرة . بيد ان بافل بتروفيتش

دعهم مبهوتا :
- كيف لا يدل على شيء ؟ افلا يعني ذلك انكما ضد شعبيكما ؟

- فليكن . - هتف بازاروف - عندما يهدر الرعد يتصور الشعب ان الرسول ايليا يتجول على عربته في السماء . فماذا ؟ هل

علي ان اواقفه ؟ ثم انه روسي ، وانا ؟ ألسنت روسيا ؟
- كلا ، لست روسيا بعد كل ما قلته الآن ! لا استطيع ان

اعتبرك روسيا .

فرد بازاروف بتفاخر وكبرياء :

- كان جدي يحرق الارض . اسأل اي فلاح من فلاحكم هل يعتبرك انت ام يعتبرني انا قريبا له ؟ بل انك لا تجيد حتى الكلام مع الفلاح .

- اما انت فتتكلم معه وتحترقه في الوقت ذاته .

- لا ضير في ذلك اذا كان يستحق الاحتقار ! انت تلومني على اتجاهي هذا ، فمن قال لك انه ظهر لدي بالصدفة ، وان مبعث ليس هو نفس تلك الروح الشعبية التي تدافع عنها ؟

- طبعاً ! طبعاً ! ما احوج الشعب الى النهلستيين !

- لا يحق لك ان تحكم هل هناك حاجة الى النهلستيين ام لا .

ثم انك تعتبر نفسك ايضا شخصاً نافعاً .

- يا سادة ، ارجوكم ، يا سادة ، لا تتعرضوا

للاشخاص ! - هتف نيكولاي بتروفيتش وهم بالنهوض . الا ان بافل بتروفيتش ابتسم واضعاً يده على كتف اخيه ، فحمله على الجلوس من جديد . وقال له :

- لا تقلق . فانا لن انحدر الى ذلك بحكم الشعور بالكرامة

التي يسخر منها ، بقساوة ، السيد . . . السيد الطبيب . معذرة -

واصل كلامه مخاطباً بازاروف من جديد - ربما تظن ان مذهبك

هذا جديد ، اليس كذلك ؟ عبيثاً تتصوره على هذا النحو . فالمادية

التي تبشر بها كانت على الالسنه اكثر من مرة ، ولكن بطلانها كان

يتضح على الدوام . . .

- وها هي كلمة اجنبية * اخرى ! - قاطعه بازاروف وبدا

عليه الغضب فاكتسى وجهه بلون نحاسي خشن - نحن لا نبشر

بشيء ، ذلك ليس من عاداتنا .

- فما الذي تفعلونه ؟

- اليكم ما نفعله : في السابق ، في الماضي غير البعيد ، كنا

نقول ان موظفينا يستلمون الرشاوى ، وانه ليست لدينا لا طرق

ولا تجارة ولا قضاء عادل . . .

- اجل ، اجل ، انكم نقاد متشددون ، هكذا يسمى ذلك على

ما اظن . انا موافق على الكثير من انتقاداتكم ، ولكن . . .

* يقصد مصطلح «المادية» الذي هو بالروسية ايضا لاتبني الاصل

(materialism) - المترجم .

- ثم ادركنا ان الثروة ، الثروة وحدها عن عللنا من اسهل الامور ، وان ذلك يؤدي الى الابتذال والتحلل فقط . وراينا كذلك ان النابهين من بيننا ، اولئك الذين ينعتون بالتقدميين والنقاد المتشددين ، لا يصلحون لشيء ، واننا غارقون في السخافات ، واننا نتشدد في الكلام عن الفن والابداع العفوي ، والنزعة البرلمانية والمحاماة وغير ذلك مما لا يعرفه الا الشيطان وحده ، في حين ان المطلوب هو الخبز الكفاف . الخرافات المرهقة تخنقنا ، وشركاتنا المساهمة تفلس وتنهار لسبب واحد هو قلة الناس النزيهين ، والحرية التي تجهد الحكومة في تأمينها لا تكاد تعود علينا بنفع لان فلاحنا مستعد لان يسرق نفسه بنفسه لا لشيء الا ليتجرع المسكرات في الحانة .

فقاطعه بافل بتروفيتش :

- لذا اقتنعتم بهذا كله وقررتم ان لا تباشروا بأي عمل

جدي .

- قررنا ان لا نباشر بأي عمل - كرر بازاروف متجهماً .

لقد حزن لنفسه فجأة ، فما الداعي للمصراحة امام هذا

الاقطاعي . . .

- ما عدا الشتم والسباب ، اليس كذلك ؟

- ما عدا الشتم والسباب . . .

- وهذا يسمى نهلستية ؟

- وهذا يسمى نهلستية - كرر بازاروف بتسلط شديد هذه

المره .

انغمض بافل بتروفيتش جفنيه بعض الشيء وقال بصوت بدا

غريباً لهدونه :

- هكذا اذن ، يعني ان النهلستية دواء لكل داء . وانكم

مخلصونا وابطلاننا . ولكن ماذا فعل الآخرون ، النقاد الآخرون

مثلاً ، ليستحقوا ملامتكم ؟ افلا تثرثرون انتم ايضا كالأخرين ؟

فتعتم بازاروف :

- ربما لدينا خطايا اخرى ، ولكن ليست هذه الخطيئة منها .

- فماذا اذن ؟ هل تفعلون شيئاً يا قري ؟ او هل تنوون فعل

شيء ؟

لم يجبه بازاروف . فارتعش بافل بتروفيتش منفعل ، ولكنه

سيطر على نفسه في الحال ثم تابع كلامه :
- احم ! انهم يفعلون ، يهدمون . . . ولكن كيف يجوز الهدم دون معرفة الغرض منه ؟

- اننا نهدم ، لاننا قوة - قال اركادي .
فالقى بافل بتروفيتش نظرة على ابن اخيه وابتمسم ساخرا .
فكر اركادي وهو يعدل من قامته :
- اجل نحن قوة لا تطايط رأسها لاحد .

- مسكين ! - جار بافل بتروفيتش ، فلم يعد يطبق المزيد ايداً - هلا فكرت ما فائدة مواظك التافهة هذه في روسيا ! كلام حتى الملاك يمكن ان يضيق ذرعاً بذلك ! قوة ! القوة موجودة لدى القلموقي * المتوحش ولدى المغولي ايضا ، فما حاجتنا اليها ؟ اننا نعتز بالحضارة ، اجل ، اجل يا سيدي الجليل ، نعتز بشمارها . فلا تقل لي ان هذه الثمار ضئيلة : ان (اردا رسام) * واسوا عازف من الذين يتسلمون خمسة كوبيكات لقاء الحفلة الواحدة انما هما اكثر نفعا منكم ، لانهما يمثلان الحضارة ، ولا يمثلان القوة المغولية الفظة ! تتصورون انفسكم اناسا تقديمين ، بينما لا يعوزكم غير الجلوس في خيمة القلموق ! قوة ! تذكروا اخيراً ، ايها السادة الاقوياء ، ان عددكم لا يزيد على اصابع اليد ، بينما يشكل اولئك ملايين من الذين سيسحقونكم ولن يسمحوا لكم ان تدوسوا باقدامكم اقدس اقداسهم !

فقال بازاروف : - اذا كانوا سيسحقوننا فليكن . ولكن تلك مسألة فيها نظر . ثم ان عددنا ليس بالقليل ، كما تتصور .
- كيف ؟ هل تفكرون بلا مزاح ان تغلبوا على شعب بكامله ؟
- انت تعرف ان موسكو احترقت من شمعة بخسة - اجاب بازاروف .

- هكذا اذن . من الكبرياء التي تكاد تشبه كبرياء الشيطان الى التهكم . ذلك ما يولع به الشباب ، وذلك ما تنصاع له افئدة الغلمان غير المحنكة ! انظر ، ها هو احدهم يجلس قريباً ، انه يكاد يصلي لك ، فمتع انظارك (اشاح اركادي بوجهه الذي تجهم) .

* القلموق قبائل رعوية من اصل مغولي . يعيش الشعب القلموقي حالياً في جمهورية كلميكيا السوفييتية ذات الحكم الذاتي - المترجم .
* في الاصل بالفرنسية un barbouilleur .

ثم ان هذه العدوى قد انتشرت بعيداً . قيل لي ان رسامينا في روما لا يترددون على الفاتيكان مطلقاً (٦٦) . ويكادون يعتبرون روفائيل احمق ، ويعلمون ذلك بكونه شخصية بارزة ، بينما هم عاجزون عقيمون حتى القرف ولا يقودهم خيالهم الى ابعد من «الفتاة عند النافورة» مهما بذلوا من جهد ! ثم ان الفتاة تلك مرسومة باقبح شكل . انهم رائعون برأيك ، اليس كذلك ؟
فاعترض بازاروف قائلاً :

- برأيي ان روفائيل لا يساوي شروى تقير ، وانهم ليسوا افضل منه .

- مرحى ! مرحى ! اسمع يا اركادي . . . على هذا النحو ينبغي للشباب العصريين ان يتكلموا ! فكيف لا يقتدون بكم ، يا ترى ؟ في السابق كان الشباب مضطرين الى التعلم ، فلم يكونوا راغبين في ان يذيع صيتهم كجبهة ، ولذا كانوا ، طبعاً ، يجدون ويجهدون . اما الآن فيكفيهم ان يقولوا ان كل شيء في العالم نافه ، وانتهى الامر ! لقد سر الشباب وفرحوا . وبالفعل ، في السابق كانوا بلهاء لا غير ، اما الآن فقد اصبحوا ، على حين غرة ، نهلستيين .

- ها قد خارك شعور الكرامة الشخصية المحمود - قال بازاروف ببرود ، في حين اشتاط اركادي غضباً وبرقت عيناه - لقد تعادينا في الجدال الى حد بعيد . . . ويخيل اليّ ان من الافضل وقفه . - ثم اضاف ناهضاً - ساكون على استعداد للاتفاق معك حينما تقدم لي ولو مثالا واحداً في حياتنا الراحنة ، العائلية او الاجتماعية ، لا يستحق الرفض بلا رحمة .

فنهت بافل بتروفيتش :
- ساقدم لك الملايين من هذه الامثلة ، الملايين ! لناخذ على أقل تقدير ، المشاعة ،

التوت شفتا بازاروف عن ابتسامة ساخرة باردة :
- بخصوص المشاعة ، الافضل ان تتكلم مع اخيك ، فقد جرب عملياً ، على ما يبدو ، ما هي المشاعة وما هو التكافل وما هو الامتناع عن تعاطي المسكرات وهلمجراً .

- والعائلة ، العائلة ، اخيراً ، بالشكل الذي هي عليه لدى فلاحينا ! - صاح بافل بتروفيتش .

- وهذه المسألة ايضا الافضل لك ، على ما اعتقد ، ان لا تتناولها بالتفصيل . أفلم تسمع بالذين يجامعون كنانهم ؟ غدا بنصيحتي ، يا بافل بتروفيتش ، امهل نفسك يومين ، حاليسا من المستبعد ان تجد ولو مثالا واحدا . تفحص كل فئات مجتمعنا وفكر جيدا في كل واحدة منها ، اما انا واركادي فسوف . . .
- . . . نسخر من كل شيء - قاطعه بافل بتروفيتش .
- كلا ، سنشرح الضفادع . فلنذهب يا اركادي ، الى اللقا.

ايها السادة !

خرج الصديقان وظل الاخوان وحيدين ، فتطلعا الى بعضهما البعض اولاً ، ثم قال بافل بتروفيتش :

- هؤلاء هم شباب اليوم ! هؤلاء ورثتنا !

- ورثتنا - كرر نيكولاي بتروفيتش بحسرة وكآبة . ظل طوال الجدال ، على احر من الجمر ، وكان يلقي على اركادي خلسة نظرات معضة - هل تدري ماذا تذكرت ، يا اخي ؟ ذات مرة اختلفت مع المرحومة امنا ، فكانت تصيح ولا تريد ان تستمع الي . . . وقلت لها في آخر الامر انها لا تستطيع ان تفهمني واننا ننتمي الى جيلين مختلفين . لقد اغاظها هذا القول اشد الغيظ . ففكرت انا : ما العمل ؟ الحبة مرة ولكن يجب ابتلاعها . وها هو دورنا قد حان . فيمكن لورثتنا ان يقولوا لنا : لستم من جيلنا فابتلعوا الحبة المرة .

- انك طيب القلب ومتواضع اكثر من اللازم - اعترض عليه بافل بتروفيتش - فانا ، على العكس ، واثق من انني واياك محقان اكثر بكثير من هذين السيدين الصغيرين ، بالرغم من اننا ربما نتكلم بلغة عتيقة بعض الشيء ولا نمتلك مثل تلك الغطرسة الجسورة . . . ما اشد كبرياء الشباب الراهن ! فان سألت احدهم : اي نبيذ تريد ، حلوا ام مزأ ؟ يجيب بصوت جهير وبمسحة من الخيلاء على وجهه وكانما الكون كله يتطلع اليه في تلك اللحظة : «اعتدت على تفضيل النبيذ الحلو !» . . .

- هل تريدون المزيد من الشاي ؟ - سألت فينيتشكا وقد دست راسها في شق الباب ، اذ لم تكن تجرا على دخول غرفة الاستقبال طالما تتعالى فيها اصوات المتجادلين .

- كلا ، يمكنك ان تأمري بنقل السماور - اجاب نيكولاي

بتروفيتش ونهض للقائها . فقال له بافل بتروفيتش على نحو متقطع : (عم مساء) * ، وذهب الى مكتبه .

بعد نصف ساعة توجه نيكولاي بتروفيتش الى تعريشته المحببة في البستان . واستولت عليه افكار حزينة . فقد تحسس بوضوح لأول مرة انفصال ابنه عنه . وتوقع ان الهوة بينهما ستتسع من يوم لآخر . فلا جدوى من قضائه اياما كاملة في شتاءات بطرسبورغ وهو يطالع احدث المؤلفات ، ومن العبث انه كان ينصت الى احاديث الشبان ويفرح عندما يتسنى له ان يدس كلمة في حوارهم الفوار . وفكر في نفسه : «اخي يقول اننا محقان ، واذا تخلينا عن اي اثر للغرور ، فانا شخصيا ارى انهما ابعد عن الحقيقة منا ، ولكنني في الوقت ذاته اشعر بان لديهما ما ليس لدينا ، وبانهما متفوقان علينا بشيء ما . . . الفتوة ؟ كلا : ليس الفتوة وحدها . افلا يكمن تفوقهما في ان آثار الاقطاعية عندهما اقل مما عندنا ؟»

طاطا نيكولاي بتروفيتش راسه ومسح وجهه بيده ، وفكر من جديد :

«ولكن كيف يمكن رفض الشعور ؟ وعدم الاحساس بالفن والطبيعة ؟ . . .»

تطلع الى ما حواليه وكانما يريد ان يفهم كيف يمكن عدم الاحساس بالطبيعة . حل المساء ، واختفت الشمس وراء حرج الحور المنبسط على بعد نصف كيلومتر من البستان : كانت ظلاله تمتد بلا نهاية عبر الحقول الساكنة . ومز فلاح على ظهر فرس بيضاء تسير خبيبا في الدرب الضيق المعتم على طول الحرج . كان مرثيا كله بوضوح ، كله حتى الرقعة على كتفه بالرغم من الظلال التي تلفعه . وكانت قوائم الفرس قد لاحت بوضوح يبعث على الانشراح . كانت اشعة الشمس بدورها تخترق الحرج وتنساب عبر الاجمة فتغمر جذوع

* في الاصل بالفرنسية bon soir .

الحور بضوء دافئ جعلها شبيهة بجذوع الصنوبر وجعل لون أوراقها
 نيليا فاتحا . وتشبه فوقها سماء زرقاء باهتة خضبها الشفق
 بلمسات خفيفة . كانت سننوات تحلق عاليا ، وقد هدا النسيم
 كليا ، واخذت نحللات متخلفة تنثر بكسل وخمول بين ازهار الليلا .
 وكان البرغش يتزاحم كعمود من الدخان على غصن منعزل اشراق
 بعيدا . «ما اروع ذلك ، يا الهي !» - فكر نيكولاي بتروفيتش وكاد
 ينشد اشعاره المحببة ، ولكنه تذكر اركادي وكراس «المادة
 والقوة» * فلزم الصمت وظل جالسا تتلاعب به الافكار اليتيمة على
 نحو محزن ومفرح معا . كان يحب الاحلام ، فقد طورت الحياة الريفية
 فيه القدرة على التمتع بالاحلام . فهل مر زمن طويل عليه عندما كان
 يحلم على هذا النحو وهو ينتظر عودة ابنه في الخان ؟ بيد ان تغيرا
 جرى منذ ذاك ، وتحددت العلاقات التي لم تكن واضحة آنذاك . . .
 ولكن على اي نحو ؟ ! لاحت امامه من جديد صورة المرحومة
 زوجته ، ليس بالشكل الذي عرفها فيه طوال سنين عديدة ، ربة
 بيت شاطرة طيبة ، بل فتاة يافعة ذات قوام نحيف ونظرة متفحصة
 عذراء وجديلة مفتولة بشدة فوق عنق طفولي . تذكر كيف رآها
 للمرة الاولى . كان ، وقتها ، لا يزال طالبا . صادفها على سلم
 المنزل الذي يقيم فيه . اصطدم بها صدفة ، فالتفت ليعتذر منها
 ولكنه لم يستطع الا ان يمدم بالفرنسية : (معذرة يا سيدي) *
 في حين طاطات هي راسها وابتسمت ابتسامة ساخرة ثم ركضت
 فجأة كما لو كانت خائفة . وفي منعطف السلم القت عليه نظرة
 خاطفة واكتسى محياها بمظهر الجذ واصطبغ بالاحمرار . وفيما بعد
 بدأت اولى الزيارات الخجولة وانصاف الكلمات والابتسامات
 المبتورة والحيرة والكآبة والانفعالات ، واخيرا تلك الفرحة
 اللائحة . . . اين تلاشى ذلك كله ؟ تزوج منها وكان سعيدا مثل
 القليلين في المعمورة . . . وفكر : «لم لا تعيش تلك اللحظات
 الحلوة الاولى عيشة ابدية لا تموت ؟»
 لم يحاول ان يوضح لنفسه فكرته هذه ، ولكنه احس بان
 راغب في ان يمسك بزمن المسرات ذاك بشيء ما اقوى من الذاكرة .

* في الاصل بالالمانية . stoff und Kraft
 * في الاصل بالفرنسية . Pardon, monsieur

وكان يريد ان يلمس من جديد قوام زوجته ماري ويتحسس دفاها
 وانفاسها ، وخيل اليه وكأنها قد اطلت عليه . . .
 - يا نيكولاي بتروفيتش ، اين انتم ؟ - صدح على مقربة
 منه صوت فينيتشكا .

فانتفض . ولم يشعر لا بالالم ولا بالخجل . . . لم يكن ليتقبل
 حتى فكرة المقارنة بين زوجته وفينيتشكا ، ولكنه اسف لانها عزمت
 على البحث عنه . فقد ذكره صوتها حالا بشعره الاشيب وشيخوخته
 وحاضره . . .

العالم السحري الذي كاد يلججه وكاد يظهر من امواج الماضي
 الضبابية اهتز فتهدد .

- انا هنا . ساحضر ، اذهبي - اجابها ، وتبادرت الى ذهنه
 فكرة بخصوص لهجة الجواب : «تلك هي آثار الاقطاعية» . نظرت
 فينيتشكا اليه في التعريشة صامتة ثم اختفت ، في حين لاحظ هو
 منعشها ان الليل قد حل منذ ان غرق في احلامه . كان كل شيء
 حاليه قد اظلم وسكن ، ولاح محيا فينيتشكا امامه شاحباً
 ضئيلاً . نهض ليعود الى الدار ، ولكن فزاده المترجرج ما كان
 ليهدأ بين جوانحه ، فاخذ يتمشى على مهل في البستان ، وهو يتأمل
 في الارض تارة ، وتارة يرفع بصره الى السماء المرصعة بنجوم راحت
 تومض لبعضها البعض . تمشى طويلا حتى كاد يكل ، في حين لم يخفت
 في دخيلته ذلك القلق الحزين التواق الغامض . ما كان اشد ضحك
 بازاروف عليه لو علم بما اعتمل في فزاده آنذاك ! وحتى اركادي
 ربما ادانه على ذلك ! لقد انهمرت الدموع ، دموع بلا سبب ، من
 عينيه هو المهندس الزراعي والسيد الذي بلغ الرابعة والاربعين .
 ان ذلك افدح بمائة مرة من الفيولونسيل .

واصل نيكولاي بتروفيتش سيره ولم يستطع ان يشد العزم
 ثل دخول الدار ، ذلك العش المريح الوداع الذي يتطلع اليه
 بترحاب من جميع نوافذه المضائة . كان عاجزا عن مفارقة الظلمة
 والبستان والاحساس بالنسيم العليل يداعب وجهه ، وذلك الحزن
 والقلق . . .

في منتصف الدرب لاقى بافل بتروفيتش الذي ساله :
 - ماذا بك ؟ انك شاحب كالشبح ، انت متوعك ، فلم لا
 ترقد ؟

يدير المدينة التي توجه اليها صاحبانا متصرف من الشباب ، تقدمي ومتعسف في الوقت نفسه ، كما يصادف كثيراً في روسيا . فقد استطاع اثناء العام الاول من حكمه ان يتشاجر ليس فقط مع زعيم نبلاء اللواء ، يوزباشي الفرسان المتقاعد المضياف وصاحب حقل تربية الجياد ، بل ومع موظفيه هو . واتسع نطاق النزاعات التي نشبت بهذا الخصوص حتى ان الوزارة في بطرسبورغ رأت في آخر الامر ان ترسل شخصاً مخولاً كلفته بالنظر في القضية هناك . ووقع اختيار المسؤولين على ماتفي ايليتش كوليازين ، وهو ابن كوليازين الذي رعسى الاخوين كيرسانوف في غابر الزمان . وكان هو ايضاً من «الشباب» ، اي انه بلغ الاربعين مؤخراً ، لكنه اصبح من رجال الدولة او يكاد ، وكانت على صدره نجمتان . الا ان احدى النجمتين اجنبية وليست من عداد الاوسمة السامية . كان يعتبر من دعاة التقدم شأنه شأن المتصرف الذي وصل للبت في امره ، ولم يكن يشبه السواد الاعظم من الموظفين الكبار بعد ان اصبح واحدا منهم . كان مغروراً اشد الغرور ، وكان زهوه بلا حدود ، بيد انه كان متساهلاً متسامحاً بسيط العادات ، ذا نظرة تنم عن الرضا . وهو يضعك من كل قلبه حتى كاد يشتهر في بادى الامر بانه «شخص طيب جداً» . ولكنه يجيد في الحالات الهامة ذر الرماد في العيون ، كما يقال . وعندئذ كان يقول : «الحيوية ضرورية . (الحيوية هي الخاصية الاولى لرجل الدولة)» . وفيما عدا ذلك يظل مخدوعاً عادة ، فيمتطيه اي موظف لديه شيء من الخبرة . كان ماتفي ايليتش يكن اعمق الاحترام لغيزو (٦٧) . ويحاول اقناع الجميع بانه لا ينتمي الى الروتينيين والبيروقراطيين المتخلفين ، وانه لا يدع اي مظهر هام للحياة الاجتماعية دون ان يلتفت اليه . . . كان مطلعاً خبير اطلع على امثال هذه الكلمات . حتى انه كان يتابع ، ولو بتعال واستهانة ، تطور الادب الحديث ، كما يفعل الرجل عندما

* في الاصل بالفرنسية L'énergie est la première qualité d'un homme d'état.

اوضح له نيكولاي بتروفيتش بايجاز حالته النفسية وانصرف . بلغ بافل بتروفيتش آخر البستان ، واخذ يتأمل . ثم رفع بصره هو ايضاً الى السماء . لكن عينيه السوداوين الرائعتين لم تعكسا شيئاً غير ضوء النجوم . فهو لم يولد رومانسياً ، ولم تكن روحه الجافة المتلهفة باناقة والنفورة من البشر على النمط الفرنسي لتجيد الانصياع الى الاحلام . . .

- هل تعلم ، يا ارКАДي ؟ تبادرت الى ذهني فكرة رائعة - قال بازاروف في تلك الليلة - ذكر ابوك اليوم انه تسلم دعوة من قريبك الوجيه . وانه لا ينوي السفر اليه ، فهلا سافرنا واياك الى مدينة (***) ، فذاك السيد يدعوك انت ايضاً . الا ترى كيف تحول الطقس هنا ؟ فلنرحل ولنر المدينة . سنصرف خمسة ايام او ستة وكفى !

- وهل ستعود الينا بعد ذلك ؟

- كلا . اريد ان اسافر الى والدي . فهو يقيم ، كما تعلم ، على مسافة ثلاثين كيلومتراً من تلك المدينة . لم اره من زمان . وكذلك امي . ينبغي ان ازيل هم العجوزين . فهما طيبان وخصوصاً والدي المرح للغاية . وانا وحيدهما .

- وهل ستبقى عندهما طويلاً ؟

- لا اعتقد . ربما سيكون ذلك مملاً .

- وهل ستتم بنا في طريق العودة ؟

- لا ادري . . . سافكر في ذلك . اتفقنا ؟ هل سنسافر ؟

- اجل - قال ارКАДي متكاسلاً .

كان قد سر في دخيلته كل السرور لاقتراح صديقه ، ولكنه رأى ان من واجبه اخفاء مشاعره . فما جدوى كونه نهليستياً اذن ؟ !

في اليوم التالي سافر مع بازاروف الى مدينة (***) . اسفد الشباب في مارينو لسفرهما . حتى ان دونياشا اسقطت دمعاً . الا ان «العجوزين» تنفسا الصعداء .

ينضم أحيانا الى موكب الصبيان الذي يصادفه في الطريق . لم يكن ماتفي ايليتش ، في الواقع ، يختلف كثيرا عن رجال الدولة في عصر الاسكندر (٦٨) ، اولئك الذين يطالعون في الصباح صفة من كونديليكا (٦٩) استعداداً لحضور امسية عند السيدة سفيتشينا (٧٠) التي كانت تقطن بطرسبورغ آنذاك ، سوى ان اساليبه هي اساليب اخرى اكثر حداثة . كان من افراد الحاشية اللبقة وكان محتالاً جداً ولا شيء اكثر من ذلك . فلم يكن يعرف شيئاً في شؤون الخدمة ولم يكن يمتلك حصافة ، لكنه يجيد تدبير امور الشخصية ولا يستطيع احد ان يجاريه في ذلك ، وهذا هو الامر الرئيسي .

استقبل ماتفي ايليتش اركادي بطيبة القلب الملازمة للموظف الكبير المستنير ، بل وبشيء من المداعبة . لكنه استغرب عندما علم ان قريبيه اللذين دعاهما ظلاً في القرية . فقال : «ايوك غريب الاطوار دوما» . واخذ ينش بشراريب ردائيه المنزلي المخملي الرائع ، ثم توجه الى موظف شاب في بزة مهندمة على افضل ما يكون وهتف به فجأة وبمسحة من الاهتمام : «ماذا ؟» . اعتدل الشاب الذي التصقت شفتاه ببعضهما من طول السكوت ونظر الى رئيسه متحيراً . الا ان ماتفي ايليتش صرف نظره عن مرؤوسه بعد ان حيره . ان موظفينا الكبار يحبون على العموم تحبير مرؤوسيههم ، ثم ان الاساليب التي يلتجئون اليها لبلوغ هذا الهدف متنوعة للغاية . وبالمناسبة فان الاسلوب التالي يحظى بانتشار واسع ، اذ هو ، كما يقول الانجليز ، الاسلوب (المفضل) * : يكف الموظف الكبير فجأة عن فهم ابسط الكلمات فيتظاهر بالصمم . ويسأل ، مثلاً ، اي يوم في الاسبوع الآن ؟ فيجيب باكمل قدر من الاحترام : «اليوم هو الجمعة يا صاحب المعالي» .

- آ ؟ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ - يكرر الموظف امثله على نحو متوتر .

- اليوم هو الجمعة ، يا صاحب المعالي .
- كيف ؟ ماذا ؟ ما هي الجمعة ؟ اية جمعة ؟

* في الاصل بالانجليزية « is quite a favourite » .

- الجمعة ، يا صاحب المعالي ، يوم من ايام الاسبوع .
- ماذا ؟ هل تتجرا على تعليمي ؟
كان ماتفي ايليتش ، مع ذلك ، موظفاً كبيراً ، بالرغم من انه يعتبر ليبرالياً متحرراً . قال لاركادي :
- انصحك ، يا صديقي ، ان تقوم بزيارة الى المتصرف . انت تعرف اني انصحك بذلك ليس لانني متمسك بالمفاهيم القديمة حول ضرورة التشريعات لدى السلطات ، بل لمجرد ان المتصرف انسان مستقيم ، زد على ذلك انك ربما ترغب في التعرف على المجتمع هنا . . . فلست دبا على ما اعتقد ؟ اما هو فسوف يقيم حفلة ساهرة كبرى بعد غد .
فسال اركادي :

- هل ستحضر الحفلة انت ؟
- انه يقيمها من اجلي - قال ماتفي ايليتش بما يكاد يشبه الاسف . - هل تجيد الرقص ؟
- على نحو سيئ* .
- شيء مؤسف . فهنا توجد فائتات ، ثم ان من العيب على الشاب ان لا يجيد الرقص . اقول ذلك ايضا ليس بحكم المفاهيم القديمة ، فانا لا اعتقد ابداً بان العقل ينبغي ان يكون في الرجلين ، بيد ان البايرونية المقلدة مضحكة ، (لقد ولي زمانها) * .
- ليس ذلك ، يا عمي العزيز ، بسبب البايرونية . . .
- ساعرفك على سيدات المدينة ، واحميك تحت جناحي ، حيث ستجد الدفء ، ليس كذلك ؟ - قاطعه ماتفي ايليتش وقهقهه بخيلاً .

دخل الخادم واعلن عن وصول مدير الخزينة ، وهو شيخ ذو عينين عسليتين وشفتين متجعدتين ، يهوى الطبيعة الى اقصى حد ، وخصوصاً في ايام الصيف حيث «تأخذ كل نخيلة رشفة من كل زهرة» على حد تعبيره . . .

عاد اركادي ، فوجد بازاروف في الخان الذي نزلاه . صرف وقتاً طويلاً في اقناعه بزيارة المتصرف ، حتى قال بازاروف اخيراً : «ما

* في الاصل بالفرنسية « il a fait son temps » .

في الامر حيلة ! ولا مجال للتراجع عما اقدمنا عليه ! طالما وصلنا لمشاهدة الاقطاعيين فلنشاهدهم !» . استقبل المتصرف الشابين بترحاب ولكنه لم يشر عليهما بالجلوس ولم يجلس هو الآخر . كان على الدوام في عجلة من امره . ففي الصباح يرتدي بدلتته الرسمية وربطة عنق مشدودة على نحو خائق ، ولا يكمل طعامه وشرابه ، بل يصدر اوامره طوال الوقت . وكان سكان اللوا يلتمحون عادة الى شخصيته الضعيفة . لقد دعا هذا المتصرف كيرسانوف وبازاروف لحضور الحفلة الساهرة التي سيقمها ، ولكنه بعد دقيقتين دعاها من جديد لحضور نفس الحفلة وخيل اليه هذه المرة انها شقيقتان فسامها بالاخوين كيساروف ، وليس كيرسانوف .

كانا عائدتين الى الخان من المتصرف عندما قفز فجأة من عربة خفيفة قربهما شخص قصير القامة في سترة مجرية مما يرتديه انصار النزعة السلافية واندفع نحو بازاروف هاتفا : «يفغيني فاسيليفيتش !» .

فقال بازاروف مواصلا سيره على الرصيف :

- آ ! هذا انت ، يا سيد سيتنيكوف ، يا للمصادفة !
- تصور ، مصادفة بحت . - اجاب ذاك والتفت الى العربة فلوح بيده للحوذي خمس مرات وصاح : - هيا اتبعنا ، هيا ! - ثم واصل كلامه قافزا عبر الساقية : - رجائي ابي . . . فلديه هنا تجارة . . . علمت اليوم بوصولكم فخرجت عليكم . . . (وبالفعل عندما عاد الصديقان الى غرفتهما في الخان وجدا هناك بطاقة ذات زوايا معقوفة وعليها اسم سيتنيكوف بالفرنسية على جهة ويخط سلافي فني على الجهة الثانية) . آمل انكما لستم عائدتين من المتصرف !

- لا تأمل في ذلك . فنحن عائدان منه بالذات .
- اها ! ساذهب اليه انا ايضا في هذه الحالة . . . يا يفغيني فاسيليفيتش ، عرفني على صديق . . . على سيادته . . .
- سيتنيكوف ، كيرسانوف - دعهم بازاروف دون ان يتوقف . فقال سيتنيكوف مبتسما وهو يسير على نحو جانبي ويشد باستعجال قفازيه اللاتنيين للغاية :

- مسرور جدا ، سمعت الكثير جدا عن . . . انا من قدامي

معارف يفغيني فاسيليفيتش ، ويمكنني القول بانني تلميذه . وانا مدين له بتحولي الفكري . . .

تطلع اركادي الى تلميذ بازاروف . كانت مسحة من القلق والبلادة تغطي الملامح الضئيلة والمستساغة في الوقت ذاته على وجهه الحليق . كانت عينان غائرتان غير واسعتين تنظران بحدة واضطراب ، وكان هو يضحك باضطراب ايضا ، بقهقهة متقطعة كما لو كانت متخسبة . ثم واصل كلامه :

- هل تصدقني ؟ عندما قال يفغيني فاسيليفيتش بحضوري لاول مرة انه يجب عدم الاعتراف بالشخصية احسست باعجاب لا حد له . . . وكانما تفتحت ابصاري ! وفكرت في نفسي : «ها قد عثرت آخر الامر على انسان !» . وبالمناسبة ينبغي لك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، ان تزور من كل بد واحدة من السيدات هنا ، وهي قادرة كليا على ان تفهمك ، وستكون زيارتك لها عيدا حقيقيا . اعتقد انك سمعت بها ، اليس كذلك ؟

- من هي ؟ - سال بازاروف دون اكتراث .

- (ايدوكسي) * ، يفدوكسيا كوكشينا . انسانة رائعة ، (متحررة) ** بكل معنى الكلمة ، امرأة تقدمية . على فكرة ، فلنذهب اليها سويا . انها تعيش على مقربة من هنا . وسوف نتناول القطور عندها . فانتما لم تظفرا بعد ، اليس كذلك ؟
- لم نظفر بعد .
- حسنا . لعلكمما انها افترقت عن زوجها ، ولم تعد مرتبطة باحد .

فقاطعه بازاروف :

- هل هي مليحة ؟

- لا . . . لا اعتقد .

- يا للشيطان ! فلاي غرض تدعونا لزيارتها ؟
- يا لك من منكت . . . ستسقيننا قنينة شمبانيا . افليس ذلك كافيا ؟

- هكذا اذن ! يبدو انك انسان عملي حقا . وبالمناسبة ، الا يزال والدك يتاجر بالمسكرات ؟

* في الاصل بالفرنسية Eudoxie

** في الاصل بالفرنسية émancipée

- لا يزال - اجاب سينتيكوف بعجلة وقهقه بصريه
- كالصاصة - ماذا ؟ هل تذهبان اليها ؟
- لا ادري ، في الواقع .
- اردت ان تشاهد الناس ، فاذهب - قال اركادي بصوت كالهمس . فسأل سينتيكوف :
- وانت ، يا سيد كيرسانوف ؟ تفضل انت ايضا ، فلا يمكن الذهاب بدونك .
- كيف لنا ان ننهل عليها دفعة واحدة ؟
- لا بأس . كوكشينا انسانية رائعة .
- وهل ستقدم لنا قنينة شمبانيا ؟ - سال بازاروف .
- فاجابه سينتيكوف :
- ثلاث قنان . انني اتعهد .
- بماذا ؟
- براسي .
- الافضل باموال ابيك . ومع ذلك فلنذهب .

١٣

الدار الصغيرة التي تسكنها افدوتيا نيكييتشينا (او يفدوكسيا) كوكشينا من دور النبلاء المبنية على الطراز المسكوبي ، وهي تقع في احد الشوارع التي احترقت مؤخرا بمدينة (***). ومن المعروف ان مدن الالوية عندنا تحترق مرة كل خمسة اعوام . لاح فوق الرقعة المثبتة بصورة مائلة على الباب مقبض جرس صغير . وفي الدهليز استقبلت القادمين امرأة ترتدي قلنسوة خفيفة . ربما هي وصيفة وربما هي رفيقة لصاحبة الدار ، مما يدل على العظامم التقديمية لهذه الاخيرة . وسالها سينتيكوف : افدوتيا نيكييتشينا موجودة ؟ فتعالى صوت رفيع من الغرفة المجاورة :

- هذا انت يا (فكتور) * ؟ ادخل .

وفي الحال اختفت المرأة ذات القلنسوة .

* في الاصل بالفرنسية Victor .

- لست لوحدي - قال سينتيكوف وهو يخلع سترته المجرية الطويلة بحيوية ، وقد ظهر تحتها شيء يشبه حشية التدفئة او البطانة الفضفاضة . ثملقى نظرة متحمسة على اركادي وبازاروف ، في حين اجاب الصوت :

- لا فرق . (ادخلوا) * .

دخل الشبان غرفة تشبه مكتب العمل اكثر مما تشبه غرفة الاستقبال . كانت الاوراق والرسائل واعداد سميكة من المجلات الروسية ، واغلبها غير مفتوح ، منتشرة على الموائد المغبرة ، وقد القيت في جميع الانحاء اعقاب السجائر البيضاء . وعلى اريكة جلدية جلست في وضع يشبه الاضطجاع امرأة لا تزال في عمر الشباب ، وهي شقراء مشعثة بعض الشيء في بدلة حريرية ليست على قدر من الاناقة ، واساور كبيرة تطوق يديها القصيرتين ومندبل مغمم يلف رأسها . نهضت من الاريكة والقت على كتفها دون عناية معطفاً مخملياً مبطناً بفرو القاقم العتيق العائل الى الاصفرار وقالت بكسل : «مرحباً يا (فكتور)» * . وصافحت سينتيكوف ، بينما قال هو على نحو متقطع مقلداً بازاروف :

- بازاروف ، كيرسانوف .

- على الرحب والسعة - اجابت كوكشينا ، ثم ركزت على بازاروف نظرات من عينيها المستديرتين اللتين لاح بينهما انف محمر صغير ، اخنس كاليتيم ، واصافت قائلة : - انا اعرفك - وصافحته هو الآخر .

تقرز بازاروف . لم يكن في قوام هذه المرأة المتحررة الباهت الدقيق شيء قبيح ابداً . الا ان تعبير وجهها يترك في الناظر اليها انطباعاً غير مريح . وكان بود المرء ان يسألها عفواً : «ماذا ؟ هل انت جائعة ؟ او ضجرة ؟ او خجولة ؟ لماذا انت متوترة ؟» . كانت ، شأنها شأن سينتيكوف ، تشمر على الدوام بالضيق النفسي . وهي تنكلم وتتحرك بلا ادنى اثر للتكلف ، ولكن على نحو اخرق في الوقت ذاته . ولعلها تعتبر نفسها كائنات بسيطاً طيب القلب ، بيد انه «هما فعلت من شيء ، يخيل اليكم ان هذا الشيء ، بالذات هو ما لم

* في الاصل بالفرنسية Entrez .

** في الاصل بالفرنسية Victor .

تكن تريد فعله ، فكل ما تفعله يبدو متعمداً ، اي انه لم يكن بسيطاً ولا طبعياً .

- اجل ، اجل ، انا اعرفك يا بازاروف - كررت القول (وكانت متمسكة بالعادة الملازمة لكثير من سيدات الالوية وسيدات موسكو في تسمية الرجال بالقابهم فقط منذ اليوم الاول للتعارف) - هل تريدون سيجارا ؟

- بالطبع . - قال سيتنيكوف على الفور وقد جلس متراخياً على الكرسي رافعاً رجله الى الاعلى - فليقدموا لنا الفطور ، نحن جياح على نحو مرعب ، بل وامري بتقديم قنينة من الشمبانيا .

- يا له من محب للنعيم ! - قالت يفدوكسيا وضحكت (كانت لثتها العليا تتعري من فوق اسنانها عندما تضحك) ، اليس كذلك ، يا بازاروف ؟ - فقال سيتنيكوف بشيء من الاستعلاء :

- انني اهوى الحياة المريحة وهذا لا يمنعني من ان اكون متحرراً .

- كلا ، يمنعك ! - هتفت يفدوكسيا ، ولكنها امرت وصيفتها باعداد الفطور واحضار الشمبانيا . ثم اضافت مخاطبة بازاروف :-

ما هو رأيك بهذا الخصوص ؟ انا واثقة من انك توافقني .

- كلا - اعترض بازاروف - قطعة اللحم افضل من كسرة الخبز حتى من الناحية الكيميائية .

- هل تدرس الكيمياء ؟ انها هوايتي ، حتى اني ابتدعت بنفسى نوعاً من الدهان .

- دهان ؟ انت ؟

- اجل ، انا . ولاي غرض ، هل تعلم ؟ لصنع الدمى ، كيلا تتحطم رؤوسها . فانا انسانة عملية ايضاً . ولكن ليس كل شيء جاهزاً بعد . ينبغي ان اطالع ليبينغ . وبالعناية هل قرأت مقالة كيسلياكوف في «الوقائع الموسكوبية» (٧١) عن عمل النساء ؟ اقراها من فضلك فانت تهتم بمسألة المرأة ، وبالمدرسة ايضاً ، اليس كذلك ؟ ما الذي يمارسه صديقك ؟ وما اسمه ؟

كانت السيدة كوكشيننا تفسر اسئلتها الواحد تلو الآخر باستهانة رقيقة دون ان تنتظر الجواب عليها ، كما يتكلم الاطفال المدللون عادة مع مربياتهم .

- اسمي ارКАДي نيكولايفيتش كيرسانوف ، وانا لا امارس شيئاً .

تهقعت يفدوكسيا .

- شيء مريح ! ماذا ؟ الا تدخن ؟ اتدري ، يا فكتور ، باني زعلانة عليك ؟ !

- لاي سبب ؟

- يقال انك صرت تمدح جورج صائد (٧٢) من جديد . انها امرأة متخلفة ، ولا شيء غير ذلك ! كيف يمكن مقارنتها مع امرسون (٧٣) ؟ ! فليست لديها اية افكار لا عن التربية ولا عن الفلسفة ولا عن اي شيء . وانا واثقة من انها لم تسمع حتى بعلم الاجنة ، فكيف يمكن بدون ذلك في عصرنا ؟ (نشرت يفدوكسيا يديها) . آه ، يا للمقالة المدهشة التي كتبها يلسيفيتش (٧٤) بهذا الخصوص ! انه سيد عبقري ! (اعتادت يفدوكسيا دوماً على استخدام كلمة «سيد» بدلاً من «شخص») . يا بازاروف ، اجلس قربي على الاريقة . ربما انت لا تدري باني اخاف منك اشد الخوف .

- لماذا ؟ اسمحي لي ان اعرف .

- انك سيد خطر . ناقد لاذع . آه ، يا إلهي ! من المضحك انني اتكلم كما تتكلم اقطاعية في قرية نائية . وبالعناية ، فانا اقطاعية حقاً . ادير الضيعة بنفسى ، ثم ان مختار القرية لدي ، بروفي ، لو تعلمون ، سيد مدهش ، مثل بطل كوبر «بائغايندر» (٧٥) . ففيه شيء من عدم التصنع ! قررت ان اعيش هنا نهائياً . انها مدينة لا تطاق ، اليس كذلك ؟ ولكن ليس في الامر حيلة !

فقال بازاروف ببرود :

- مدينة كسائر المدن .

- اهتمامات ضئيلة ، هذا هو الامر الفظيع ! في السابق كنت افنى الشتاء من كل عام في موسكو . . . اما الآن فهناك يعيش زوجي المسيو كوكشين . ثم ان موسكو الآن . . . لا ادري . . . لم تعد على ما يرام . انني افكر في السفر الى الخارج . ففي العام الماضي كدت اتهاج كلياً للسفر .

فسألها بازاروف :

- الى باريس ، اليس كذلك ؟

- الى باريس وهيديلبرغ .
- ما الداعي لهيديلبرغ ؟
- كيف لا ، فهناك بونزين (٧٦) !
- لم يحر بازاروف جواباً .
- هل تعرف (بيير) * سابوجنيكوف ؟ . . .
- كلا ، لا اعرفه .
- كيف ؟ (بيير) * سابوجنيكوف . . . انه يزور ليديسا خوستاتوفا على الدوام .
- انا لا اعرفها هي ايضاً .
- تعهد بان يرافقني . الحمد لله انني حرة طليقة ليس لدي اطفال . . . ماذا قلت ؟ : الحمد لله ! فليكن . لا فرق .
- لفت يفدوكسيا سيجارة باصابعها المسمرة من اثر التبغ وبللتها بلسانها ثم مصتها واشعلتها . دخلت الوصيصة تحمل صينية .
- ها هو طعام الفطور ! تفضلوا الى المائدة ! يا فكتور افتح القنينة ، فهذا اختصاصك .
- اجل ، اختصاصي - دعمم سيتنيكوف ثم ضحك بصريز كالصاصة مرة اخرى .
- هل توجد هنا حسناوات ؟ - سال بازاروف وهو يجهز على القدح الثالث . فاجابت يفدوكسيا :
- اجل ، ولكنهن جميعاً فارغات . فمثلاً ، (صديقتي) * اودينتسوف ، لا عيب في حسننها . ولكن مما يؤسف له ان سمعتها ليست على ما يرام . . . لا ضير في ذلك ، ولكنها لا تتمتع بأية حرية للرأي ، واي اتساع في الافق . . . مطلقاً . ينبغي تغيير نظام التربية بمجمله . ولقد فكرت في ذلك . فنساؤنا تربيّن تربية سيئة للغاية .
- لن تفعلني لهن شيئاً - تدخل سيتنيكوف - ينبغي احتقارهن ، وانا احتقرهن تماماً ! (كانت امكانية الاحتقار والافصاح عن هذا الاحتقار احب شيء لدى سيتنيكوف . وكان في الواقع

* في الاصل بالفرنسية Pierre
** في الاصل بالفرنسية mon amie

- يتهم على النساء دون ان يعلم بانه سوف يضطر بعد بضعة اشهر ان يتزلف الى زوجته لسبب واحد هو انها ابنة الامير دوردوليوسوف) . فما من واحدة منهن تستطيع ان تفهم حديثنا هذا ، وما من واحدة منهن تستحق بان نتكلم ، نحن الرجال الجادين ، عنها !
- لسن بحاجة مطلقاً الى فهم حديثنا - قال بازاروف ، فتدخلت يفدوكسيا :
- عمن تتكلم ؟
- عن الحسناوات .
- كيف ؟ ! يعني انك تؤيد رأي برودون ، (٧٧) اليس كذلك ؟
- عدل بازاروف قوامه بكبرياء وقال :
- لا اؤيد آراء احد اطلاقاً . فلدي آرائي الخاصة .
- فلتسقط الشخصيات ! - صاح سيتنيكوف فرحاً بالمناسبة التي تهيأت له كي يعرب عن افكاره بقوة ، بحضور الشخص الذي يتزلف اليه .
- غير ان ماكولي (٧٨) نفسه - ارادت كوكشيننا ان تتكلم ، ولكن صوت سيتنيكوف دوى :
- فليسقط ماكولي ! هل تدافعين عن هؤلاء النسوة ؟
- ليس عن النسوة ، بل عن حقوق المرأة التي اقسمت على الدفاع عنها حتى آخر قطرة من دمي .
- فليسقط ! - ولكن سيتنيكوف توقف عن الهتاف ، ثم اضاف :
- انني لا انكر هذه الحقوق .
- كلا ، يخيل اليك انك من انصار النزعة السلافية البحت !
- لست منهم ، بالرغم من انني طبعاً . . .
- كلا ، ثم كلا . انك من انصار النزعة السلافية ، ومن المتسكين بالتعاليم المتزمتة البالية . لا يعوزك الا سوط في اليد !
- فقال بازاروف :
- السوط شيء حسن . ولكننا وصلنا الى آخر قطرة . . .
- من ماذا ؟ - قاطعته يفدوكسيا .

- من الشهبانيا ، يا يفدوكسيا نيكيتيشنا المبهجة ، من الشهبانيا ، وليس من دمك .

- لا استطيع ان اسمع بلامبالاة احداً يتهم على النساء .
واصلت يفدوكسيا كلامها - هذا امر فظيع ، فظيع . فبدلاً من ان تتهموا عليهن من الافضل ان تقرأوا كتاب ميشليه "عن الحب" * . شيء رائع ! ايها السادة ، فلنتحدث عن الحب . - قالت ذلك والقت يدها بفتور ورقة على وسادة الاريكة المدعوك . وخيم صمت فجائي . ثم قال بازاروف :

- كلا ، ما الداعي للكلام عن الحب . لقد ذكرت اسم اودينتسوف . . . هكذا سميتها ، اليس كذلك ؟ من هي هذه السيدة النبيلة ؟

- لا اروع منها ! - قال سيتنيكوف بصريير كالصاصة - سأقدمك لها . ذكية ، غنية ، ارملة . ومن المؤسف انها غير متطورة بما فيه الكفاية . فمن اللازم لها ان تتعرف بصورة اقرب على عزيزتنا يفدوكسيا . اشرب نخبك ، يا (يفدوكسي) * . ! فلنقرع الكؤوس ! - ثم اخذ سيتنيكوف يترنم بالفرنسية :

« Et tok, et tok, et tin-tin-tin !

Et tok, et tok, et tin-tin-tin !! » (٧٩)

فقالت كوكشينا :

- انت عابت لعوب يا (فكتور) * .

استغرق الفطور وقتاً طويلاً . ولحقت بقنينة الشهبانيا الاولى ثانية وثالثة ، بل ورابعة . . . كانت يفدوكسيا تثرثر بلا انقطاع . وكان سيتنيكوف يماشىها في الثروة . فقد تحدثا كثيراً عن الزواج ، وعما اذا كان تقليداً وهمياً او جريمة . وعن الناس الذين يولدون ، هل هم متماثلون ام لا ؟ وفيهم يكمن التفرد الشخصي في الواقع ؟ واخيراً احتقنت يفدوكسيا كلياً بما احتسته من نبيلة

* في الاصل بالفرنسية « De l'amour » . جول ميشليه (١٧٩٨-١٨٧٤) كاتب ومؤرخ فرنسي . صدر كتابه المذكور عام ١٨٥٩ . المترجم * * في الاصل بالفرنسية Eudoxie . * * * في الاصل بالفرنسية .

واخذت تنقر باظافرها المسطحة على مفاتيح البيانو المشوش وشرعت تنشد بصوت مبجوح بعضاً من اغاني الفجر في البداية ثم موال سيمور شيف «غرنطة الناعسة» (٨٠) ، بينما شد سيتنيكوف رأسه بوشاح ومثل دور العشيق الولهان عندما غنت هي كلمات :

وتلتحم شفتاك بشفتي
في قبلة حري

فقد صبر اركادي فقال أخيراً بصوت مسموع : «يا سادة ، غدا الامر اشبه بدار المجاذيب» .

اما بازاروف الذي كان نادراً ما يضيف كلمة ساخرة الى الحوار - اذ انه مشغول بالشهبانيا اكثر من غيرها - فقد تناب بصوت عال ونهض ثم خرج مع اركادي دون ان يودع صاحبة الدار . هرع سيتنيكوف في اثرهما متسائلاً :

- ماذا ؟ ماذا ؟ - واخذ يتملقهما ويتراكم حولهما تارة من اليمين وتارة من الشمال - ألم اقل لكما انها شخصية رائعة ؟ ! كثر الله من امثالها ! انها ظاهرة اخلاقية سامية في الواقع . - ومؤسسة ابيك هذه هل هي ظاهرة اخلاقية سامية ايضا ؟ - سأل بازاروف وهو يشير باصبعه الى الحانة التي مروا قربها في تلك اللحظة .

فهقه سيتنيكوف من جديد بصريير كالصاصة . كان يخجل كل الغجل من منحدره العائلي ، وما كان يدري هل يتعين عليه ان يعتبر كلمات بازاروف الخشنة المفاجئة اطراء ام اهانة .

بعد بضعة ايام اقيمت الحفلة الساهرة لدى المتصرف . وكان مانفي ايلييتش «بطل الحفلة» حقاً . فقد اعلن رئيس نبلاء اللواء على رؤوس الاشهاد انه جاء ، في الواقع ، احتراماً له ، بينما واصل المتصرف «اصدار الاوامر» حتى في الحفلة مع انه ظل ساكناً بلا

حراك . اما رقة ماتفي ايليتش في مخاطبة الآخرين فكانت تضاهي عظمتة بلا نقصان . كان يداري الجميع ، بعضهم بنامة مسر الاشمزاز وبعضهم الآخر بمسحة من الاحترام ، ويحاول جهده ان يبدو امام السيدات بمظهر (الفارس الفرنسي الحقيقي) * ، ويقف دون كلل بتلك الضحكة الرتيبة العريضة الرنانة التي تليق بالموظفين الكبار . ططبط على ظهر اركادي ونداء بصوت عال «يا ابن اختنا العزيز» ، وتفضل على بازاروف ذي البزة العتيقة بعض الشيء بنظرة هائلة عابرة ولكنها متساهلة انبعثت منه عبر وجنته ، وبفحيح ترحيبي مبهم لم يفهم منه سوى «انا . . .» «جدا . . .» . وقد اصبعه لسيتنيكوف كي يصفاحه وابتسم له ، وهو يشيح عنه في الوقت ذاته . وقال «مفتون بك» * حتى لكوكشيننا التي حضرت ترتدي قفازات قذرة وبدون تنورة الحفلات المنتفخة ، غير انها شككت شعرها بدبوس طائر الجنة . كان هناك جمهور غفير من الناس . ولا نقص في عدد الرجال . كان المدنيون قد حوصروا باغلبهم الى الجدران ، بينما راح العسكريون يرقصون ببالغ الجهد ، وخصوصاً واحد منهم ، كان قد عاش في باريس ستة اسابيع فتعلم مختلف التهافتات الفرنسية المتهورة من امثال «يا للشيطان !» و«يا للعجب !» و«ها ، ها ، يا صغيرتي» * . راح يتلفظ هذه التهافتات على احسن ما يكون ، بلهجة باريسية فاخرة ، ولكنه ، فيما عدا ذلك ، كان يحطم اللغة الفرنسية تحطيماً ، اي انه يتكلم باللهجة الفرنسية-الروسية التي يسخر منها الفرنسيون عندما لا يشعرون بحاجة الى ان يقولوا لنا في مجاملة باننا نتكلم بلغتهم كما يتكلم الملائكة .

لم يكن اركادي يجيد الرقص ، كما تعلم ، اما بازاروف فلم يمارس الرقص مطلقاً . ولذلك انزوى في ركن ، فانضم اليهما سيتنيكوف الذي تظاهر بمسحة من السخرية المستنكفة واخذ يطلق ملاحظات جارحة ويسلط نظرات وقحة على ما حواليه ، وبدا

* في الاصل بالفرنسية en vrai chevalier français

** في الاصل بالفرنسية « Enchante »

*** في الاصل بالفرنسية « Zut », « Ah fichtrrre » « Pst, pst, mon bibi »

ومانه يتمتع بلذة خالصة . وعلى حين غرة تبدلت سحنته فالتفت الى اركادي وقال بشيء من الارتباك «وصلت اودينتسوف» . التفت اركادي فرأى امرأة فارعة القوام في بدلة سوداء توقفت عند باب الصالة . ادهشته بروعة قدها المشقوق . يداها العاريتان مستقرتان على نحو جميل الى جانبي خصرها الاخيف . واغصان الفوشية الغفيفة تتدلى على نحو جميل ايضاً من شعرها اللامع على كتفيها المنحدرتين . وعيناها الفاتحتان تبعثان من تحت جبينها الابيض البارز بعض الشيء نظرات ناقبة هادئة ، هادئة بالذات وليس متاملة . وشفتاها تبتسمان ابتسامة تكاد لا تلاحظ . كان يحياها يبت قوة ما ، رقيقة حنوناً .

- هل تعرفها ؟ - سال اركادي من سيتنيكوف .

- اعرفها جيداً . اتريد ان اقدمك اليها ؟

- حبذا . . . بعد هذه الرقصة .

تنبه بازاروف هو الآخر الى اودينتسوف . فقال :

- ما هذا القدر ؟ انها لا تشبه الاخريات .

انتظر سيتنيكوف حتى انتهت الرقصة فاصطحب اركادي الى اودينتسوف . ومن المشكوك فيه انه كان يعرفها جيداً : فقد تلعم في اقواله ، بينما نظرت هي اليه بشيء من الاستغراب . الا ان وجهها اكتسى بمسحة من الترحاب عندما سمعت لقب اركادي . فسألته عما اذا كان هو ابن نيكولاي بتروفيتش .

- بالضبط .

- رايت والدك مرتين وسمعت عنه الكثير . يسرني جداً ان

اتعرف عليك - واصلت كلامها .

وفي تلك اللحظة اقترب منها ضابط ودعاها لرقصة الكدريل . فوافقت .

- هل ترقصين يا ترى ؟ - سألها اركادي باجلال .

- اجل . فلماذا تظن بانني لا ارقص ؟ ام اني ابدو لك طاعنة في السن ؟

- عفواً ، كيف ذلك . . . ولكن في هذه الحالة اسمحي لي بان

ادعوك لرقصة المازوركا .

ابتسمت اودينتسوف متسامحة وقالت :

- تفضل . - وسلطت على اركادي نظرة ، ان لم تكن متعالية فهي شبيهة بنظرات الاخوات المتزوجات الى اخوانهن الذين لا يزالون في مقتبل العمر .

لم تكن اودينتسوف اكير من اركادي بكثير . فقد دشنت عامها التاسع والعشرين ولكنه كان يشعر في حضورها بأنه تلميذ او طالب ، وكأنما الفرق في عمرهما اكبر من ذلك بكثير . اقترب منها ماتفي ايليتش وعظيره يدل على العظمة واقواله تنم عن النزلق . فانزوى اركادي جانباً ولكنه ظل يتطلع اليها . ولم تفارقها نظراته خلال رقصة الكدريل ايضاً . كانت تتكلم بلا تكلف مع مراقصها ، مثلما تكلمت لتوها مع الموظف الكبير ، وكانت تميل برأسها وانظارها بهدوء ، وقد ضحكت مرتين بخفوت . كان انهما كبيراً بعض الشيء ، كاثوف جميع الروس تقريباً ، ولم يكن لون بشرتها صافياً لحد الكمال ، ومع ذلك تصور اركادي انه لم يقابل ابداً مثل هذه المرأة الرائعة . ولم تكن نغمات صوتها لتفارق مسمعه ، وحتى طيات بدلتها بدت له على غير ما هي عليه لدى الاخريات ، كانت اوسع واكثر استقامة ، وكانت حركاتها متناسقة على نحو خاص وطبيعية في الوقت ذاته .

احس اركادي بشيء من الوجع في الفؤاد حين تقدم الى صاحبه عندما تهادت اولى انغام العازوركا ، وعندما اراد ان يتكلم معها لم يفعل غير ان مسد شعره بيده دون ان يعثر على كلمة واحدة مناسبة . الا ان وجله واضطرابه لم يستمر طويلاً ، فقد انتقلت اليه عدوى الهدوء من اودينتسوف . ولم يمض ربع ساعة الا وصار يتحدث بطلاقة عن ابيه وعمه وعن الحياة في بطرسبورغ وفي القرية . استمعت اليه اودينتسوف بادب وانتباه ، وكانت تفتح مروحيتها وتغلقها بعض الشيء . كان اركادي يتوقف عن الثرثرة عندما يدعوها الراقصون للرقص . وبالنسبة فقد دعاها سيتنيكوف مرتين . كانت تعود فجلس من جديد وتلقت المروحة ، وحتى صدرها لم يكن يتنفس اسرع من المعتاد ، بينما يواصل اركادي ثرثرته من جديد ، وهو مغمور بفرحة وجوده قربها والتحدث اليها والتطلع الى عينيها ، والى جبينها الرائع ، والى محياها البديع الذي ينم عن وجهة وذكاء . كانت قليلة الكلام ، ولكن معرفتها بالحياة تجلت في كلماتها القليلة . ادرك اركادي من بعض

ملاحظات هذه المرأة الشاببة انه تيسرت لها معرفة الكثير والتمعن في امور جملة . . .

- من ذلك الذي كان واقفاً معك قبيل ان رافقك السيد سيتنيكوف الى ؟ - سألته ، فسألها اركادي بدوره :
- هل لاحظته ؟ ما اجمله ، اليس كذلك ؟ انه صديقي بازاروف .

وطفق اركادي يتحدث عن "صديقه" .
تحدث عنه باسهاب واعجاب جعل اودينتسوف تلتفت اليه وتسلط عليه نظرة متفحصة ، في حين كانت العازوركا تقترب من نهايتها . ما اشد اسف اركادي لمفارقة صاحبه : فقد صرف معها زهاء ساعة من احلى الاوقات ! صحيح انه كان طوال هذا الوقت يشعر وكأنها متفضلة عليه وكأنما ينبغي ان يكون ممثناً لها . . . الا ان مثل هذا الشعور لا ينقل على الافئدة الفتية . صممت الموسيقى .

فقال اودينتسوف ناهضة :
- (شكراً) . وعدتني بزيارتي ، فاصطحب صديقك معك . وستكون في منتهى الطرافة رؤية شخص يتجاسر على عدم الايمان بشيء .

اقترب المتصرف من اودينتسوف فاعلن ان العشاء جاهز وقدم لها يده وقد اكتسى وجهه بمسحة من الاهتمام . التفتت اودينتسوف ، ذاهبة ، لكي تبتسم لاركادي وتحني له رأسها لآخر مرة . انحنى هو انحناء واطنة ولاحقها بنظراته (فكم اعجبه اعتدال قوامها الملمع بلمع رمادي من الحرير الاسود !) وفكر في نفسه : "في هذه اللحظة لم تعد تتذكر وجودي" ، واحس باستسلام رهيف يكتنف جوانحه . . .

- ماذا ؟ - سأل بازاروف اركادي حالما عاد هذا اليه في الركن - هل تمتعت ؟ قال لي احد النبلاء الآن ان هذه السيدة "من الصنف المطواع" بيد ان ذاك النبيل احمق على ما يبدو . وفي رأيك هل هي "من الصنف المطواع" حقاً ؟
فاجاب اركادي :

* في الاصل بالفرنسية Merci .

- انني لا افهم هذا النعت حق الفهم .

- يا للبراءة العذرية !

- اذن فانا لا افهم نبيلك ذاك . اودينتسوف فاتنة جداً ، دون شك ، ولكنها تتصرف ببرود وصراة بحيث . . .

- في الماء الساكن تختبئ العفاريت . - اجابه بازاروف . - تقول انها تتصرف ببرود . ذلك ذوق رفيع . انت تحب المرطبات اليس كذلك ؟

فدعهم اركادي :

- ربما لا يمكنني ان احكم على ذلك . انها تريد ان تتعرف عليك ورجتني ان اصطحبك اليها .

- اتصور كيف بالغت في الحديث عني ! ومع ذلك حسنا فعلت . خذني اليها ، ولا فرق اذا كانت هي معبودة اهالي اللوا ، او «متحررة» على شاكلة كوكشينا ، فان لديها كتفين لم ار مثلها من زمان .

تالم اركادي لوقاحة بازاروف ، ولكنه لام صديقه ، كما يحدث غالباً ، ليس على الشيء الذي ازعجه فيه . . . فسأله بهدوء :

- لم لا تريد للنساء ان يتمتعن بحرية الفكر ؟ !
- ذلك ، يا اخي ، لاني لاحظت ان القبيحات وحدهن يفكرن بحرية .

توقف الكلام عند هذا الحد . وغادر الشابان المكان فور انتهاء العشاء . فشيعتهما كوكشينا بضحكة عصبية حاقدة ، ولكن بشيء من الاستحياء ، فقد اهيئت كرامتها لان هذا وذاك لم يلتفتا اليها . ظلت في الحفلة آخر الجميع ، وفي الساعة الرابعة ليلاً رقصت مع سيتينيكوف المازوركا البولونية على الطريقة الباريسية . وبهذا المشهد الكبير الدلالة اختتمت حفلة المتصرف .

في اليوم التالي قال بازاروف لاركادي وصفا يرتقيان سلم الفندق الذي نزلت به اودينتسوف :

- سنرى الى اية فصيلة من الثدييات تنتمي هذه المرأة . يخيل الى ان شيئاً ما هنا ليس على ما يرام .

فهتف اركادي :

- انك تدهشني ! كيف ؟ كيف يجوز لك ، انت بازاروف ،

ان تتمسك بتلك الاخلاق المتحجرة التي . . .

- يا لغرابة اطوارك ! - قاطعه بازاروف باستهانة . - افلا تعرف ان تعبير «ليس على ما يرام» يعني في لهجتنا ، وبالنسبة لنا ، «على ما يرام» ؟ اي ان هناك غنيمة ما . افلست انت الذي قلت اليوم انها تزوجت على نحو يشير الاستغراب ، بالرغم من ان الزواج من عجوز غني ليس ، في رأيي ، بالامر الغريب ابداً ، بل هو ، على العكس ، خطوة حكيمة . انني لا اصدق الاقاويل الشائعة في المدينة ، ولكنني اميل الى الاعتقاد ، كما يقول متصرفنا المستنير ، بانها صادقة .

لم يجب اركادي بشيء ، وطرق الباب . رافق وصيف شاب يرتدي بزة الخدم كلا الصديقين الى غرفة واسعة مؤثثة على نحو سني ، كما هو شأن كل الغرف في الفنادق الروسية ، ولكنها تكاد تغص بالزهور . وسرعان ما ظهرت اودينتسوف نفسها في فستان صباحي بسيط . بدت اكثر فتوة في ضوء شمس الربيع . قدم اركادي لها بازاروف ، ولاحظ بدهشة خفية ان هذا قد ارتبك شيئاً ، في حين ظلت اودينتسوف هادئة كلياً ، مثلما كانت بالامس . واحس بازاروف نفسه بانه ارتبك ، فاكتاب لذلك ، وفكر في نفسه : «يا للعجب ! ارتعبت من امرأة !» ثم ارتقى على الكرسي بهيئة طليقة ليست افضل من هيئة سيتينيكوف ، وشرع يتكلم مغالياً في عدم التكلف ، بينما لم تحول اودينتسوف عنه عينيها الصافيتين .

ولدت آنا سيرغيفنا اودينتسوف من سيرغي نيكولايفيتش لوكتيف المقامر والنصاب الوسيم المعروف الذي ذاع صيته طوال خمسة عشر عاماً تقريباً في بطرسبورغ وموسكو وانتهى الى خسران كل شيء في القمار فاضطر على سكنى القرية ، وسرعان ما وافته المنية هناك ، فترك ثروة ضئيلة جداً لابنتيه آنا البالغة من العمر عشرين عاماً وكاترينا البالغة من العمر اثني عشر عاماً . وكانت امهما ، وهي من سلالة الامراء . . . الذين احاق بهم الافلاس ، قد توفيت في بطرسبورغ عندما كان زوجها لا يزال في اوج ازدهاره . كانت حالة آنا بعد وفاة ابيها عسيرة للغاية .

فالتربية الممتازة التي تلققتها في بطرسبورغ لم تكن قد اعدتها لتحمل اعباء المعيشة والشؤون المنزلية ولا لحياة الريف الخاوية . ولم تكن تعرف احداً على الاطلاق في المنطقة كلها ، وما كان بوسعها ان تلمس النصيح من احد . كان ابوها يتحاشى الاتصال بالجيران ، فقد كان يحقرهم وكانوا هم يحقرونه كل على طريقته الخاصة . الا انها لم تفقد رشدها ، فاستدعت على الفور خالتها الاميرة افدوتيا ستيبانوفنا خ وهي عجوز شريرة متعجرفة استأثرت بأفضل الغرف حالماً انتقلت الى دار ابنة اختها وصارت تدمدم وتذمر من الصباح الى المساء ، وحتى عندما تتمشى في البستان تصطحب وصيفها الوحيد القن المتجهم بعمرته المثلثة وبزته المتهرئة الصفراء الضاربة الى الخضرة والمقصبة بشريط أزرق . تحملت آنا بصبر كل نزوات خالتها ، وواظبت على تربية اختها شينا فشيننا ، وكادت تستسلم لفكرة الذبول في الريف الا ان القدر اعد لها مصيراً آخر . فقد لمحها صدفه شخص ثري جداً اسمه اودينتسوف . كان في السادسة والاربعين من العمر ، غريب الاطوار منقبض النفس ، بديناً ثقيلاً متجهماً . ولكنه لم يكن بليداً ولا شريراً . اغرم بها وطلب يدها فوافقت على الزواج منه . غير انه عاش معها زهاء ستة اعوام وقضى نحبه مخلقا لها كل ثروته . قضت آنا سيرغيفنا زهاء عام بعد وفاته دون ان تغادر القرية ، ثم سافرت مع اختها الى الخارج ، ولكنها زارت ألمانيا فقط فانتابها الحنين وعادت لتعيش في قرية نيكولسكويه المحببة اليها والتي تبعد زهاء اربعين كيلومتراً عن مدينة (***). لديها هناك دار فاخرة مؤثثة على نحو ممتاز وبستان رائع ذو مشاتل زجاجية : فالمرحوم اودينتسوف لم يبخل على نفسه بشيء . كانت آنا سيرغيفنا نادراً ما تسافر الى المدينة لقضاء بعض الاشغال في اغلب الحالات ، ولأمد قصير . ولم يكن الآخرون في اللواء يحبونها ، فكانوا يستفظعون زواجها من اودينتسوف ويروجون مختلف الاشاعات عنها ويزعمون بانها ساعدت اباها في احاييله وغشيه ، وانها لم تسافر الى الخارج عبثاً ، بل لغرض ستر عواقب وخيمة وكان المتحدثون الغاضبون يضيفون الى ذلك قائلين : «هل انتم فاهمون ؟» . كانوا يقولون انها «اجتازت النار والحديد» . وكان المنكث المعروف في اللواء كله يضيف الى ذلك عادة :

« . . . والانابيب النحاسية ايضاً» . وكانت كل هذه الاقاويل تبلغ مسامعها ، ولكنها لا تعيرها اهتماماً . فهي ذات طبع طليق حازم .

جلست اودينتسوفاً متكئة على مؤخرة المقعد فوضعت يداً على يدي وهي تستمع الى بازاروف الذي تحدث كثيراً ، خلافاً لعادته ، وكان واضحاً انه يحاول الهاء محدثته ، مما اثار استغراب اركادي من جديد . لم يكن اركادي واثقاً مما اذا كان بازاروف قد بلغ مقصده ام لا . فمن الصعب الحكم ، حسب تعابير وجه آنا سيرغيفنا ، على الانطباعات التي تكونت لديها . اذ ان محياها احتفظ بتعبير واحد ، رقيق بشوش ، وومضت عينها بانتباه هادئ لا يعكر صفوه شيء . كان تصنع بازاروف في اللحظات الاولى للزيارة قد اثار استياءها ، كما تثير الاستياء الرائعة الكريهة او الصوت الحاد ، ولكنها ادركت في الحال ان ذلك بسبب الارتباك ، فانفجرت اساريرها . كان شيء واحد فقط يثير نفورها وهو الابتذال ، الا انه ما من احد بوسعه ان يتهم بازاروف بالابتذال . وتعرض اركادي في ذلك اليوم للدهشة المرة تلو الاخرى . فقد كان يتوقع من بازاروف ان يتكلم مع اودينتسوف ، كما يتكلم مع امراء حسيفة ، عن معتقداته وآرائه . فقد اعربت عن رغبتها في الاستماع الى الشخص «الذي يتجاسر على عدم الايمان بشيء» . ولكن بازاروف ، بدلاً من ذلك ، صار يتحدث عن الطب والصيدلة وعلم النبات . واتضح ان اودينتسوف لم تضيع الوقت سدى في وحدتها : فقد طالعت طائفة من الكتب الجيدة ، وكانت تتكلم بلغة روسية سليمة . سارت بالحديث الى الكلام عن الموسيقى . لكنها لاحظت ان بازاروف لا يعترف بالفن ، فعادت بشكل غير ملحوظ الى علم النبات ، مع ان اركادي تهيأ للكلام عن اهمية الانعام الشعبية . واستمرت اودينتسوفاً على معاملته كما يتعامل الاخ الاصغر . خيل اليه انها تقدر فيه طيبته وبساطة الفتوة لا اكثر . استغرق الحديث اكثر من ثلاث ساعات ، وكان متأنياً متنوعاً حيويًا .

نهض الصديقان في آخر الامر وودعا آنا سيرغيفنا فنظرت اليهما برقة وحنان ومدت يدها البيضاء الجميلة الى احدهما ثم الى الآخر ، وفكرت قليلاً ثم قالت بابتسامة طيبة منهية :

- اذا كنتما ، ايها السيدان ، لا تخشيان الملل فتعالا الى
في نيكولسكويه .
فهتف اركادي :

- شكراً ، يا آنا سيرغييفنا ، اني اعتبر ذلك منتهى
السعادة . . .

- وانت ، يا مسيو بازاروف ؟
اكتفى بازاروف بانحناء ، مما اثار دهشة اركادي للمسة
الاخيرة ، فقد لاحظ ان وجه صديقه قد احمر شيئاً .
وقال له في الشارح : - ماذا ؟ الا تزال على رايك بخصوص
«الصنف المطواع» ؟

- من يدري ؟ ! الا ترى كيف جمدت نفسها ؟ ! - اعترض
بازاروف ، ولكنه اضاف بعد قليل : - انها دوقة متسلطة . لا
يعوزها غير حلة طويلة الاذيال وتاج على الراس .
- دوقاتنا لا يتكلمن الروسية بهذه الطلاقة .

- لقد ذقت الامرين ، يا اخي ، وعركت الحياة مثلنا .
- ومع ذلك فهي في منتهى الروعة - قال اركادي . فواصل
بازاروف كلامه : - يا له من بدن موفور . لا بد من نقله الى
طاولة التشريح على الفور .

- كفاه هذا يا يفغيني ! بالله عليك ! بلغ السيل الزبي .
- لا تزال ، ايها الفتى الرقيق . قلنا لك جادين انها من
صنف ممتاز . وينبغي ان تذهب اليها .
- متى ؟

- بعد غد مثلاً . فما الذي تفعله هنا ؟ هل نفضل نحتسب
الشمباتيا مع كوكشيننا ؟ ام نستمع الى قريبك الموظف اللبرالي
الكبير ؟ . سنشدد الرحال بعد غد . ثم ان ضيعة ابي المتواضعة
ليست بعيدة من هناك . نيكولسكويه تقع على طريق (***) ، ليس
كذلك ؟

- بلى .
- (حسناً) . لا داعي للتواني ، فلا يتواني الا الحمقى
والمظاهرون بالذكاء . اقول لك : انه بدن موفور !

* في الاصل باللاتينية Optime

بعد ثلاثة ايام شد الصديقان الرحال الى نيكولسكويه . كان
النهار وضاً معتدل الحرارة . وكانت خيول البريد المتخمة تنهب
الطريق بوثام ، وهي تلوح دون عناء بذبولها الملثوية المتشابكة .
اغذ اركادي يتطلع الى الطريق ويبتسم دون سبب واضح . الا ان
بازاروف هتف فجأة :

- يمكنك ان تهنتني . فاليوم ، الثاني والعشرين من يونيو ،
عيد ملاكي الحارس . وسنرى الى اي حد هو مهتم بي ، - ثم
اضاف بصوت خفيض : - في البيت ينتظروننسي اليوم . . .
فلينتظروا ، ما اهمية ذلك ؟ !

تقع الضيعة التي تقطنها آنا سيرغييفنا على هضبة مكشوفة
معتدلة الانحدار على مسافة غير بعيدة عن كنيسة حجرية صفراء ذات
سقف اخضر واعمدة بيضاء ومدخل مزين في اعلاه برسم جداري *
يمثل «قيام المسيح» على الطراز «الايطالي» . وكانت رائعة على
الخصوص الملامح المستديرة في صورة محارب اسمر يرتدي خوذة
فولاذية ويتصدر الرسم منبطحاً . ووراء الكنيسة امتدت القرية
بصفين من اكواخ تبدو على بعضها مداخن فوق سطوح من القش .
وكانت دار اودينتسوقا مبنية بنفس طراز الكنيسة ، وهو الطراز
المعروف عندنا باسم الاسكندري . وهي مطلية كذلك بدهان اصفر
ولها سطح اخضر واعمدة بيضاء وقوسرة مثلثة ذات شعار . وقد
انشأ معماري اللواء كلتا البنائيتين بموافقة المرحوم اودينتسوف
الذي لم يكن يطبق التجديدات الفارغة الاعتبارية على حد تعبيره .
وتعاضد الدار من كلا الجانبين اشجار البستان القديم المعتمة ،
ويؤدي الى مدخلها ممر من اشجار الشوح المقلّمة .

استقبل صاحبينا في الدهليز وصيفان فارعا القامة ، اسرع
احدهما على الفور لاستدعاء كبير الوصفاء . كان هذا رجلاً بديناً
في بزة رسمية سوداء . حضر في الحال ورافق الضيفين على السلم

* في الاصل بالايطالية al fresco

المفروش بالسجاد الى غرفة خاصة فيها سريران مع جميع مستلزمات الزينة والغسيل . يبدو ان النظام سائد في الدار : فكل شيء نظيف ، وفي كل الانحاء تفوح روائح مقبولة ، كما في صالات الاستقبال في الوزارات .

قال كبير الوصفاء :

- آنا سيرغييفنا ترجوكم ان تشرقاها بعد نصف ساعة .
فهل من اوامر او توجيهات ؟
فاجاب بازاروف :

- ليست لدينا اوامر ، ايها المحترم ، سوى قدح من الفودكا اذا تفضلت .

- سمعاً وطاعة يا سيدي - قال كبير الوصفاء بشيء من الاستغراب ، وذهب مصراً بجزمته . فعلق بازاروف :
- ياله من اسلوب راق مهيب ! اليس كذلك ؟ انها دوقة حقاً .

فاعترض ارКАДي :

- اية دوقة هي اذا كانت قد دعت لضيافتها منذ اللقاء الاول ارستقراطيين شديدي البأس مثلنا ؟ !

- وخصوصاً انا ، طبيب المستقبل ، ابن الطبيب وحفيد القندلفت . . . انت تعلم اني حفيد قندلفت ، اليس كذلك ؟

- منل سبيرانسكي (٨١) - اضاف بازاروف بعد فترة صمت

قصيرة وقد زم شفثيه . . . ومع ذلك فقد دلت هذه السيدة

نفسها . ما اشد دلالتها ! افلا يتعين علينا ان نرتدي بزة رسمية ؟ !

اكتفى ارКАДي بان هز كتفيه . . . ولكنه هو الآخر احس ببعض الارتباك .

بعد نصف ساعة دخل بازاروف وارКАДي غرفة الاستقبال . وهي

غرفة واسعة عالية السقف مؤنثة باثاث فاخر تماماً ولكن بدون

ذوق رفيع . الموبيليا الثقيلة الثمينة مصفوفة على طول الجدران

المزينة بورق بني موشح بلون ذهبي . كان المرحوم اودينتسوف

قد اقتناها في موسكو بواسطة صديقه ووكيله تاجر الخمر .

وفوق الاركة الوسطى علقت صورة رجل اشقر مترهل ، بدا وكأنه

يسلط على الضيفين نظرة غير ودية . فهمس بازاروف لارКАДي :
«انه هو على ما يبدو» ، ثم اضاف وقد انكمش انفه : «ماذا ؟

هل نهرب ؟» الا ان ربة البيت دخلت في تلك اللحظة . كانت ترتدي فستاناً خفيفاً . وكان شعرها المصفف على نحو املس وراء اذنيها قد اضفى مسحة غزوية على محياها الطري الصافي .

بدات كلامها قائلة :

- اشكركما على الوفاء بالوعد . ارجو ان تقيما في ضيافتي .

الاحوال هنا ليست سيئة في الواقع . وسأعرفكما على اختي . انها

تجيد العزف على البيانو . وهذا لا يعني شيئاً بالنسبة لك يامسيو

بازاروف ، ولكنك ، يامسيو كيرسانوف ، تحب الموسيقى كما

يخيل الى . وبالإضافة الى اختي تعيش عندي خالتي العجوز ، وفي

بعض الاحيان يزورنا احد الجيران فنلعب الورق . ذلك هو مجتمعنا

كله . اما الآن فلنجلس .

تلغظت اودينتسوفاً هذه الخطبة القصيرة بمنتهى الوضوح ،

كما لو كانت قد حفظتها عن ظهر قلب . ثم وجهت كلامها الى

ارКАДي ، واتضح ان امها كانت تعرف ام ارКАДي ، بل وكانت

حافطة سر حيا لنيكولاي بتروفيتش . وتكلم ارКАДي بحماس عن

الرحومة والدته ، بينما انشغل بازاروف في تصفح الألبومات وفكر

في نفسه : «كم صرت وديعاً !» .

هرعت الى غرفة الاستقبال كلبة سلوقية جميلة بطوق ازرق ،

واخذت تداعب الارضية بمخالبها . وعلى اثرها دخلت فتاة في حوالى

الثامنة عشرة ذات شعر اسود ومخيا اسمر لطيف مستدير بعض

الشيء وعينين سوداوين واسعتين . كانت تحمل سلة مليئة

بالزهور ، فاومات اليها اودينتسوفاً بحركة من رأسها وقالت :

- هذه اختي كاتيا .

سلمت كاتيا على الحاضرين ثم جلست قرب اختها واخذت

تصفف الزهور ، بينما اقتربت الكلبة السلوقية ، واسمها فيفي ،

من الضيفين وهي تهز ذيلها ، ودست انفها البارد في يد احدهما ثم

في يد الآخر . وسألت اودينتسوفاً اختها :

- هل جمعت كل هذه الزهور بنفسك ؟

فاجابت كاتيا :

- اجل .

- وخالتنا ، هل ستاتي لتناول الشاي ؟

- ستاتي .

عندما تتكلم كاتيا تبثسم على نحو رقيق للغاية ، باستحياء ،
وصراخاً وتنظر من الاسفل الى الاعلى بشكل طروب وبشيء من
الصرامة . كل شيء فيها لا يزال غصاً نظيراً : صوتها والزغب على
وجهها كله واليدان الورديتان براحتيهما المائلتين الى بياض
والكتفان المضغوطتان بالكاد . . . كانت مصطبغة بالاحمرار
دوماً وكانت تنفس بصورة متلاحقة سريعة .
التفتت اودينتسوكا الى بازاروف قائلة :

- انك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، تقلب الصور بحكم اللياقة
لا اكثر . فهي لا تثير اهتمامك . الافضل ان تقترب منا ، فلنتجادل
في امر ما .

اقترب بازاروف وسال :

- قيم نتجادل ، يا سيدتي ؟
- في كل ما تريد . واحذرك بأني احب الجدل كثيراً .
- انت ؟

- اجل . هل يدهشك ذلك ؟ لماذا ؟
- لان طباعك ، ان صح حكمي ، هادئة باردة ، في حين يتطلب
الجدل ولعاً وانهماكاً .

- كيف استطعت ان تخبر طباعي بهذه السرعة ؟ انني عنيدة
ضعيفة الصبر . ومن الافضل ان تستفسر من كاتيا عن ذلك .
هذا اولاً . ثم انني انساق للولع بسهولة كبيرة .

نظر بازاروف الى آنا سيرغييفنا وقال :

- ربما ، فانت اعرف . وما دمت تريدان المجادلة فتفضلني .
كنت اطلع الى مناظر سويسرا السكسونية في اليومك ، لكنك
قلت لي ان هذا لا يمكن ان يثير اهتمامي . ولقد قلت ذلك لانك
لا تتصورين وجود شعور فني عندي . وبالفعل فهو غير موجود .
لكن هذه المناظر يمكن ان تثير اهتمامي من الناحية الجيولوجية ،
من حيث تكون الجبال ، مثلاً .

- عفواً . انك ، كجيولوجي ، ستلجأ على الاغلب الى الكتب
الى المؤلفات المتخصصة ، وليس الى الرسوم .

- الرسم يبين لي بوضوح وايجاز ما يتحدث عنه الكتاب في
عشر صفحات كاملة .

لزمتم آنا سيرغييفنا الصمت لحظة ، ثم قالت بعد ان استندت
بكوعها الى الطاولة فقربت وجهها من بازاروف :
- هل يعقل انه ليست لديك ذرة من الشعور الفني . فكيف
تستطيع الاستغناء عنه ؟

- اسمحي لي ان اسالك : ما الحاجة اليه ؟

- من اجل اجادة معرفة الناس ودراستهم على الاقل .

ضحك بازاروف بشيء من السخرية وقال :

- توجد لهذا الغرض ، اولاً ، الخبرة الحياتية ، وثانياً ،
افيدك بان لا جدوى من دراسة كل فرد على حدة . البشر متشابهون
جسدياً وروحياً . ولدى كل منا دماغ وطحال وقلب وورثتان ، وكلها
مبنية بشكل واحد . وحتى ما يسمى بالسجايا الخلقية انما هي
واحدة لدى الجميع : الفروق الطفيفة لا تعني شيئاً . يكفي وجود
نموذج بشري واحد لكي يمكن الحكم على الآخرين جميعاً .
فالبحر كاشجار الغاب ، وما من عالم نباتي يمارس دراسة كل
شجرة على حدة .

رفعت كاتيا التي كانت تصف زهرة الى زهرة دون استعجال
الظارها متحيرة الى بازاروف فاحتقن وجهها حمرة حتى الاذنين عندما
اصطدمت نظرتها بنظرته السريعة المستهينة . اما آنا سيرغييفنا
فقد هزت راسها وقالت :

- اذا كانوا كاشجار الغاب فذلك يعني ، برايك ، انه لا فرق
بين البليد والذكي ، ولا فرق بين الانسان الخير والشرير ، اليس
كذلك ؟

- كلا . يوجد فرق ، كما بين المريض والمعافي . فالرثتان
لدى المصاب بالتدردن ليستا بمثل حالتهما لدينا ، مع انهما
مبنيان بشكل واحد . ونحن نعرف على وجه التقريب بواعث العلل
الجسدية ، اما العلل الاخلاقية فبسببها التربية الفاسدة ومختلف
التفاعلات التي تتحشى بها ادمغة البشر منذ الصغر . سببها ،
باختصار ، حالة المجتمع البشعة . فصحاء اوضاع المجتمع وليس
تقل هناك علل .

كان بازاروف يتحدث بشكل بدا معه وكأنه يفكر في الوقت
ذاته على النحو التالي : «لا فرق بين ما اذا كنت تصدقيني ام

لا! . مسد فوديه بحركة بطيئة من اصابعه الطويلة ، بينما راحت عيناه تجولان في الانحاء . فقالت آنا سيرغييفنا :
- تتصور انه لن يبقى هناك بلداً ، ولا اشرار بعد تصحيح المجتمع ؟

- لدى توفر النظام الاجتماعي الصائب سيكون سواء ، على اقل تقدير ، ما اذا كان الانسان بليداً او ذكياً ، شريراً او خيراً .
- اجل ، فهمت . سيكون لدى الجميع نفس الطحال المتماثل .
- بالضبط ، يا سيدتي الجليلة .
فالتفتت اودينتسوفنا الى اركادي متسائلة :
- وانت ، يا اركادي نيكولايفيتش ، ما هو رايك ؟
فاجاب اركادي :

- انتي متفق مع يفغيني .
فطرت اليه كاتيا عابسة . فقالت اودينتسوفنا :
- انكما تثيران دهشتي ، ايها السيدان . ولكننا سنواصل الحديث فيما بعد . فان خالتي قادمة لتناول الشاي . وعلينا ان نراف بحالها .

دخلت الاميرة خ . . . ، خالة آنا سيرغييفنا ، وهي امرأة قميئة نحيلة ذات وجه صغير منقبض وعينين شريرتين جامدتين تطلان من تحت شعر مستعار اشيب . انحنت للضييفين بالكساد وارتعت على المقعد المخملي الواسع الذي لا يحق لاحد غيرها ان يجلس عليه . وضعت كاتيا تكية تحت قدمي العجوز فلم تشكرها على ذلك بل ولم تنظر اليها ، سوى انها حركت يديها تحت الوشاح الاصفر الذي يغطي جسمها النحيف كله تقريباً . الاميرة تحب اللون الاصفر . فحتى قلنسوتها مزينة بأشرطة صفراء صارخة .
سألها اودينتسوفنا رافعة صوتها اكثر من المعتاد :

- كيف قضيت ليلتك يا خالتي ؟
- هذه الكلبة هنا ايضاً - دعدمت العجوز بدلاً من الجواب ، وعندما لاحظت ان فيفي قامت بخطوتين مترددتين نحوها صاحت بها : - اغربي ! اغربي !

استدعت كاتيا فيفي وفتحت لها الباب :
فاندفعت فيفي الى الخارج فرحة على امل ان احداً ما سيذهب للتنزه معها ، ولكنها عندما ظلت وحدها وراء الباب اخذت تخدشه

وتزق بخفوت . عبست الاميرة ، زمت كاتيا بالخروج . . .
فقالت اودينتسوفنا :

- اظن ان الشاي جاهز ، اليس كذلك ؟ ايها السيدان ،
هيا ، يا خالتي تفضلتي لتناول الشاي .

نهضت الاميرة صامتة من مقعدها وخرجت في مقدمة الجميع من غرفة الاستقبال ، فتوجه الآخرون على اثرها الى غرفة الطعام .
ازاح وصيف صغير مقعداً مخفوقاً بالوسائد عن المائدة وقد اثار صريفاً . هذا المقعد مخصص هو الآخر للاميرة فارتعت عليه .
صبت كاتيا الشاي وقدمت اليها اولاً قدحاً مزخرفاً بشعار ملون .
وصبت العجوز لنفسها شيئاً من العسل في القدح (فكانت ترى ان احتساء الشاي بالسكر خطيئة وانه يكلف غالياً مع انها لم تنفق كوييكاً واحداً على اي شيء) . ثم سألت على حين غرة بصوت ابع وبلهجة ملتوية :

- ماذا كتب الامير ايفان ؟
لم يجيبها احد . وسرعان ما ادرك بازاروف واركادي ان اصحاب البيت لا يعيرونها اهتماماً بالرغم من احترامهم الظاهري لها . وفكر بازاروف في نفسه : «يحتفظون بها من اجل المظاهر لانها من سلالة الامراء» . . . اقترحت آنا سيرغييفنا بعد تناول الشاي الذهاب للتنزه . الا ان المطر بدا يتساقط رذاذاً ، فعاد الجميع الى غرفة الاستقبال ما عدا الاميرة . وصل الجار المحب للعب الورق . واسمه بورفيري بلاتونيتش . وهو شخص بدين اشيب قصير القامة ، مرح ومؤدب للغاية . كانت آنا سيرغييفنا تتحدث مع بازاروف اكثر من غيره فسألته عما اذا كان راغباً في ان ينزلهما في لعبة البرفرانس العتيقة . فوافق بازاروف معلناً انه يتعين عليه ان يتعود على قتل الفراغ بلعب الورق كي يستعد مسبقاً للوظيفة التي تنتظره كطبيب في احد الاقضية . فقالت آنا سيرغييفنا :

- ولكن حذار . فانا وبورفيري بلاتونيتش سنحطمك . - ثم اضافت قائلة : - اما انت يا كاتيا فاعزفي شيئاً لاركادي نيكولايفيتش اذ انه يهوى الموسيقى ، وسوف نستمع اليها نحن ايضاً .

اقتربت كاتيا من البيانو على مضض . وتبعها اركادي على

مضض ايضاً مع انه يهوى الموسيقى فعلاً . فقد خيل اليه ان اودينتسوفاً تبعه عنها بينما اجتاح فؤاده ، كما هو شأن اي شاب في عمره ، ذلك الشعور الغامض المتلهف الشبيه ببوار الحب . رفعت كاتيا غطاء البيانو وسالت بصوت خفيض دون ان تنظر الى ارКАДي :

- ما الذي تريد ان اعزف ؟

فاجاب ارКАДي بلا مبالاة :

- ما تشائين .

فكررت كاتيا السؤال دون ان تبدل جلستها :

- اية موسيقى تفضل ؟

فاجاب ارКАДي بنفس اللهجة :

- الكلاسيكية .

- هل تحب موزارت ؟

- احب موزارت .

احضرت كاتيا نوطات السوناتا الفانطازية لموزارت . وعزفتها على نحو ممتاز وان بشيء من الصرامة والجفاف . جلست باستقامة وبلا حراك دون ان تحيد بنظرها عن النوطات وقد ضمت شففتيها بشدة ، وفي آخر السوناتا احتقن وجهها وتدلّت خصلة صغيرة من شعرها المتهدل على حاجبها القاتم .

اعجب ارКАДي خصوصاً بالقسم الاخير من السوناتا الذي تظهر فيه بفتة ، وسط فرحة النغم المنطلق الآسرة ، انفجالات الكتابة المريرة ، المأساوية تقريباً . . . الا ان افكار ارКАДي التي اثارتها انغام موزارت لم تكن تحوم حول كاتيا . فعندما نظر اليها لم تخطر على باله غير فكرة واحدة : «هذه الفتاة تعزف على نحو لا بأس به ، وهي نفسها لا بأس بها» .

بعد ان انتهت كاتيا من عزف السوناتا سالت دون ان ترفع يديها عن مفاتيح البيانو : «كفاية ؟» .

فقال ارКАДي انه لا يجراً على تكليفها المزيد ، وشرع يتكلم معها عن موزارت ، وسألها عما اذا كانت قد اختارت هذه السوناتا بنفسها ام ان احداً ما نصحها بذلك . الا ان كاتيا كانت تجيبه باختصار . فقد انطوت على نفسها وتقوقعت . عندما تنتابها تلك الحالة يكتسي وجهها بمسحة من العناد الذي يقرب من البلادة . وما

كانت لتخرج الى السطح من قوقعتها الا بعد فترة . لم تكن خجولة ، لكنها كانت مرتابة وعلى شيء من الوجل من اختها التي ربتها ، وما كانت هذه الاخيرة تعرف بذلك طبعاً . وانتهى الامر بارКАДي الى ان استدعى فيفي التي عادت واخذ يمسد راسها بابتسامة ملاطفة يحكم اللياقة لا اكثر . وراحت كاتيا تصفف ازهارها من جديد .

اما بازاروف فكان يتعرض لجزء تلو آخر . كانت آنا سيرغييفنا تلعب الورق بمهارة ، وكان بورقيري بلاتونيتش ماهراً ايضاً . لذا ظل بازاروف هو المغلوب ولو قليلاً ، الا ان ذلك لم يكن بالامر المريح له تماماً . وخلال العشاء عادت آنا سيرغييفنا الى الكلام عن علم النبات حيث قالت لبازاروف :

- فلنذهب للنزهة غداً منذ الصباح . اريد ان اعرف منك

التسميات اللاتينية للنباتات البرية وخواصها .

- وما حاجتك الى التسميات اللاتينية ؟ - سال بازاروف

فاجابته هي :

- ينبغي ان يسود النظام كل شيء .

عندما خلا ارКАДي بصديقه في الغرفة المخصصة لهما هتف

فانلا :

- ما اروعها !

- اجل . آنا سيرغييفنا امرأة ذكية . لقد رات ما رات .

- بأي معنى تقول ذلك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ؟

- بمعنى طيب ، يا عزيزي ! وانا واثق من انها تتصرف

بضيعتها على افضل ما يكون . الا ان المعجزة ليست هي وانما

اختها .

- كيف ؟ تلك السمراء ؟

- اجل ، تلك السمراء . فهي النضارة التي لم يمسه احد .

انها الخوف والصمت وكل ما يرغب المرء فيه . وهي تستحق

الاهتمام . يمكنك ان تصنع منها ما تشاء . اما تلك فهي امرأة

معتكة .

لم يرد ارКАДي على بازاروف بشيء . رقد كلاهما وفي ذهنه

افكاره الخاصة .

كانت آنا سيرغييفنا في ذلك المساء تفكر هي الاخرى

بضيعتها . اعجبها بازاروف بعدم تصنعه وبحدة احكامه . وجدت

فيه شيئاً جديداً لم تصادفه من قبل ، في حين لا يعوزها الفضول .
كانت أنا سيرغيفنا كأننا غريب الاطوار لدرجة كبيرة . فهي
لا تؤمن بأية خرافات وليس لديها أية معتقدات راسخة ، لكنها لا
تتنازل لأحد ولا تتبع أحداً . لقد رأت الكثير ، واولعت بالكثير ،
ولكن ما من شيء يرضيها بالتعام والكمال ، بل ومن المستبعد
انها كانت راغبة فيما يرضيها بالتعام والكمال . كان ذهنها حاداً
ولا بالياً في الوقت ذاته : لم تكن شكوكها لتخمد ابداً الى حد
النسيان ، كما لم تكن لتتأجج ابداً الى حد القلق . ولو لم تكن
ثرية مستقلة لربما انخرطت في المعركة وتذوقت طعم الهوى . . .
لكنها كانت تعيش حياتها بيسر رغم الضجر الذي ينتابها احياناً ،
وهي تواصل توديع ايامها الواحد تلو الآخر دون استعجال ، ودون
تهيج تقريباً . كانت الالوان المستبشرة تلوح احياناً امام ناظرها ،
لكنها تشعر بالارتياح لتلاشي تلك الالوان ولا تحس بالأسف
لغيابها . كان تصورهما يتجاوز حتى حدود ما تعتبره مبادئ الاخلاق
المعتادة امراً مسموحاً به ، لكن دمها حتى في تلك الحالة يظل يجري
باستقرار كالسابق في بدنهما الهادي القويم الجذاب . ويصادق
انها ، عندما تخرج من الحمام المعطر دافئة رقيقة كل الرقة ،
تأخذ في تأمل تفاهات الحياة وكدها وشروها . . . فيمتلئ فؤادها
ببسالة مفاجئة ، ويطفح بالمطامح النبيلة ، ولكن أنا سيرغيفنا
تنقبض وتتأوه حالما يهب نسيم من النافذة المواربة ، فتكاد
تزعزل ، ولا تعود بحاجة في تلك اللحظة الا الى شيء واحد هو ان لا
يهب هذا النسيم الدنيء عليها .

كانت تريد شيئاً ما ، شأنها شأن جميع النساء اللواتي لم
يتسن لهن ان يتذوقن طعم الحب ، ولكنها لا تعرف ماذا تريد
بالضبط . وفي الواقع فهي لم تكن تريد شيئاً ، بالرغم من توهما
بانها تريد كل شيء . كانت بالكاد تطيق المرحوم اودينتسوف
(فقد تزوجت منه لمصلحة ، بالرغم من انها ربما لم تكن لتوافق
ان تصبح زوجة له لو لم تعتبره انساناً طيباً) فولد لديها ذلك
اشمئزازاً خفياً من جميع الرجال ، فلم تعد تتصورهم الا بشكل
كائنات ثقيلة زاوية متحسفة وملحاحة عاجزة . ذات مرة صادفت في
مكان ما في الخارج فتى سويدياً وسيماً بمحيا تكسوه مسحة من
الفروسية وعينين زرقاوين طاهرتين تظللها جبهة عريضة . ترك

فيها هذا الفتى اثرأ شديداً ، ولكن ذلك لم يمنعها من العودة الى
روسيا .
فكرت أنا سيرغيفنا في نفسها : «يا لهذا الطبيب من شخص
غريب الاطوار !» وهي مضطجعة في فراشها الرائع على وسائد مخرمة
تحت لحاف حريري خفيف . لقد ورثت عن ابيها بعضاً من ميله
الى الابهة . وهي تكن حباً جمّاً لابيها الخاطي والطبيب في الوقت
ذاته . وكان هو متيماً بها ، يمزج معها بود كالنمد للنمد ،
وينق بها تمام الثقة ويلتصم النصيح عندها . لكنها لا تتذكر امها .
وفكرت من جديد : «يا لهذا الطبيب من شخص غريب
الاطوار !» . تعددت وابتمست واشبكت يديها تحت رأسها ، ثم
جابت بنظراتها على عجل زهاء صفحتين من رواية فرنسية تافهة ،
وسقط الكتاب من يديها وغفت نظيفة باردة في بياضات نظيفة
عاطرة .

في صباح اليوم التالي توجهت أنا سيرغيفنا مع بازاروف فور
انتهاء الفطور لدراسة النباتات البرية ولم تعد الا قبيل الغداء . لم
يترك اركادي المكان فصرف زهاء ساعة مع كاتيا دون ان يشعر
بالممل ، وقد اعربت هي نفسها عن استعذابها لتكرار سوناتا
الامس ، لكن قلبه انقبض في الحال عندما عادت اودينتسوف
اخيراً وعندما رآها . . . كانت تسير في البستان بخطوات متعبة
بعض الشيء ، وكانت وجنتها متوردتين وعيناها تلمعان بأسطع من
المعتاد تحت قبعة القش المستديرة . كانت اصابعها تداعب عوداً
رفيعاً لزهرة برية ، وقد هبطت طرحتها الخفيفة على مرفقيها وتدلّت
الاشربة الرمادية العريضة من القبعة فلامست صدرها . كان
بازاروف يسير خلفها واثقاً من نفسه وبلا اعتناء ، كما هي عادته
دوماً ، الا ان ملامح وجهه لم تعجب اركادي بالرغم من مرحها بل
لحقي رقتها . توجه بازاروف الى غرفته بعد ان دهم : «مرحباً !» .
اما اودينتسوف فقد شددت على يد اركادي شاردة البال ومرت
ازاءه هي الاخرى .

فكر اركادي : «لماذا قال لي مرحباً ، افلم نلتق اليوم ؟» .
* من عادات الروس ان يحيوا بعضهم البعض بكلمة «مرحباً» مرة
واحدة في اليوم لا اكثر . - المترجم .

الزمن (وهذا امر معروف) يطير كالطير احياناً ويرجع كالسلاحفة احياناً اخرى . الا ان المرء يغدو على احسن حال عندما لا يلاحظ كيف يمر الزمن : سريعاً او بطيئاً . على هذه الحال بالذات صرف اركادي وبازاروف لدى اودينتسوف زهاء خمسة عشر يوماً . وساعد على ذلك ما اعتادت عليه هي من نظام في دارها وحياتها . كانت متمسكة بهذا النظام تمسكاً صارماً ، وكانت تحمل الآخرين على الانصياع له . فكل شيء في غضون اليوم الواحد يجري في اوقاته المحددة . في تمام الثامنة صباحاً يلتئم الجمع لاحتساء الشاي . وفي الفترة بين الشاي والفطور يفعل كل ما يشاء ، وكانت ربة البيت نفسها آنذاك تسوي الامور مع الوكيل (فلاحو الضيعة يعملون على اساس الجزية) ومع كبير الوصفاء وكبيرة مديرات المنزل . وقبل الغداء يلتئم الجمع من جديد لتجاذب اطراف الحديث او للمطالعة . وكانت فترة المساء تخصص للتنزه ولعب الورق والموسيقى . وفي الساعة العاشرة والنصف تتوجه آنا سيرغيفنا الى مضجعها لتنام بعد ان تصدر اوامرها بخصوص يوم غد . لم يرق لبازاروف تنظيم الحياة اليومية الرتيب هذا والمتسم بشيء من المراسيم الاحتفالية . كان يقول : «كان المرء يتدحرج على سكة حديد» . ويعتبر الخدم بيزاتهم الخاصة والوصفاء الخاشعين بمثابة اهانة لمشاعره الديمقراطية . ويرى انه ما دامت الامور تسير على هذا الشكل فينبغي تناول الغداء على الطريقة الانجليزية اذن : بيزات رسمية وربطات عنق بيضاء . وقد تداول في هذا الموضوع ذات مرة مع آنا سيرغيفنا التي اعتادت ان يعرض كل شخص امامها آراءه بلا مواربة . استمعت اليه ثم قالت : «انت محق من وجهة نظرك . ولربما انني ، في هذه الحالة ، ابدو اقطاعية حقاً . لكنه لا يجوز العيش في الريف على نحو مشوش ، فالضجر سيقتلنا آنذاك» . وواصلت العمل على هواها . كان بازاروف يتذمر من ذلك . لكن السبب الذي جعله واركادي يعيشان بيسر وسهولة عند اودينتسوف هو بالذات ان كل شيء في دارها «كانما يتدحرج على سكة حديد» . ومع ذلك حدث تغير لدى كلا الشابين منذ الايام الاولى لمكوئهما في نيكولسكويه . فان بازاروف الذي مالت اليه

آنا سيرغيفنا ، كما هو واضح ، بالرغم من ندرة اتفاقها معه ، صار يشعر بقلق لم يكن يعرف له اثرأ في السابق : غدا سريع الانزعاج ، قليل الرغبة في الكلام ، واخذ ينظر شزراً ، ولا يقر له قرار . كما لو انه يشعر بوخز خفي . اما اركادي الذي خيل اليه نهائياً بأنه وقع في غرام اودينتسوف فقد اخذ ينساق للكآبة الهادئة . ومع ذلك لم تمنعه هذه الكآبة من التقرب الى كاتيا ، بل وساعدته على ان يقيم معها علاقات ودية رقيقة . فكر اركادي في نفسه : «قلبك لا تقدرني ! فليكن ! . . اما هذا الكائن الطيب فلا يرفضني» ، وتذوق قلبه من جديد حلاوة الاحاسيس المتسامحة . كانت كاتيا تخمن بأنه يبحث عن تهدئة للنفس بمعاشرتها ، فلم تعزله ولم تحرم نفسها من اللذة العذرية الناجمة عن الصداقة المشوية بشيء من الخجل والموشحة بشيء من الثقة . وما كان الاثنان ليحدثا بعضهما البعض بحضور آنا سيرغيفنا : كانت كاتيا تنكمش دوماً بتأثير نظرة اختها الثاقبة ، اما اركادي فما كان باستطاعته ، شأنه شأن اي محب ، ان يلتفت الى اي كائن آخر بحضور محبوبته ، ولكنه لم يكن يشعر بالارتياح الا لوجوده مع كاتيا وحدها . كان يدرك بأنه عاجز عن اثارة اهتمام اودينتسوف ، ولذا فهو يعاني من الوجل والحيرة عندما يبقى معها وحيداً . ولم تكن هي الاخرى تعرف ماذا ينبغي ان تقول له : فهو لا يزال يافعاً جداً بالنسبة لها . اما مع كاتيا فعلى العكس . كان اركادي يشعر وكأنه مع واحد من اهله ، وكان متساهلاً معها ، فلا يعيقها عن الاعراب عن الانطباعات التي تخلفها في نفسها الموسيقى ومطالعة القصص والاشعار وغير ذلك من التفاهات ، دون ان يلاحظ او يدرك ان هذه التفاهات تشغل باله هو ايضاً . ولم تكن كاتيا ، من ناحيتها ، لتعيقه عن الاستسلام للاحزان . كان اركادي يرتاح لكاتيا ، وكانت اودينتسوف ترتاح لبازاروف ولذلك جرت العادة على ان يلتقي الاربعة لأمد قصير ثم يفترقوا فينوجه كل زوج الى جهته ، وخصوصاً اثناء النزاهات . كاتيا مغرمة بالطبيعة ، واركادي يحب الطبيعة ايضاً بالرغم من انه لم يجزو على الاعتراف بذلك . كانت اودينتسوف ، شأنها في ذلك شأن بازاروف ، غير مولعة بالطبيعة . ولم تمر الفرقة المستمرة تقريباً بين صاحبيها دون ان تترك اثرها : فقد اخذت علاقاتهما تتغير .

كف بازاروف عن التحدث الى ارКАДي بشأن اودينتسوف ، بل وكثر حتى عن نقد «عاداتها الارستقراطية» ، ولكنه ظل كالسابق يمتدح كاتيا ، سوى انه نصح بتهذبة الميول العاطفية لديها . الا ان مدائح كانت مستعجلة ونصائحه جافة . وعلى العموم صار يتحدث مع ارКАДي اقل بكثير من السابق . . . لقد بدا وكأنه يتحاشاه ويخجل منه . . .

لاحظ ارКАДي ذلك كله ، ولكنه احتفظ بملاحظاته لنفسه . كان السبب الفعلي لهذا «التغير الطارئ» هو الشعور الذي اوحته اودينتسوف لبازاروف ، فصار يعذبه ويخرجه عن طوره ، في حين كان بازاروف مستعداً للتخلي عنه في الحال ببقية مستهينة وشتائم وقحة لو ان احداً ما لمح مجرد تلميح الى احتمال وقوع ما يعتل في دخيلته . كان بازاروف من اشد هواة النساء والجمال الانثوي ، ولكنه نعت الحب المثالي ، او الرومانسي على حد تعبيره ، بالهراء وبالحماسة التي لا تغتفر ، واعتبر المشاعر الفروسية بمثابة القبح او المرض ، واعرب اكثر من مرة عن استغرابه من عدم زج توغينبورغ* مع جميع شعراء الفروسية العاطفين في دار المجاذيب . كان يقول : «اذا اعجبتك امرأة فحاول ان تحصل منها على مبتغاك ، واذا لم يكن هذا ممكناً ، فلا داعي لشيء» ، حول وجهك عنها : فالكون غير متوقف عليها» . لقد راقته اودينتسوف . وكانت الاشاعات المنتشرة عنها وطلاقة افكارها واستقلالها وميلها دون شك اليه - كل ذلك كان لصالحه حسب الظاهر . لكنه سرعان ما ادرك بانه «لن يحصل منها على مبتغاه» ، وبانه لا يمتلك القوى الكافية ، ويا لدعشه ، لتحويل وجهه عنها . كان دمه يفرور حالماً يتذكرها . وكان بوسعه ان يكبح دمه بسهولة ، لكن شيئاً آخر اجتاحه ، شيئاً ما كان يتوقعه ابداً ، شيئاً كان يسخر هو منه دائماً ، مما اهان كبريائه اشد اهانة . وصار في احاديثه مع آنا سيرغييفنا يعرب بأكثر من السابق عن احتقاره اللاابالي لكل ما هو رومانسي ، ولكنه عندما يخلو بنفسه يشتاط غضباً لوجود الرومانسي في دخيلته هو . وعند ذاك

* بطل ملحمة شيلر «الفارس توغينبورغ» . - المترجم .

يتوجه الى الغابة ويجوبها بخطوات واسعة محطماً الاغصان التي تصادفه ومسلطاً اللوم بصوت خافت على اودينتسوف وعلى نفسه ، او يرتقي بيدر العشب المجفف في العنبر ثم يغلق عينيه بعناء ليرغم نفسه على النوم ، الامر الذي لا يتيسر له على الدوام بالطبع . وعلى حين غرة يخيل اليه ان هاتين العينين الذكيتين ستحدقان في عينيه برقة ، اجل برقة . . . وعند ذاك ينتابه الدوار ، وينسى نفسه للحظة الى ان يثور الحنق فيه من جديد . كان يلوم نفسه على مختلف انواع الافكار «الشائنة» ، كما لو ان الشيطان هو الذي اغواه . ويخيل اليه احياناً ان تغييراً يطرا على اودينتسوف ايضاً ، وان شيئاً ما متميزاً صار يبدو على ملامح وجهها ، لربما . . . ولكنه آنذاك كان يضرب الارض برجله عادة او يصر على اسنانه ويهدد نفسه بقبضته .

والحال فان بازاروف لم يكن على خطأ تماماً . لقد ادهش اودينتسوف وشغل بالها فصارت تفكر فيه كثيراً . لم تكن تشعر بالملل في غيابه ولم تكن تتوق اليه ، لكن ظهوره ينعشها على الفور ، وهي تنفرد به برغبة وتحدث اليه برغبة حتى عندما يفيظها او ينال من ذوقها ومن عاداتها الرشيقة . كانت كانما تريد ان تختبره وتختبر نفسها .

ذات مرة اعلن بصوت متجهم وعلى نحو مباغت ، اثناء تجوله معها في البستان ، انه ينوي السفر قريباً الى ابيه في القرية . . . سحب لونها وكانما تعرض قلبها لوخزة ، وخزة حادة اثارت دهشتها وجعلتها فيما بعد تفكر لأمدة طويلة فيما يعنيه ذلك . وما كان بازاروف ليعلم لها عن رحيله بغية اختبارها ومعرفة ما يمكن ان يؤول اليه ذلك : فهو لم يكن يلجأ الى الكذب ابداً . اذ انه تقابل في صباح ذلك اليوم مع خادمه السابق تيموفيتش الذي اصبح وكيلاً لابيه . وهو عجوز ضئيل محنك ورشيق بشعره الاصفر الباهت ووجهه المتورد المسفوق وعينييه المنكمشتين المنطريتين على دمعتين دقيقتين . فعلى حين غرة مثل امام بازاروف تيموفيتش هذا بقفطانه القصير من الجوخ السميك الرمادي المائل الى الزرقة ، وجزمته المطلية بالقطران ، وهو متمنطق بحزام جلدي مقطوع الطرفين . هتف به بازاروف قائلاً :

- هيا ، مرحباً يا شميخ !

- مرحباً يا سيدي يفغيني فاسيليفيتش - اجاب العجوز
وابتسم منشرحاً ، فاكثسى وجهه فوراً بالتجاعيد والفضون .
- لم جئت ؟ ارسلوك لاستدعائي ، اليس كذلك ؟
- معذرة ، يا سيدي ، كيف يجوز ذلك ؟ - تعتم تيموفيتش
(وقد تذكر الوصية الصارمة التي تلقاها من سيده الاب قبيسل
رحيله) - كنت متوجهاً الى المدينة لأداء بعض الشؤون ، فسمعت
بوجود حضرتكم ، ولذا عرجت في طريقي ، لانظر الى طلعتكم
البهية . . . فكيف لي ان اقلقكم ؟ !
- لا تكذب - قاطعه بازاروف - فهل يمر الطريق الى المدينة
من هنا ؟

انكمش تيموفيتش ولم يحر جواباً .
- كيف حال والدي ؟ هل هو بصحة جيدة ؟
- الحمد لله ، يا سيدي .
- ووالدتي ؟
- ايرينا فلاسيفنا كذلك ، والحمد لله .
- لا بد انهما ينتظرانني ، اليس كذلك ؟
مال العجوز براسه الضئيل جانباً وقال :
- آه ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، كيف لا ينتظران ؟ ! الله
شاهد على ما اقول . يتفطر القلب المأ عندما انظر الى والديكم .
- كفى ، كفى ، لا تبالغ . قل لهما بانسي ساضر
قريباً .
- سمعاً وطاعة ، يا سيدي - اجاب تيموفيتش وتنفس
الصعداء .

خرج من الدار وهو يرتدي عمرته ويشدها على راسه بكلتا
يديه . صعد الى عربته الخفيفة المزرية التي تركها عند البوابة ،
ثم اسرع بها خبياً ، ولكن ليس باتجاه المدينة .
في مساء ذلك اليوم كانت اودينتسوف جالسة في غرفتها مع
بازاروف ، بينما راح اركادي يحوب القاعة منتصفاً الى عزف كاتيا .
وقبعت الاميرة في غرفتها في الطابق العلوي ، فهي على العموم
لا تطبق الضيوف ، وخصوصاً هذين «الوقحين الجديدين» كما
وصفتها . اعتادت ان تجلس منتفخة الوداج في سائر غرف المنزل ،
ولكنها عندما تختلي في غرفتها تنفجر احياناً امام وصيفتها بشتانم

مقدعة بحيث تهتز قلنسوتها على راسها مع شعرها المستعار من
جرا الانفعال . وكانت اودينتسوف على علم بذلك .
بدات كلامها متسائلة :

- كيف عذمت على السفر دون ان تفي بوعدك ؟
انتفض بازاروف :
- اي وعد يا سيدتي ؟
- هل نسيت ؟ لقد اردت ان تقدم لي بضعة دروس في
الكيمياء .

- لا حيلة في الامر ! والدي ينتظرني . ولا يجوز ان اتأخر
اكثر مما تأخرت . بالمناسبة يمكنك ان تقراي كتاب «مبادئ
الكيمياء العامة» من تأليف بيلوز وفريمي * فهو كتاب جيد بلغة
واضحة . وستجدين فيه كل ما تحتاجين اليه .
- افلا تتذكر انك اكدت لي ان الكتاب لا يمكن ان يعرض
عن . . . نسيت تعبيرك ، ولكنك تعرف ما اريد ان اقول . . .
هل تتذكر ؟

- لا حيلة في الامر يا سيدتي ! - كرر بازاروف .
فقال اودينتسوف بصوت اوها :
- ها الداعي للسفر ؟

القي عليها بنظرة ومالت هي براسها الى مؤخرة المقعد وصلبت
يديها العاريتين حتى المرفقين على صدرها . بدت شاحبة في ضوء
المصباح الوحيد المغطى باباجور من قماش مخرم . وكان فستان
ابيض فضفاض يلفها كلياً بطياته الناعمة ، وبالكاد بدا طرفا
رجليها المتصالبتين ايضاً .

اجابها بازاروف بسؤال : وما الداعي للبقاء ؟
التفتت اودينتسوف :

- كيف ؟ افلست مسروراً عندي ؟ ام انك تظن بانه لن
ياسف عليك احد هنا ؟
- انا واثق من ذلك .

* في الاصل بالفرنسية Pelouse et Frémy « Notions générales de Chimie »
جول بيلوز (١٨٠٧-١٨٦٧) وادموند فريمي (١٨١٤-١٨٩٤)
عالمان فرنسيان صدر كتابهما في باريس عام ١٨٥٣ .

صمتت اودينتسوفاً قليلاً ثم قالت :
 - عبثاً تفكر هكذا . وبالنسبة انا لا اصدقك . فليس
 بإمكانك ان تقول ذلك بجد - ظل بازاروف جالساً بلا حراك -
 لماذا الصمت ، يا يفغيني فاسيليفيتش ؟
 - ما الذي يمكنني ان اقله لك ؟ لا داعي للتأسف على الناس
 عموماً ، وعلى خصوصاً .
 - لماذا ؟

- انا شخص مستقيم موحش ، ولا اجيد الكلام .
 - انك تنشئ المديح يا يفغيني فاسيليفيتش .
 - ليس ذلك من عاداتي . افلا تعلمين ان التمتع بالجانب
 الجميل من الحياة ، ذلك الجانب الذي تعترين به انت ، ليس في
 مقدوري ؟

اخذت اودينتسوفاً تمضغ طرف منديلها اليدوي ثم قالت :
 - فكر ما شاء لك . اما انا فساأشعر بالضجر عندما تسافر .
 فقال بازاروف :

- سيظل اركادي عندكم .
 هزت اودينتسوفاً كتفها وكررت من جديد :

- ساأشعر بالضجر .
 - على كل حال لن تضجري لأمد طويل .
 - لماذا تفترض ذلك ؟

- لانك قلت لي ان الضجر لا ينتابك الا عندما يصيب الخل
 النظام لديكم . وقد بنيت حياتك على نحو صائب لا خلل فيه ، بحيث
 لن يبقى فيها مجال لا للضجر ولا للسأم . . . بل ولا لأية مشاعر
 مريرة .

- هل صحيح ما تقول ؟ هل بنيت حياتي على نحو صائب
 حقاً ؟

- كيف لا ؟ الساعة ، مثلاً ، ستدق العاشرة بعد لحظات ،
 وانا اعرف مسبقاً انك ستطرديني .

- كلا ، لن اطردك ، يا يفغيني فاسيليفيتش . بوسعك ان
 تبقى . افتح هذه النافذة . . . فقد ضاقت انفاسي شيئاً .

نهض بازاروف ودفع النافذة فانفتحت مدوية على
 مصراعها . . . لم يكن يتوقع انها ستنتفتح بهذه السهولة ، ثم ان



يديه ترتعشان . اطلت على الغرفة ليلة ناعمة حالكة بسماء سوداء
تقريباً واشجار ينبعث منها خفيف خفيف ونسيم طلق عليل تفوح
منه رائحة طرية .

فقالت اودينتسوف :

- اسحب الستارة واجلس . اريد ان اثرثر معك قبيل
رحيلك . حدثني قليلاً عن شخصك ، فانت لا تتكلم عن نفسك
ابداً .

- احاول . يا آنا سيرغييفنا ، ان اتحدث معك عن اشياء
نافعة .

- انت في منتهى التواضع . . . ولكن بودي ان اعرف شيئاً
عنك ، عن اسرتك ، عن والدك الذي تتركنا من اجله .
ففكر بازاروف : «لماذا تقول مثل هذا الكلام ؟» ثم نطق بصوت
مسموع :

- ليس في ذلك ما يسر ابداً . وخصوصاً بالنسبة لك .
فنحن من سواد البشر . . .

- اما انا فارستقراطية برايك ، اليس كذلك ؟
رفع بازاروف بصره اليها وقال بحدة فيها شيء من المبالغة :
- بلى .

ضحكت بسخرية وقالت :

- يخيل اليّ انك لا تعرفني الا قليلاً ، لاسيما وانك تؤكد
ان الناس جميعاً متشابهون ولا داعي لدراستهم . سوف اقص عليك
قصة حياتي كاملة في وقت ما . . . ولكن حدثني عن
حياتك اولاً .

فقال بازاروف :

- انني لا اعرفك الا قليلاً . ربما انت على حق . ولعل كل
انسان لفر في الواقع . فلو تناولناك انت مثلاً ، انك تشعرين
بالغربة في المجتمع ، وهو يثقل عليك ، ومع ذلك دعوت طالبين
ليسكننا عندك حيناً من الوقت . ثم لماذا تقيمين في الريف ، انت
التي تتحلين بالحصافة والجمال ؟

- كيف ؟ ماذا قلت ؟ انا اتحلى . . . بالجمال ؟

سالت اودينتسوفاً منتعشة . فعبس بازاروف ثم قال :

- لا فرق ، اردت ان اقول اني لا افهم جيداً لماذا تقيمين في الريف ؟

- انك لا تفهم . . . ولكنك تفسر ذلك لنفسك بشكل ما ، اليس كذلك ؟

- اجل . . . يخيل اليّ انك باقية طوال الوقت في مكان واحد لانك دلت نفسك ولانك تحبين اسباب الراحة جداً جداً ، ولا تبالين بأي شيء آخر .

ضحكت اودينتسوبا من جديد :

- انت لا تريد قطعاً ان تصدق بانني يمكن ان اولع ؟ . . . فنظر اليها بازاروف عابساً :

- بحب الاستطلاع ، ربما . ولكن ليس بشيء آخر .

- حقاً ؟ ها انا افهم لماذا تألفنا . ان الطيور على اشكالها تقع .

- تألفنا . . . - دمدم بازاروف بصوت مكتوم .

- آه ! لقد نسيت بانك تنوي السفر .

نهض بازاروف . كان المصباح ينور بغفوت وسط الغرفة المنعزلة العاطرة التي اكتنفها الظلام بعض الشيء . وكانت طراوة الليل المستثيرة تتسرب عبر الستارة التي تتموج بين الفينة والفينة ، ويتهادى الهمس الليلي السحري . لم تحرك اودينتسوبا ساكنها ، لكن اضطراباً خفياً اخذ يدب فيها تدريجياً . . . وانتقل هذا الاضطراب بالتدريج الى بازاروف الذي ادرك اخيراً انه اختل بامرأة شابة رائعة . . . سألت متباطئة : - الى اين انت ؟

لم يحرك جواباً وارتمى على الكرسي . فواصلت كلامها بنفس الصوت دون ان تحيد ببصرها عن النافذة :

- انت تعتبرني انسانة هادئة منعمة مدللة . بينما انا وانقة من انني في منتهى التعاسة .

- التعاسة ! ما سببها ؟ هل تستحق تلك الاقاويل الدنيئة ان تعيرها ادنى اهتمام ؟

عبست اودينتسوبا ، واحزنها ان بازاروف فهمها على هذا النحو فقالت :

- هذه الاقاويل عاجزة حتى عن اثارة الضحك ، يا ينفيني فاسيليفيتش . وانا اربأ بنفسني عن ان اجعلها تقلقني . انني

نعيسة لانني . . . لست راغبة في العيش . انت تنظر اليّ بازدياب ، وتفكر ان التي تتكلم معك «ارستقراطية» غارقة في المانتيل والتياب الفاخرة وجالسة على مقعد مخملي . لا انكر اني احدى ما وصفته بأسباب الراحة ، ومع ذلك لا ارغب كثيراً في العيش . حاول ان توفق بين هذين الضدين كما يحلو لك . ولكن ذلك كله في نظرك ، رومانسية .

فهز بازاروف رأسه وقال :

- انك انسانة حرة ترية معافاة ، فما الذي يعوزك ؟ وماذا تريد بعد ؟

فكرت اودينتسوبا قوله وتنهدت :

- ماذا اريد ! انا مرهقة للغاية ، ولقد شخت ، حتى خيل اليّ انني اعيش من زمان بعيد جداً . اجل ، لقد شخت - اضافت وهي تسحب بهدوء اطراف الطرحة فتغطي بها يديها العاريتين . تقابلت عينها مع عيني بازاروف ، فاحمر محياها بعض الشيء :

- خلقت الكثير من الذكريات : الحياة في بطرسبورغ ، والنزاع ، ثم الفقر ، ثم وفاة ابي ، والزواج ، ثم الرحلة الى الخارج . . . الذكريات كثيرة ، ولكن لا قيمة لها . وامامي طريق طويل ، طويل للغاية ، بينما ليس لدي هدف . . . ولذا فانا لست راغبة في السير .

- هل خابت آمالك الى هذه الدرجة ؟ - سألها بازاروف ، فاجابته متمهلة :

- كلا . ولكنني لست قانعة . يخيل اليّ لو انني استطعت ان اعلق بشيء ما تعلقاً شديداً . . .

فقاطعها بازاروف :

- بورك ان تحبي ، لكنك لا تستطيعين . وهذا هو مبعث تعاستك .

انشغلت اودينتسوبا بتفقد رذني طرحتها ، ثم تساءلت :

- الا استطيع ان احب ؟

- امر مستبعد . ولكن عبتاً وصفت حالتك بالتعاسة . على العكس فالذي يحدث له ذلك يستحق الشفقة على الاكثر .

- من تعني ؟

- الذي يحب .

- ومن اين لك ان تعرف ؟

- بالسمع - اجاب بازاروف حانقاً ، وفكر في نفسه : «انك تتعجبين . انك ضجرة وتتحرشين بي لعدم انشغالك بشي ، بينما انا . . .» وكاد قلبه يتفطر حقاً . فقال وقد مال بجسمه كله الى امام وهو يتلاعب باهداب المقعد :

- ثم انك متشدة جداً ، على ما اعتقد .

- ربما . في رأيي : اما كل شي ، واما لا شي . حياة بحياة . فاذا استأثرت بحياتي هبني حياتك ، وعند ذاك لن يكون هناك مجال للاسف ولن يكون هناك خط رجعة . والا فلا داعي لشي . فقال بازاروف :

- حقاً . هذا شرط مشروع . لكن ما يدهشني هو انك حتى الآن . . . لم تعثري على ما ترغبين .

- وهل تظن ان من السهل الاستسلام كلياً لاي شي ، مهما كان ؟

- ليس ذلك بالامر السهل اذا اخذ المرء يتأمل ، وينتظر ، بل وقيم نفسه بنفسه ، اي يعتز بها . اما الاستسلام بدون تفكير فهو في منتهى البساطة .

- كيف لا يعتز المرء بنفسه ؟ فاذا لم تكن لي اية قيمة فمن ، يا ترى ، بحاجة الى اخلاصي ؟

- ليس من شأني ، بل من شأن الانسان الآخر ، ان يقدر قيمتي . الامر الرئيسي هو اجادة الاستسلام .

مال الى اودينتسوف الى الامام قليلاً فابتعد ظهرها عن مؤخرة المقعد ، وقالت :

- انك تتكلم وكأنما قد جربت ذلك كله .

- اقول هذا الكلام للمناسبة فقط . فانت تعرفين ، يا آنا سيرغييفنا ، ان ذلك كله ليس من اختصاصي .

- ولكن بوسعك انت ان تستسلم ، اليس كذلك ؟

- لا ادري . لا اريد التباهي .

لم تقل اودينتسوف شيئاً ، فلزم بازاروف الصمت . تهادت اليهما اصوات البيانو من غرفة الاستقبال . فقالت اودينتسوف :

- ما الذي جعل كاتيا تعزف في هذا الوقت المتأخر ؟ !

فنهض بازاروف وقال :

- اجل ، الوقت متأخر بالفعل ، وقد حان موعد نومك .

- تمهل ، ما الداعي للعجلة ؟ . . اريد ان اقول لك كلمة واحدة .

- ما هي ؟

- تمهل - قالت اودينتسوفاً همساً .

تجمعت نظرتها على بازاروف وكأنما هي تتفحصه باهتمام . جاب الغرفة بعض الشيء ثم اقترب منها على حين غرة وقال باستعجال «وداعاً» وشد على يدها بقوة كادت تجعلها تصرخ ، ثم خرج . رفعت اصابعها المتلاصقة الى شفثيها ونفخت عليها ، ثم نهضت من المقعد بقفزة على الفور وتوجهت الى الباب بخطوات سريعة وكأنما تريد اعادة بازاروف . . . دخلت الى الغرفة في تلك اللحظة وصيفة تحمل دورقاً زجاجياً على صينية فضية . توقفت اودينتسوفاً واشارت على الوصيفة بالانصراف ثم جلست مجدداً وغرقت في التفكير من جديد . انفكت صغيرتها وتهذلت كافي سوداء على كتفها . ظل المصباح ينير غرفتها لأمد طويل ، وظلت هي لأمد طويل بلا حراك ، سوى انها كانت تمسد باصابعها بين الفينة والفينة ذراعيها اللتين مسهما يرد الليل .

اما بازاروف فقد عاد بعد زهاء ساعتين الى غرفة نومه منكمشاً متجهاً وقد تبللت جزمته بالندى . وجد اركادي جالساً قرب الطاولة ويده كتاب وسترته مشدودة الازرار حتى العنق . فسأله بازاروف وكأنما في صوته نامة زعل :

- ألم تنم بعد ؟

فقال اركادي دون ان يجيب على سؤاله :

- جلست طويلاً اليوم مع آنا سيرغييفنا .

- اجل ، جلست معها عندما كنتما ، اثنت وكاتيا ، نعزفان على البيانو .

- انا لم اعزف . . . - اراد اركادي ان يواصل كلامه ، ولكنه لزم الصمت . لقد احس بان الدموع ستنهمر من عينيه ، ولكنه لا يريد البكاء امام صديقه الساخر .

الشرقية» من تأليف غانوت) * . فالرسوم في هذا الكتاب أكثر وضوحاً ، وعلى العموم فإن هذا المنهج . . .

مدت اودينتسوفاً يدها وقالت :
- معذرة ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، فقد دعوتك الى هنا ليس بقصد مناقشة المناهج الدراسية . بودي ان تستأنف حديث البارجة . فقد انصرفت انت على نحو مفاجئ . . . هل يزعجك ذلك ؟
- انا في خدمتك ، يا آنا سيرغيفنا . ولكن عم تحدثنا البارجة يا ترى ؟

صوبت اودينتسوفاً نظرة منحرفة الى بازاروف :
- يخيل اليّ اننا تحدثنا عن السعادة . حدثتك انا عن نفسي . وبالمناسبة فقد ذكرت كلمة «السعادة» . فاخبرني ما الذي يجعلنا ، حتى عندما نتمتع بالموسيقى ، مثلاً ، او بأمسية جيدة او بحديث مع اناس طيبين ، نتصور ذلك كله مجرد اشارة الى سعادة لا حدود لها ، سعادة موجودة في مكان ما ، غير السعادة الفعلية ، اي السعادة التي نتمتع بها نحن ؟ ما السبب في ذلك ؟ ام انك ربما لا تشعر بشيء من هذا القبيل ؟
فاغترض بازاروف :

- انت تعرفين المثل القائل «الحال افضل في ديار الآخرين» . ثم انك نفسك قلت البارجة بانك غير قانعة . اما انا فلا تتبادر الى ذهني مثل هذه الافكار .
- ربما تبدو لك مضحكة ؟
- كلا ، ولكنني لا افكر بها .
- حقاً ؟ اتعلم بانني تواقّة جداً الى معرفة ما تفكر به انت ؟
- كيف ؟ انني لا افهمك .

- تصور ، لقد اردت ان نتصارح من زمان . ولا داعي لان افول لك انك لست من الناس العاديين . فانت تعرف ذلك بنفسك . انك لا تزال في طور الشباب والحياة كلها امامك . فالأمّ تعد نفسك ؟ وما هو المستقبل الذي ينتظرك ؟ اقصد : اي هدف تنوي تحقيقه ؟ والى اين تسير ؟ وما الذي تنطوي عليه جوانحك ؟ وباختصار : فمن انت ؟ وما هي هويتك ؟

* في الاصل بالفرنسية : Ganot, «Traité élémentaire de physique expérimentale»
ادولف غانوت عالم فيزيائي ورياضي (١٨٠٤-١٨٨٧) .

عندما حضرت اودينتسوفاً لتناول الشاي قبيل الافطار في صباح اليوم التالي ظل بازاروف جالساً لأمداً طويلاً وقد انحنى على قدميه . ثم نظر اليها فجأة . . . فالتفتت اليه وكأنما تلقت دفعة منه . خيل اليه ان وجهها قد شحبت شيئاً خلال الليل . وسرعان ما انزوت في غرفتها حتى حان موعد الافطار . كان الطقس ممطراً منذ الصباح ، ولم يكن بالامكان التنزه . فالتام الجمع كله في غرفة الاستقبال . احضر اركادي آخر عدد من احدى المجلات واخذ يقرأ بصوت مسموع . فبدت الدهشة على وجه الاميرة ، كما هي العادة ، في بادئ الامر ، وكأنما اقترف هو جريرة معيبة . ثم ركزت انظارها الحاقدة عليه ، ولكنه لم يعبأ بها .

فقلت آنا سيرغيفنا لبازاروف :
- فلنذهب الى مكتبي . . . يا يفغيني فاسيليفيتش . . . اريد ان اسالك شيئاً . . . لقد ذكرت امس اسم كتاب . . . نهضت وتوجهت الى الباب . فتلفتت الاميرة حوالها ولسان حالها يقول : «انظروا ، انظروا ، ما اشد دهشتي !» ثم ركزت انظارها من جديد على اركادي ، ولكنه رفع صوته وتبادل النظرات مع كاتيا الجالسة قربة وواصل القراءة .

ادركت اودينتسوفاً مكتبها بخطوات سريعة . وتبعها بازاروف بخفة دون ان يرفع بصره ، ولكنه كان يتلطف بمسمعه الخفيف الرقيق المنبعث من القستان الحريري السائر امامه . جلست اودينتسوفاً في نفس المقعد الذي جلست عليه بالامس ، وشغل بازاروف المكان الذي شغله بالامس .

فقلت هي بعد فترة صمت قصيرة :
- ما اسم ذلك الكتاب ؟
فاجاب بازاروف :

- «مبادئ الكيمياء العامة» من تأليف بيلوز وفريمي) * . ويمكن ان اوصيك كذلك بدراسة : «المنهج الاول في الفيزياء»

* في الاصل بالفرنسية .

- انك ثيرين دهشتي ، يا آنا سيرغييفنا . انت تعلمين بالي
ادرس العلوم الطبيعية . اما من انا . . .
- اجل ، من انت ؟

- لقد اخبرتك بانني سأكون طبيباً في احد الاقضية .
ندت عن آنا سيرغييفنا حركة غير متأنية :

- لماذا تقول ذلك ؟ انك لا تؤمن بما تقول . بوسع اركادي
ان يجيبني على هذا النحو ، وليس انت .
- فهل اركادي أسوأ . . .

- كفاك . هل يجوز ان تقتنع بمثل هذا العمل المتواضع ؟
اولست انت الذي اكدت دوماً ان الطب غير موجود بالنسبة لك ؟
كيف لك ، بانفتك المعروفة ، ان تصبح طبيباً في احد الاقضية ؟
انك تجيبني على هذا النحو لكي تتخلص مني لانك لا تثق بي قيد
شعرة . ولكن هل تعلم ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، بانني يمكن ان
افهمك : كنت بنفسى فقيرة اتوفا مثلك ، ولربما اجتزت نفسى
المحن التي تجتازها .

- كل ذلك شيء طيب ، يا آنا سيرغييفنا ، ولكن معذرة . . .
فأنا على العموم لم اعتد الحديث عن نفسى . ثم ان الهوة بينك
وبيني حقيقة . . .

- اية هوة ؟ ستقول لي من جديد اني ارسنقراطية ، اليس
كذلك ؟ كفاك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ! اظن اني اثبت
لك . . .

- ثم - قاطعها بازاروف - ثم ما الداعي للكلام والتفكير في
مستقبل لا يعتمد علينا بقسمه الاعظم ؟ فاذا حدث وعملت شيئاً
مفيداً فذلك امر رائع ، واذا لم يحدث فساكون ، على الاقل ، فاعاً
باني لم اثرثر عيشاً قبل الاوان .

- انت تمنعت الحديث الودي بالثروة . . . ام انك ربما لا
تعتبرني ، كامرأة ، انساناً يستحق ثقتك ؟ فانت تحتقرنا جميعاً .
- انني ، يا آنا سيرغييفنا ، لا احتقر بالذات ، وانت تعرفين
ذلك .

- كلا ، لا اعرف شيئاً . . . ولكن فلنفترض اني افهم عدم
رغبتك في الكلام عن عمالك المرتقب ، بيد ان ما يعمل فيك
الآن . . .

- يعمل ! فهل انا دولة او مجتمع ؟ ! على كل حال ليس ذلك
امراً هاماً . ثم هل يستطيع المرء ان يتكلم بصوت جهوري دوماً عن
كل ما "يعمل" فيه ؟

- انا لا افهم المانع في الافصاح عن كل ما يشعر به المرء .
- وهل تستطيعين ذلك انت ؟ - سالها بازاروف ، فاجابت
بعد تردد قصير :

- استطيع .
طاطا بازاروف راسه ، وقال :

- انت اسعد مني .
فالتت عليه آنا سيرغييفنا نظرة متسائلة ، وواصلت كلامها :
- فليكن . ومع ذلك هناك شيء يقول لي اننا لم نتألف عيشاً ،
واننا سنكون صديقين حميمين . انا واثقة من ان تترك هذا ، ان
صح القول ، او تحفظك سيتلاشى في آخر المطاف .
- هل لاحظت لديّ تحفظاً . . . او توتراً على حد تعبيرك ؟
- اجل .

- نهض بازاروف واقترب من النافذة .
- وتريدان ان تعرفي سبب هذا التحفظ ، وتعرفي ما يعمل
في دخيلتي ؟

- اجل - كررت اودينتسوفاً بخوف غامض .
- ان تزعلي مني ؟
- كلا .

- كلا ؟ - كان بازاروف واقفاً وظهره اليها - فاعلمي اذن اني
احبك بغيا . وجنون . . . هذا ما فعلته بي .

- مدت اودينتسوفاً كلتا يديها الى الامام ، بينما التصقت جبهة
بازاروف بزجاج النافذة . كان يتنفس بعسر ، وكان بدنه يرتعش
كليا على ما يبدو . لكن ما انتابه لم يكن هو ارتعاشه وجل الشباب
ولا الذعر اللذيذ من الاعتراف الاول . لقد نبض في دخيلته هوى
شديد مرهق ، هوى شبيه بالغيظ ، ولربما هو الغيظ
ذاته . . .

- ارتعبت اودينتسوفاً من ذلك وشعرت بالعطف على بازاروف
فالتت بصوت رنت فيه نغمة عفوية رقيقة :
- يفغيني فاسيليفيتش .

استدار بسرعة والقي عليها نظرة نهمة ، ثم أمسك بكلتا يديها واحتضنها بفتة .
لم تتخلص من احضانه فوراً . لكنها بعد لحظة صارت تقف بعيداً في الركن وتنظر الى بازاروف من هناك . وهرع مسموع اليها . . .

فقلت برعب واستعجال :

- لم تفهمني .

وخيل اليها انه لو خطا خطوة اخرى لصرخت . . . عجز بازاروف شففته وانصرف .

بعد نصف ساعة سلمت الخادمة تذكرة من بازاروف الى آنا سيرغييفنا . كان فيها سطر واحد لا غير : «هل يتعين عليّ السفر اليوم ، ام يمكنني البقاء الى غد ؟» فاجابته آنا سيرغييفنا : «ما الداعي للسفر ؟ لم اكن افهمك وانت لم تفهمني» وفكرت : «انني لم اكن افهم نفسي ايضاً» .

لم تغادر غرفتها حتى الغداء . كانت تجوبها جيئة وذهاباً ، وقد اشبكت يديها خلف ظهرها . لم تكن تتوقف الا نادراً امام النافذة تارةً وامام المرأة تارةً اخرى ، لتمسح بالمتدليل على نحو بطيء بقعة ساخنة خيل اليها انها ظهرت على جيدها . كانت تسائل نفسها عما حدا بها الى ان «تسعى» ، على حد تعبير بازاروف ، الى جعله يصارحها ، وعما اذا كانت تتوقع شيئاً . . . فقلت بصوت مسموع : «انا المذنبه . ولكنني لم اكن اتوقع ذلك» . غرقت في تأملاتها واحتقنت بصبغة حمراء حين تذكرت وجه بازاروف الذي بدا متوحشاً تقريباً عندما هرع اليها . . .

«ام ان . . . - نطقت بذلك فجأة ثم توقفت ، فنفضت شعرها . . . وشاهدت نفسها في المرأة . بدا رأسها المائل الى الورا ، يابتسامة خفية في عينيها وشففتيها المنفرجتين بالكاد ، وكأنما يشير عليها في تلك اللحظة بشيء خجلت منه هي نفسها . . .

فقررت في آخر الامر : «كلا . الله يعلم لام سيقدونا ذلك لا تجوز المخاطرة . فالهدوء ، مع ذلك ، هو افضل ما في الكون» . لم يتزعزع هدوؤها . ولكن الغم اعترافها حتى انها بكت مرة دون ان تعلم السبب . بيد انها لم تبك للشعور بالاهانة ، فهي لم

تسرع بانها قد امينت ، وانما تتصور نفسها ، على الاكثر ، متذنبه . فبتأثير مختلف المشاعر الغامضة والاسف على الحياة الآفلة والرغبة في التجديد حملت نفسها على الوصول الى خط معين وارغمتها على التطلع الى ما وراه ، فرات وراه ليس هوة سحيقة ، بل خواء . . . او ما هو اشد من الخواء .

مهما بلغت قدرة اودينتسوف على ضبط نفسها وتجاوز مختلف الابطال ، فقد شعرت بعدم الارتياح عندما حضرت للغداء في غرفة الطعام . وبالمناسبة فقد مضى الغداء بصورة مرضية نوعاً ، حيث وصل بورفيري بلاتونيتش واورد مختلف الاخبار المضحكة ، اذ كان قد عاد من المدينة لتوه . وقال ، فيما قال ، ان المتصرف امر معاونيه الخاصين ان يرتدوا المهاميز تحوطاً لما اذا كان سيرسلهم راكبين الى مكان ما على جناح السرعة . وكان اركادي يتحدث مع كاتيا بصوت خافت ويداري الاميرة بتصنع . بينما لزم بازاروف الصمت متجنباً متعنناً . نظرت اودينتسوفاً مرتين على نحو مباشر وبدون مواربة الى وجهه السوداوي الصارم بعينيها الخفيضتين واثرت التصميم الانوف باد في كل ملامحه ، وفكرت في نفسها : «كلا . . . ثم كلا . . .» بعد الغداء توجهت مع الجميع الى البستان . وعندما لاحظت ان بازاروف يريد التحدث معها خبطت بضع خطوات الى الجانب وتوقفت . فاقترب منها وقال بصوت مكبوت دون ان يرفع اليها نظاره عنا ايضاً :

- يتعين عليّ ان اعتذر منك ، يا آنا سيرغييفنا ، فانت غاضبة عليّ ولا بد .
فاجابته اودينتسوفاً :

- لست غاضبة عليك ، يا يفغيني فاسيليفيتش ، ولكنني منكثرة .

- وهذا اسوا . على كل حال فقد عوقبت انا بما فيه الكفاية . اذ ليس هناك اكثر حماقة من موقفي ، وانت ، على ما اظن ،

توافقيني في ذلك . لقد كتبت لي : ما الداعي للسفر ؟ بينما
لا أستطيع البقاء ولا أريده . ولن أكون هنا غداً .
- يا يغبني قاسيليفيتش ، لماذا . . .

- لماذا أسافر ؟

- كلا ، ليس هذا ما أردت ان اقله .

- الماضي لا يعود ، يا آنا سيرغييفنا . . . وذلك شيء يجب
ان يحدث عاجلاً أم آجلاً . وبالتالي على ان أسافر . انني اعرف
شرطاً واحداً يمكنني ان ابقى اذا تحقق ، ولكن ذلك الشرط لن
يتحقق ابداً . فانت ، ومعذرة على تجاسري ، لا تحبينني ولن تعينني
ابداً ، اليس كذلك ؟

لمعت عينا بازاروف للحظة من تحت حاجبيه القاتمين .

لم تجبه آنا سيرغييفنا ، وخطرت على بالها فكرة : «انا اخشى
هذا الانسان» . فقال بازاروف وكأنما حزر فكرتها :
- وداعاً .

وتوجه نحو الدار .

تبعته آنا سيرغييفنا بهدوء ، ونادت كاتيا فاصطحبتها ممسكة
بساعدتها . لم تفارقها حتى المساء . كما لم تلعب الورق ، بل اخذت
تضحك ساخرة ، الامر الذي لم يناسب محياها الشاحب المرتبك .
تجير ارКАДي وصار يراقبها كما يفعل الشبان عادة ، فيسائل نفسه
على الدوام : ما الذي يعنيه ذلك ؟ انزوى بازاروف في غرفته ،
ولكنه عاد لاحتماء الشاي . ارادت آنا سيرغييفنا ان تقول له
كلمة طيبة ، ولكنها لم تكن تعرف كيف تبدأ الكلام معه . . .
بيد ان حادثاً غير متوقع اخرجها من المازق . فقد اعلن كبير
الوصفاء عن قدوم سيتنيكوف .

يصعب على الكلمات ان تعبر عن السرعة الخرقاء التي اقتحم بها
الغرفة داعية التقدم الشاب هذا . فبعد ان صمم ، باللحاجة اللازمة
له ، على التوجه الى القرية ، الى امرأة لا يعرفها الا بالكاد ولم
تكن قد دعت له لزيارتها ابداً ، ولكنها تستضيف ، حسب المعلومات
التي وردته ، شخصين ذكيين عزيزين عليه ، فانه مع ذلك شعر
بالوجل ينتابه حتى العظام ، وبدلاً من ان ينطق عبارات الاعتذار
والتحية التي حفظها عن ظهر قلب مسبقاً دهمم سخافة وهذراً حيث
زعم ان يغدوكسيا كوكشيننا بعثته ليستفسر عن صحة آنا

سيرغييفنا وان ارКАДي نيكولايفيتش كان يثنى دوماً اعظم
النساء . . .

تلتم عندما لفظ هذه الكلمة ونسي نفسه حتى انه جلس على
قبعته . بيد ان احداً لم يطرده ، بل قدمته آنا سيرغييفنا الى
خالتها واختها ، ولذا سرعان ما التقط انفاسه واسترسل في الهذر .
غالباً ما يصبح ظهور الابتذال امرأ نافعاً في الحياة : فهو يخفف من
حدة الاوتار المشدودة جداً كما يخفف من المشاعر المتعالية او
المنفلتة ، اذ تتجلى صلة القربى التي تربط بينها وبينه . بوصول
سيتنيكوف اصبح كل شيء اكثر بلادة واكثر بساطة على نحو ما ،
حتى ان الجميع تناولوا طعام العشاء بشهية اكبر وتفرقوا للنوم
قبل نصف ساعة من المعتاد .

قال ارКАДي وهو مضطجع على الفراش لبازاروف الذي خلع
ملابسه هو الآخر :

- بوسعي ان اكرر لك الآن ما قلته لي انت ذات مرة :

«لماذا انت حزين الى هذا الحد وكأنما اديت واجباً مقدساً ؟»
منذ امد غير طويل ساد العلاقات بين الشابين نوع من المداعبة
المغالية في عدم التكلف ، الامر الذي يدل دوماً على التذمر الخفي او
عل الشكوك التي لم تجد لها متنفساً .
فقال بازاروف :

- سأسافر غداً الى والدي .

فنهض ارКАДي قليلاً واستند الى مرفقه . لقد دهش وفرح
لسبب ما . وقال :

- آها ! هذا هو مبعث حزنك ؟

فقال بازاروف متثائباً :

- من يعرف المزيد تداومه الشيوخة قبل الاوان .

فواصل ارКАДي كلامه :

- وآنا سيرغييفنا ، ما هو رأيها ؟

- وما شأن آنا سيرغييفنا ؟

- اقصد هل ستسمح لك ؟

- لست اجيراً عندها .

تأمل ارКАДي بعض الشيء ، بينما رقد بازاروف ووجهه الى
الجدار .

مرت عدة دقائق في صمت . فهتف اركادي على حين غرة :

- يغفني !

- ماذا ؟

- سأسافر غداً معك .

لم يجب بازاروف بشيء ، فواصل اركادي كلامه :

- غير انني سأذهب الى اهلي . سنتوجه معاً الى قرية خولوفو ، وهناك نأخذ خيولاً من فيدوت . يسرني جداً ان اترك على والديك ، ولكنني اخشى ان اضيق عليهما وعليك . ثم انك ستعود الينا فيما بعد ، اليس كذلك ؟

فقال بازاروف دون ان يستدير نحوه :

- تركت حاجياتي عندكم .

فكر اركادي في نفسه : «لِمَ لا يسألني عن السبب في سفري على هذا النحو المفاجئ مثل سفره ؟» . وواصل تأملاته : «حقاً لماذا اسافر انا ولماذا يسافر هو ؟» . ولم يستطع ان يجد جواباً مرضياً على اسئلته ، بينما طفق قلبه بشيء ما لاذع . واحس بأنه سيكون من العسير عليه مفارقة هذه الحياة التي اعتاد عليها . غير ان بقاءه لوحده امر فيه شيء من الغرابة . فصار يحتاج نفسه : «لقد حدث بينهما شيء ما . فما الداعي لان اقل عليها بعد سفره ؟ سوف تمل مني نهائياً ، وسأفقد آخر ما لدي» . واخذ يتصور آناً سيرغيفنا ، ويتصور وجهاً آخر يلوح قليلاً من وراء محيا الارملة الشابة المليح .

«اسفي لكاتيا ايضاً !» - همس اركادي للوسادة التي سقطت عليها دمة . . . ثم نفخ شعره بغتة وقال بصوت عال :

- اي شيطان جاء بسييتنيكوف البليد هذا ؟

تحرك بازاروف في سريره ، ثم قال :

- لا تزال انت ، يا اخي ، غيباً على ما اعتقد . ان امثال سييتنيكوف يلزموننا . فانا بحاجة الى امثال هؤلاء البليداء ، وعليك ان تفهم ذلك . هل يتعين على الآلهة ان يتشفلوا بالتفاهات ؟

«عجيباً !» - فكر اركادي وانفجرت امامه فجأة هوة كبيرة . بازاروف سحيقة لا قرار لها . «ذلك يعني اننا من عداد الآلهة او على الاصح انت ايله ، وانا من البليداء ، اليس كذلك ؟» .

- اجل ، لا تزال انت غيباً - كرر بازاروف متجهماً .

لم تبد اودينتسوفاً دهشة كبيرة عندما اعلن اركادي في اليوم التالي عن عزمه على السفر مع بازاروف . لقد بدت متعبة شاردة البال . وجهت اليه كاتيا نظرة صامتة جادة ، بينما رسمت الاميرة الصليب تحت وشاحها ، وكان لا بد له ان يلاحظ ذلك . ثم ان سييتنيكوف بالذات اصبح في اشد الانزعاج . كان قد حضر يوماً لتناول الفطور في بدلة جديدة انيقة للغاية ، وليست هذه المرة مما يرتديه انصار النزعة السلافية . وفي يوم امس دهش الشخص الذي عين لخدمته من كثرة الملابس التي جلبها معه . وما ان رقيقه يفادرائه على حين غرة ! تخطر بعض الشيء بخطوات متقاربة . ثم اندفع كارتب مطاردي في طرف الغابة ، واعلن فجأة بشيء من الذعر وبصوت يكاد يقرب من الصراخ انه عاجز على السفر ايضاً . ولم تحاول اودينتسوفاً اقناعه بالبقاء .

قال الشاب التعيس مخاطباً اركادي :

- عندي عربة مكشوفة مريحة جداً ، وبوسعي ان اصطحبك ، اما يغفني فاسيليفيتش فيمكن ان يستقل عربتك ، وسيكون ذلك افضل .

- كيف ؟ طريقك غير طريقي . والمسافة اليها بعيدة .

- لا بأس ، لا بأس ، لدي متسع من الوقت ، ثم على ان ادبر بعض الشؤون في تلك الناحية .

- شؤون تجارة المسكرات ؟ - سأل اركادي بمنتهى الازدراء .

بيد ان سييتنيكوف كان في حالة من اليأس والقنوط حتى انه لم يفهم هذه المرة خلافاً لعادته . فكرر القول :

- اؤكد لك ان العربة مريحة للغاية ، وفيها مكان لنا جميعاً . فقالت آنا سيرغيفنا :

- لا تكدر المسيو سييتنيكوف بالممانعة .

نظر اليها اركادي وطاقما راسه بهابة .

سافر الضيوف بعد الفطور . ودّع بازاروف اودينتسوفاً فمدت له يدها قائلة :

- سنلتقي مرة اخرى ، اليس كذلك ؟

فاجاب بازاروف :

- كما تأمرين .

- اذن سنلتقي .

كان ارКАДي اول من خرج من الدار ، فصعد الى عربة سييتنيكوف . وساعده كبير الوصفاء في ذلك بكل اجلال ، في حين كان بود ارКАДي ان يصفعه او ينتحب . واستقل بازاروف العربة الاخرى . عندما وصلوا الى قرية خوخلوفو انتظر ارКАДي حتى شد صاحب الخان فيدوت الخيول ، فاقترب من عربة بازاروف وقال له بائسامة المعهودة :

- يغبيني . خذني معك ، اريد ان اذهب اليكم .

فتمتم بازاروف :

- اصعد .

كان سييتنيكوف وهو يتمشى حول عجلات مركبته ويصغر بحماس ، قد فغر فمه عندما سمع تلك الكلمات ، بينما سحب ارКАДي ببرود حاجياته من عربة ذاك وصعد الى عربة بازاروف فجلس قربه وحنى رأسه انحناءة تبجيل لسييتنيكوف وصاح : «هيا بنا !» . تحركت العربة وسرعان ما اختفت عن الانظار تطلع سييتنيكوف المرتبك اشد ارتباك الى حوزيه ، بيد ان ذاك كان يتلاعب بسوطه فوق ذيل الفرس . وعند ذاك قفز سييتنيكوف الى عربته ، زعق صارخاً على فلاحين مراقبيه : «لبسا قبعتيكما ايها الاحمقان !» ، وتوجه الى المدينة حيث وصلها في ساعة متأخرة . وفي اليوم التالي انهال ، لدى كوكشيننا ، وابل من اللوم المقدع على ذينك «المتكبرين الوقحين الكريهين» .

عندما صعد ارКАДي الى عربة بازاروف شد على يده بقوة ولم يقل شيئاً لامد طويل . وبدا وكان بازاروف قد فهم وقدر هذه الالتفاتة من رفيقه . لم يكن قد ذاق طعم النوم ولا التدخين في الليلة المنصرمة ، ولم يكن قد تناول طعاماً يذكر منذ بضعة ايام . ونبأت صفحة وجهه من تحت طاقيته مكفهرة متجهمة . ثم قال اخيراً :

- ماذا ، يا اخي ، هلا اعطيتنسي سيجاراً . . . ثم انظر :

اليس لساني اصفر ؟

- اصفر .

- هكذا . . . حتى السيجار غير لذيذ . تفككت الماكنة .

- تغيرت حقاً في الآونة الاخيرة .

- لا بأس ، سننتعافى . هناك شيء واحد محزن . فإني ابي رفيقة القلب الى درجة ، حتى انها تتألم اشد الالم اذا لم ينتفخ بطني ولم آكل عشر مرات في اليوم . اما ابي فلا بأس . لقد رأى ما رأى ، وغربل الامور ونخلها . كلا ، لا يمكن التدخين - قال ذلك وقذف السيجار وسط غبار الطريق .

فسأله ارКАДي :

- المسافة الى ضيعتك خمسة وعشرون كيلومتراً ؟

- اجل . ولكن اسأل هذا الحكيم عنها .

واشار الى الفلاح الجالس على مقعد الحوذي ، وهو من العاملين لدى فيدوت .

بيد ان الحكيم اجاب بلهجة محلية : «من يدري ؟ لم يقس احد المسافة هنا» . وواصل شتائمه بصوت خافت على فرس المقدمة التي كانت تهز رأسها بتشنج . وطلق بازاروف يتكلم :

- اجل ، اجل ، يا صديقي الفتى ، انه لدرس فيه عبرة لك . الشيطان وحده يعرف هذه الحماقة ! كل شخص معلق بشجرة ، ويمكن ان تنفرج تحته هوة سحيقة في كل لحظة ، بينما يبتدع هو لنفسه مختلف المشاكل ويفسد حياته .

فسأله ارКАДي :

- الامم تلمح ؟

- ليس في ذلك تلميح . فانا اقول صراحة انني واياك تصرفنا تصرفاً احمق . الامر واضح تماماً . وقد لاحظت في المستشفى ان الذي يفضب على الاله لا بد وان يقهره .

فقال ارКАДي :

- لا افهمك تماماً . يخيل اليّ انه لم يكن هناك ما يمكن ان تشككي منه .

- ما دمت لا تفهمني تماماً فانا احيطك علماً بما يلي : برأيي ان قلع البلاط من الشوارع اهون من السماح لامرأة بان تمتلكك قيد ائمة . فذلك كله مجرد . . . - كاد بازاروف يتلفظ كلمته المعببة «رومانسية» ، ولكنه امتنع وقال : - سخافة صرف . وسوف لن تصدقني اذا قلت لك الآن : لقد كنا في معشر نسائي ، وكان ذلك امرأ مسراً ، لكن ترك مثل هذا المعشر كالاستحمام بماء

بارد في يوم قاطط . فليس لدى الرجل وقت لممارسة هذه التفاهات . على الرجل ان يكون شرساً ، كما يقول المثل الاسباني الرائع . فانت مثلاً - اضاف بازاروف مخاطباً الفلاح الجالس في مقعد الحوذي - انت ، ايها الحضيف ، هل لديك زوجة ؟

التفت الفلاح الى الصديقين بوجهه المسطح الاعشى :

- زوجة ؟ طبعاً ، فكيف يمكن بدونها ؟

- وهل تضربها ؟

- من ، زوجتي ؟ يصادف . فنحن لا نضرب بدون سبب .

- حسناً . وهي هل تضربك ؟

هن الفلاح الاعنة :

- ما هذا الكلام ، ايها السيد . ليس كل شيء يصلح للمزاح . . . - زعل الفلاح على ما يبدو .

- هل انت سامع يا اركادي نيكولايفيتش ؟ اما نحن فقد ضربونا . . . ذلك ما يعنيه ان يكون المرء مثقفاً .

ضحك اركادي بتكلف ، بينما اشاح بازاروف بوجهه ، ولم ينبس ببنت شفة طوال ما تبقى من الطريق .

بدت الخمسة والعشرون كيلومتراً لاركادي بقدر خمسين .

واخيراً لاحت على صفحة هضبة منحدره القرية الصغيرة التي يقطنها والدا بازاروف . والى جانبها بدت وسط اجمة من صغار البتولا دار غير كبيرة من دور النبلاء ، وسقفها مغطى بالقش . وعند

اول بيت قروي كان فلاحان مهندمان يتشاجران . فقد قال احدهما للآخر « انت خنزير كبير ولكنك اسوا من الخنوص الصغير » ،

فقال الثاني « وزوجتك سحارة » .

فقال بازاروف لاركادي :

- يمكنك الحكم من صيغة المخاطبة غير المتكلفة ومن لهجة الكلام بان فلاحى ابي لا يتعرضون لمضايقة شديدة . وبالمناسبة

فها هو نفسه يخرج الى باحة الدار . لا بد وانه سمع جرس العربة . انه هو ، هو طبعاً ، عرفته من قوامه . ولكن ، يا للعجب كيف

شاب ، المسكين ، الى هذا الحد !

اطل بازروف من العربة ، واشرب اركادي بعنقه من وراء ظهر رفيقه فرأى في مدخل الدار رجلاً نحيفاً فارغ القامة بشعر اشعث وانف دقيق كمنقار الصقر ، وهو يرتدي سترة عسكرية تشبه مفتحة الازرار . كان واقفاً منفرج الساقين ، يدخل غليوفاً طويلاً ، ويضيق عينيه بسبب اشعة الشمس .

توقفت الخيول .

فقال بازاروف الاب ، وهو يواصل تدخينه مع ان الغليون يتراقص بين اصابعه : - ما قد وصلت اخيراً . هيا انزل ، انزل ، فلنتعاق .

عاق ابنه . . . فارتفع صوت نسائي مرتعش : « ينيوشا » ، ينيوشا . فتح الباب على مصراعيه وظهرت على عتبة عجز متكورة قصيرة القامة في قلنسوة بيضاء وبلوزة زاهية قصيرة . تأوهت وتمايلت وكادت تسقط لولا ان اسندها بازاروف . طوقت يداها المثلثتان عنقه على الفور والتصق رأسها ب صدره ، وساد الصمت كل شيء . ما عدا نشيجها المتقطع .

كان العجز بازاروف يتنفس بصعوبة ، وصار يضيق عينيه اكثر من السابق . ثم قال بعد ان التقت نظراته بنظرة اركادي ، في حين اشاح الفلاح الجالس على مقعد الحوذي بوجهه :

- كفك ، كفك يا آرينا ! لا داعي لذلك ! ارجوك .

فتمتعت العجز :

- آه يا فاسيلي ايفانوفيتش ! منذ متى لم ار حبيب قلبي دفرة عيني ينيوشا . . . - وابعدت وجهها المتيقن المدعوك المبلبل بالدموع عن بازاروف دون ان ترفع يديها عن عنقه ، ونظرت اليه بعينين مغتبطتين ، مضحكتين بعض الشيء ، ثم التصقت به من جديد . فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

- كل ذلك في طبيعة الاشياء . ولكن من الافضل ان ندخل البيت . فقد وصل ضيف مع يغبني . - ثم اضاف مخاطباً اركادي ، وحف برجله قليلاً - عفواً ، انت تعرف هذه الامور . تلك هي نقطة ضعف المرأة . يا لقلب الام . . .

صيغة التحبيب من اسم يغبني . - المترجم .

قال ذلك وارتعشت شفتاه وحاجباه ، وكان ذقنه يهتسز
اهتزازاً . . . بيد انه كان ، على ما يبدو ، راغباً في ضبط مشاعره
والتظاهر بشيء من اللامبالاة . فأنحنى له اركادي . وقال بازاروف :
- فعلاً ، فلندخل يا ماما .

واقتاد الى الدار العجوز التي خارت قواها . اجلسها في مقعد
مريح ، وعانق اياه من جديد على عجل وقدم له اركادي .
فقال فاسيلي ايغانوفيتش :

- يسعدني من صميم القلب ان نتعارف ، ولكن لا تلمني ،
فكل شيء هنا بسيط على الطراز العسكري . يا آرينا فلاسيقنا ،
اعلمي معروفًا ، وروحي عن نفسك . فما هذا الخور ؟ لا بد وان
السيد الضيف يلومك على ذلك .

فقلت العجوز والدموع تنهمر من عينيها :
- يا عزيزي . . . لم اتشرف بعد بمعرفة اسمك واسم
ايبك . . .

فقال فاسيلي ايغانوفيتش بصوت خافت له وزنه :
- اركادي نيكولايفيتش .

فقلت العجوز بعد ان تمخطت ومالت براسها ذات اليمين وذات
الشمال ومسحت عيناً بعد اخرى بكل عناية :

- اعذرني انا الغبية . اعذرني . كنت افكر بانني ساموت دون
ان يطول بي العمر لأرى قر . . . قرّة عيني .

فقال فاسيلي ايغانوفيتش :
- ها قد رأيته ، يا سيدتي .

ثم التفت الى بنت حافية القدمين في حوالي الثالثة عشرة من
العمر ترتدي فستاناً قطنياً احمر صارخاً ، وهي تتطلع بخوف من
شق الباب ، وناداهما قائلاً :

- تانيوشا . احضري للسيدة قدحاً من الماء بالصينية ، هل
انت سامعة ؟ - ثم اضاف بشيء من المداعبة العتيقة الطراز : اما
انتما ايها السيدان فاسمعا لي ان ادعوكما الى مكتب المحارب القديم
المتقاعد .

وانت آرينا فلاسيقنا متنهدة :
- تعال لاعانقك مرة اخرى يا ينيوشا . - انحنى اليها
بازاروف - كم اصبحت جميلاً !

فقال فاسيلي ايغانوفيتش :

- لست واثقاً من جماله ، ولكنه غدا رجلاً من خيرة الرجال ،
كما يقال . اما الآن فأمل ، يا آرينا فلاسيقنا ، انك بعد ان اشبعت
قلب الامومة سوف تهتمين باشباع ضيفيك العزيزين ، فالبلبل ،
كما تعرفين ، لا يقتات على الحكايات .

نهضت العجوز من المقعد وقالت :
- في الحال ، يا فاسيلي ايغانوفيتش ، ستكون المائدة
جاهزة . ساذهب بنفسي الى المطبخ وسأمر باعداد السماور .
سيكون كل شيء على ما يرام . منذ ثلاث سنوات لم اره ولم اطعمه
ولم اسقه ، فهل ذلك بالامر الهين ؟

- ارجوك يا ربة البيت ، ابذلي جهدك ، فلا تجلبي العلامة على
نفسك . اما انتما ايها السيدان فارجوكما ان تتبعاني . وما هو
نيوفيتش جاء ليحييك يا يغبيني . فهو ايضاً قد سر ، ولا بد ،
ليس كذلك ايها العجوز ؟ اتبعوني رجاء .

سار فاسيلي ايغانوفيتش في المقدمة حركاً متملحلاً وهو يخف
ويخشخش بحذانه البالي .

كانت داره تضم ست غرف صغيرة لا غير . وكانت احداها ،
وهي الغرفة التي اقتاد اليها صاحبينا ، تسمى بالمكتب . كانت
طاولة بقوائم سمكية تحتل كل الفسحة بين النافذتين . وعلى الطاولة
اكداس اوراق اسودت من الغبار والقدم حتى بدت كالمشويصة
بالمخان . وعلى الجدران بنادق ومجالد تركية وسيف وخرطتان
جغرافيتان وبعض الرسوم التشريحية وصورة هوفيلاند (٨٢) وطغراء
مصنوعة من الشعر في اطار اسود ودبلوما مزججة . وكانت هناك
اربعة جلدية مخسوفة في ناحية ومزقة في ناحية اخرى بين صوانين
هائلتين من خشب البتولا الكاريلية . وكانت الرفوف غاصة ، على
غير انتظام ، بالكتب والعلب والطيور المحنطة والقناني والزجاجات
الصغيرة . وفي احد الاركان مائدة كهربائية معطبة .

بدا فاسيلي ايغانوفيتش كلامه :
- ذكرت لك يا زائري العزيز اننا نعيش هنا كما في
المخيمات العسكرية المكشوفة . . .

فقاطعه بازاروف :
- كفك ، علام تعتذر ؟ اركادي يعرف جيداً بانك لست

قارون وانك لا تمتلك قصراً . ولكن اين سيقم ؟ تلك هي المشكلة .

- كيف يا يفغيني ؟ لدينا في الجناح غرفة ممتازة . وسيرتاح فيها كلياً .

- ماذا ؟ هل بنيت جناحاً ؟

فتدخل تيموفيتش قائلاً :

- كيف لا يا سيدي ؟ هناك في مبنى الحمام .

- اي قرب الحمام - اضاف فاسيلي ايفانوفيتش على عجل - فالوقت صيف . . . ساذهب الى هناك في الحال لاعطس بعض التعليمات . هلا احضرت ، يا تيموفيتش ، حاجياتهما ! اما انت ، يا يفغيني ، فاترك لك مكتبي طبعاً (لكل ما له) .

فقال بازاروف حالما خرج فاسيلي ايفانوفيتش :

- يا له من عجوز ظريف . انه في منتهى الطيبة . وهو غريب الاطوار مثل ابيك ، ولكن على طراز آخر . انه كثير الثروة . فقال اركادي :

- واماك ايضاً امرأة رائعة على ما يبدو .

- اجل ، انها طيبة القلب . وسوف ترى اي غداً ، ستقدم لنا .

فقال تيموفيتش وقد دخل لتوه حاملاً حقيبة بازاروف :

- لم نتوقع وصولكما اليوم ، يا عزيزي ، فلم نحضر لحم البقر .

- سنستغني عن لحم البقر ما دام غير موجود . فالفقر ليس عيباً كما يقال .

فسال اركادي على نحو غير متوقع :

- كم نسمة يمتلك ابوك ؟

- الضيعة ليست له ، فهي ملك لوالدتي ، وعدد الفلاحين

على ما اذكر ، خمسة عشر .

- بل اثنان وعشرون - قال تيموفيتش بعدم ارتياح .

تهادى حفيف حذاء ، وظهر فاسيلي ايفانوفيتش من جديد ، واعلن كالمنتصر :

- بعد بضع دقائق ستكون غرفتك جاهزة يا اركادي .

نيكولايفيتش . هذا هو اسم ابيك على ما اعتقد ، اليس كذلك ؟

* في الاصل باللاتينية Suum cuique .

ثم اضاف مشيراً الى غلام قصير الشعر في قفطان ازرق ممزق عند العرقين وفي جزمة ليست له : - هذا خادمك . واسمه فيدكا . اعتذر مرة اخرى ، مع ان ولدي لا يسمح بالاعتذار . فالصبي يجيد على الاقل ، شحن الغليون . انت تدخن ، اليس كذلك ؟

انا ادخن السجائر اكثر . - اجاب اركادي .

- ذلك في منتهى الحكمة . وانا شخصياً افضل السجائر ، ولكن من الصعب جداً الحصول عليها في بقاعنا النائية هذه .

فقاطعه بازاروف من جديد :

- كفك مسكنة . من الافضل ان تجلس هنا على الاركة لاستطيع التطلع اليك .

ضحك فاسيلي ايفانوفيتش وجلس . كان وجهه يشبه وجه ابنه لدرجة كبيرة ، سوى ان جبهته اوفا واضيق ، وقفه اوسع قليلاً . كان دائم الحركة ، يهز كتفيه بلا كلل وكأنما الثوب

ساق تحت ابطيه . ويطرف كثيراً ويسعل بين الفينة والفينة ويحرك اصابعه ، في حين يتميز ابنه بشيء من الهدوء اللاابالي .

تحدث فاسيلي ايفانوفيتش :

- تقول ، يا يفغيني اني اتمسكن ! كلا ، لا تظن بانني كانما

اريد ان اتشكى لضيفنا من عيشتنا في طرف منعزل بعيد . فانا على العكس ارى انه لا يوجد طرف بعيد بالنسبة للانسان المفكر .

وانا ، على الاقل ، احاول ، قدر الامكان ، ان اواكب العصر ، فلا اترك الطحالب تغطيني ، كما يقال .

اخرج فاسيلي ايفانوفيتش من جيبه منديلاً حريرياً اصفر جديداً ، كان قد اخذه عندما ذهب لترتيب غرفة اركادي ، وواصل كلامه وهو يلوح بالمنديل :

- ناهيك عن اني ، مثلاً ، حولت الفلاحين للعمل حسب الجزية واعطيتهم ارضي مناصفة في المحصول ، بالرغم من الاضرار

المحسوسة التي اتكبدها نتيجة لذلك . فقد اعتبرت هذا واجباً علي . فالعقل السليم نفسه يتطلب ذلك ، مع ان الكثيرين من

الملك الآخرين لا يفكرون به . وانا اهتم بالعلوم والتعليم . فقال بازاروف :

- اجل ، ارى لديك «صديق العافية» (٨٣) لعام الف وثمانمئة

وخمسة وخمسين .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش باستعجال :

- يرسلها لي احد اصدقائي القدامى . - ثم اضاف موجهاً كلامه الى ارКАДي على الاكثر ، واثار الى رأس صغير من الجيش انتصب على الصوان وقسم الى مستطيلات مرقمة وقال : - "لن" مثلاً ، تعرف ما هي فراسة الدماغ ؟ . ولم يبق شينيلين (٨٤) وراديماخير (٨٥) مجهولين لدينا .

فسال بازاروف :

- افلا يزالون في هذا اللواء يصدقون راديماخير ؟

سئل فاسيلي ايفانوفيتش وقال :

- في اللواء . . . انتم اعرف طبعاً ، ايها السادة . فمن اين لنا ان نلحق بكم ؟ سوف تحلون انتم بالذات محلنا . حتى في زماننا بدا هوفمان (٨٦) ونظريته للاخلاق وبراون (٨٧) وعذبه الحيوي شخصين مضحكين للغاية ، ولكن صيتهما ذاع ايضاً في حينه . وحل شخص ما جديد لديكم محل راديماخير وانتم تظالمون رؤوسكم امامه ، لكنه ربما سيكون هو الآخر مثاراً للسخرية بعد عشرين عاماً .

فقال بازاروف :

- ازيدك علماً باننا الآن نسخر من الطب عموماً ولا نطاطي رؤوسنا امام احد .

- كيف ؟ افلا تريد ان تصبح طبيباً ؟

- بلى ، فليس في ذلك تعارض .

دس فاسيلي ايفانوفيتش اصبعه الوسطى في غليونه ، فلا يزال هناك شيء من الرماد الساخن . وقال :

- ربما ، ربما . لن اجادل في ذلك . فمن انا ؟ مجرد طبيب

عسكري متقاعد . وقد تحولت الآن الى مهندس زراعي . - ثم

وجه كلامه الى ارКАДي من جديد : - خدمت في لواء جدك . اجل

رايت في حياتي الكثير . فلما اكثر المجتمعات التي حضرته

والشخصيات التي صادقتها ! انني ، انا الذي تراني الآن امامك ، قد

جسست نبض الامير فيتغنشتين (٨٨) وجوكوفسكي (٨٩) ! وكنت

اعرف فرداً فرداً جميع الذين كانوا في الجيش الجنوبي (٩٠) . هل

* نظرية غير علمية للتدليل على السجايا الشخصية والملكات الدفعية

من دراسة شكل الجمجمة . - المترجم .

انت قاهم ؟ (وهنا زم فاسيلي ايفانوفيتش شفثيه متباهياً) . ولكن عملنا ثانوي لا شأن له . فلا يطلب مني غير اجادة المبيض وكفى ! اما جدك فكان عسكرياً حقيقياً وانساناً مبعلاً للغاية .

فقال بازاروف متكاسلاً :

- قل الحقيقة : كان في منتهى الحماقة .

- آه يا يقيني ! اية الفاظ تنطق ؟ ! ارحم حالي . . .

بالطبع ، لم يكن الجنرال كيرسانوف في عداد اولئك . . .

فقاطعه بازاروف :

- اتركه وشأنه . عندما اقتربت من هنا سررت لاجمتهك ،

اجمة البتولا . لقد شهقت وارتفعت كثيراً .

انتعش فاسيلي ايفانوفيتش وقال :

- هل لاحظت كيف ازدهر البستان ؟ ! غرست بنفسك كل

شجرة فيه . وتوجد فاكهة وثمار واعشاب طبية . ومهما كان رأيكم

ايها السادة الشباب فان العجوز ياراتسيلس (٩١) نطق بالحقيقة

عندها حينما قال : (بالاعشاب والكلمات والاحجار . . . *) . تخلت

عن ممارسة التطبيب ، كما تعلم . غير اني مضطر الى العودة اليه

مرتين في الاسبوع . فعندما يلتبس الناس المشورة لا يمكن

طردهم . ويصادف ان يحتاج الفقراء الى اسعاف ، بينما لا يوجد

هنا اطباء على الاطلاق . تصور ان احد الجيران ، وهو رائد متقاعد ،

يمارس التطبيب ايضاً . وعندما سألت عما اذا كان قد درس الطب

ام لا ، قيل لي : كلا . لم يدرسه . انما يمارسه عملاً

بالمعروف . . . ها - ها ، عملاً بالمعروف ! ارايت ؟ ها - ها !

ها - ها !

فقال بازاروف متجهماً :

- فيدكا ! املاً غليوني !

ثم واصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه بشيء من الاسف :

- ذات مرة وصل طبيب لعيادة مريض ولكن هذا الاخير

(التحق بالاجداد *) فلم يسمح الوصيف للطبيب بالدخول وقال

* في الاصل باللاتينية in herbis, verbis et lapidibus لعله يقصد

امكان المعالجة بها . - المترجم .

* في الاصل باللاتينية ad patres .

له : لا حاجة . ولم يكن الطبيب يتوقع ذلك فسأله مرتبكا : «ماذا ؟ هل فاق السيد قبيل الوفاة ؟» - «اجل» . - «وهل فاق كثيراً ؟» - «كثيراً» . - «ذلك شيء حسن» . وعاد ادراجه . ها - ها - ها ضحك العجوز لوحده . وارتسمت ابتسامة متكلفة على معيا اركاדי ، بينما اكتفى بازاروف بان اخذ نفساً من غليونه . استمر الحديث على هذا النحو زهاء ساعة . وتيسر وقت لاركادي كي يذهب الى غرفته ويعود ، فاتضح له انها غرفة ملابس الاستحمام ، ولكنها مريحة ونظيفة للغاية . واخيراً دخلت تانيوشا واعلنت ان الغداء جاهز .

نهض فاسيلي ايفانوفيتش اولاً ، وقال :

- فلنذهب ايها السادة ! معذرة اذا كنت قد اضجرتكما .

ولعل ربة بيتي تلبي حاجتكما اكثر مني .

كان الغداء فاخراً ، بل وسخياً ، بالرغم من الاستعجال في اعداده . غير ان النبيذ لم يكن على المستوى المطلوب ان صح القول . كان طعم نبيذ الهيريس القاتم الذي اشتراه تيموفيتش من بائع يعرفه في المدينة شبيهاً بطعم النحاس او صمغ الصنوبر . وكان الذباب قد لعب دوره ايضاً . في الاوقات العادية كان الغادم الصغير يطرد الذباب بغصن اخضر كبير ، الا ان فاسيلي ايفانوفيتش ابعده هذه المرة كي لا يتعرض للعلامة من قبل الجبل الغتي . وتسنى لآرينا فلاسيفنا ان تتزين ، فقد ارتدت قلنسوة عالية بأشرطة حريرية ووشاحاً ازرق موشى . انتحبت من جديد حالما وقع نظرها على ابنها ينيوشا ، غير ان زوجها لم يضطر الى تهدئتها ، فقد عجلت هي نفسها بمسح دموعها كي لا يبتل الوشاح . تناول الشابان الطعام وحدهما ، اذ ان اهل البيت تغدوا قبل حين . وسهر على الخدمة فيدكا الذي بدا مرهقاً بالجزمة غير المعتادة . وعاونته في ذلك انفيسوشكا وهي امرأة عوراء ذات ملامح تنم عن البسالة ، تؤدي وظائف مدبرة المنزل ومربية الدواجن والغسالة . اخذ فاسيلي ايفانوفيتش طوال الغداء يتمشى في الغرفة ويتحدث بسرور بل وبغبطة عن المخاوف الوخيمة التي اوحت بها اليه سياسة نابليون والمسألة الايطالية المشوشة (٩٢) . ولم تكن آرينا فلاسيفنا تلتفت الى اركادي ولم تستحنه على تناول الطعام . فقد اسندت بقبضتها وجهها المستدير الذي اصفت عليه شفتاها

المتفلختان القرمزيتان والشامات على وجنتيها وفوق حاجبيها مسحة من الطيبة المتناهية ، وركزت انظارها على ابنها وراحت تنهده طوال الوقت . كانت تتحرق الى معرفة المدة التي سيقضيها بين ظهراليهم ، ولكنها تخشى ان تسأله عن ذلك . فكرت في نفسها : «ماذا لو قال يومين ؟!» - وكاد قلبها يتوقف عن الوجدان . بعد تناول العقليات اختفى فاسيلي ايفانوفيتش لحظة ، ثم عاد يحمل قشينة شمبانيا مفتوحة وهتف قائلاً : «مع اننا نعيش في الريف البعيد فلدينا ما نسلي انفسنا به في المناسبات !» . صبب الشمبانيا في ثلاث كؤوس كبيرة وقدم صغير ورفع نخب «الزائرين الكريمين» وتجرع كاسه دفعة واحدة كما يفعل العسكريون وارغم آرينا فلاسيفنا على احتساء القدح حتى الشمالة . وعندما جاء دور العريس راي اركادي الذي لا يطيق اي شيء سكري ان من واجبه ان يتذوق اربعة انواع مختلفة كانت قد اعدت مؤخراً ، لاسيما وان بازاروف رفض العريس رفضاً قاطعاً ودخل سيجارة في الحال . ثم ظهر على العائدة الشاي مع القشدة والزبدة والبسكويت . وبعد ذلك اقتاد فاسيلي ايفانوفيتش الجميع الى البستان للتمتع بجمال المساء . وعندما مروا باحد المقاعد همس لاركادي :

- في هذا المكان اهوى الفيلسوف واتمتع بغروب الشمس كما يليق بالنسك . وهناك ، على مسافة ابعد ، غرست عددًا من الاشجار المحبة الى هوراس (٩٣) .

فسأل بازاروف الذي انصت اليه :

- اية اشجار تلك ؟

- انها بالطبع . . . الاقاصيا .

بدا بازاروف يتناوب ، فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

- اعتقد انه حان الوقت للرحلتين كي يعانقا مورفيوس * .

فقال بازاروف على الفور :

- اي حان الوقت للثوم ! هذا رأي صائب . فقد حان الوقت حقاً .

ودع امه فقبلها في جبينها وعانقته هي ايضاً ، ثم رسمت علامة الصليب خلسة ، من وراء ظهره ، ثلاث مرات . رافق

* انه الاحلام في الميثولوجيا اليونانية . - المترجم .

فاسيلي ايفانوفيتش ارКАДي الى غرفته وتمنى له «استجماماً هنيئاً كالذي تذوقته انا عندما كنت في عمركم السعيد». وبالفعل فقد غط ارКАДي في نوم هادئ في غرفة الملايس التي تفوح فيها رائحة النعناع وكان جدجداً يتناوبان الصرير على نحو منوم وراء المدفأة. ترك فاسيلي ايفانوفيتش ارКАДي وتوجه الى مكتبه فانتكأ على الاريسة عند رجلي ابنه. كان ينوي التحدث معه، ولكن بازاروف ابعده على الفور وقال انه راغب في النوم، بينما لم يغمض له جفن حتى الصباح. فتح عينيه باتساع وصار يحرق في الظلمة حائفاً: فلم تكن لذكريات الطفولة سلطة عليه، زد على ذلك انه لم يتخلص بعد من الانطباعات المريرة الاخيرة. وصلت آرينا فلاسيفنا وابتهلت في البداية ما شاءت، ثم تحدثت لأمه طويل جداً مع انفيسوشكا التي وقفت متسمة امام سيدتها وغرزت فيها عينها الوحيدة وعرضت عليها بهمس سحري كل ملاحظاتها وآرائها بخصوص يفيغيني فاسيليفيتش. الم الدوار برأس العجوز من الفرح والنبيل ودخان السجائر، وحاول زوجها ان يتكلم معها، ولكنه صرف النظر عن ذلك فلوح يده يائساً.

آرينا فلاسيفنا نبيلة روسية حقاً من نبيلات الماضي. وكان ينبغي ان تعيش قبل مائتي عام في عهود موسكو القديمة. فهي متدينة للغاية ورقيقة الشعور، تؤمن بكل انواع الغال والعرافة والتعاويذ والاحلام، وتؤمن بالدرأويش والجن والعفاريت، وبمصادفات السوء وعين الحسود والادوية الشعبية وملح الخميس، وبقرب حلول نهاية العالم، وتعتقد ان محصول الحنطة السوداء يكون جيداً اذا لم تطفأ الشموع اثناء صلاة الليل في عيد الفصح، وان الفطر لا ينمو بعد ان تراه عين الانسان، وان الشيطان يحوم حول المياه، وان هناك بقعة من الدم على صدر كل يهودي. كانت تخشى الفئران والافاعي والضفادع والعصافير والعلق والرعد والماء البارد وهبوب الريح، والحياد والماعز والاشخاص المغر والقطط السوداء، وتعتبر الجداجد والكلاب حيوانات نجسة، ولا تاكل لحم العجول والحمام والارنب والسرطان والجبن والبطيخ الاحمر، لان البطيخ المفتوح يذكرها برأس يوحنا المعمدان (٩٤). وما كانت لتستطيع الكلام عن المعار بدون ارتعاش. كانت نهمة اكولاً.

ولكنها ملتزم بالصيام كل الالتزام. وكانت تنام عشر ساعات في اليوم. ولا تنام مطلقاً اذا داهم الصداغ فاسيلي ايفانوفيتش. ولم تقرأ اي كتاب ما عدا «الكسيس» او كوخ في الغاب» (٩٥). وكانت تحب رسالة واحدة او رسالتين لا اكثر في العام. لكنها تجيد تدبير الامور المنزلية وتجفيف الفاكهة واعداد المربى، مع ان يدها لم تمس شيئاً، ومع انها لا تتحرك من مكانها عموماً الا بشق الانفس. كانت آرينا فلاسيفنا في منتهى الطيبة، ولم تكن غيبية ابداً على طريقته الخاصة. فهي تعرف ان في الكون اسبداً يجب ان يأمروا واناساً بسطاء يجب ان يخدموا، ولذلك لا تستنكف عن التزلف ولا عن الركوع لحد ملامسة الارض، ولكنها تعامل مرؤوسها بلطف ووداعة، ولا تترك اي متسول دون ان تتصدق عليه. ولا تلوم احداً على الاطلاق، مع انها تحب الخوض في مناقشة سلوك الناس. كانت في شبابها مليحة للغاية، وكانت تعزف على الكلافيكورد* وتكلم الفرنسية بعض الشيء، ولكنها اصبحت بدنية ونسيت الموسيقى واللغة الفرنسية خلال الرحلات طوال سنين عديدة مع فاسيلي ايفانوفيتش الذي تزوجته مرغمة. وهي تحب ابنها حباً جماً وتخشاه كل الخشية. وقد تخلت عن ادارة الضيعة لزوجها، فلم تعد تهتم بشيء فيها، سوى انها صارت تناؤه وتنش بمنديلها وترفع حاجبها اعلى فاعلى مرتبة كلما شرع عجوزها يتحدث عن التحويلات المرتقبة وعن مشاريعه. كانت مترتبة تتوقع على الدوام شراً مستطيراً، وسرعان ما تنهمر دموعها حالما تتذكر شيئاً محزوناً. . . ان عدد امثال هؤلاء النسوة يتضاءل الآن. والله وحده يعلم ما اذا كان يجب ان نفرح لذلك ام لا!

نهض ارКАДي من الفراش وفتح النافذة على مصراعها. واول ما ولعت عليه انظاره هو . . . فاسيلي ايفانوفيتش. كان العجوز في جبة شرقية، مما يرتديه اهالي بخارى، وراح يجهد في البستنة

* آلة موسيقية وترية مزودة بلوحة مفاتيح. تعتبر الاصل الذي تطورت منه البيانو. - المترجم.

متمنطقاً بمنديل . وعندما لمح ضيفه الشاب بادره مستنداً الى الرفش :

- عم صباحاً ! كيف قضيت ليلتك ؟

- على اروع ما يكون .

- اما انا فكمما ترى ، مثل شنشينا توس (٩٦) ، اعد جنينة للشلجم الافلي المتأخر . لقد حل الآن ، والحمد لله ، زمان يتعين فيه على كل شخص ان يهيئ الاغذية لنفسه بيديه ، فلا مجال للتعويل على الآخرين : ينبغي للمرء ان يعمل بنفسه . ويعني ذلك ان جان جاك روسو محق (٩٧) . كان بوسعك ، يا سيدي ، ان تراني قبل نصف ساعة بهيئة اخرى تماماً . فقد تشككت احدي الفلاحات من الزحار - كما يسمونه ، اي من الدزنتري - كما نسميه نحن ، ففعلت لها . . . كيف لي ان اجد التعبير الافضل ؟ ! حققتها بالافيون ، ثم اقتلعت سن امرأة اخرى . واقتلعت عليها استخدام الاثير . . . لكنها رفضت . انني افعل ذلك كله (مجاناً) . كهاو . وبالمناسبة ليس في ذلك ما يثير العجب ، فانا (الانسان جديد) * من الدهماء ولست ، كزوجتي الكريمة ، من النبلاء ، اها عن جد . . . هلا تفضلت الى هنا ، في الظل ، لتنشق النسيم العليل قبيل شاي الصباح ؟ !

خرج اركادي اليه فقال فاسيلي ايفانوفيتش رافعاً يده بالتحية ، على الطريقة العسكرية ، الى الطاقية العتيقة المتسخة التي تغطي رأسه :

- اهلاً وسهلاً بك مرة اخرى ! لقد تعودت انت ، كما اعلم ، على الابهة واسباب الراحة ، ولكن حتى عظماء العالم لا يستنكفون من قضاء بعض الوقت تحت سقف كوخ .

فقال اركادي بصوت مرتفع :

- عفواً ، اين انا من عظماء العالم ؟ ثم اني لم اتعود على الابهة .

فاعترض فاسيلي ايفانوفيتش بتأدب :

- كلا ، كلا . فمع اني محال الآن الى الارشيف ، ولكنني

* في الاصل باللاتينية gratis .

** في الاصل باللاتينية homo novus .

عشت في المجتمع الراقي ايضاً ، وانا اعرف الطير من تحليقه . انا نفسي وسيمائي على طريقتي الخاصة . واتجاسر على القول بانني لو لم املك هذه الموهبة لانهى امري من زمان ، ولسحقت انا الانسان الصغير . واقول لك بلا محاباة ان الصداقة التي حظها بينك وبين ولدي تبعث السرور حقاً في نفسي . لقد رأيته الآن . فهو ، كمعادته ، وهذا امر معروف لك ولا بد ، قد نهض مبكراً وراح يجوب الاطراف . اسمع لي ان استفسر منك : هل تعرفت على ابني يفغيني من زمان ؟

- منذ الشتاء المنصرم .

- هكذا اذن . اسمع لي ان اسالك مرة اخرى ، ولكن الا تجلس ؟ اسمع لي كاب ان اسالك : ما هو رأيك بابني يفغيني ؟ فاجاب اركادي بحماس :

- ابنك واحد من اروع الناس الذين تيسر لي ان اقابلهم في اي وقت .

اتسعت عينا فاسيلي ايفانوفيتش فجأة ، واحمرت وجنتاه بعض الشيء . وسقط الرفش من يديه . ثم واصل كلامه :

- هكذا اذن ، تتصور . . .

فعاجله اركادي :

- انا واثق ان مستقبلاً عظيماً ينتظر ابنك ، وانه سيرفع رأسك . تاكدت من ذلك منذ لقائنا الاول .

- كيف . . . كيف كان ذلك ؟ - نطق فاسيلي ايفانوفيتش هذه الكلمات بالكاد . وانفجرت شفثاه عن ابتسامة عريضة معجبة لم تفارقهما بعد ذلك .

- تريد ان تعرف كيف التقينا ؟

- نعم . . . وعلى العموم . . .

راح اركادي يتحدث عن بازاروف بحماس واعجاب اكبر مما في ذلك المساء عندما رقص المازوركا مع اودينتشوفا .

استمع اليه فاسيلي ايفانوفيتش واطال الاستماع ، ثم تمخط وثف المنديل بكلتا يديه وسعل ، ونفش شعره ، واخيراً لم يتمالك نفسه فانحنى على اركادي وقبله في كتفه . ثم قال دون ان تفارقه ابتسامته :

- افرحتنى جداً . وعلى ان اقول لك بانني . . . اوله ابني ،

ناهيك عن عجوزي ، فهي ام ، وهذا امر معروف ، لكنني لا اجزؤ بحضوره على ان اعرب عن مشاعري لانه لا يحب ذلك . فهو خصم لكل العواطف ، حتى ان الكثيرين يلومونه على تصلب الطباع هذا ويرون فيه علامة الغرور او انعدام الشعور ، الا ان امثاله لا يمكن ان يقاسوا بالمعيار المعتاد ، ليس كذلك ؟ وعلى سبيل المثال فان شخصاً غيره لا بد وان ينفق اموال والديه بلا انقطاع ، اما هو فلم ياخذ منّا ، والله ولا كوبيكا زائداً ، هل تصدق ؟

فقال ارКАДي :

- انه انسان نزيه غير اناني .
- غير اناني بالفعل . وانا ، يا ارКАДي نيكولايفيتش ، لا اوله فحسب ، بل افتخر به . ومن دواعي اعتزازي ان ترد ضمن سيرة حياته بمر الزمن الكلمات التالية : «ابن طبيب عسكري بسيط ولكن اباه استطاع ان يكتشف مواهبه مبكراً ولم ييخل بشي من اجل تربيته . . . » - قال العجوز ذلك بصوت متقطع .

فشد ارКАДي على يده .
وبعد فترة صمت سأل فاسيلي ايفانوفيتش :
- ماذا ترى ؟ سيبلغ الشهرة التي تتنبأ بها له ليس في مجال الطب ، اليس كذلك ؟
- ليس في مجال الطب طبعاً ، مع انه سيكون في هذا الميدان ايضاً واحداً من المع العلماء .
- ففي اي مجال ، يا ارКАДي نيكولايفيتش ؟
- من الصعب التكهّن بذلك حالياً ، ولكنه سيكون شهيراً .
- سيكون شهيراً ! - كرر العجوز وغرق في تأملاته .
مرت انفيسوشكا ازاها حاملّة طبقاً كبيراً من توت العليق اليانع وقالت :

- امرتني آرينا فلاسيفنا ان ادعوكما لاحتساء الشاي .
فانتفض فاسيلي ايفانوفيتش وقال :
- هل سيقدم التوت مع القشدة الباردة ؟
- اجل ، يا سيدي .
- فلتكن باردة حقاً . لا تعبأ بالرسميات ، يا ارКАДي نيكولايفيتش ، خذ المزيد . لماذا لم يحضر يفغيني بعد ؟

- انا هنا - دوى صوت بازاروف الذي اطل من غرفة ارКАДي .
التفت فاسيلي ايفانوفيتش على عجل وقال :
- اها ! اردت ان تزور رفيقك ، ولكنك تأخرت (يا صديقي) . فقد كانت لنا معه محادثة طويلة . اما الآن فينبغي ان نذهب لاحتساء الشاي : امك تدعونا . وبالمناسبة فأنا اريد ان اتحدث معك .

- عم ؟
- في القرية فلاح يعاني من اليرقان . . .
- اي داء الصفر ، اليس كذلك ؟
- بلى ، انه يعاني من يرقان مزمن يكاد يكون عضالاً . وقد صحته يتناول حشيشة القنطريون وعشبة القديس يوحنا وارغمته على اكل الجزر واعطيته شيئاً من الصودا ، ولكن ذلك كله مجرد ادوية مسكنة ، يجب اعطاؤه شيئاً ناجعاً . ومع انك تسخر من الطب فأنا واثق من انك يمكن ان تقدم لي نصيحة حكيمة . لكننا سنتكلم عن ذلك فيما بعد ، اما الآن فهيا لتناول الشاي .
نهض فاسيلي ايفانوفيتش نشيطاً من المصطبة وانشد بيتين من «روبرت» (٩٨) :

سنشرع لنا قانوناً ، قانوناً
لعيشة سعيدة . . . سعيدة . . . سعيدة !

فعلق بازاروف مبتعداً عن النافذة :
- يا لها من قدرة رائعة على الحياة ؟

انصف النهار . وبدت الشمس لافحة من وراء حجاب رقيق من الغيوم البيضاء . كان الصمت يلغع كل شيء ، ما عدا الديكة التي تتصايح بحماسة في القرية مثيرة في فؤاد كل من يسمعها احساساً غريباً بالنعاس والضجر . وفي مكان ما في اعالي الاشجار دن ، كهتاف متباك ، تعيق نسر فتى لجوج . اضطجع ارКАДي

* في الاصل باللاتينية amico .

وبازاروف في ظل كومة غير عالية من الاعشاب المجففة . بعد ان
افترشا حزمتين من حشيش يابس مخشخس احتفظ بشيء مسن
خضرتة وعبقه .

قال بازاروف :

- شجرة الحور تلك تذكرني بطفولتي . فهي تنمو على طرف
الحفرة التي تبقت من المستودع القرميدي . كنت آنذاك وانقأ من
ان لدى الحفرة والشجرة طلسماً خاصاً : فلم اشعر بالضجر ابداً
قربهما . ولم اكن افهم آنذاك انني لم اشعر بالضجر لانني كنت
طفلاً . اما الآن فانا انسان راشد ولا يؤثر علي الطلسم .
فساله اركادي :

- كم من الوقت قضيت هنا ؟

- زهاء عامين متتاليين . وفيما بعد صرنا ناتي الى هنا بين
حين وآخر . فقد عشنا حياة الترحل ، اذ كنا نجوب المدن اكثر من
غيرها .

- وهل الدار مبنية من زمان ؟

- نعم . بناها جدي ، والد امي .

- ومن هو جدك هذا ؟

- الشيطان وحده يعلم . كان رائداً على ما اعتقد ، خدم عند
سوفوروف (٩٩) ، وكان يتحدث دوماً عن عبور الالب . كان يكذب
ولا يد .

- ولذلك علقت صورة سوفوروف في غرفة الاستقبال لديكم .
انني احب الدور الصغيرة العتيقة والدافئة مثل داركم ، ثم ان لها
رائحة خاصة متميزة .

فقال بازاروف متثابراً :

- يفوح منها زيت القناديل والهندقوق . اما عن الذباب في
هذه الدور الجميلة . . . فحدث ولا حرج !

بعد فترة قصيرة سال اركادي :

- قل لي هل كنت تتعرض لمضايقات في الطفولة ؟

- انت ترى والدي . انهما ليسا متشددين .

- انت تحبهما يا يفغيني ، اليس كذلك ؟

- طبعاً ، يا اركادي !

- انهما متيمان بك !

لاذ بازاروف باذيال الصمت ، ثم دس يديه تحت رأسه وقال
اخيراً :

هل تحزر بم افكر ؟

- كلا . بم ؟

- افكر ان والدي يعيشان بهنا ! فابي في الستين وهو
مشغول باشغاله ويتحدث عن الادوية «المسكنة» ويعالج الناس
ويتسامع مع الفلاحين ، وباختصار ، فهو يعيش حياة مرحة . وامي
تعيش بهنا ايضاً . فيومها مشحون بالمشاغل والتأوهات والتحسرات
الى درجة لا تترك لها متسعاً من الوقت لالتقاط النفس . اما
انا . . .

- وانت ؟

- اما انا فافكر : ها انا ذا اضطجع هنا في ظل الكومة . . .
والمحل الضيق الذي اشغله هنا ضئيل جداً بالمقارنة مع ما تبقى
من المكان حيث انا غير موجود ولا شأن لاحد بي . ثم ان ذلك
القسم من الزمن الذي ساعيشه ضئيل جداً بالمقارنة مع الخلود
حيث لم اكن موجوداً ولن اوجد . . . في حين ان هذه الذرة ، هذه
النقطة الهندسية ، يدور فيها دم ويعمل فيها دماغ يريد شيئاً
ما . . . فيا للفقاعة ! ويا للسخف !

- عفواً ! ان ما ذكرته ينطبق عموماً على جميع البشر . . .
فعاجله بازاروف قائلاً :

- انت على حق . اردت ان اقول انهما ، اعني والدي ،
مشغولان ولا يفكران بتفاهتهما ، وهي لا تزكم انفيهما . . . اما
انا . . . فلا احس بغير الضجر والغضب .

- الغضب ؟ لماذا الغضب ؟

- لماذا ؟ كيف لماذا ؟ فهل نسيت ؟

- انني اتذكر كل شيء . ومع ذلك لا اعترف بحقك في
لغضب . انت تعيش ، لا اجادل في ذلك ، ولكن . . .

- آ ! يبدو لي انك ، يا اركادي نيكولايفيتش ، تفهم الحب
مثل جميع الشباب العصريين : تعالي ، تعالي يا دجاجة ! ولكن
حالما تبدا الدجاجة بالاقتراب تطلق انت ساقيك للريح ! لست
من هذا الطراز . ولكن كفانا كلاماً عن ذلك . فمن العيب الكلام عما
نحن عاجزون عنه . - استدار على جنبه - آها ! يا لشجاعة هذه

النملة التي تجر ذبابة محتضرة . واصلي عملك ، يا اختي .
واصليه ! فبالرغم من مقاومتها انتهزي فرصة كرنك ، كحيوان .
تتمتعين بحق عدم الاعتراف بمشاعر المؤاساة ، خلافاً للانسان الذي
يحطم نفسه بنفسه !

- لا يليق بك هذا الكلام يا يفغيني ! فمتى حطمت انت
نفسك ؟

رفع بازاروف راسه وقال :

- انني افتخر بذلك . فما دمت لم احطم نفسي بنفسي ، فلن
تحطمني امرأة . هذا هو القول الفصل ! خلاص ! ولن تسمع مني
كلمة واحدة عن ذلك بعد الآن .

ظل الصديقان صامتين بعض الوقت .

ثم طفق بازاروف يتكلم :

- اجل ، الانسان كائن غريب الاطوار . عندما تلقى نظرة
جانبية ، عن بعد ، على الحياة الصماء التي يعيشها «الآباء» هنا يغيب
اليك انه لا افضل منها ! فيكفي ان تأكل وتشرب حتى تتصور بانك
تسلك السلوك الاصوب والاكثر تعقلاً . كلا ! الضجر سيستولي
عليك . وبود المرء ان يعاشر الناس ، ولو اضطر الى لوهمهم ، فلا
بد من المعاشرة .

فقال اركادي متأملاً :

- ينبغي تنظيم الحياة بحيث تكون لكل لحظة فيها أهمية .
- لا اعتراض على ذلك . فالشيء المهم حلوه بالرغم من الزيف
الذي يرافقه احياناً . ويمكن التسامح حتى مع الاشياء التافهة . . .
ولكن المشاحنات . . . المشاحنات هي الطامة الكبرى .
- المشاحنات غير موجودة بالنسبة للانسان اذا كان لا يريد
الاعتراف بها طبعاً .

- احم . . . لقد قلت الآن عبارة مبتذلة مضادة .

- ماذا ؟ ما الذي تقصده بهذه التسمية ؟

- اليك ما اقصده : اذا قلنا ، مثلاً ، ان التعليم نافع ، فذلك
عبارة مبتذلة ، واذا قلنا ان التعليم ضار ، فذلك عبارة مبتذلة
مضادة ، فهي ، حسب الظاهر ، اكثر اناقة ، ولكنها نفس الشيء
في الواقع .

- ولكن اين الحقيقة ؟ وفي اي جانب هي ؟

- اين ؟ ساجيبك كالصدي : اين الحقيقة ؟

- مزاجك سوداوي اليوم يا يفغيني .

- حقاً ؟ لا بد وان الشمس قد لفحتني . ثم انني اكلت الكثير

من نوت العليق .

- اذن فلا بأس بان نغفو قليلاً .

- اجل . ولكن لا تنظر الي : فان وجه اي انسان يبدو بليداً

انتاء النوم .

- هل تعير بالاً لما يفكر به الآخرون عنك ؟

- لا ادرى بماذا اجيبك . فالانسان الحقيقي لا ينبغي ان يفكر

بذلك . والانسان الحقيقي ليس هو الذي يفكر فيه الآخرون ، بل

هو الذي يخضعون له او يكرهونه .

- يا للغرابة ! فانا لا اكره احداً - قال اركادي بعد ان تفكر

قليلاً .

- اما انا فاكراه كثيرين . انت شخص رقيق رخو العود ، فاين

منك الكره ؟ ! انك خجول لا تعمل على نفسك كثيراً . . .

- وانت ؟ - قاطعه اركادي - هل تعمل على نفسك ؟ وهل

تقدر نفسك كثيراً ؟

لزم بازاروف الصمت فترة . ثم قال متمهلاً :

- عندما اقابل شخصاً لا يستسلم لي فسوف اغير رأيي

عن نفسي . اما الكره فانك ، مثلاً ، قلت اليوم حينما مررنا ببيت

مختار القرية فيليب - وهو بيت ابيض جميل - قلت ان روسيا

ستبلغ الكمال عندما تكون لدى ابسط فلاح مثل هذه البناية ، وان

على كل منا ان يساعد في ذلك . . . عند ذاك كرهت انا هذا الفلاح

البسيط ، فيليب او سيدور ، الذي يتعين علي ان ابذل جهدي من

اجله . اما هو فلن يقدم الي حتى كلمة شكر . . . ثم ما حاجتي

الي شكره ؟ حسناً ، سيعيش هو في بيت ابيض ، وسيثبت على

قبري الشوك ، وماذا بعد ؟

- كفك يا يفغيني . . . من يستمع اليك اليوم يتفق مرغماً

مع اولئك الذين يلوموننا على انعدام المبادئ .

- انت تتكلم مثل عمك . ليست هناك مبادئ اطلاقاً ، بل

هناك الاحساسات ، وكل شيء متوقف عليها . وانت لم تدرك ذلك

حتى الآن .

- كيف ذلك ؟

- انه كذلك بالذات . خذني مثلاً : انني اتمسك باتجاه
الرفض ، وذلك بحكم الاحساسات . فالرفض يبعث السرور في
نفسي ، ودماعي مبنى على هذا الاساس ، ذلك كل شيء ! فما الذي
يجعل الكيمياء تعجبي ؟ وما الذي يجعلك تحب التفاح ؟ - ذلك
ايضاً بحكم الاحساسات . فالامر سواء . ولن يتغلغل البشر الى
اعمق من ذلك ابداً . ولن يقول ذلك اي كان . وحتى انا لن اقول
لك مرة اخرى .

- والنزاهة هل هي احساس ايضاً ؟

- كيف لا ؟ !

- يفتني ! - شرع اركادي يتكلم بصوت حزين . فقاطعه
بازاروف :

- آ ؟ ماذا ؟ لم يعجبك ذلك ؟ كلا ، يا اخي ! فطالما قررت
ان تحش كل شيء فحش رجلحك ايضاً ! . . علي وعلى اعدائي يا
رب ! ولكننا تمادينا في التفلسف . قال بوشكين «الطبيعة تبع
صمت الكرى» .

فاعترض اركادي :

- لم يقل بوشكين شيئاً من هذا القبيل مطلقاً .
- لم يقل . كان باستطاعته وكان يتعين عليه كشاعر
ان يقول ذلك . وبالمناسبة فقد ادى الخدمة العسكرية
ولا بد .

- لم يكن بوشكين عسكرياً ابداً !

- كيف لا ؟ فعلى كل صفحة لديه تجد «الى المعركة الى
المعركة ! دفاعاً عن كرامة روسيا !» (١٠٠) .

- ما هذه الاساطير التي تبتدعها ؟ ! ذلك افتراء .
- افتراء ؟ فليكن ! ابهذه الكلمة تريد ان تخيفني ؟ ! مهما
افترينا على الانسان فهو في الواقع يستحق اكثر من ذلك بعشرين
مرة .

- من الافضل ان ننام ! - قال اركادي بزعل .

فاجاب بازاروف :

- بكل سرور .
بيد ان النعاس لم يراودهما . واجتاح فزاديهما شعور يكاد

يكون عدائياً . وبعد خمس دقائق فتحا عيونهما وتبادلا النظرات
صامتتين .

ثم قال اركادي فجأة :

- انظر ! انفصلت ورقة اسفندان جافة وها هي تسقط على
الارض بشكل يشبه كل الشبه تحليق الفراشة . افليس ذلك
غريباً ؟ ان اكثر الامور كآبة وموتاً شبيهه باكثرها مرحاً وحياة .
فهتف بازاروف :

- يا صديقي اركادي نيكولايفيتش ! ارجو منك شيئاً واحداً :

لا تتكلم على نحو جميل .

- انني اتكلم بقدر استطاعتي . . . ثم ان ذلك تعسف في آخر
الامر . تبادرت الى ذهني فكرة فما الذي يمنعني من ان اعرب عنها ؟
- هكذا اذن . فما الذي يمنعني انا ايضاً من ان اعرب عن
فكرتي ؟ انني ارى ان الكلام على نحو جميل امر معيب .

- فما هو الامر غير المعيب ؟ الشتائم ؟
- هه ! يبدو لي انك تنوي ان تقتفي حقاً اثار عمك العزيز .
فما اشد فرحة ذلك الابله لو انه سمعك !

- بم وصفت عمي بافل بتروفيتش ؟
- وصفته بما يستحق : بالابله .

- ذلك امر لا يطاق ! - هتف اركادي .
فقال بازاروف بهدوء :

- اما ! نارت فيك مشاعر القربى . لقد لاحظت انها راسخة
في الناس بتصلب وعناد . فالانسان مستعد للتخلي عن كل شيء ،
ولمفارقة كل الاوهام ، ولكن الاعتراف ، مثلاً ، بان اخاه الذي
يسرق مناديل الغير لص انما هو فوق طاقته . وبالفعل ، فهل يمكن
ان لا يكون اخي عبقرياً اذا كان هو اخا لي بالذات ؟ . .

فاعترض اركادي منفعلاً :

- ان ما ثار في هو شعور العدالة البسيط ، وليس مشاعر
القربى ، ولكنه طالما انك لا تفهم هذا الشعور وليس لديك هذا
الاحساس ، فليس باستطاعتك ان تحكم عليه .

- وبعبارة اخرى : ان اركادي كيرسانوف فوق مستوى
فهمي . لذا اطأطأ راسي والوذ بالصمت .

- كفك ، ارجوك يا يفتني . سوف نتشاجر في آخر الامر .

- آه يا اركادي ! اعمل معروفًا ، فلننتساجر مرة كما يرام ،
حتى النفس الاخير ، حتى الابادة .
- يخيل اليّ اننا ، على هذا النحو ، سننتهي الى . . .
فعاجله بازاروف :

- . . . ان نتلاكم ؟ اليس كذلك ؟ لا بأس ان نتلاكم هنا ،
على العشب ، في هذا الجو الشعري بعيداً عن العالم وعن انظار
الناس . ولكنك لن تقوى علي . فسوف اتشبت بتحرك على
الغور . . .

نشر بازاروف اصابعه الطويلة المتصلبة . . . واستدار
اركادي واستعد للمقاومة مازحاً . . . لكن وجه صديقه بدا له
شريراً للغاية وخيل اليه ان خطراً فعلياً يتهده في ابتسامة شفوية
الساخرة المصطنعة وفي عينيه المتوقدتين ، مما جعله يحس بوجع
لا ارادي . . .

- اها ! هنا اختفيتما ! - دوى في تلك اللحظة صوت فاسيلي
ايفانوفيتش . جاء الطبيب العسكري العجوز مرتدياً سترة قطنية
بيتية الصنع وقبعة من القش بيتية الصنع ايضاً - بحثت عنكما
طويلاً . . . ولكنكما اخترتما مكاناً ممتازاً وانشغلتما بعمل رائع ،
حيث تتطلعان الى «السماء» راقيدين على «الارض» . . . افلا ينطوي
ذلك على اهمية خاصة ؟ !

فقال بازاروف :

- انني لا انظر الى السماء الا عندما تنتابني عطسة . - ثم
التفت الى اركادي و اضاف همساً : - من المؤسف انه حال بيننا .
فهمس اركادي وشد على يد صديقه خلسة :
- كفاك . فان اية صداقة لن تصمد طويلاً لمثل هذه
الاشتبكات .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش آنذاك وهو يهز رأسه وقد استند
بيديه المتصالبتين على عصا معقوفة بتفنن صنعها بنفسه ووضع
مقبضاً لها بشكل رأس تركي معمم .

- انني اطلع اليكما يا عزيزي ولا اشمع منكما . فكم فيكما
من قوة وشباب مزدهر وقابليات ومواهب ! انكما . . . مثل
كاستوروس وبولوكس * بالضبط !
* ابنا زيوس ، توامان . - المترجم .

فقال بازاروف :

- ها قد استشهدت بالميثولوجيا ! واضح تماماً انك كنت في
حينه متضلعاً في اللاتينية ! فلقد فزت ، على ما اذكر ، بالميدالية
الفضية لقاء الانشاء ، اليس كذلك ؟
- توامان بالضبط ! - قال فاسيلي ايفانوفيتش .
- ولكن كفاك رقة ، يا ابتي .

فقال العجوز :

- ذلك مسموح به مرة في العمر . وبالمناسبة فقد بحثت
عنكما ايها السيدان لا لاعبر لكما عن المجاملات ، بل لاختيركما ،
اولاً ، باننا سنتناول طعام الغداء قريباً ، وثانياً ، اردت ان اذكرك
يا يلفيني . . . فانت انسان ذكي تعرف الناس ، والنساء كذلك ،
لذا فسوف تتسامح . . . ارادت امك ان تزدي مراسيم الصلاة
بمناسبة مجيئك . ولا تتصور بانني ادعوك لحضور هذه المراسيم ،
فقد انتهت ، ولكن الاب الكسي . . .

- خوري ؟

- اجل . الخوري سوف . . . يتغدى عندنا . . . لم اكن
اتوقع ذلك ، حتى انني نصحته بعدم . . . ولكنني لم انجح . . .
فهو لم يفهمني . . . ثم ان آرينا فلاسيفنا . . . علماً بأنه انسان
متعقل وفي منتهى الطيبة .

فسال بازاروف :

- لن ياكل حصتي من الغداء ، اليس كذلك ؟

فقال فاسيلي ايفانوفيتش ضاحكاً :

- كيف ؟

- انا لا اطالب ، اذن ، بأكثر من ذلك . وانا مستعد للجلوس
الى المائدة مع اي كان .

عدّل فاسيلي ايفانوفيتش قبعته ، وقال :

- انا واثق مسبقاً من انك اعلى مستوى من جميع الخرافات .
فحتى انا العجوز في سني الثانية والستين اخلو من تلك الخرافات .
(لم يتجرا فاسيلي ايفانوفيتش على الاعتراف بأنه نفسه رغب في
اداء الصلاة . . . كان متديناً لا اقل من زوجته .) اما الاب الكسي
فقد كان راغباً اشد الرغبة في التعرف عليك . وسوف يعجبك ،

مستري ذلك بنفسك . وهو لا يعتذر عن لعب الورق
انه . . . وهذا سر بيننا . . . يدخن غليوناً . . . حتى

- ما العمل ؟ سنلعب القمار بعد الغداء وسوف اغلبه .
- هيه ، من يعيش ير ! فتلك مسألة فيها نظر .
- ماذا ؟ هل تستعيد ذكريات الماضي ؟ - سال بازاروف
بنبرة متعمدة .

فاحمرت وجنتا فاسيلي ايغانوفيتش البرنزيتان على نحو مبهم
وقال :

- عيب عليك يا يفغيني . . . ما فات فات . نعم ، انا مستعد
للاعتراف امام ارКАДي نيكولايفيتش بانني كنت مولعاً بذلك في
فتوتي . نعم . ولكنني دفعت الثمن ! ما اشد حرارة الجو . اسمع
لي ان اجلس قريبكما . فلن اثقل عليكما ، اليس كذلك ؟
- مطلقاً - اجاب ارКАДي .

ارتقى فاسيلي ايغانوفيتش على العشب متأوهاً ، ثم طفق
يتكلم :

- مضجعكما العالي ، يا سيديّ الجليلين ، يذكرني بحياتي في
المخيمات العسكرية ومراكز التضميم في مكان ما قرب اكوام
العشب . وكان ذلك في احسن الاحوال - وندت عنه تنهدة -
فلقد اجتزت كثيراً من المحن في حياتي . وعلى سبيل المثال
احدثكما ، اذا سمحتما ، عن وباء الطاعون في بيسارابيا .
فعاجله بازاروف قائلاً :

- ذلك الذي منحت وسام فلاديمير من اجله ؟ نعرف ذلك
جيداً . . . وبالمناسبة فلماذا لا تحمل الوسام ؟

- قلت لك بانسي لا اعبأ بالخرافات - دمدم فاسيلي
ايغانوفيتش (وهو الذي امر يوم امس فقط بانتزاع شريط الوسام
الاحمر من سترته) ، وراح يتحدث عن وباء الطاعون . ثم همس
لارКАДي بغتة وهو يشير الى بازاروف وقد غمز بطيبة قلب : -
لقد غفا - ثم اضاف بصوت عال : - يفغيني ! انهض ! فلتنهض
لتناول الغداء . . .

اتضح ان الاب الكسي ، وهو رجل مكتنز مرموق بشعره الكثيف
الممشط بدقة وزناره المطرز على غفارة الحريرية البنفسجية ،
يتحلى بقدر كبير من المهارة والفطنة . فقد بادر الى مصافحة ارКАДي

وبازاروف وكأنه يدرك مسبقاً بانهما ليسا بحاجة الى تبريكاته ،
وقد تصرف عموماً بلا تكلف . فلم يفضح نفسه ولم يمس
الآخرين . وقد سخر على نحو مناسب من اللغة اللاتينية المدرسية
ودافع عن اسقفه ، وارثشف قدحين من النبيذ ورفض القدرح
الثالث . وتناول من ارКАДي سيجاراً ولكنه لم يدخنه ، بل قال انه
سيأخذه معه الى البيت . كان شيء واحد لا يبعث على الارتياح فيه ،
وهو انه يرفع يده ببطء وحذر بين حين وآخر ليتصيد الذباب على
وجهه ، ثم يهرسه احياناً . وقد جلس الى المائدة الخضراء معبراً
عن ارتياحه باعتدال ، وانتهى الى ان غلب بازاروف روبلين
وخمسين كوبيكاً ورقية : فان عائلة آرينا فلاسيفنا لم تكن تعرف
الحساب بالنقود الفضية . . . جلست الام كعادتها ازاء ابنها (ولم
تساهم في لعب الورق) فاسندت خدها بقبضتها كالسابق ، ولم
تكن تنهض الا لكي تأمر باحضار صنف جديد من اصناف الطعام .
كانت تخشى مداراة بازاروف الذي لم يبدر منه ما يشجعها على
المداراة ، ثم ان فاسيلي ايغانوفيتش نصحها هو الآخر بان لا
"تزعج" ابنها كثيراً . واكد لها "ان الشباب لا يرغبون في ذلك" (ولا
داعي للكلام عن غداء ذلك اليوم : فقد ارتحل تيموفيتش بنفسه
منذ الفجر لكي يقتني لحم بقر من نوع تشيركاسي خاص ، وتوجه
مختار القرية الى جهة اخرى لاقتناء سمك البربوط والراف
والسرطان ، وتسلمت الفلاحات اثنتين واربعين كوبيكاً نحاسياً لقاء
الفطر وحده) . بيد ان عيني آرينا فلاسيفنا المتطلعتين الى بازاروف
على الدوام لم تعبرا عن الولا والحنان وحدهما : فقد لاحت فيهما
كأبة مزروجة بالفضول والرعب ، ولاح فيهما شيء من العتاب
الواحد .

وبالمناسبة فقد كان بازاروف في شغل شاغل عن تفحص ما
تعبّر عنه عينا امه . فكان نادراً ما يخاطبها وي طرح عليها سؤالاً
ما موجزاً . طلب منها ان تقدم له يدها "كفأل حسن" في لعب
الورق ، فوضعت يدها الرقيقة بهدوء على راحته الواسعة
المتصلبة .

وبعد قليل سألته :

- ماذا ؟ هل اعانك ذلك ؟

فاجاب بابتسامة ساخرة مستهينة :

- اصبح الامر اسوأ .
 فقال الاب الكسي متظاهراً بالتأسف ومسد لحيته الجميلة :
 - انه يجازف كثيراً .
 فتدخل فاسيلي ايفانوفيتش الذي لعب بالأس قائلاً :
 - تلك قاعدة نابليونية ، يا ابانا ، قاعدة نابليون .
 فقال الاب الكسي وهو يغطي الأس بورقة القشوش الرابعة :
 - انها هي التي قادته الى جزيرة سانت هيلانة * .
 وسالت آرينا فلاسيفنا :
 - الا ترغب في عصير عنب الثعلب ، يا ينيوشا ؟
 فاكثفي بازاروف بان هز كتفيه .
 وفي اليوم التالي قال لاركادي :
 - كلا ! سارتحل غداً . لقد ضجرت . اريد ان اعمل ولكن
 العمل هنا مستحيل . ساذهب الى قريبتكم من جديد ، فقد تركت
 جميع مستحضراتي عندكم . هناك يمكنني ان انفرد على الاقل . اما
 هنا فان ابي يؤكد لي : «مكتبي تحت تصرفك ، ولن يشوش عليك
 احد» ، ولكنه هو بالذات لا يفارقني لحظة . ثم ان انفرادي عنه امر
 لا يليق . وامي هي الاخرى . . . فانا اسمعها تنهد من وراء الجدار ،
 وعندما اخرج اليها لا اجد ما اقله لها .
 فقال اركادي :
 - سوف تتألم هي كثيراً ، وهو ايضاً .
 - ساعود اليهما مرة اخرى .
 - متى ؟
 - في طريقي الى بطرسبورغ .
 - انني متأسف لامك خصوصاً .
 - ماذا ؟ هل اشتركت بالثمار ؟
 غضى اركادي بصره .
 - انت لا تعرف امك جيداً يا يفتيني . فهي ليست امرأة رائعة
 فقط ، بل هي ذكية جداً في الواقع . تحدثت معي زهاء نصف ساعة
 صباح اليوم ، وكان حديثها حصيفاً ممتعاً .
 - لا بد وانها تحدثت غني طوال الوقت ، اليس كذلك ؟
 * منفي نابليون . - المترجم .

- لم يكن الحديث عنك وحدك .
 - ربما . انت اعرف . وما دامت المرأة تستطيع ان تتجاذب
 اطراف الحديث طوال نصف ساعة فتلك دلالة حسنة . ومع ذلك
 سارتحل .
 - لن يكون سهلاً عليك ان تخبرهما بهذا النبا . فهما يتحدثان
 دوماً عما سنفعله هنا بعد اسبوعين .
 - ليس سهلاً . كيف اغواني الشيطان ان اتحش بابي هذا
 اليوم ؟ ! كان قد امر مؤخراً بضرب احد فلاحيه العاملين بالجزيرة ،
 وحسناً فعل . اجل ، اجل ، لا تنظر اليّ مستفطلاً ، حسناً فعل ،
 فذاك الفلاح لص وسكير رهيب ، لكن ابي لم يكن يتوقع مطلقاً
 بانني ساسمع بذلك . لقد ارتبك اشد الارتباك ، اما انا فسوف
 اقنط الى ايلامه زيادة على ذلك . . . ولكن لا بأس ! هذا امر
 يمكن تحمله .
 قال بازاروف «لا بأس !» ، ولكنه لم يتجرا على اشعار فاسيلي
 ايفانوفيتش بنيته الا بعد مرور يوم كامل . فبعد ان ودعه اخيراً
 في المكتب قال بتناؤبة متصنعة :
 - آ . . . كدت انسى ان اقول لك . . . فليرسلوا خيولنا
 غداً الى فيدوت لتستريح عنده * .
 دهش فاسيلي ايفانوفيتش :
 - ماذا ؟ هل يغادرننا السيد كيرسانوف ؟
 - اجل ، وانا معه .
 تبذلت سحنة فاسيلي ايفانوفيتش في الحال :
 - انت تنوي السفر ؟
 - اجل . . . عليّ ان ارحل . ارجوك ان تأمرهم بخصوص
 الخيول .
 فقال العجوز متلعثماً :
 - حسناً . . . سنرسل الخيول لتستريح . . . حسناً . . .
 ولكن ، ولكن . . . كيف ذلك ؟
 - عليّ ان ارحل اليه لوقت قصير . وساعود الى هنا فيما
 بعد .
 * بغية استخدامها فيما بعد بدلا من الخيول المتعبة في منتصف
 الطريق . - المترجم .

- اجل ! لوقت قصير . . . حسناً - اخرج فاسيلسي
ايفانوفيتش منديله وتمخط منحنيًا حتى كاد يلامس الارض -
العمل ؟ سيكون ذلك . . . جاهزاً . ظننت انك ستبقى عندنا . . .
امداً اطول . فان ثلاثة ايام . . . بعد ثلاث سنوات . . . شيء
قليلاً ، قليل ، يا يفغيني !

- اقول لك اني سأعود قريباً . من الضروري ان ارحل .
- ما دام ذلك ضرورياً . . . فما العمل ؟ ينبغي اداء الواجب
قبل كل شيء . . . اذن سنرسل الخيول ، اليس كذلك ؟ حسناً .
بديهي اننا ، انا وآرينا ، لم نتوقع ذلك . فهي قد طلبت زهوراً
من جارتها وارادت ان تزين غرفتك . (لم يذكر فاسيلسي ايفانوفيتش
شيئاً عن انه كان ينهض مع بزوغ الفجر كل صباح ويجمع الى
تيموفيتش ، وقوفاً ، ورجلاه في حذائه دون جوارب ، ويخرج
باصابعه المرتعشة ورقة نقدية بالية اثر اخرى ، فيكلفه باقتناء
مختلف المشتريات ، مؤكداً بصورة خاصة على الاطعمة والنيبذ
الاحمر الذي اعجب به الشبان اشد الاعجاب كما يبدو .) الحرية
اهم شيء . وتلك هي قاعدتي . . . فلا ينبغي التضيق على
احد . . . لا . . .

وصمت فجأة ثم اتجه نحو الباب .

- سنلتقي قريباً ، يا ابتي ، اعدك .

الا ان فاسيلسي ايفانوفيتش لوح بيده يائساً وخرج دون ان
يلتفت . عاد الى غرفة النوم فوجد زوجته في الفراش ، واخذ يصلي
همساً كيلا يوقظها . لكنها استيقظت ، وسألته :
- هذا انت ، يا فاسيلسي ايفانوفيتش ؟

- نعم ، ايتها الام !

- هل انت قادم من ينيوشا ؟ اتدري ؟ اخشى ان لا ينام يوماً
هادئاً على الاريغة . طلبت من انفيسوشكا ان تفرش له حشيتك
السفرية ووسائد جديدة . وبودي ان اعطيه حشيتنا الريش
ولكنه ، على ما اتذكر ، لا يحب الفراش الوثير .

- لا تقلقي ، ايتها الام ، فهو مرتاح . يا الهي ، امح خطاياك
واعف عنا . - واصل صلاته بصوت خفيض . لقد راف فاسيلسي
ايفانوفيتش بعجوزه فلم يخبرها في الليل بالمصيبة التي ستم
بها .



سافر بازاروف واركاڊي في اليوم التالي . خيمت الكآبة على
كل من في الدار منذ الصباح . كانت صحوون قد تساقطت من يدي
انيسوشكا ، وحتى فيدكا تحير وانتهى الى ان خلع جزمته . كان
فاسيلي ايفانوفيتش مضطرباً اكثر من اي وقت مضى : كان يتمالك
نفسه على ما يبدو ، ويتكلم بصوت مرتفع ويطلق برجليه ، لكن
وجهه قد ذبل وذوى ، وصارت نظراته تتجنب ولده . انتحبت
آرينا فلاسيغنا بخفوت ، وكادت تستسلم للحيرة وعدم ضبط
النفس لدرجة اكبر لولا ان صرف زوجها في الصباح الباكر ساعتين
كاملتين في اقناعها وتهديتها . وبعد ان تخلص بازاروف ، اخيراً ،
من البدين اللتين طوقته ، وقطع وعوداً متكررة بأنه سيعود في
وقت لا يتجاوز الشهر مطلقاً ، وصعد الى العربة ، وتزحزحت خيولها
ودق جرسها الصغير وتحركت عجلاتها ، ولم يعد هناك داع لملاحقتها
بالنظرات ، فسكن الغبار الذي اثارته ، وعاد تيموفيتش محني
الظهر كلياً يجر قدميه مترنحاً في مشيته الى غرفته الصغيرة ،
وبعد ان ظل العجوزان وحيدين في دارهما التي بدت ، هي الاخرى ،
منكمشة هرمة على نحو مبالغت ، ارتقى فاسيلي ايفانوفيتش الذي
كان قبل بضع لحظات يلوح بمنديله متماسكاً في مدخل الدار ،
على الكرسي وتدلّى رأسه على صدره وتمتم : «تركنا ، تركنا ،
ضجر منا وبقي الآن وحيداً ، وحيداً ، كالاصبع !» - كرر هذا
القول مراراً ، وكان كل مرة يدفع بيده الى الامام وسبابته
منتصبه . وعند ذاك اقتربت منه آرينا فلاسيغنا ومالت براسها
الاشيب الى رأسه الاشيب ايضاً وقالت : «ما العمل يا فاسيلي !
الابن كسرة مقطوعة من رغيف . وهو كالصقر يحط متى شاء ، ويحلق
متى شاء ، اما نحن فمثل نبتتين من الفطر عند تجويف في جذع
شجرة ، نجلس جنباً الى جنب ولا نتزحزح من مكاننا . لكنني سأظل
مخلصة لك الى الابد ، مثلما انت مخلص لي» .

رفع فاسيلي ايفانوفيتش يديه عن وجهه وعانق زوجته
ورقيقة حياته بشدة لم يعانقها بمثلها حتى في زمن الشباب : فقد
خلفت عليه احزانه .



وصل صاحبانا الى فيدوت صامتتين ، فلم يتبادلا الا كلمات لا شأن لها بين الحين والآخر . لم يكن بازاروف راضياً عن نفسه تماماً . وما كان اركادي راضياً عنه . زد على ذلك انه احس بكآبة لا مبرر لها تعترض قلبه . وهي كآبة لا يعرفها الا من هم في ريعان الصبا . استبدل الحوذي الخيول وصعد الى مقعده وسال : الى اليمين ام الشمال ؟

ارتعش اركادي . الطريق الى اليمين يؤدي الى المدينة ومنها الى داره . اما الطريق الى الشمال فيؤدي الى اودينتسوف .

التفت الى بازاروف وساله :

— يغنيني ، الى الشمال ؟

فاشاح بازاروف بوجهه ودعمه :

— ما هذه الحماقة ؟

فاجاب اركادي :

— انا اعرف انها حماقة . لا ضير في ذلك . فهل هذه هي حماقتنا الاولى ؟

خفض بازاروف عمرته حتى غطت جزءاً من جبهته ، ثم قال اخيراً :

— كما تشاء .

فصاح اركادي :

— الى الشمال !

اسرعت العربّة باتجاه نيكولسكويه . الا ان الصديقين اللذين قررا اقتراف تلك **الحماقة** قد صممتا بعناد اشد من السابق حتى لكانهما حانقان .

ادركا من كيفية استقبال كبير الوصفاء لهما في مدخل دار اودينتسوف انهما تصرفا بغير حكمة عندما انصاعا لفكرة راودتهما على حين غرة . فمن الواضح ان احداً ما لم يكن يتوقع قدومهما . انتظرا طويلاً في غرفة الاستقبال واكتسى وجهاهما بمسحة من البلادة . واخيراً حضرت اودينتسوف . رحبت بهما بلطفها المعتاد ، لكنها دهشت لعودتهما السريعة ، ولم تكن ، كما بدا من تباطؤ حركاتها ولهجتها ، في غاية السرور لذلك . واسرع الشابان للاعلان

بانهما عرجا عليها في طريقهما الى المدينة التي سيتوجهان اليها بعد زهاء اربع ساعات . فاكتفت هي بان تأومت متعجبة بعض الشيء ورجت اركادي ان ينقل تحياتها الى ابيه وبعثت في طلب خالتها . حضرت الاميرة ناعسة ، مما اضفى مزيداً من الحق على ملامح وجهها الهرم المتغضن . وكانت كاتيا متوعدة فلم تغادر غرفتها . احس اركادي فجأة بانه راغب في رؤية كاتيا كما في رؤية آنا سيرغييفنا سواء ، سواء على اقل تقدير . انقضت الساعات الاربع في احاديث لا أهمية لها عن كيت وكيت ، وكانت آنا سيرغييفنا تستمع وتتكلم دون ان تبسم . ولم تتحرك المشاعر الودية السابقة في فؤادها ، على ما يبدو ، الا خلال الوداع ، حيث قالت :

— انتابتنى الكآبة في الآونة الاخيرة ، ولكن لا تهتما بذلك ، تعالا اليّ معاً بعد حين من الزمن .

رد عليها بازاروف واركادي بانحناء صامته ، وصعدا الى مركبتهما واتجا الى البيت في مارينو دون ان يتوقفا في اي مكان . وصلا بسلام في مساء اليوم التالي . وطوال الطريق كله لم يذكر لا هذا ولا ذاك حتى اسم اودينتسوف . ولم يفتح بازاروف على الخصوص فمه طوال الوقت تقريباً حيث راح يتطلع بقساوة متوترة الى جانبي الطريق .

سر الجميع في مارينو لوصولهما غاية السرور . فان غياب اركادي ذلك الامد الطويل اخذ يقلق نيكولاي بتروفيتش الذي هف وطبطب برجليه وتقافز على الاركة عندما ركضت اليه فينيتشكا بعينين براقتين واعلنت عن وصول «السيدتين الشابيتين» . وحتى بافل بتروفيتش احس ببعض الاضطراب المفرح وابتسم متساعداً وهو يشد على يدي الجوالين العاندين . وبدأت الاحاديث والتساؤلات . وتكلم اركادي اكثر من غيره وخصوصاً اثناء العشاء الذي استمر لامد طويل بعد منتصف الليل . امر نيكولاي بتروفيتش بتقديم بضعة قنان من جعة البورتر المركزة التي جلبت لتوها من موسكو . واقرط هو في الشراب حتى غدت وجنتاه قرمزيتين وراح يضحك بقهقهة فيها شيء من ضحك الاطفال او الضحك العصبي . واجتاحت الفرحة الخدم ايضاً . فكانت دونياشا تتراكم الى هنا وهناك كالمهووسة ، وهي تصفق الابواب بين الحين والآخر . وحاول بيوتر ، حتى في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ان

يعزف فالس القوزاق على القيثارة . كانت الاوتار تنوح بلطف في الجو الجامد ، ولكن الوصيف المتعلم لم يعزف اي شيء على ما يرام ما عدا بعض النغمات الاولى القصيرة : فالطبيعة لم تمنحه موهبة موسيقية ولا اية موهبة اخرى .

بيد ان الحياة في مارينو لم تكن تجري على نحو طيب تماماً . كانت حالة نيكولاي بتروفيتش المسكين تسوء احياناً . وكانت الهموم في المزرعة تزداد من يوم لآخر ، وهي هموم مشوشة لا تبعث على السرور . وغدا التعامل مع الاجراء امراً لا يطاق . فالبعض منهم يطالبون بتصفية الحساب او زيادة الاجور ، بينما يترك البعض الآخر العمل مستأثراً بالعربون . كانت الخيول عرضة للأمراض ، وعدتها تتلف بلمح البصر . كانت الاعمال تنفذ بدون اتقان ، واتضح ان الآلة الدارسة التي جلبت من موسكو غير صالحة بسبب ثقلها . اما الآلة الاخرى فقد اصابها العطب منذ تشغيلها للمرة الاولى . واحترق نصف حظيرة الماشية لان عجوزاً عمياً من الخدم خرجت اثناء هبوب الريح تحمل جذوة «لتنين» بقرتها . . . غير ان هذه العجوز نفسها اكدت بان سبب المصيبة هو نية السيد في استحداث اجنان والبان لا مثيل لها . وعلى حين غرة انتاب الكسل وكيل المزرعة حتى انه اخذ يترهل كما يترهل كل روسي يعيش في بحبوحة . وحالما يرى نيكولاي بتروفيتش قادماً من بعيد يلقي بخشبة على خنوص يمر راکضاً قربه او يهدد غلاماً شبه غار ، وذلك ليبين له جده واجتهاده ، لكنه في الواقع كان ينام اكثر الاوقات . ولم يكن الفلاحون العاملون بالجزية يدفعون النقود في الموعد المحدد ، وكانوا يسرقون الاخشاب . وفي كل ليلة تقريباً كان الحرس يتصيدون خيول الفلاحين ترعى في مروج «المزرعة» ، وحياناً كانوا يقتادونها منهم بعراك . وقد فرض نيكولاي بتروفيتش غرامة نقدية على اتلاف المزروعات ، لكن الامور تنتهي عادة بان تصرف تلك الخيول يوماً او يومين في حظيرة السيد ثم تعاد الى اصحابها . زد على ذلك ان الفلاحين اخذوا يتشاجرون فيما بينهم : صار الاخوة يطالبون بالتقسيم ، ولم تستطع زوجاتهم ان يتعايشن في منزل واحد ، وكان العراك ينشب بينهم فجأة ، فيعم هرج ومرج على حين غرة كما لو ان احداً قد امر بذلك ، ويهرع الجميع الى مدخل المكتب مندفعين الى السيد مخنولين

بوجوه مخدشة في الغالب وهم يطالبون بمحاكمة وعقاب . وترتفع ضجة وعويل وتختلط صاصة النسوة المنتحبات بشتائم الرجال . كان يتعين الفصل بين الاطراف المتعادية ، ولا بد من الصياح حتى يبع الصوت مع ان الصائح يعلم مسبقاً انه لا يمكن التوصل الى حل صائب . لم تكن الايدي العاملة كافية لجمع الغلة : فالفلاح الغني الوسيم المجاور وعد بان يحضر الحصادين مقابل روبلين عن كل هكتار ، ولكنه خدع نيكولاي بتروفيتش بدناءة . وطلبت فلاحات السيد اجوراً مرتفعة للغاية ، بينما اخذ القمح يتناثر من السنايل . اخفق الحصاد ، في حين صار مجلس الوصاية يهدد ويطالب بدفع الفائدة المئوية بالتام والكمال فوراً . . .

كان نيكولاي بتروفيتش يكرر بقنوط :
- خارت قواي ! ليس بوسعي ان اعارك ، ولا استطيع الاستنجاد بالشرطة ، فالمبادئ تحول دون ذلك . بينما لن ينجز احد شيئاً بدون الخوف من العقاب !
- (هدوا ، هدوا) * - كان بافل بتروفيتش يجيبه ، ولكنه هو نفسه يدمدم ويعبس وينتف شاربيه .

اما بازاروف فكان بعيداً عن هذه «المشاحنات» ، بل وما كان مضطراً ، كضيف ، ان يتدخل في شؤون الغير . فعند اليوم التالي لوصوله الى مارينو انهمك بمعالجة ضفادعه وتفاعياته ومستحضراته الكيميائية وصرف الوقت كله في ذلك . في حين رأى اركادي ، على العكس ، ان من واجبه ان يساعد اياه او ان يتظاهر على الاقل بالاستعداد لمساعدته . كان يستمع اليه بصبر ، وقدم له ذات مرة نصيحة لا لكي يعمل بها احد ، بل لكي يعلن عن مساهمته بشكل ما . ولم يكن تدبير امور المزرعة ليشير انتمزازه : فهو يحلم ، بارتياح ، بممارسة النشاط الزراعي . بيد ان افكاراً اخرى شغلت باله آنذاك . كانت افكار اركادي ، ويا لدهشته هو ، تحوم طوال الوقت حول نيكولسكويه . كان في السابق يكتفي بهز الكتفين لو ان احداً قال له بانه يمكن ان يشعر بالضجر من العيش مع بازاروف تحت سقف واحد ، ناهيك عن سقف الوالدين . اما الآن فقد غدا ضجراً حقاً ، وصار شيء

* في الاصل بالفرنسية Du calme, du calme

ما يدعو الى بعيد . قرر ان يتمشى حتى الارهاق ، لكن ذلك لم يجده نفعاً . تحدث مع ابيه نيكولاي بتروفيتش ذات مرة فعلم ان لديه بضع رسائل ممتعة جدا كانت قد بعثت بها ام اودينتسوف الى المرحومة زوجته منذ زمان بعيد ، ولم يتركه وشأنه الا بعد ان تسلم منه تلك الرسائل التي اضطر نيكولاي بتروفيتش على التفتيش عنها في زهاء عشرين من الادراج والصناديق المختلفة . وعندما غدا اركادي مالكا لهذه الوريقات البالية استقر بعض الشيء كما لو تراءى له الهدف الذي يتعين عليه بلوغه . وصار يهمس بلا كلل «لقد قالت بنفسها : تعالا الى معا . . . ساسافر ، ساسافر ، وليكن ما يكون !» . لكنه يتذكر الزيارة الاخيرة والاستقبال الفاتر وارتياباته السابق فيعتريه الوجل . واخيرا سيطرت عليه «عسى ولعل» ورغبة الشباب الخفية في تذوق طعم سعادته وتجربة قواه على انفراد بدون اية وصاية مهما كان مصدرها . لم تمض على عودته الى ماريانو عشرة ايام حتى عاد من جديد الى المدينة ، بحجة دراسة نظام مدارس الاحاد (١٠١) ، ومن هناك عرج على نيكولسكويه . كان يستعجل الحوذى بلا انقطاع وهو ينهب الدرب الى هناك كضابط شاب توجه الى المعركة : كان مرتعبا مرحا . وهو ينتظر الوصول بفارغ الصبر . ويؤكد لنفسه «الامر الاهم هو ان لا افكر بشي» . وقد وقع اختياره على حوذى مغوار ، كان يتوقف امام كل حانة قائلا : «هل تتجرع ؟» او «فلنتجرع !» ، ولكنه بعد ان «يتجرع» لا يعود يراف بالجياد . وما قد لاح اخيرا السقف العالي لتلك الدار المعروفة . . . وفكر اركادي على الفور : «ماذا فعلت ؟ ولكن لا مجال للعودة !» . وراحت الخيول الثلاث تنهب الدرب بونام والحوذى يستحثها بصفيه . ها هو الجسر الصغير قد جلبل تحت السنايك والعجلات ، وما هو ممشي اشجار الشوح الحليقة المقلمة . . . ومرق فستان نسائي وردي وسط الخضرة الداكنة وتطلع وجه فتي من تحت اهداب مظلة خفيفة . . . انها كاتيا ، عرفها وعرفته . امر اركادي الحوذى بوقف الخيول المنطلقة ، فقفز من المركبة واقترب منها . فقالت بعد ان احتقن وجهها كله بالتدريج : «هذا انت ! فلنذهب الى اختي ، انها هنا ، في البستان . وسوف تسر لرؤيتك» . اقتادت كاتيا اركادي الى البستان . وكان اللقاء معها فالأ

سنا جدا كما خيل اليه ، فقد سر لها كما لو كانت من اهله . وجرت الامور على ازوع ما يكون : بدون كبير الوصفاء وبدون مراسيم . ففي منعطف الممشى لمع آنا سيرغييفنا التي كانت واقفة وشهرها اليه . وعندما سمعت الخطي استدارت بهدوء . كاد اركادي يرتبك من جديد ، الا ان اولى الكلمات التي فاهت بها جعلته يهدأ في الحال . «مرحبا ، ايها الهارب !» - قالت بصوتها المتناسق الحنون وتوجهت للقاءه باسمه بعينين شبه ممضتين من الشمس والرياح : «اين عثرت عليه يا كاتيا ؟» . قبلها هو كلامه : - جئت اليك ، يا آنا سيرغييفنا ، بشي ، لا تتوقعينه ابدا . . . - جئت الى نفسك ، وهذا افضل شيء .

٢٣

كان بازاروف قد ودع اركادي متأسفا متهمكا ولمح له بانه لا يمكن ان يخدع قيد انملة بخصوص الهدف الحقيقي لهذه الزيارة ، ثم اعتكف نهائيا ، حيث انتابته حمى العمل . لم يعد يتجادل مع بافل بتروفيتش ، لاسيما وان هذا صار يتخذ بحضوره هيئة ارسقراطية مفرطة ويعرب عن آرائه باصوات متقطعة اكثر مما بكلمات . ومرة واحدة فقط كاد بافل بتروفيتش ينخرط في مساجلة مع النهلستي بصدد المسالة الشائعة آنذاك عن حقوق نبلاء منطقة البلطيق (١٠٢) ، لكنه توقف فجأة وقال بتأدب فاتر : - على كل حال ، ليس بوسعنا ان نفهم بعضنا بعضا . فانا ، على اقل تقدير ، عاجز عن ان اتشرف بفهمك . - كيف لا ؟ ! - هتف بازاروف - الانسان قادر على فهم كل شيء حتى اختلاج الاثير وما يحدث على الشمس ، لكنه عاجز عن ان يفهم كيف يتمخط انسان آخر بشكل يختلف عن تمخطه هو . فقال بافل بتروفيتش متسائلا : - هل هذا شيء ظريف ؟ - وانزوى جانبا . بيد انه كان في بعض الاحيان يستاذن من بازاروف لحضور تجاربه . حتى انه

ذات مرة قرب وجهه المعطر والمضخ بعقاير ممتازة من المعجر لكي يرى كيف التهمت نقاعية شفاقة ذرة خضراء وانشغلت بمضغها بواسطة قبضات صغيرة ورشيقة جدا موجودة في حلقومها . الا ان نيكولاي بتروفيتش اكثر من اخيه ترددا على بازاروف . كان يوده ان يحضر كل يوم «للتعلم» ، على حد تعبيره . لو لا مشاغل المزرعة التي تلهيه . ولم يكن يضايق الباحث الشاب ، فهو ينزوي في احد اركان الحجرة ويتطلع بانتباه ، ونادرا ما يسمح لنفسه بطرح سؤال متهيب . وكان يسعى اثناء تناول طعام الغداء والعشاء الى توجيه الكلام نحو الفيزياء والجيولوجيا والكيمياء ، وذلك لان جميع الامور الاخرى ، حتى ما يتعلق منها بشؤون المزرعة ، ناهيك عن المسائل السياسية ، يمكن ان تؤدي الى عدم ارتياح الطرفين . ان لم نقل الى الصدامات بينهما . وقد خمن نيكولاي بتروفيتش ان حقد اخيه على بازاروف لم يتقلص قيد شعرة . ثم ان حادثة تافهة من بين الحوادث العديدة الاخرى ، قد اكدت تخمينه هذا . اخلت الكوليرا تظهر في بعض الاماكن المجاورة ، بل و«انتزعت» اثنين من سكان مارينو نفسها . وذات ليلة تعرض بافل بتروفيتش لنوبة شديدة . تعذب حتى الصباح ولكنه لم يلجأ الى خدمات بازاروف . وعندما رآه في اليوم التالي وساله بازاروف «لماذا لم يرسل في طلبه ؟» اجابه ، وهو لا يزال شاحبا كليا ، ولكنه تنظف جيدا وحلق ذقنه : «الم تقل بنفسك ، على ما اذكر ، انك لا تؤمن بالطب ؟» . مرت الايام على هذا المنوال . وكان بازاروف يعمل بمثابة وتجه . . . في حين تضم دار نيكولاي بتروفيتش كانا يوسعه ان يروح عن بازاروف همومه ، وعلى الاصح ان يتجاذب معه اطراف الحديث بسرور . . . وهذا الكائن هو فينيتشكا .

كان يتقابل معها في اغلب الحالات اثناء الصباح الباكر في البستان او في الباحة . لم يكن يتردد على غرفتها . ولم تكن هي تقترب من غرفته الا مرة واحدة سألته فيها عند الباب عما اذا كان يتعين عليها ان تغسل ميتيا ام لا ؟ كانت تشق به ، ولا تخشاه . بل كانت تتصرف بحضوره دون تكلف وبطلاقة اكثر مما بحضور نيكولاي بتروفيتش نفسه . ومن الصعب معرفة السبب في ذلك . لعلها كانت تحس بصورة لاشعورية ان بازاروف خال ما

بين النبلاء ، من كل ما هو رفيع يستهويها ويخفيها في الوقت ذاته . لقد كان هو في انظارها طبيبا ممتازا وانسانا بسيطا سوا . كانت لا تشعر بالضيق من وجوده وهي تدارى طفلها . بسوا . كانت اخذ الدوار برأسها فجأة واصابها الصداع فتلقت من يده ملقعة الدواء . كانت ، بحضور نيكولاي بتروفيتش ، كالغريبة على بازاروف : ولم تكن تفعل ذلك بسبب الدماء بل بشعور من اللياقة لا اكثر . وصارت تخشى بافل بتروفيتش اكثر من اي وقت مضى . فقد اخذ منذ حين يراقبها ويظهر بغتة وراء ظهرها كما لو انفطرت عنه الارض ببدلته الانجليزية ووجهه العبوس الجامد ويديه المخبأتين في جيبه . ولقد تشكت فينيتشكا الى دونياشا قائلة : «تنتابني الرجفة منه» . فاجابت دونياشا بتهندة وراحت تفكر بانسان آخر «خال من العواطف» . لقد غدا بازاروف ، دون علم منه ، طاغية قاسما سيطر على فزادها .

كانت فينيتشكا معجبة ببازاروف ، وكان هو معجبا بها ، حتى ان سحنة وجهه تتغير عندما يتحدث اليها : فتكتسب تعبيرا صافيا يكاد يكون طبيبا ، ويختلط باهماله المعتاد شيء من الاهتمام الملغع بالفكاهة . كانت فينيتشكا تزداد جمالا من يوم لآخر . ففي حياة النساء الشايات تصادف مرحلة يبدآن فيها بالازدهار والتفتح كورود الصيف . وقد حلت هذه المرحلة بالنسبة لفينيتشكا . فكل شيء يساعد على ذلك ، حتى قيظ يوليو الذي خيم آنذاك . كانت ترتدي فستانا خفيفا ابيض تبدو فيه اكثر بياضا وخفة . ولم تكن السرة لتعلق ببشرتها ، في حين صبغ الحر الذي لم تستطع ان تحمي منه وجنتيها واذنيها بالحمرة ، واضفى على جسدها كله سكونا هادئا وصار ينعكس في عينيها الجميلتين بشكل فتور ناعس . لم تعد قادرة على ممارسة ايما عمل تقريبا ، كانت يداها تكادان تلتصقان بركبتيها . وكادت تكف عن المشي ، فصارت تناوء وتتشكى بعجز لعوب .

كان نيكولاي بتروفيتش يقول لها :
- من الافضل ان تستحمي كثيرا .

انسا مسبحا واسعا فوقه ظلة من قماش سميك في واحدة من بركة التي لم ينضب ماؤها بعد .

- آه ، يا نيكولاي بتروفيتش ! يموت الانسان قبل ان يصل

الى البركة ، وعندما يعود منها يموت ايضا . فالبيستان خال من الظلال .

- حقا ، ليست هناك ظلال - يجيبها نيكولاي بتروفيتش ويمسح حاجبيه .

ذات مرة ، عاد بازاروف من جولته في الساعة السابعة صباحا فوجد فينيشكا في تعريشة الليلاك التي ذوت زهورها من زمان ، لكنها ظلت كثيفة خضراء . كانت جالسة على المصطبة وقد لفت رأسها ، كعادتها ، بمنديل ابيض ، وقربها حزمة كبيرة من ورود حمراء وبيضاء لا تزال ندية . حياها فقالت :

- آ ! يفغيني فاسيلييفيتش !

ورفعت طرف منديلها لكي تلقي نظرة عليه فتعرت يدها حتى المرفق .

- ماذا تفعلين هنا ؟ تضفرين باقة ؟ - سال بازاروف وجلس قريبا .

- اجل ، باقة لمائدة الفطور . نيكولاي بتروفيتش يحب ذلك .

- الفطور لا يزال بعيدا . ما اكثر هذه الورود !

- قطفتها الآن ، لان من الصعب الخروج فيما بعد بسبب الحر . فالآن فقط يمكن ان نتنسم الهواء . اصابني ضعف شديد من هذا الحر . واخشى ان امرض بسببه .

- ما هذه الاوهام ؟ ! دعيني اجس نبضك - التفت بازاروف يدها وبحث عن العرق فوجده يدق بانسجام حتى انه لم يحس دقاته . ثم قال :

- ستعيشين مائة عام .

- آه ، الله يستر ! - هتفت فينيشكا .

- لماذا ؟ الا تريدان ان تعيشي طويلا ؟

- مائة عام ! هذا كثير ! جدتنا بلغت الخامسة والثمانين ، فما كان اعظم آلامها ! غدت سوداء صماء حدياء تسعل طوال الوقت . كانت عالة على نفسها . فما نفع هذه الحياة ؟ !

- تفضلين البقاء شابة ، اليس كذلك ؟

- والا فما الداعي لذلك ؟

- ما هي افضلية الشباب ؟ خبريني !

- كيف ؟ فانا الآن شابة استطيع ان افعل كل شيء بنفسى .

اروح واغدو واحضر ما يلزم ولا احتاج الى طلب المعونة من احد فهل هناك افضل من ذلك ؟

- اما انا فسيان لدي شابا كنت ام شيئا .

- كيف تقولون سيان ؟ ما تقولونه امر مدهش .

- احكمي بنفسك يا فينيشكا ، ما نفع فتوتي ؟ اننى اعيش وحيدا ، اعزب

- ذلك يتوقف عليكم دوما .

- ليس على تلك هي القضية ! حبذا لو راف احد بعالي .

القت فينيشكا نظرة جانبية على بازاروف ولم تقل شيئا . وبعد فترة صمت سألته :

- ما هذا الكتاب الذي معكم ؟

- هذا ؟ كتاب علمي معقد .

- هل تدرسون طوال الوقت ؟ الا يضجركم ذلك ؟ يخيل الي انكم تعرفون كل شيء .

- ليس كل شيء ، على ما يبدو . هاك ، اقراي قليلا .

- لن افهم من ذلك ذرة . هل هو كتاب روسي ؟ - سألت فينيشكا وهي تتلقى بيديها المجلد الثقيل - ما اقله !

- روسي .

- لن افهم منه شيئا مع ذلك .

- لا اقصد بان تفهمي . اريد فقط ان اتطلع اليك عندما تقرأين . فائنا ، ذلك تتحرك ارنبة انفك بشكل لطيف جدا .

ضحكت فينيشكا وتركت الكتاب بعد ان كانت قد تهيأت لتقرأ بصوت خافت المقالة التي فتحت عليها وهي عن «خلاصة القطران» فانزلق الكتاب من المصطبة الى الارض ، فقال بازاروف :

- يعجبني كذلك ان اراك تضحكين .

- ماذا تقولون ؟

- ويعجبني ان اسمعك تتكلمين ، كخبر جدول .

اشاحت فينيشكا بوجهها . ثم قالت وهي تمس الورود باصابعها :

- ما حاجتكم الى الاستماع اليّ ؟ لقد دارت احاديث بينكم وبين نساء نبيلات ذكيات .
 - آه ، يا فينيتشكا ، صدقيني ان كل النبيلات الذكيات في العالم لا يساوين مرفقك .
 - ماذا تقولون ؟ - همست فينيتشكا وضغطت يديها الى بدنهما .
 رفع بازاروف الكتاب من الارض .
 - هذا كتاب طبي ، لماذا القيت به ؟
 - طبي ؟ - سألت فينيتشكا واستدارت نحوه - هل تعلمون ؟ ميتيا ينام نوما هائلا منذ ان اعطينوني تلك القطرات . هل تذكرون ؟ لا ادري كيف اشكركم على ذلك . ما اطيعكم ! فقال بازاروف ساخرا :
 - في الحقيقة ينبغي الدفع للطباء . فهم ، كما تعلمين ، اناس نفعيون .
 رفعت فينيتشكا الى بازاروف عينيها فبدتا اكثر سوادا بسبب الانعكاس الضارب الى البياض والذي وقع على القسم العلوي من وجهها . ولم تكن تعرف ما اذا كان جادا ام مازحا .
 - اذا اردتم فنحن على كل استعداد . . . ساطلب من نيكولاي بتروفيتش . . .
 - تظنين بانني اريد نقودا ؟ - قاطعها بازاروف - كلا ، انني اريد منك شيئا غير النقود .
 - ماذا اذن ؟ - سألت هي .
 - ماذا ؟ احزري - قال بازاروف .
 - كيف لي ان احزر ؟ !
 - اذن فساقول لك . انني اريد . . . واحدة من هذه الورود . ضحكت فينيتشكا من جديد حتى انها ضربت كفا على كف . فقد بدت لها امنية بازاروف مسلية للغاية . كانت تضحك وتشعر في الوقت نفسه بان ذلك اطراء لها . وكان بازاروف يحدق فيها وقالت اخيرا بعد ان انحنت على المصطبة وراحت تنثقي الورود :
 - تفضلوا ، تفضلوا ، اية وردة تريدون حمراء ام بيضاء ؟
 - حمراء وغير كبيرة جدا .
 عدلت من قامتها وقالت :

- خذوا .
 ولكنها سرعان ما سحبت يدها الممدودة وعضت على شفيتها ونظرت الى مدخل التعريشة ثم اخذت تتسمع . فسأل بازاروف :
 - ماذا ؟ هل هو نيكولاي بتروفيتش ؟
 - كلا . . . ذهب الى الحقل . . . ثم انني لا اخشاه . . . ولكن بافل بتروفيتش . . . خيل اليّ . . .
 - ماذا ؟
 - خيل اليّ انه هو الذي يتمشى هنا . كلا . . . لا احد .
 خذوا - سلمت فينيتشكا الوردة الى بازاروف .
 - لماذا تغافين من بافل بتروفيتش ؟
 - انه يخيفني دوما . لا يقول شيئا ولكنه ينظر اليّ بغموض . ثم انكم ايضا لا تحبونه . هل تذكرون كيف كنتم في السابق تتجادلون معه . لا ادري عم كنتم تتجادلون ولكني رايت كيف تتلاعبون به هكذا ، ثم هكذا . . .
 اومات فينيتشكا يديها الى كيفية تلاعب بازاروف ببافل بتروفيتش . كما خيل اليها .
 ضحك بازاروف ثم سألها :
 - لو فرضنا انه تفوق عليّ فهل كنت ستدافعين عني ؟
 - كيف لي ان ادافع عنكم ؟ كلا ، لن يقوى عليكم احد .
 - حقا ؟ اما انا فاعرف يدا تستطيع ان تقهرني باصبع واحد اذا ارادت .
 - اية يد هذه ؟
 - الا تعرفينها ؟ سمي هذه الوردة التي اعطيتنيها . اشرايت فينيتشكا وقربت وجهها من الوردة . . . انزلق المتديل من راسها على الكتفين ، ولاح خضم ناعم من الشعر الاسود اللامع المشعث بعض الشيء .
 - تمهلي ، اريد ان اسمها معك - قال بازاروف وانحنى عليها فطبع قبلة شديدة على شفيتها المتفتحتين . ارتعدت ، وانشبت كلتا يديها في صدره . لكن مقاومتها كانت ضعيفة فتسنى له ان يكرر قبلة ولامد اطول .
 تعال سعال جاف من وراء الليلاك . ابتعدت فينيتشكا الى طرف المصطبة الاخر بلمح البصر . وبان بافل بتروفيتش فانحنى قليلا

وقال بكتابة حاكمة «انتما هنا» ، ثم ابتعد . التقطت فينيتشكا كل الورود في الحال وخرجت من التعريشة هامسة : «حرام يا يغبيني فاسيليفيتش» . ورنّت في همسها ملامة غير منفعة .

تذكر بازاروف المشهد الآخر مع اودينتسوكا فأنبه ضميمه وشعر بكتابة وبشيء من الاحتقار . لكنه نفض راسه على الفور وهنا نفسه ساخرا «على الانتماء الرسمي الى سلك العشاق» وتوجه الى غرفته .

اما بافل بتروفيتش فقد خرج من البستان ووصل الى الغابة بغطاء المتباطئة . ظل هناك امدا طويلا ، وعندما عاد لتناول الفطور سأل نيكولاى بتروفيتش بكل اهتمام عن صحته . فقد غدا وجهه في غاية القتامة . واجاب بافل بتروفيتش بهدوء :
- انت تعلم بانى اعانى احيانا من داء الصفراء .

٢٤

بعد زهاء ساعتين طرق بافل بتروفيتش باب بازاروف .
- استمعك عذرا لاني الهيك عن مشاغلك العلمية - قال وجلس على كرسي قرب النافذة واستند بكلتا يديه الى عصا ذات مقبض من العاج (وهو يتمشى عادة بدون تلك العصا) - لكنني مضطر لاستعطافك بان تخصص لي من وقتك خمس دقائق . . . لا اكثر .

- وقتي كله في خدمتك - اجاب بازاروف وقد تبدلت سمته حالما اجتاز بافل بتروفيتش عتبة بابه .
- تكفيني خمس دقائق . جئت لاطرح عليك سؤالا .
- عم ، يا ترى ؟

- تفضل واستمع . اول ما حللت انت في دار اخي . عندما لم اكن قد حرمت نفسي من متعة التحدث معك ، تعين علي ان استمع الى محاجباتك بشأن العديد من الاشياء ، ولكن الكلام ، بقدر ما اذكر ، لم يتناول بيننا ولا بحضورى ابدا مسألة المنازلات والمبارزة عموما . فاسمح لي ان اعرف رايتك بهذا الخصوص . كان بازاروف الذي نهض لاستقبال بافل بتروفيتش في

البداية قد جلس على طرف الطاولة وكتف يديه . فقال :
- اليك رأيي . المباراة سخافة من الناحية النظرية . ولكنها شيء آخر من الناحية العملية .
- يعني تريد ان تقول ، اذا كنت قد فهمتك جيدا ، انك ان تسمح لاحد في الواقع بان يهينك دون ان تطالب بمبارزته بالرغم من رايتك النظري بهذا الخصوص ، اليس كذلك ؟
- لقد حزرت فكرتي تماما .
- حسنا جدا يا سيدي . يسرني كل السرور ان اسمع ذلك منك . كلماتك تنقذني من المجهول .
- تريد ان تقول : من التردد .
- الامر سيان يا سيدي . انني اتكلم بالشكل الذي يفهمني به الآخرون . فانا . . . لست من جردان المدارس والكليات . كلماتك تحررتني من بعض الضروريات المحزنة . لقد صممت على ان اتبارز معك .

جحظت عينا بازاروف :
- معي انا ؟

- معك بالذات .

- معذرة ، لاي سبب ؟

فواصل بافل بتروفيتش كلامه :

- بوسعي ان اوضح لك السبب ، ولكنني افضل السكوت عليه . انك برأيي ، شخص نافل هنا . وانا لا اطيع وجودك ، انني احتقرك . واذا كان ذلك لا يكفيك . . .

لمعت عينا بافل بتروفيتش . . . والتهبت عينا بازاروف ايضا ، فقال مدمدما :

- حسنا جدا يا سيدي . لا داعي للمزيد من التوضيح . لقد راودك وهم بان تجرب علي "فروسيك" . وبوسعي ان ارفض منحك هذه المتعة ، ولكن لا بأس ، فليكن !

- انني ممتن لك كل الامتنان . - اجاب بافل بتروفيتش - ويمكنني الآن ان آمل بانك تتقبل التحدي دون ان تحملني على اللجوء الى اجراءات العنف .

- اي اللجوء الى هذه العصا ، اذا تكلمنا بدون مجاز ، اليس كذلك ؟ - سأل بازاروف ببرود - ذلك عين الصواب .

فليس هناك مطلقا ما يدعوك الى اهانتى . ثم ان ذلك ليس بدون مخاطر . بوسعك ان تظل جنتلمانا . . . وانا اتقبل تحديك كما يفعل الجنتلمان ايضا .

- حسنا - قال بافل بتروفيتش ووضع العصا في ركن الغرفة - سنذكر الآن بضع كلمات بشأن شروط مبارزتنا . ولكن بودي ان اعرف اولاً ما اذا كنت ترى ضرورة للجوء الى شكليات الخصام البسيط الذي يمكن ان يغدو حجة للتحدى .

- كلا . الافضل بدون شكليات .

- وانا من هذا الراي ايضا . ويغيل اليّ كذلك ان لا داعي للتعقق في الاسباب الحقيقية لنزاعنا . فنحن لا نطبق بعضنا البعض . فهل من داع الى المزيد ؟ !

- حقا ، هل من داع الى المزيد ؟ ! - كرر بازاروف متهمكا .

- اما بخصوص شروط المباراة ، فيحكم عدم وجود شاهدين لدينا . . . من اين لنا العثور عليهما ؟

- اجل ، من اين لنا العثور عليهما ؟

- . . . فأنني اتشرف بان اقترح عليك ما يلي : نتيارز غدا في وقت مبكر ، في السادسة مثلا ، وراء الاجمة ، بمسدسين وعلى مسافة عشر خطوات . . .

- عشر خطوات ؟ يعني اننا نحقد على بعضنا البعض بقدر هذه المسافة .

- من الممكن ثمانى خطوات - قال بافل بتروفيتش .

- ممكن . لم لا ؟ !

- نطلق الرصاص مرتين ، وتحوطا للطوارئ يضع كل منا في جيبه رسالة يلقي فيها على نفسه مسؤولية وفاته .

- ذلك ما لا اوافق عليه تماما - قال بازاروف - انه يشبه الروايات الفرنسية . ولا يطابق الواقع .

- ربما . ولكن ليس من المريح التعرض لتهمة القتل ، اليس كذلك ؟

- اجل . ولكن هناك وسيلة لتلافى هذه الملامة الكئيبة . لن يكون لدينا شاهدان رسميان ، ولكن من الممكن احضار شاهد عادي واحد .

- من هو يا ترى ؟

- بيوتر .

- اي بيوتر هذا ؟

- وصيف اخيك . انه شخص ارتقى الى مستوى التعليم

- المصري ، وهو يؤدي واجبه بكل ما تتطلبه هذه الحالات من لياقة .

- يغيل اليّ انك تمزح يا سيدي الجليل .

- ابدا . اذا ناقشت اقتراحي ستأكد من انه اقتراح وجيه وبسيط . فذلك مسألة لا يمكن اخفاء آثارها . اما بيوتر فاتعهد

باعداده بالشكل اللازم وايصاله الى ساحة المعركة .

- انك لا تزال تمزح - قال بافل بتروفيتش ناهضا - ولكن بعد الاستعداد الذي ابديته متفضلا لا يحق لي ان اعترض عليك . . . وهكذا دبرنا كل شيء . . . وبالمناسبة هل لديك

مسدسان ؟

- من اين لي ، يا بافل بتروفيتش ؟ فانا لست عسكريا .

- اذن اقترح ان نستخدم مسدسي . . . وكن على ثقة بانني لم استعملهما منذ خمس سنوات .

- هذا نبا يبعث على السرور لدرجة كبيرة .

التقط بافل بتروفيتش عصاه . . .

- لا يتبقى عليّ ، ايها السيد الجليل ، بعد ذلك الا ان اشكرك واتركك تعود الى اشغالك . يشرفني ان انحنى مودعا .

- الى لقاء سعيد ، يا سيدي الجليل - قال بازاروف مودعا خفيفا .

خرج بافل بتروفيتش ، فوقف بازاروف امام الباب لحظة ، ثم

هتف فجأة : «تفو ! يا للشيطان ! ما اجمل ذلك وما اغباه ! اية ملهاة مثلنا ؟ ! الكلاب المدربة ترقص على قوائمها الخلفية بهذا الشكل . وما كان بالامكان الرفض ، فربما سولت له نفسه ان يضربني ، وعند ذاك . . . (شحب لون بازاروف لهذه الفكرة ، وفارت فيه عزة النفس) . عند ذاك ساكون مضطرا الى خنقه كقط صغير» . عاد الى مجمره ، لكن قلبه يتفطر ، وفارقه الهدوء اللازم للمراقبة والبحث .

وفكر في نفسه : «لقد رأنا اليوم ، ولكن هل يدافع عن اخيه حقا ؟ ثم ما اهمية القبلة ؟ لا بد وان هناك سببا آخر . يا الهى ! ليس هو مغرما بها ؟ ! بالطبع ، بالطبع . امر واضح وضوح

النهار . ما اخرج الموقف ! شيء فظيع ! فظيع من كل الوجوه .
ينبغي ان اعرض جيبني للرصاص ، وان اسافر على كل حال . هذا
اولا . ثم هناك اركادي . . . وهذا الحمل الوديع نيكولاي
بتروفيتش . شيء فظيع ، فظيع .

مر النهار بهدوء باحت اكثر من المعتاد . واختفى اثر فينيتشكا
وكأنما لم تكن موجودة في هذا العالم . قبعت في غرفتها كفارة في
جر . وبدا نيكولاي بتروفيتش مهموما . فقد ورده نبا ظهور دا
السناج في قمحه الذي علق عليه آماله بخاصة . وكان بافل
بتروفيتش بمجاملته الجليدية ثقيلًا على الجميع ، حتى على
بروكوفيتش . بدا بازاروف بتحرير رسالة الى ابيه ، ولكنه مزقها
والقى بها تحت الطاولة . وفكر في نفسه « اذا مت فسوف يعلمان .
ولكنني لن اموت . فسوف اجول طويلا في هذا العالم » . طلب من
بيوتر ان يأتي اليه عند بزوغ فجر الغد من اجل قضية هامة .
وتصور بيوتر ان بازاروف يريد ان يصطحبه الى بطرسبورغ .
خلد بازاروف الى النوم في ساعة متأخرة ، واخذت احلام مشوشة
تعذبه طوال الليل . . . كانت اودينتسوكا تدور امامه ، وكانت
هي امه في الوقت نفسه ، وتبعثها قطعة ذات شوارب سوداء .
وهذه القطعة هي فينيتشكا . وبدا له بافل بتروفيتش بشكل دغل
كثيف عليه ان يتبارز معه من كل بد . ايقظه بيوتر في الرابعة
صباحا . فارتدى ملابسه على الفور وخرج معه .

كان الصباح منعشا رائعا . وكانت سحبات صغيرة متموجة
تتناثر على زرقة صافية شاحبة ، واستقر ندى رقيق على الاوراق
والاعشاب وبيوت العناكب وصار يلعب كالفضة . لاحت الارض
الندية القائمة وكأنها تحتفظ بانوار الفجر الحمراء ، وكانت اغاربه
القبرات تصدح من كل ارجاء السماء . بلغ بازاروف الاجمة فجلس
في الظل على طرفها ، وعند ذاك فقط كشف لبيوتر عن الخدمة التي
ينتظرها منه . ارتعب الوصيف حتى الموت ، ولكن بازاروف هذا
من روعه مؤكدا له بانه ليس عليه الا ان يقف بعيدا ويتطلع .
وبانه لا يتحمل اية مسؤولية . واضاف قائلا : « ولكن فكر انت
اي دور هام ستضطلع به ! » . اشار بيوتر بيديه اشارة يالسة
واطرق براسه ممتقا شاحبا واستند الى جذع بتولا .
الطريق من مارينو يلتف حول الغابة الصغيرة . وهو مغطى

بنيار خفيف لم تمسه عجلة ولا رجل منذ يوم امس . كان بازاروف
ينظر عفويا الى طول هذا الطريق ويقتلع عشبا ويقضمه ويفكر
في نفسه مكررا : « يا للغياوة ! » . وجعله برد الصباح يرتعش
مرتين او ثلاثا . . . نظر اليه بيوتر بكآبة ، فاكتفى بازاروف
بابتسامة ساخرة : فهو ليس جبانا .

تهادى وقع سنبابك على الطريق . . . ولاح فلاح من وراء
الانجبار . كان يقود حصانين معقلين امامه . وعندما مر قرب
بازاروف نظر اليه نظرة غريبة دون ان يرفع قبعته ، الامر الذي
حير بيوتر باعتباره قالا غير حسن . وفكر بازاروف في نفسه « لقد
لهض هذا مبكرا ايضا ، ولكنه على الاقل من اجل العمل . اما نحن
فلاي غرض ؟ » .

- يخيل اليّ انه قادم ، يا سيدي - همس بيوتر فجأة .
رفع بازاروف راسه فراى بافل بتروفيتش في سترة خفيفة
منظطة بمربعات وسروال ناصع كالثلج . كان يسير مسرعا في
الطريق ، وقد تابط صندوقا مغلفا بقماش اخضر .

- معذرة ، فقد جعلتكما تنتظران على ما اظن ، - قال منحنيا
لبازاروف في البداية ، ثم لبيوتر الذي غدا في تلك اللحظة يحترم
فيه شيئا من قبيل الشاهد - ما اردت ايقاظ وصيفي .

- لا بأس . لقد وصلنا نحن ايضا للتو - اجاب بازاروف .
- آ ! حسنا ! - تلفت بافل بتروفيتش حواليه - لا احد
هناك . لن يعيقنا احد . . . هل نبدا ؟

- اجل .
- اعتقد انك لا تطالب بايضاحات جديدة ؟
- كلا .

- هل تريد ان تشحنهما ؟ - سأل بافل بتروفيتش وهو يخرج
المسدسين من الصندوق .

- كلا . اشحنهما بنفسك ، اما انا فساقيس المسافة . رجلاي
اطول - اضاف بازاروف ساخرا - واحد ، اثنان ، ثلاثة . . .
- يغفني فاسيليفيتش - تمتم بيوتر بصعوبة (اذ كان
يرتعش كالمحموم) - الامر لكما . سأبتعد .

- اربعة . . . خمسة . . . ابتعد ، يا اخي ، ابتعد . يمكنك
ان تقف وراء شجرة ، بل وسد اذنيك ، ولكن لا تغمض عينيك .

وحالما يسقط احدنا اركض نحوه وارفعه . ستة . . . سبعة . . . ثمانية . . . - توقف بازاروف وقال مخاطبا بافل بتروفيتش : كفاية ؟ ام اضيف خطوتين ؟

- كما تشاء - قال ذاك وهو يعبى الرصاصة الثانية .
- اذن فلنضف خطوتين اخريين - ورسوم بازاروف بطرق جزمته خطين على الارض - هما الخطان الفاصلان . وبالمناسبة فكم خطوة ينبغي لكل منا ان يبتعد عن خطه ؟ هذه مسألة هامة ايضا ، ولكننا لم نناقشها بالامس .

- عشر خطوات على ما اعتقد - اجاب بافل بتروفيتش وقدم كلا المسدسين الى بازاروف - تفضل بالاختيار .
- حسنا . ولكن الا توافقني يا بافل بتروفيتش على ان مبارزتنا غريبة الى حد مضحك . انظر الى الوجه البليد لشاهدنا مثلا .

- انت ترغب في المزاح دوما - اجاب بافل بتروفيتش - انني لا انكر غرابة مبارزتنا ، ولكني ارى من واجبي ان احذر ان ياتي انوي المباراة بكل جد . (فليسمع كل من لديه اذان) * .
- هيه ! لا يخامرني شك في اننا عزمنا على ابادة بعضنا البعض . ولكن ما الذي يمنعنا من الضحك والتوفيق بين (المنفعة والمسرة) * ؟ هكذا اذن : تكلمني بالفرنسية واكلمك باللاتينية .
- سأتبارز بكل جد - كرر بافل بتروفيتش القول واتجه الى مكانه . وحسب بازاروف من جهته عشر خطوات عن خطه وتوقف .
فسأله بافل بتروفيتش :

- هل انت مستعد ؟

- تماما .

- يمكننا ان نتقارب .

تحرك بازاروف بهدوء الى الامام فاتجه بافل بتروفيتش نحوه وقد دس يده اليسرى في جيبه ورفع فوهة المسدس بالتدريج . . . ففكر بازاروف «انه يهدف نحو انفي مباشرة ، ويفعل ذلك بكل عناية ، يا له من قاطع طريق ! ولكن ذلك احساس غير مريح

* في الاصل بالفرنسية A bon entendeur, salut !

** في الاصل باللاتينية utile dulci

الافضل ان اتطلع الى سلسلة ساعته . . . « صر شيء ما بخدة قرب اذن بازاروف ، ودوت اطلاقه في اللحظة ذاتها . وخطرت في ذهنه فكرة «ما دمت قد سمعت فلا خطر هناك» . خطأ خطوة اخرى وضغط على الزناد دون تهديف .

ارتجف بافل بتروفيتش رجفة خفيفة وامسك فخذيه بيده . وشخب الدم على بنطاله الابيض .
التي بازاروف المسدس جانبا وهرع الى خصمه فسأله :
- هل جرحت ؟

فقال بافل بتروفيتش :

- كان من حقك ان تدعوني الى الخط الفاصل . اما الجرح فهو طفيف . لكل مناسا ، حسب الشروط ، حق في اطلاقه اخرى .

- ولكن معذرة ، فلنؤجل ذلك الى المرة التالية - اجاب بازاروف واستند بافل بتروفيتش الذي بدا لونه يشحب - قانا الآن لست مبارزا ، بل انا طبيب علي قبل كل شيء . ان افحص جرحك . بيوتر ! تعال الى هنا . بيوتر ! اين اختفيت ؟

فقال بافل بتروفيتش بصوت متقطع :

- كل ذلك سخف . . . انا لست بحاجة الى معونة احد . ينبغي . . . مرة اخرى . . . - اراد ان يمسك بشاربه ، ولكن قواه خارت ، فغارت عيناه ، وفقد وعيه .

- يا للغرابة ! اغماء ! لاي سبب ؟ - هتف بازاروف ، وهو يضع بافل بتروفيتش على العشب - فلننظر ماذا حدث ؟ - اخرج منديلا ومسح الدم وتحسس الجرح . . . ودمدم : - العظم سليم ، والرصاصة اخترقت اللحم سطحيا ، ولم تتلف الا عضلة vastus externus . سيكون بوسعه ان يرقص بعد ثلاثة اسابيع ! . . . ومع ذلك اغمي عليه ! يا لهؤلاء الناس العصبيين ! ما اشد نعومة بشرتهم !

- هل قتل يا سيدي ؟ - خف صوت بيوتر اللاهج وراء ظهره . فالتفت بازاروف :

- احضر قليلا من الماء ، يا اخي ، بسرعة . اما هو فسيعيش اطول من عمرك وعمري .

الا ان الغادم العصري المكتمل لم يفهم كلماته ، على ما يبدو ،

فظل واقفا دون حراك . فتح بافل بتروفيتش عينيه ببطء . فهمس بيوتر : «انه يحتضر !» وراح يرسم علامة الصليب .
- انت على حق . . . يا له من وجه بليد ! - قال السيد الجريج بابتسامة مكرهة .

- اذهب لاحضار الماء ، يا للشيطان ! - صاح بازاروف .
- لا داعي . . . كان ذلك مجرد (دوار) * للحظة . . .
ساعدني في الجلوس . . . هكذا . . . يكفي لف هذا الغدش بشي ما وعند ذاك سأذهب الى المنزل ماشيا ، والا فيمكن ارسال عربية مكشوفة . اما المباراة فيمكن ان لا تستأنف اذا شئت . لقد تصرفت بنبل . . . هذا اليوم ، اليوم فقط ، لاحظ ذلك .
- لا داعي لتذكر الماضي - قال بازاروف - اما المستقبل فلا داعي كذلك لتدويخ الراس بشأته ، لانني انوي الارتحال دون ابطاء . دعني اضمد لك رجلك الآن . جرحك لا خطر فيه ، ومع ذلك من الافضل وقف التزيف . ولكن من الضروري في بادى الامر اعادة الوعي الى بيوتر .

هز بازاروف بيوتر من ياقته وارسله لاحضار العربية . فقال له بافل بتروفيتش :

- احذر ، لا ترعب اخي ، واياك ان تخبره .

اسرع بيوتر راكضاً لاحضار العربية ، بينما جلس كلا الخصمين على الارض ولزما الصمت . حاول بافل بتروفيتش ان لا ينظر الى بازاروف ، فلم يكن راغبا في التصالح معه رغم كل شيء . كان خجلا من غطرسته ومن اخفاقه . كان خجلا من هذه البدعة التي اختلقها مع انه كان يشعر بانها لن تنتهي على نحو افضل مما انتهت اليه . وراح يهدى نفسه : «لن يبقى هنا على الاقل ، والحمد لله» . استمر الصمت ثقيلاً مرهقا . وكان كلاهما في حال سيئة . كان كل منهما يدرك ان الآخر يفهمه . وهذا الادراك امر يبعث السرور لدى الاصدقاء ، ولكنه غير مريح مطلقاً للخصوم ، وخصوصا عندما لا تمكن تسوية الامر ولا الافتراق .

سال بازاروف اخيراً :

- هل آلمك التضعيد ؟

- كلا ، لا بأس ، رائع - اجاب بافل بتروفيتش ، ثم اضاف بعد قليل : - لن نستطيع خدع اخي ، ولا بد من اختياره باننا تحارشنا بسبب السياسة . فقال بازاروف :

- حسنا جدا . بوسعك ان تخبره بانني شتمت جميع الموالين للانجليز وكان هذا هو سبب المباراة .

- طيب . ما الذي يظننه بنا هذا الشخص ، على حد اعتقادك ؟ - واصل بافل بتروفيتش كلامه مشيراً الى نفس ذلك الفلاح الذي اقتاد الحصانين المعقلين حيال بازاروف لبضع دقائق قبل المباراة ، ثم عاد في نفس الطريق ورفع قبعته عندما رأى «السيدين» . فاجاب بازاروف :

- من يدري ؟ ! انه لا يظن شيئا ، على الاغلب . فالفلاح الروسي هو ذلك المجهول الخفي الذي تحدثت عنه كثيرا السيدة رادكليف (١٠٣) في زمان ما . فمن الذي يفهمه ؟ انه هو لا يفهم نفسه .

- آ ! هذا هو رايك ؟ ! - طفق بافل بتروفيتش يتكلم ، ولكنه هتف فجأة : - انظر ، ماذا فعل صاحبك الابله بيوتر ! ها هو اخي قادم الى هنا !

التفت بازاروف فرأى نيكولاي بتروفيتش بوجهه الشاحب جالسا في العربية . قفز من العربية قبل ان تتوقف وهرع الى اخيه . وقال بصوت متهدج :

- ما يعنى ذلك ؟ يا يفغيني فاسيلييفيتش ، قل لي من فضلك ما هذا ؟

فاجاب بافل بتروفيتش :

- لا شيء . عبتا اقلقوك . لقد تناقشنا قليلا انا والسيد بازاروف ، وقد دفعت الثمن انا بعض الشيء .

- لاي سبب حدث ذلك ، بالله عليكما ؟

- كيف لي ان اوضح الامر ؟ السيد بازاروف تحدث بغير احترام عن السيد روبرت بيل (١٠٤) . واضيف قورا بانني انا وحدي المذنب في كل شيء ، فانا الذي تحدثته وقد تصرف السيد بازاروف تصرفا ممتازا .

- هذا دم ، كيف ؟ !

* في الاصل بالفرنسية vertige

- وهل كنت تظن ان ماء يجري في عروقي ؟ هذا الفصاد نافع لي . اليس كذلك يا دكتور ؟ ساعدني في ركوب العربة ولا تجعل الافكار السوداء تسيطر عليك . فسوف اشفى غدا . هكذا . رائع . تحرك يا حوذي .

سار نيكولاي بتروفيتش وراء العربة . وكاد بازاروف يتخلف . . . فقال له نيكولاي بتروفيتش :

- ارجوك ان تعتني باخي الى ان ياتي الينا من المدينة طبيب آخر .

طاطا بازاروف راسه صامتا .

وبعد ساعة كان بافل بتروفيتش راقدًا على السرير ورجله مضمدة بمهارة . عم الهرج والمرج الدار . واصيبت فينيتشكا بالدوار . وكان نيكولاي بتروفيتش يتالم في السر ، بينما راح اخوه يضحك ويطلق النكات ، وخصوصا مع بازاروف . وقد ارتدى قميصا قطنيا خفيفا مع سترة الصباح الانيقة وطربوش . لم يسمع بانزال ستائر النوافذ ، واعرب على نحو طريف عن اسفه لضرورة الامتناع عن تناول الطعام .

ولكن حرارته ارتفعت اثناء الليل ، وانتابه الصداع . وصل طبيب من المدينة . (لم يستمع نيكولاي بتروفيتش الى نصيحة اخيه بعدم استدعاء الطبيب . ثم ان بازاروف نفسه اراد ذلك . كان قد قبع في غرفته طوال النهار مصفرا حانقا ولم يغادرها الا ليعود المريض لآمد قصير . صادف فينيتشكا مرتين ، بيد انها كانت تهرب منه مرتعبة) . نصح الطبيب الجديد المريض بتناول اشربة مرطبة ، واكد ، بالمناسبة ، رأي بازاروف من انه لا يتوقع اي خطر . وقال له نيكولاي بتروفيتش ان اخاه جرح نفسه بسبب قلة حذره . فاجاب الدكتور : « هيه ! » ، ولكنه اضاف ، عندما تسلم في الحال خمسة وعشرين روبلا من الفضة : « حقا هذا امر غالبا ما يحدث ، بالضبط » .

لم يخلع احد في الدار ملابسسه ولم ينم . كان نيكولاي بتروفيتش يتردد على اخيه بين الغينة والغينة سائرا على اطراف اصابعه ، ويخرج منه على اطراف اصابعه ايضا . كانت تنتاب ذاك الغيبوبة او يشن بخفوت ويقول له بالفرنسية (ناموا) * ، ويطلب

* في الاصل بالفرنسية Couchez-vous

شرابا . وقد رجا نيكولاي بتروفيتش فينيتشكا مرة ان تحمل اليه قدحا من شراب الليمون فحلق بافل بتروفيتش فيها وتجرع القدح حتى الثمالة . وعند الصباح اشتدت حرارته قليلا وانتابه هذيان خفيف . في بادئ الامر تلفظ بافل بتروفيتش بكلمات غير مترابطة . ثم فتح عينيه فجأة ، وقال عندما رأى اخاه قرب السرير منحيا عليه بعناية :

- الا ترى ، يا نيكولاي ، ان فينيتشكا تشبه نيللي بعض الشيء ؟

- من هي نيللي هذه ، يا بافل ؟

- كيف تسأل من هي ؟ انها الاميرة ر . . . وخصوصا في القسم العلوي من الوجه . (من نفس القبيل) * .

لم يحر نيكولاي بتروفيتش جوابا ، بل تعجب في سره من حيوية العواطف القديمة لدى الانسان . وفكر : « ها انبجست بعد كل هذا الزمان » .

وقال بافل بتروفيتش بانين وهو يضع يديه وراء راسه كئيبا :

- آه كم احب هذا الكائن الفارغ ! - ثم تعتم بعد عدة لحظات : - لن اسمح لأي شخص وقح ان يتجرا على المساس . . . تنهد نيكولاي بتروفيتش ، فلم يكن يدرك من يعنى اخوه بهذه الكلمات .

جاء بازاروف في الساعة الثامنة من اليوم التالي . وقد اتسع له الوقت كي يجمع حاجياته ويطلق سراح ضفادعه وحشرات طيورهم كلها .

فقال نيكولاي بتروفيتش وهو ينهض لاستقباله :

- جئت لتودعني ؟

- بالضبط يا سيدي .

- انني افهمك واستحسن تصرفك تماما . فاخي المسكين مذنب ، طبعا . وقد تلقى جزاءه . وقال لي بنفسه انه وضعك في موقف يستحيل معه ان تفعل غير ما فعلت . انا واثق من انك لم تستطع ان تتعاشى هذه المباراة التي . . . التي تعزى بقدر ما

* في الاصل بالفرنسية C'est de la même famille

الى مجرد التناحر المستمر بين نظرتيكما المتبادلتين (اخذ نيكولاي بتروفيتش يخلط بين الكلمات) . ان اخي انسان من الطراز القديم ، وهو عنيد سريع الغضب . . . والحسد لله على هذه النهاية . ثم اني اتخذت كل الاجراءات اللازمة لتلافي اشاعة . . . فقال بازاروف باستهانة :

- ساترك لك عنواني فيما اذا حدثت ورطة .
- آمل ان لا تقع اية ورطة يا يفغيني فاسيلييفيتش . . .
ويوسفني جدا ان وجودك في داري قد انتهت . . . عفوا ، قد انتهى على هذا النحو . ومما يزيد في اسفي ان ارКАДي . . .
- انني ساراه لا بد - اعترض بازاروف الذي تنير فيه كل انواع «التوضيحات» و«الاعتذارات» دوما شعورا بنفاد الصبر - وفي حالة العكس ارجوك ان تبلغه تحياتي واعتذاري .
- وانا ارجوك . . . - اجاب نيكولاي بتروفيتش مطاطسا راسه . ولكن بازاروف لم ينتظر ختام عبارته فانصرف .

عندما عرف بافل بتروفيتش باستعداد بازاروف للسفر اعراب عن رغبته في ان يراه ويشد على يده . الا ان بازاروف ظل هذه المرة ايضا باردا كالجليد . فهو يعلم ان بافل بتروفيتش يريد ان يظهر بمظهر النبيل . ولم يتسن لبازاروف ان يودع فينيتشكا . فقد تبادل معها النظرات فقط عبر النافذة . وبدا له محياها كئيبا . فقال في سره : «ستهلك على الاغلب ! . . . ولربما ستنجو على نحو ما» . اما بيوتر فقد تأثر لدرجة كبيرة حتى صار ينتحب على كتف بازاروف الى ان خفف عليه هذا بسؤاله «عما اذا كانت دموعه قد انهمرت ام لا» ، في حين اضطرت دونياشا للالتجاء الى الاجمة كي تغني انفعالها . ارتقى المسؤول عن كل هذه الآلام عربية النقل واشعل سيجارا . عندما تماثلت امام عينيه لآخر مرة عند منعطف الطريق ، ضيعة كيرسانوف الممتدة بخط واحد مع دارها الجديدة اكتفى بازاروف بان بصق وتمتم : «ارستقراطيون ملاعين» وتلف بمعطفه على نحو اوثق .

سرعان ما تحسنت صحة بافل بتروفيتش ، ولكنه اضطر لملازمة الفراش حوالي اسبوع . وقد تحمل الاسر ، على حد تعبيره ، بصبر واناة ، بيد انه افرط في الاهتمام بالزينة وطلب مرارا ان يرش بالكولونيا . كان نيكولاي بتروفيتش يقرأ له المجلات ،

بينما استمرت فينيتشكا على خدمته كالسابق ، حيث كانت تحمل اليه المرق وشراب الليمون والبيض البرشت والشاي ، ولكن رعبا غفيا كان يثابها كلما دخلت غرفته . فان تصرف بافل بتروفيتش غير المتوقع قد اربك كل من في الدار ، وارعبها هي اكثر الجميع . وظل بتروفيتش هو الشخص الوحيد الذي لم يضطرب وراح يقول ان الاسياد في زمانه ايضا كانوا يتبارزون . «كان السادة النبلاء فقط يتبارزون فيما بينهم . اما امثال هؤلاء السفلة فكانوا يأمرون بمعاقبتهم في الاسطبل لقاء خسوتهم» .

لم تتعرض فينيتشكا لتأنيب الضمير تقريبا ، الا ان فكرة السبب الحقيقي للنزاع كانت تعذبها بين الحين والآخر . ثم ان بافل بتروفيتش يسلط عليها نظرات غريبة . . . بحيث كانت تشعر بعينيه تحدقان فيها حتى عندما تدير له ظهرها . وقد اصابها الهزال بسبب القلق الداخلي الذي لا يفارقها ، واصبحت ، كما هي العادة ، اكثر رقة وجمالا .

ذات صباح كان بافل بتروفيتش في حالة جيدة فانتقل من السرير الى الاريغة ، بينما توجه نيكولاي بتروفيتش الى البيدر بعد ان استفسر عن صحته . حملت فينيتشكا قده الشاي ووضعت على الطاولة وهمت بالخروج . لكن بافل بتروفيتش اوقفها قائلا :

- لم انت مستعجلة يا فينيتشكا ؟ عندك شغل آخر ؟
- كلا . . . اجل يا سيدي . . . ينبغي ان نصب الشاي هناك .

- ستصبه دونياشا بدونك . انا مريض فاجلسي معي قليلا . وبالعناية فانا اريد التحدث اليك .

جلست فينيتشكا صامتا على طرف المقعد . فقال بافل بتروفيتش وهو يمصد شاربه :

- اسمعي ، منذ زمان اردت ان اسالك : يخيل الي انك تخافين مني . حقا ؟

- انا يا سيدي ؟

- نعم ، انت . انك لا تنظرين الي ابداء و كأنما لست بريئة . احمرت فينيتشكا ، ولكنها نظرت الى بافل بتروفيتش الذي بدا لها غريبا بعض الشيء . فارتجف قلبها قليلا . وسألها هو :

- انت بريئة اليس كذلك ؟

فهمست هي :

- لم لا ؟

- من يدري ؟ ! وعلى كل حال ، فإزاء من يمكن ان تكوني مذنبه ؟ اذائي انا ؟ امر غير معقول . ازاء اشخاص آخرين في المنزل ؟ شيء غير ممكن ايضا . لم يبق الا اخي ، ولكنك تحبينه ، اليس كذلك ؟

- احبه .

- بكل روحك وفؤادك ؟

- انني احب نيكولاي بتروفيتش بكل فؤادي .

- حقا ؟ انظري اليّ يا عزيزتي (هذه هي المرة الاولى التي يخاطبها فيها بهذه الصيغة . . .) انت تعلمين ان الكذب خطيئة كبرى !

- انني لا اكذب ، يا بافل بتروفيتش . كيف لي ان لا احب نيكولاي بتروفيتش ؟ انني لست بحاجة الى الحياة بدونك !

- ولن تستبدليه بأحد ؟

- بمن استطيع ان استبدله ؟

- من يدري ؟ لنفرض ، بهذا السيد الذي ارتحل من هنا .

نهضت فينيتشكا :

- يا الهي ! لماذا تعذبونني يا بافل بتروفيتش ؟ ما الذي فعلته لكم ؟ كيف يمكن قول ذلك ؟ . . .

فقال بافل بتروفيتش بصوت حزين :

- فينيتشكا . لقد رايت . . .

- ما الذي رايتموه يا سيدي ؟

- هناك . . . في التعريشة .

احمرت فينيتشكا حتى الشعير ، حتى الاذنين . وقالت بصعوبة :

- ما ذنبي في ذلك ؟

فنهض بافل بتروفيتش قليلا :

- اأنت مذنبه ؟ كلا ؟ ابدا ؟

- انني احب نيكولاي بتروفيتش وحده في هذا العالم وسأجبه الى الابد ! - قالت فينيتشكا بقوة مفاجئة ، بينما اختنقت بعبراتها ، - اما ما رايتموه فساقول في يوم القيامة بانني لم اكن

مذنبه فيه ابدا . ومن الافضل ان اموت الآن ما دامت تحوم حولي الشبهات والظنون بانني اكفر بنعمة نيكولاي بتروفيتش . . .
الا ان صوتها خانها هنا ، واحست في الوقت ذاته بان بافل بتروفيتش اخذ يدها وشده عليها . . . نظرت اليه وتجمدت على تلك الحال . لقد غدا اكثر شحوبا من السابق ، وكانت عيناه تلمعان . والاغرب من ذلك ان دموعه وحيدة ثقيلة انحدرت على خده . ثم قال بهمس وحنان :

- فينيتشكا ! احبي اخي ، احبيه ! انه انسان في منتهى الطيبة ! ولا تخونيه من اجل اي شخص في الكون ، ولا تسمعي كلاما من اي كان ! فكري انت : ما افطع ان يحب المرء دون ان يكون محبوبا ! لا تتركي ابدا اخي المسكين نيكولاي !

جفت دموع فينيتشكا وفارقها الخوف من اثر دهشتها العظيمة ، ولكن ما اشد ما ارتعبت عندما الصق بافل بتروفيتش ، بافل بتروفيتش نفسه ، يدها الى شفثيه وانحنى عليها ، لا ليقبلها ، بل ليتنهد مرتعشا بين الفينة والاخرى .

«يا الهي ! هل اصابته نوبة ؟ . . .» - فكرت في نفسها بينما نبضت فيه اثنا ، تلك اللحظة حياته الموات كلها .

صر السلم تحت خطوات سريعة . . . فدفعها بعيدا عنه والقي براسه على الوسادة . فتح الباب فظهر نيكولاي بتروفيتش مرحا غضا مورد الخدين . وكان ميتيا الغض المتورد كآبيه يتراقص على صدره في قميص لا غير ، وتشتبك رجلاه العاريتان بالازرار الكبيرة لمعطف ابيه الريفى .

هرعت اليه فينيتشكا على الفور وطوقته مع ميتيا بيديها ومال راسها على كتفه . دهش نيكولاي بتروفيتش : فان فينيتشكا المتواضعة الخجول لم تكن تلاطفه مطلقا بحضور شخص ثالث .

- ماذا دهاك ؟ - سالها والتفت الى اخيه وهو يسلمها ميتيا . ثم اقترب من بافل بتروفيتش وقال مستفسرا :

- هل ساءت حالتك ؟

فدس هذا وجهه في المنديل القطني وقال :

- كلا . . . بالعكس ، حالتي افضل بكثير .

- عينا استعجلت في الانتقال الى الاريكة - قال نيكولاي بتروفيتش ، ثم اضاف ملتفتا الى فينيتشكا : - الى اين انت ؟ -

ولكنها كانت قد صفقت الباب خارجه - جئت لاريك طفلي العملاق .
لقد اشتاق الى عمه . فلماذا اخذته هي ؟ ولكن ماذا دهاك ؟ هل
حدث بينكما شيء ؟

فقال بافل بتروفيتش بصيغة مهيبه :

- يا اخي !

ارتعش نيكولاي بتروفيتش مرتعبا دون ان يعرف السبب .
فكرر بافل بتروفيتش قوله :

- يا اخي ، اقطع عهداً بانك ستنفذ طلبا لي .

- اي طلب ؟ قل .

- انه طلب هام جدا ، عليه تتوقف ، كما اعتقد ، سعادة
حياتك كلها . طوال هذا الوقت كنت افكر كثيرا بما اريد ان اقله
لك الآن . . . اخي اد واجبك ، واجب الانسان النزيه النبيل ،
وضع حدا للغواية والقذوة السيئة من جانبك ، وانت من افضل
الناس !

- ما الذي تعنيه يا بافل ؟

- تزوج من فينيتشكا رسميا . . . انها تحبك ، وهي ام
لابنك .

تراجع نيكولاي بتروفيتش خطوة وشفق يدا بيد .

- اهذا انت الذي يقول ذلك ؟ انت بافل الذي كنت اعتبره
دوما الد خصم لهذا النوع من الزواج ! اهذا انت الذي يتكلم ؟
الا تعلم بان الشيء الوحيد الذي منعه من اداء ما وصفته انت
محقا بواجبي انما هو احترامي لك ؟ !

- عينا كنت تحترمني اذن - اعترض بافل بتروفيتش
بابتسامة كثيبه - اكاد اعتقد بان بازاروف محق عندما لامني على
النزعة الارستقراطية . كلا ، يا اخي العزيز ، كفانا تظاهرا وتفكيراً
بالمجتمع الراقي : فقد غدونا كهولا متواضعين ، وхан الوقت
لكي نضع جانباً كل الهموم الباطلة ، ونؤدي واجبتنا بالذات . كما
تقول انت . وسوف ترى اننا سنلقى السعادة فضلا عن ذلك .

هرع نيكولاي بتروفيتش ليعانق اخاه هاتفا :

- لقد فتحت عيني نهائياً ! وليس عبثا اني كنت اؤكد دوما
بانك اطيب واذكي انسان في العالم . وانا ارى الآن ان حلمك
يضاهي نبلك .

فقاطعه بافل بتروفيتش :

- على مهلك ، على مهلك . لا تدعس رجل اخيك الحليم الذي
تبارز وهو في الخمسين من العمر تقريبا كما يفعل ملازم ثان . هكذا
اذن ، تقرر الامر : ستكون فينيتشكا . . . (عديلة لي) *

- آه . يا عزيزي بافل ! ولكن ماذا سيقول اركادي ؟

- اركادي ؟ ما عساه ان يقول ؟ ! سيفرح . انه لا يؤيد
الزواج ، ولكنه سيسر للشعور بالمساواة . وبالفعل فما الداعي
للتفرقة (في القرن التاسع عشر) ** ؟

- آه . بافل ، بافل ! دعني اقبلك مرة اخرى . ولا تخف
فساكون حذرا .

تعانق الشقيقان . ثم سأل بافل بتروفيتش :

- ماذا ترى ، الا يتعين اخبارها بنيتك في الحال ؟

فاعترض نيكولاي بتروفيتش :

- ما الداعي للعجلة ؟ فهل دار بينكما حديث بهذا الخصوص ؟

- حديث بيننا ؟ (ما هذه الفكرة ؟) ***

- طيب . ينبغي ان تشفى اولاً ، اما هذه القضية فليست

آنية . ينبغي التفكير في الامر جيدا . . .

- ولكنك صممت ، اليس كذلك ؟

- طبعاً . صممت . وانا ممتن لك من الغواد . سأتركك الآن ،

اذ ينبغي ان ترتاح ، فان اي انفعال يؤذيكَ . . . ولكننا سنتحدث

في الامر فيما بعد . حاول ان تغفو ، يا حبيبي ، والله يعافيك !

فكر بافل بتروفيتش عندما ظل لوحده : «لماذا يشكرني ؟

وكانما لم يكن ذلك متوقفا عليه هو ! اما انا فسارتحل ، حالما

يتزوج ، الى مكان ما بعيد ، الى درزدن او فلورنسة ، وسأظل

هناك الى ان افطس» .

بلل بافل بتروفيتش جبهته بالكولونيا وغمض عينيه . كان

راسه الجميل النحيل المضاء بتور النهار الساطع مستقرا على

الوسادة البيضاء كراس جثة . . . بل كان هو جثة هامدة في

الواقع .

* في الاصل بالفرنسية belle-sœur .

** في الاصل بالفرنسية au dix-neuvième siècle .

*** في الاصل بالفرنسية Quelle idée .

في ظل شجرة دردار باسقة في بستان نيكولسكويه جلست كاتيا مع ارКАДي على مصطبة معشوشبة ، وعلى الارض قربهما ربضت الكلبة فيفي ولوت جسمها الطويل على نحو رشيق بالشكل الذي ينعته الصيادون «برقدة الارنب» . لزم ارКАДي الصمت وكذلك كاتيا . امسك بكتاب مفتوح بالكاد ، في حين راحت هي تلتقط من السلة ما تبقى فيها من فئات الرغيف الابيض وتلقي به الى مجموعة صغيرة من العصافير كانت تتقاذف وتزقزق بما يلزمها من تهور وجبن عند قدميها تماما . كان نسيم خفيف يداعب اوراق الدردار ويحرك بهدوء بقعا ضوئية ذهبية باهتة الى قدام والى وراء ، في الممشى القاتم وعلى ظهر فيفي الاصفر . وكان ظل متوازن ينسكب على ارКАДي وكاتيا . ومن حين لآخر يلعب شريط من الضوء الساطع في شعرها . لزما الصمت ، ولكن تقاربا مطمئنا تجل في صمتها وفي هيئة جلوسهما معا : كان كل منهما كأنما لا يفكر بجاره ، ولكنه مسرور في الخفاء لقربه منه . تغير محياهما منذ ان رايناها في آخر مرة : فقد بدا ارКАДي اكثر هدوءا ، بينما بدت كاتيا اكثر حيوية وجراة .

ثم تحدث ارКАДي :

— الا ترين ان الدردار اسم على مسمى ؟ ! فليس هناك شجرة تضاهيها في خفتها وشفافيتها .
رفعت كاتيا بصرها الى اعلى وقالت : «اجل» ، بينما فكر ارКАДي في نفسه : «انها لا تلومني ، مثل بازاروف ، على كلامي الجميل» .
ثم قالت كاتيا مشيرة بنظرة من عينيها الى الكتاب في يده ارКАДي :

— لا احب هايني عندما يضحك ولا عندما يبكي . اننى احبه عندما يفرق في التأملات والاحزان .

— اما انا فاحبه عندما يضحك . — قال ارКАДي .
— تلك آثار قديمة من اتجاهك الساخر . . . (فكر ارКАДي : «آثار قديمة ! ماذا لو سمع بازاروف ذلك !») تمهل قليلا ، وسوف نغير آراءك .

— من يغير آرائى ، انت ؟

— اختى ، وبورفيرى بلاتونيتش الذي لم تعد تتشاجر معه ، وغالتي التي رافقتها الى الكنيسة اول امس .
— ما كان بوسعى ان ارفض ! اما آنا سيرغيفينا فهي نفسها ، كما تتذكرين ، كانت متفقة مع يفغيني في امور كثيرة .
— كانت اختى آنذاك متأثرة به مثلك تماما .
— آنذاك ؟ مثلي ؟ هل لاحظت اننى صرت اتخلص من تأثيره ؟
لاذت كاتيا بالصمت ، فواصل ارКАДي كلامه :
— اعرف انه لم يعجبك بتاتا .
— ليس بوسعى ان احكم عليه .
— هل تعلمين ، يا كاتيا ، باننى كل مرة اسمع فيها هذا الجواب لا اثق به ؟ . . . فليس هناك انسان لا يستطيع كل منا ان يحكم عليه ! ذلك مجرد تملص .
— اقول لك الحقيقة . . . لا استطيع القول بانه لا يعجبني . . . ولكنني احس بانه غريب علي وبأنى غريبة عليه . . . بل وحتى انت غريب عليه .
— لماذا ؟
— كيف اجيب ؟ . . . انه بري مفترس ، بينما نحن اليقون .
— وانا اليق ايضا ؟
اورمات كاتيا برأسها ايماء ايجاب .
فحك ارКАДي ما وراء اذنه وقال :
— اسمعي ، يا كاتيا ، ذلك في الواقع امر مغيظ .
— هل تريد ان تكون مفترسا ؟
— كلا ، ولكنني ارجب ان اكون نشيطا شديد اليأس .
— هذا امر لا يخضع للرغبة . . . صديقك ، مثلا ، لا يرغب في ذلك ، ولكنه موجود فيه .
— احم ! انت تعتقدين بانه اثر على آنا سيرغيفينا تأثيرا كبيرا ، اليس كذلك ؟
— بلى . ولكن لا احد يستطيع ان يغلبها لامد طويل — اضافت كاتيا بصوت خافت .
— لماذا تظنين ذلك ؟
— انفتها شديدة . . . كلا ، ليس ذلك ما اقصده . . . انها تعز باستقلالها غاية الاعتزاز .

- فمن لا يعتز به ؟ - قال اركاڊي وفكر : «وما نفعه ؟» .
 وفكرت كاتيا ايضاً : «وما نفعه ؟» . ان افكاراً متماثلة تتبادر
 دوماً الى اذهان الشباب الذين كثيراً ما يلتقون بود .
 ابتسم اركاڊي ، واقترب قليلاً من كاتيا ، فقال همساً :
 - انك تخافين منها بعض الشيء ، اليس كذلك ؟ اعترفي .
 - ممن ؟
 - منها - كرر اركاڊي بلهجة ذات وزن .
 - وانت ؟ - سألته كاتيا بدورها .
 - وانا ايضاً . لاحظي ، قلت : وانا ايضاً .
 هدته كاتيا بسبابتها قائلة :
 - ذلك يشير دهشتي . فان اختي لم تكن تميل اليك في اي
 وقت افضل مما هي الآن . انها تميل اليك اكثر بكثير مما في
 زيارتك الاولى .
 - حقاً ؟ !
 - ألم تلاحظ ذلك ؟ الا يبعث السرور فيك ؟
 تفكر اركاڊي قليلاً ثم قال :
 - ما الذي جعلني استحق عطف آنا سيرغيفينا ؟ هل السبب
 اني احضرت لها رسائل والدتك ؟
 - اجل . وهناك اسباب اخرى لن اقولها لك .
 - لماذا ؟
 - لن اقولها .
 - آه ! اعرف ذلك . انك عنيدة جداً .
 - اجل ، عنيدة .
 - وشديدة الملاحظة .
 اقلت كاتيا على اركاڊي نظرة جانبية .
 - ربما يشير ذلك غضبك ؟ بم تفكر ؟
 - من اين لك هذه القابلية على الملاحظة الشديدة الموجودة
 لديك فعلاً ؟ ! انك ترتعين لا بسط الامور ولا تثقين بأحد
 وتتحاشين الجميع . . .
 - عشت لوحدي امدأ طويلاً ، لذا صرت اطيّل التأمل . ولكن
 هل انا اتحاشي الجميع قاطبة ؟
 القى اركاڊي نظرة ممثلة على كاتيا . وواصل كلامه :

- ذلك شيء رائع . ولكن الناس في مثل حالتك ، اريد ان
 اقول الذين يمتلكون ما يمتلكين ، نادراً ما يتمتعون بهذه الموهبة .
 فالحقيقة يصعب عليها ان تصل اليهم ، كما يصعب عليها ان تصل
 الى القياصرة .
 - ولكنني لست غنية .
 استغرب اركاڊي قولها ولم يفهم في الحال . وخطرت على باله
 فكرة : «حقاً ، فالضيعة كلها تعود لاختها !» . ولم تكن هذه الفكرة
 مريبة بالنسبة له . فقال :
 - ما احسن لهجة قولك هذا !
 - ماذا ؟
 - قلت ذلك باطيب وابسط شكل دون خجل ولا تباه .
 وبالمناسبة فانا اتصور ان الانسان الذي يعلم ويقول انه فقير
 ينبغي ان ينطوي على شيء خاص ، على بعض الغرور .
 - انني لا اشعر بشيء من ذلك بفضل اختي . ولم اشر الى
 حالتي المادية الا لأن الحديث ساقني الى ذلك .
 - حسناً . ولكن اعترفي ، اليس لديك شيء من الغرور الذي
 ذكرته توأ .
 - مثلاً ؟
 - مثلاً ، استميتك عذراً على سؤالي : انك لن تتزوجي من
 شخص غني ، اليس كذلك ؟
 - اذا وقعت في هواه . . . كلا ، يخيل اليّ انني لن اتزوج
 منه حتى اذا وقعت في هواه .
 - هكذا اذن - هتف اركاڊي ، ثم اضاف بعد برهة : - ما
 الذي يجعلك ترفضين الزواج منه ؟
 - حتى الاغنية تتحدث عن عدم التكافؤ .
 - ربما تريدن التسلط ، ام . . .
 - كلا ! ما الداعي لذلك ؟ بالعكس ، انني على استعداد
 للانصياع ، ولكن عدم التكافؤ شيء ثقيل . اما الانصياع المقترن
 باحترام النفس فأمر مفهوم ، انه السعادة . ولكن حالة الخضوع
 والتبعية . . . كلا فانا غارقة فيها .
 - غارقة فيها . . . - كرر اركاڊي قول كاتيا وواصل

كلامه : - اجل ، اجل . ليس عبثاً انك وأنا سيرغييفنا من صلب واحد ، فأنت مستقلة مثلما هي . ولكنك اكثر انطواء . انا واثق من انك لن تبادري ابدأ الى الاعراب عن مشاعرك مهما كانت عميقة ومقدسة . . .

- وكيف يكون الامر على غير ذلك ؟ - سألت كاتيا .
- انكما على نفس القدر من الغبطة . ولديك نفس القدر من قوة الطباع كما لديها ، ان لم اقل اكثر منها . . .
- لا تقارن بيني وبين اختي من فضلك - قاطعته كاتيا على عجل - فذلك ليس بصالح ابدأ . يبدو وكأنك قد نسيت ان اختي حسناء ذكية . ولا يجدر بك ، انت يا اركادي نيكولايفيتش على الخصوص . . . ان تقول مثل هذه الكلمات ، وبمثل هذه الملامح الجادة .

- ماذا تعنين بقولك : لا يجدر بي على الخصوص ؟ وما الذي يجعلك تعتقدين بأنني امزح ؟
- انت تمزح طبعاً .
- حقاً ؟ ولكن ماذا لو كنت واثقاً مما اقول : وماذا لو كنت اعتقد بأنني لم اعبر عن ذلك بعد بالشكل اللازم ؟ !
- انني لا افهمك .
- حقاً ؟ ها انا ارى الآن بأنني بالغت كثيراً في امتداح قدرتك على الملاحظة .
- كيف ؟

لم يجب اركادي بشيء واشاح بوجهه ، بينما وجدت كاتيا في السلة قليلاً من فئات الرغيف وراحت تلقى به الى العصافير . الا ان حركة يدها كانت شديدة ، فصارت العصافير تطير بعيداً قبل ان يتسنى لها ان تلتقط الفتات .

وقال اركادي فجأة :
- كاتيا ! ربما لن تعبأ بما ساقول . ولكن اعلمي بأنني لن استبدلك لا باختك ولا بأي كان في هذا العالم .
ثم نهض وابتعد مستعجلاً ، كما لو كان قد ارتعب من الكلمات التي افلتها لسانه .

اما كاتيا فقد تراخت كلتا يديها وهوتا مع السلة على ركبتيها ، وطاقات رأسها وراحت تنظر طويلاً الى الجهة التي انصرف اليها

اركادي . ظهرت بوادر الحمرة القانية على وجنتيها ، لكن الابتسامة لم تعرف سبيلها الى شففتيها ، وكانت عيناها تعبران عن الحيرة وعن شعور آخر لا يزال غير معروف الهوية .
ودوى قربها صوت أنا سيرغييفنا :

- انت لوحذك ؟ خيل اليّ انك توجهت الى البستان مع اركادي .

حولت كاتيا نظرتها على مهل الى اختها (التي وقفت على الممشى بلايسها الانيقة ، بل الفاخرة ، وراحت تداعب اذني فيفي بطرف مظلتها المفتوحة) وقالت على مهل ايضاً : - لوحدي .
- ارى ذلك - اجابت تلك ضاحكة - يبدو انه ذهب الى غرفته .

- اجل .
- هل كنتما تقرأن معا ؟
- اجل .

لامست أنا سيرغييفنا ذقن كاتيا ورفعت وجهها قليلاً : - الم تتشاجرا ؟

- كلا . - اجابت كاتيا وازاحت يد اختها برفق .
- ما هذه اللهجة المهيبة في الجواب ؟ ! ظننت اني سأجده هنا لاقتراح عليه ان يتمشى معي . فقد طلب مني ذلك مراراً .
احضروا لك هذا من المدينة ، اذهبي وقيسيه . فقد لاحظت يوم امس ان احذيتك القديمة قد بليت كلياً . وانت على العموم لا تولين ذلك ما يستحقه من اهتمام ، بينما لديك ساقان رائعتان ! ويداك حلوتان ايضاً . . . ولكنهما كبيرتان ، لذا ينبغي الاستفادة من الساقين . ولكنك لست لعوباً .

واصلت أنا سيرغييفنا سيرها على الممشى بحفيف ينبعث من فستانها الجميل . نهضت كاتيا من المصطبة والتقطت هايني وذهبت ايضاً ، ولكن لا لكي تقيس الحذاء .

فكرت في نفسها وهي ترتقي ببطء وخفة درجات سلم الشرفة الحجري الذي سخنته الشمس : «ساقان رائعتان . تقولين : ساقان رائعتان . . . وسوف يقع عندهما» .

واعتراما الخجل في الحال فصعدت راكضة برشاقة . اجتاز

اركاڊي الرواق متجهاً الى غرفته ، فلهق به كبير الوصفاء ، وافاد بان السيد بازاروف ينتظره فيها .

فتمتم اركاڊي وكاد الرعب يستولى عليه :

- يفغيني ؟ هل وصل من زمان ؟

- وصل توأ وامر بان لا اخبر آنا سيرغيفنا عنه . طلب ان اوصله اليكم مباشرة .

«ماذا ؟ هل حلت بأهلي مصيبة ما ؟» - فكر اركاڊي ، وركض على السلم مستعجلاً وفتح الباب في الحال . كان منظر بازاروف قد جعله يهدأ فوراً ، مع ان العين الناقبة بوسعها ، على ما يبدو ، ان تستشف في الهيئة النحيلة للضيف غير المنتظر وفي ملامحه التشبيطة كالسابق علانم الاضطراب الداخلي . كان جالساً على رف النافذة وعمرته على راسه ومعطفه المغبر على كتفيه . ولم ينهض حتى عندما هرع اليه اركاڊي وعانقه بصخب واستغراب .

- لم اتوقع مجيئك مطلقاً ! ما الذي دفعك ؟ ! - كرر اركاڊي وهو يجول في الغرفة كما لو كان يتصور نفسه مسروراً وراغباً في اظهار سروره - كل شيء عندنا على ما يرام ؟ وهل الجميع بخير ؟ - كل شيء عندكم على ما يرام ، ولكن ليس الجميع بخير - تمتم بازاروف - كفاك هذراً ، اطلب لي عصيراً واجلس واستمع الى ما ساقوله لك بعبارات قليلة ولكن شديدة الوقع على ما اعتقد . سكن اركاڊي ، بينما حدثه بازاروف عن مبارزته مع بافل بتروفيتش . دهش اركاڊي اشد الدهشة ، بل وحزن بعض الشيء ، لكنه لم ير ضرورة للاعراب عن ذلك . واكتفى بالسؤال عما اذا كان جرح عمه غير خطر حقاً . وعندما تلقى الجواب بان الجرح مثير جداً ولكن ليس من الناحية الطبية ، ابتسم على مضض ، وانتابه شيء من الرعب والخجل . وبدا بازاروف وكأنما قد فهمه ، فقال :

- اجل ، يا اخي ، تلك عاقبة العيش مع الاقطاعيين . فالمرء مضطر الى ان يغدو مثلهم ويساهم في جولات الغروسيية . - واضاف بازاروف في الختام - شددت الرحال الى «الآباء» وعرجت . . . لكي احيطك علماً بذلك . كان بوسعي ان اقول شيئاً من هذا القبيل لولا اني اعتبر الكذب بلا جدوى حماقة . كلا ، الشيطان وحده يعلم لماذا . . . جئت الى هنا . من المجدي للانسان ، كما اعتقد ، ان

يسك احياناً بتأصيته ويجتث نفسه كما يجتث الفجل من التربة . وهذا ما فعلته انا مؤخراً . . . ولكنني رغبت في ان القي نظرة اخرى على ما افترقت عنه ، على تلك التربة التي كنت غائصاً فيها . فاعترض اركاڊي قلقاً :

- آمل بان هذه الكلمات لا تشملني . آمل بانك لا تفكر في

الافتراق عني .

القي عليه بازاروف نظرة ثاقبة كادت تنغرز فيه :

- هل تعتقد بان ذلك سيؤلمك ؟ يخيل اليّ انك نفسك قد

فارقتني . انت على قدر كبير من الطراوة والنظافة . . . لا بد وان

امورك مع آنا سيرغيفنا سائرة على ما يرام .

- اية امور لي مع آنا سيرغيفنا ؟

- افلم تصل من المدينة الى هنا من اجلها يا طائري الصغير ؟

وبالمناسبة كيف حال مدارس الآحاد هناك ؟ . . . ماذا ؟ افلست

متيماً بها ؟ ام انه حان الوقت للتواضع ؟

- يفغيني ، انت تعلم بانني كنت على الدوام صريحاً معك .

واؤكد لك ، واقسم بالله ، انك على خطأ .

- احم ! كلمة جديدة . - قال بازاروف بصوت خافت - لا

داعي للغضب . فذلك امر لا يعنيني مطلقاً . وبوسع الرومانسي

ان يقول : احس باننا على مفترق الطرق . اما انا فاقول ببساطة ،

اتنا مللنا بعضنا البعض .

- يفغيني . . .

- لا ضير في ذلك ، يا حبيبي . في العالم اشياء اكثر قيمة

ولكنها تبعت على الملل ايضاً ! اما الآن ، افلا يجدر بنا ان

نتواعد ؟ ! منذ ان وصلت الى هنا اشعر بانني على اسوأ حال ، كما

لو قرأت المزيد من رسائل غوغول الى عقيلة متصرف كالوغا

(١٥٥) . وبالمناسبة فاني لم اطلب حل الخيول .

- كيف ؟ هذا مستحيل .

- لماذا ؟

- ذلك اقصى حد من عدم اللياقة ازاء آنا سيرغيفنا التي

سترغب في رؤيتك من كل بد . ناهيك عن اثر ذلك في نفسي انا .

- انك متوهم .

- على العكس ، انا واثق منه - قال اركاڊي معترضاً - ثم

ما الداعي للتصنع ؟ وما دمننا بهذا الصدد ، أفلم تات انت الى هنا من اجلها ؟

- ربما ، ولكنك متوهم مع ذلك .

غير ان اركادي كان على حق . فقد رغبت آنا سيرغيفينا في رؤية بازاروف وبعثت كبير الوصفاء ليدعوه اليها . استبدل بازاروف ملابسه قبل ان يتوجه اليها . واتضح انه وضع بدلته الجديدة بين حاجياته بحيث يسهل التقاطها .

استقبلته اودينتسوف في غرفة الاستقبال وليس في الغرفة التي اعرب فيها ، اعلى نحو مباغت ، عن حبه لها . ومدت له بلفظ اصابع يدها ، ولكن مسحة من التوتر العفوي كانت عالقة بمحياها . فعاجلها بازاروف قائلاً :

- يا آنا سيرغيفينا ، عليّ في المقام الاول ان اهدئك فامامك واحد من البشر القانين ادرك خطاه من زمان ويأمل بان الآخرين ايضاً قد نسوا حماقته . انني مسافر لامد طويل ، ومع اني لست كائنًا رقيق القلب ، فمن المحزن ان احمل معي فكرة تزكد لي انك تتذكريني باشعرزاز . الست محقاً ؟

تنفست آنا سيرغيفينا الصعداء كشخص ارتقى لتوه جبلاً عالياً ، وانعشت الابتسامة محياها . مدت يدها لبازاروف مجدداً وصافحته قائلة :

- الويل لمن يتذكر الغيظ الماضي ، لاسيما واني ، اذا قلت الحق ، اخطأت انا ايضاً آنذاك بشي . ما ، ان لم يكن بالنفج . وباختصار : فلنبق اصدقاء كالسابق . كان ذلك حليماً ، اليس كذلك ؟ فمن يتذكر الاحلام يا ترى ؟

- من يتذكرها ؟ لاسيما وان الحب شعور متكلف . . .

- حقاً ؟ يسرني كل السرور ان اسمع ذلك .

هكذا تكلمت آنا سيرغيفينا ، وهكذا تكلم بازاروف . وفكر كلاهما بانهما يقولان الحقيقة . فهل كانت كلماتهما تنطوي على الحقيقة ، الحقيقة كاملة ؟ ذلك امر لم يكونا يعلمان به هما ، ناهيك عن المؤلف . بيد انهما تجاذبا اطراف الحديث وكأنما قد صدقا بعضهما البعض كلياً .

وسالت آنا سيرغيفينا بازاروف ، عرضاً ، عما كان يفعله عند آل كيرسانوف . وكاد يحدثها عن مبارزته مع بافل بتروفيتش .

لكنه احجم عن ذلك خشية ان تظن بأنه يحاول ان يتصنع اموراً منيرة ، فأجابها بأنه كان يعمل طوال الوقت . فقالت آنا سيرغيفينا :

- اما انا فقد استولت عليّ الكتابة في بادئ الامر ، والله وحده يعرف السبب ، حتى اني صممت على السفر الى الخارج . هل تتصور ؟ . . . ثم انقشع ذلك كله ، حيث وصل صديقك اركادي نيكولايفيتش فعدت من جديد الى حالتي المعتادة ، الى دوري الحقيقي .

- اي دور ، يا ترى ؟

دور المربية والمرشدة والام ، سمه كيفما تشاء . وبالمناسبة هل تعلم بانني في السابق لم اكن افهم جيداً الصداقة الحميمة بينك وبين اركادي نيكولايفيتش . كنت اظن بأنه انسان ليس ذا شأن كبير . اما الآن فقد عرفته على نحو افضل واقتنعت بأنه ذكي . . . والامر الاهم هو انه في ريعان الشباب . . . ليس مثلنا يا يفغيني فاسيليفيتش .

فسال بازاروف :

- الا يزال يتهيب بحضورك ؟

- هل كان . . . - بدأت آنا سيرغيفينا كلامها ، ولكنها تفكرت قليلاً ، ووافقت : - اصبح اكثر اطمئناناً ، وصار يتحدث معي . في السابق كان يتحاشاني . وبالمناسبة فانا ايضاً لم اكن ابحت عن سبيل لمعاشرته . فهو وكاتيا صديقان حميمان .

شعر بازاروف بالاسف وفكر في نفسه : «لا يمكن للمرأة ان لا تعال !» . ثم قال بابتسامة ساخرة فاترة :

- تقولين انه كان يتحاشاك . ولكن ، على ما يبدو ، لم يبق خافياً عليك انه يحبك ، اليس كذلك ؟

- ماذا ؟ وهو ايضاً ؟ - انفلت السؤال من لسان آنا سيرغيفينا .

- وهو ايضاً . - كرر بازاروف بانحناء وادعة - هل من المعقول انك لم تكوني تعرفين ذلك ، واني اخبرتك بنياً جديد ؟

غضت آنا سيرغيفينا بصرها وقالت :

- انت على خطأ يا يفغيني فاسيليفيتش .

- لا اظن . ولكن ربما ما كان يتعين علي ان اذكر ذلك . -
ثم اضاف في سره : «ولذا لا تتعالي بعد الآن» .

- ليم لا تذكره ؟ ! لكنني اعتقد بانك ، في هذه الحالة
ايضاً ، تعلق اهمية كبيرة على الانطباع العابر . ويخيل الي انك
تميل الى المبالغة .

- من الافضل ، يا آنا سيرغييفنا ، ان لا نتحدث عن ذلك .
- لماذا ؟ - اعترضت عليه ، ولكنها حولت الحديث الى
جانب آخر . كانت مع ذلك تشعر بالخجل من بازاروف ، بالرغم من
انها قالت له واقنعت نفسها بان النسيان قد طوى كل شيء .
وعندما كانت تتحدث معه بأبسط شكل ، وحتى عندما كانت تمزح
معه ، شعرت بان الخوف يأخذ بخناقها بعض الشيء . فالتاس
على ظهر الباخرة في البحر ، يتكلمون ويضحكون بلا اكرات ،
ويتجاذبون اطراف الحديث كما على الارض الصلبة ، ولكنه حالما
تتوقف الباخرة للحظة ، وحالما تظهر اقل اشارة الى شيء ما غير
معتاد تلوح على جميع الوجوه فوراً مسحة القلق التي تدل على
الاحساس الدائم بالخطر المستمر .

استغرق حديث آنا سيرغييفنا مع بازاروف امدأ قصيراً . فقد
اخذت تتأمل وصارت تجيب على نحو غير مركز ، ثم اقترحت عليه
اخيراً الانتقال الى الصالة حيث وجدا الاميرة وكاتيا . فسالت
ربة البيت : «اين اركادي نيكولايفيتش ؟» وبعثت في طلبه عندما
علمت بانه لم يظهر منذ اكثر من ساعة . لم يعثروا عليه في
الحال : فقد اعتكف في لجة البستان وجلس غارقاً في افكاره مستنداً
ذقنه الى يديه المتصالبتين . كانت افكاره عميقة هامة ، ولكن غير
حزينة . كان يعلم ان آنا سيرغييفنا قد اختلت ببازاروف ، فلم
يشعر بالغيرة كما في السابق ، بل ، على العكس ، كان وجهه
مشرقاً يهدو ، وبدا وكأنه مسرور ومستغرب لشيء ما ، ومصمم
على امر ما .

ما كان المرحوم اودينتسوف يهوى التجديد ، ولكنه كان يتقبل
«مظاهر الذوق الرفيع» ، ولذا انشأ في بستانه ، بين المشتل
المدقا والبركة ، بناية من القرميد الروسي تشبه الرواق اليوناني
القديسم . وعلى الجدار الخلفي الاصم لهذا الرواق او الكاليري ،
حُفرت ستة محاريب لتماثيل كان اودينتسوف ينوى جلبها من
الخارج . وكان على هذه التماثيل ان تجسد : الانفراد والصمت
والتأمل والملنخوليا والحسمة والحساسية . جلب احد هذه
التماثيل ، وهو تمثال الاله الصمت واصبعها على شفثيها ، ونصب
في محرابه . لكن اطفال الخدم كسروا انف التمثال في اليوم ذاته .
ومع ان الجصاص المجاور اعترز ان ينحت له انفاً «افضل بمرتين
من السابق» ، فقد امر اودينتسوف برفعه . ولذا احتل التمثال
مكانه في ركن مستودع الطاحونة ، حيث ظل هناك سنين طويلة
يشير الرعب الوسواسي لدى الفلاحات . وتغطي الجانب الامامي
من الرواق بشجيرات كثيفة ، فلا يلوح فوق بحر من الخضرة الا
تيجان الاعمدة . كان الجو في الرواق بارداً حتى في الظهيرة . ولم
تكن آنا سيرغييفنا تهوى التردد على هذا المكان منذ ان رأت فيه
افعى ، الا ان كاتيا غالباً ما تجلس على المصطبة الحجرية الواسعة
المبنية عند احد المحاريب . كانت ، وسط النظارة والظلال ،
تطالع او تعمل او تنساق للاحساس بالسكون المطبق ، ذلك
الاحساس المعروف لكل شخص ، على ما يبدو ، وتكمن روعته في
التوقع الابكم للشعوري تقريبا لموجة الحياة العريضة التي تنداح
بلا انقطاع حولنا وفي دخیلتنا .

في اليوم التالي لوصول بازاروف جلست كاتيا على مصطبتها
المفضلة ، وجلس اركادي قربها من جديد . فقد رجاها ان تصطحبه
الى «الكاليري» .

بقي على موعد الفطور زهاء الساعة . وحل الضحى اللافح
محل الصباح الندي . وظل محيا اركادي محتفظاً بمسحة الامل ،
وكانت كاتيا مهمومة . فبعد احتساء الشاي مباشرة استدعتها اختها
الى مكتبها ونصحتها ، بعد شيء من الملاحظة التمهيدية (الامر الذي
كان دوماً يخيف كاتيا لدرجة ما) بان تلتزم الحذر في سلوكها مع

اركاڊي ، وتتحاشى خصوصاً الاحاديث الانفرادية معه ، مما لاحظته خالتها وكل من في الدار كما زعمت . زد على ذلك ان آنا سيرغيفينا كانت معتكرة المزاج مساء امس ، بل وان كاتيا نفسها كانت تشعر بالخجل وكانما اقترفت ذنباً . وعندما لبث طلب اركاڊي قطعت على نفسها عهداً بان تلك هي آخر مرة . وبدأ اركاڊي كلامه بشي من الحياء وعدم التكلف في الوقت ذاته :

- كاتيا ! منذ ان اسعدني الحظ في التواجد واياك في دار واحدة تحدثت معك عن امور كثيرة ، بينما ظلت مسألة واحدة هامة جداً بالنسبة لي . . . لم اتناولها بعد . - ثم اضاف قائلاً : وهو يلاحظ ويتحاشى نظرة كاتيا المتسائلة المسلطة عليه : - لقد قلت هنا امس انني تغيرت . وبالفعل فقد تغيرت لدرجة كبيرة ، وانت تعرفين ذلك افضل من اي انسان آخر ، فانا مدين لك ، في الواقع ، بهذا التغير .

- انا ؟ . . . لي ؟ . . . - تمتعت كاتيا .

فواصل اركاڊي كلامه :

- انني لم اعد غلاماً متعرجاً كما كنت عندما وصلت الى هنا . وليس عبثاً اني بلغت الثالثة والعشرين . وانا لا ازال كالسابق راغباً في ان اغدو انساناً نافعاً وان اكرس كل قواي للحقيقة ، ولكنني لم اعد ابحت عن مثلي العليا حيثما كنت ابحت عنها في الماضي . فهي تلوح لي . . . اقرب بكثير . ولم اكن قبل الان افهم نفسي ، فقد كنت اتوخى حل مهمات فوق طاقتي . . . وقد تفتحت عيني مؤخرآ بفضل شعور واحد . . . انني لا اتكلم بشكل واضح تماماً ، ولكنني آمل بانك ستفهميني . . .

لم تحر كاتيا جواباً ، ولكنها كفت عن التحديق في اركاڊي ، وتكلم هو من جديد بصوت اكثر اضطراباً ، في حين واصل شرشور بين اوراق البتولا ترتيل انشودته بلا مبالاة :

- اعتقد ان من واجب كل انسان شريف ان يكون صريحاً منتهى الصراحة مع الناس الذين . . . مع الذين . . . وباختصار مع الاشخاص الاعزاء عليه ، ولذلك فاني . . . انسي انوي . . .

وهنا خانت البلاغة اركاڊي ، فاضطرب وتلعثم واضطر الى الصمت قليلاً . لم ترفع كاتيا بصرها طوال الوقت . وبدأ وكانها

لم تفهم الام يقود محدثها هذا الكلام ، فظلت تنتظر شيئاً . ثم بدأ اركاڊي كلامه بعد ان استجمع قواه من جديد :

- اتوقع بانني سائير دهشتك . لاسيما وان هذا الشعور يمسك انت على نحو ما . . . لاحظني : على نحو ما . . . لقد لمتني امس ، حسبما اذكر ، على قلة جدتي - واصل اركاڊي كلامه ومظهره يشبه مظهر شخص تورط في مستنقع وصار يشعر بانه يغمس فيه مع كل خطوة يخطوها ، ولكنه مع ذلك يستعجل الى الامام على امل الخلاص بأسرع ما يمكن ، - ان هذه الملامة كثيراً ما توجه الى الشباب . . . وتسلب عليهم . . . حتى عندما لا يعودون يستحقونها . ولو كنت امتلك المزيد من الثقة بالنفس . . . («ساعديني ، ساعديني قليلاً» - فكر اركاڊي يائساً ، ولكن كاتيا ظلت كالسابق مشيخة بوجهها) ولو كان باستطاعتي ان آمل . . .

- لو كان باستطاعتي ان اثق بما تقول . . . - تهادى في تلك اللحظة صوت آنا سيرغيفينا الصافي .

صمت اركاڊي في الحال ، بينما شحب لون كاتيا . كان الممشي يعاذي الشجيرات التي تحجب الرواق . وكانت آنا سيرغيفينا تتمشى هناك بمرافقة بازاروف . وما كان يوسع كاتيا واركاڊي ان يرياها ، ولكنهما سمعا كل كلمة ، مع حفيف الفستان ، بل وحتى الانفاس . سارا بضع خطوات وتوقفا ، كما لو كان ذلك عمداً ، في مواجهة الرواق مباشرة . وواصلت آنا سيرغيفينا كلامها :

- الا ترى اننا نحن الاثنين على خطأ ؟ لم نعد في ريعان الشباب ، وخصوصاً انا . عشنا عمراً ، وتعبنا ، وكلانا - قماً الداعي للتواضع ؟ - ذكي ، فقد اهتمنا ببعضنا البعض في بادى الامر ، وثار لدينا الفضول . . . وبعد ذلك . . .

- وبعد ذلك نفقت انا - عاجلها بازاروف .

- انت تعرف ان هذا ليس هو السبب في خلافنا . ومهما يكن من امر ، فالسبب الرئيسي هو اننا لم نكن بحاجة ماسة الى بعضنا البعض . ففينا الكثير من . . . التعائل ، ان صح القول . ولم نفهم ذلك في الحال . اما اركاڊي فعلى العكس . . .

- هل انت بحاجة اليه ؟ - سالها بازاروف .

- كفك يا يفغيني فاسيليفيتش . انت تقول بانه يشعر بميل

نحوي . وقد خيل اليّ دوماً انه معجب بي . وانا اعلم بانني يمكن ان اكون بمثابة مربية له . ولكن لا اخفي عليك انني صرت افكر به لدرجة اكبر . ففي هذا الشعور الفتى الغض شي ما رائع . . . - كلمة جذاب اكثر مناسبة لهذه الحال - قاطعها بازاروف ، وكانت فورة العراة واضحة في صوته المكبوت الهادي . - تحدث ارКАДي امس معي ببعض التحفظ فلم يقل شيئاً عنك ولا عنك اختك . . . وتلك اشارة هامة .

فقال آنا سيرغييفنا :

- انه يعامل كاتيا معاملة الاخ لاخته . وهذا شيء يعجبني فيه ، مع انه ربما لا يجدر بي ان اسمح بمثل هذا التقارب بينهما .

- هل ذلك هو شعور الاخت ازا ، اختها ؟ - سال بازاروف متمهلاً .

- طبعاً . . . لماذا توقفتما ؟ فلنذهب . ما اغرب هذا الحديث بيننا ، اليس كذلك ؟ وهل كنت اتوقع بانني سأحدث معك على هذا النحو ؟ انت تعرف بانني اخشاك . . . وانا في الوقت ذاته اثق بك لانك ، في الواقع ، طيب القلب تماماً .

- لست طيب القلب ابداً . هذا اولاً . وثانياً : لقد فقدت اية اهمية بالنسبة لك . ولذا تقولين بانني طيب القلب . . . لا فرق بين ذلك وبين وضع اكليل من الزهور على رأس الميت .

- يغفني فاسيليفيتش ، ليست لدينا سلطة على . . . - تكلمت آنا سيرغييفنا ، الا ان الريح هبت وشوشت الاوراق وطارت كلماتها بعيداً . ثم قال بازاروف بعد برهة :

- انت حرة طليقة .

ولم يعد بالامكان سماع الحوار ، فقد ابتعدت الخطوات . . . وسكن كل شيء .

التفت ارКАДي الى كاتيا وكانت جالسة بنفس الوضعية ، لكنها طأطأت راسها بدرجة اكبر . فقال بصوت مرتعش وهو يشد يداً على يد :

- كاتيا ! احبك الى الابد دون رجعة ، ولا احب احداً غيرك . كنت اريد ان اقول لك ذلك واعرف رايتك فيه . انني التمس يدك لاني لست غنياً ولاني اشعر بالاستعداد لتحمل كل التضحيات . . .



لماذا لا تجيبين ؟ الا تصدقينني ؟ هل تظنين بانى اقول شيئاً
طائشاً ؟ ولكن تذكرى هذه الايام الاخيرة ! افلم تقتنعي من زمان
بان كل شيء ما عداك ، افهميني ، كل شيء اختفى من زمان دون
ان يترك اثرأ ؟ تطلعي الي* ، انطقى ولو بكلمة واحدة . . . اننى
احب . . . احبك . . . صدقيني !

القت كاتيا على اركاى نظرة صافية ذات شان ، وكادت تبسم
بعد تأمل عميق ، ثم قالت :
- حسناً .

قفز اركاى من المصطبة :
- حسناً ؟ هل قلت : حسناً ، يا كاتيا ؟ ! ماذا تعنى هذه
الكلمة ؟ هل تعنى انى احبك وانك تصدقينني ، ام . . . ام . . . ؟
انا اخشى من اكمال السؤال .

- حسناً - كررت كاتيا ، ولكنه فهمها هذه المرة . فتلقف
يديها الكبيرتين الرائعتين وضغطهما على صدره وهو يتنفس بعسر
من شدة التائر والاعجاب . كانت ساقاه بالكاد تحملانه ، وراح
يكرر : « كاتيا ، كاتيا . . . » . اما هي فقد بكت على نحو عذري ،
ثم ضحكت بهدوء لدموعها . من لم ير مثل هذه الدموع فى عيني
المحبيب لا يعرف ، بعد ، مدى السعادة التى يمكن للانسان على
الارض ان يتذوقها وهو متجمد كلياً بسبب الامتنان
والحياء .

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى بعثت آنا سيرغييفنا فى
طلب بازاروف . حضر الى مكتبها فسلمته بضحكة متكلفة ورقة
بريدية مطوية . وكانت تلك رسالة من اركاى يلتمس فيها يد
اختها .

قرا بازاروف الرسالة بلمح البصر وبذل جهده كي لا يعرب
عن شعور الشماتة الذى استولى عليه فى الحال . ثم قال :
- هكذا اذن . ولكنك ، كما يخيلى الي* ، كنت حتى يوم امس
تعتقدين بانه يحب كاتيا حب الاخ لاخته . فما الذى تنوين فعله
الآن ؟

- ماذا تنصحنى انت ؟ - سألته آنا سيرغييفنا وهي تتابع
ضحكتها .

فاجابها بازاروف بضحكة ايضاً ، مع انه لم يكن مسروراً

أبدأ ، وما كان راغباً في الضحك على الإطلاق ، كما لم تكن راغبة فيه هي :

- اظن ان من الضروري تبريك الشابين . فهما زوج طيب من كل النواحي . ثروة كيرسانوف لا يستهان بها ، وهو وحيد ابيه ، ثم ان اياه طيب القلب ولن يعترض .

جابت اودينتسوف الغرفة ، وكان الاحمرار والشحوب يتناوبان في الظهور على محياها . ثم قالت :

- هل تعتقد بذلك ؟ حسناً ! لا ارى مانعاً . . . وانا مسرورة لكاتيا . . . ولاركادي نيكولايفيتش . . . بديهي انني سأنتظر جواب ابيه . وسوف ابعثه هو اليه . اتضح اني كنت بالامس على حق عندما قلت لك باننا لم نعد من الشباب . . . فكيف لم الحظ شيئاً ؟ ذلك ما يشير دهشتي !

ضحكت آنا سيرغييفنا من جديد واشاحت بوجهها في الحال . فقال بازاروف وقد ضحك هو الآخر :

- اصبح شباب اليوم اكثر تعايلاً . وبعد برهة من الصمت قال مجدداً :

- وداعاً . اتمنى لك ان تنجزى هذا الامر على افضل ما يكون . اما انا فسأفرح من بعيد .

- ماذا ؟ هل ستسافر ؟ ما الذي يمنعك الآن من البقاء ؟ ابق . . . فالحديث معك ذو شجون . . . كما لو كان المرء يسير على شفا هوة سحيقة . في البداية ينتابه الوجل ، وفيما بعد لا بدري من اين تأتيه الشجاعة . ابق .

- شكراً لك يا آنا سيرغييفنا على هذا العرض ، وعلى امتداح مواهبى الحوارية . ولكن يخيل اليّ اني صرفت وقتاً طويلاً جداً في التواجد في وسط غريب عليّ . فالاسماك الطائرة تستطيع البقاء في الجو بعض الوقت ، ولكنها سرعان ما تقع على الماء من جديد . فاسمح لي ان اندفع انا ايضاً الى بيتي .

تطلعت اودينتسوف الى بازاروف . كانت ابتسامة ساخرة مريّة ترتسم على وجهه الشاحب المتشنج . وفكرت في نفسها «كان يحبني ا!» . واحست بالعطف عليه ، فمدت له يدها بشعور من الود .

فهمها هو ، فقال متراجعاً خطوة الى الوراء :

- كلا ! انني انسان فقير ، ولكنني لم اتقبل الصدقات حتى الآن . وداعاً يا سيدتي ، معك العافية .

فقالت آنا سيرغييفنا بحركة عفوية :

- انا واثقة من ان هذا ليس لقاءنا الاخير .

- ربما . فكل شيء ممكن في هذا العالم - اجاب بازاروف وانحنى لها وانصرف .

وفي اليوم ذاته قال لاركادي وهو جالس القرفصاء يعد حقيبته :

- ما قد صممت على بناء عش لك ، اليس كذلك ؟ لا بأس ، ذلك شيء حسن . ولكن عينا تحايلت . كنت اتوقع منك وجهة اخرى تماماً . ام ان ذلك ربما كان مباغتاً لك ؟ فاجاب اركادي :

- لم اكن اتوقعه بالضبط عندما فارقتك . ولكن لماذا تتعايل انت وتقول «شيء حسن» ، كما لو انني لا اعرف رأيك بالزواج ؟

- آه ، يا صديقي العزيز ! ما هذه التعابير ؟ ! لاحظ ما افعل : في الحقيقة مكان فارغ وانا احشوه بالقش . وكذا الامر في حقيقة حياتنا ، نحشوها بأي شيء كان على شرط ان لا يظل فيها فراغ . لا تزعل ، ارجوك ، فانت تتذكر ، على ما يبدو ، رأيي في كاتيا . فان سواها من الفتيات يشتهرن بالذكاء لمجرد انهن يتأوهن بذكاء . اما فتاتك فلن تتنازل عن حق لها ، بل وسوف تضبطك انت . وهذا امر طبيعي . - صفق غطاء الحقيقة ونهض - اما الآن فأكبر القول مودعاً . . . ولا داعي لخداع النفس : اودعك الى الابد . ولقد شعرت انت بذلك . . . وتصرفت بحصافة . فانت لم تخلق لحياتنا المريرة اللاذعة ، حياة العزوبة . وليست فيك وقاحة ولا حقد ، بل لديك بسالة الشباب وحماس الشباب . وهذا امر لا يصلح لنا . فالنبلاء ، من امثالك ، لا يمكنهم ان يسيروا الى ابعد من الامتكانة الكريمة او الفوران الكريم ، بينما ذلك شيء نافع . وانتم ، مثلاً ، لا تحاربون ، لكنكم تصورون انفسكم فرساناً ، اما نحن فنبتغي المعركة حقاً . اين انت من ذلك ؟ ! ان غبارنا يؤذي عينيك ، واوساخنا تلوثك ، بل وانك لم تبليغ مسترانا ، فانت معجب بنفسك عفوية ، ويبعث السرور فيك كونك

تلوم نفسك بنفسك . ذلك شيء ممل بالنسبة لنا . فنحن بحاجة الى التنديد بالآخرين ! نحن بحاجة الى تحطيم الآخرين ! انك شاب رائع ، ولكنك ، مع ذلك ، مجرد نبيل لبرالي رقيق . فتعتم اركاوي حزينا :

- تودعني الى الابد ، يا يفعيني ، وليست لديك كلمات اخرى تقولها لي ؟

حك بازاروف قفاه وقال :

- لدي* ، يا اركاوي ، لدي* كلمات اخرى ، ولكني لن اقولها لأنها رومانسية ، بكل ما فيها من لطافة تافهة . ولكن عجل انت بالزواج وابن عشك ، وانجب المزيد من الاطفال . وسوف يكونون اذكيا لمجرد انهم سيولدون في الوقت المناسب ، وليس مثلنا ولدنا انا وانت . اها ! ارى الخيول جاهزة . آن الاوان . لقد ودعت الجميع . . . ماذا ؟ هل نتعاق ؟

ارتقى اركاوي على رقبة معلمه وصديقه السابق فانهمرت الدموع من عينيه .

وقال بازاروف بهدوء :

- ذلك هو فعل الفتوة ! انني اعلق آمالي على كاتيا . فسوف

تواسيك بسرعة !

وعندما صعد الى العربة قال لاركاوي :

- وداعاً يا اخي ! - ثم اشار الى زاغين جاثمين جنباً الى جنب على سقف الاسطبل و اضاف قائلاً : - انظر ! وتعلم ! فسأل اركاوي :

- ماذا يعني ذلك ؟

- كيف ؟ هل انت ضعيف الى هذا الحد في علم الطبيعة ؟ ام انك نسيت ان الزاغ افضل طير يحافظ على الاواصر العائلية ؟ اليك مثالا يحتذى ! . . . وداعاً ، سنيور !

هدرت العربة وتهادت .

لقد قال بازاروف الحقيقة . فعندما تحدث اركاوي مع كاتيا في المساء نسي معلمه كلياً ، وصار يخضع لها بالتدريج . شعرت كاتيا بذلك ولم تستغرب له . كان يتعين عليه ان يرتحل في اليوم التالي الى مارينو ، الى نيكولايتش . ولم ترغب آنا سيرغييفنا في التضييق على الشابين ، لكنها لم تتركهما وحيدين

لامد طويل بسبب من اللياقة لا غير . وقد ابعدت عنهما ، بكل لطف ، الاميرة التي تلقت نبأ الخطوبة بهياج ونحيب . في يادي الامر كانت آنا سيرغييفنا تخشى ان يغدو منظر سعادتهما امرأ ثقيلاً عليها بعض الشيء ، ولكن اتضح العكس تماماً : فهذا المنظر لم ينقل عليها ، بل شغلها وجعلها ، في الاخير ، اكثر حناناً . فرحت آنا سيرغييفنا لذلك واغتمت له في الوقت ذاته . وفكرت في نفسها : « يبدو ان بازاروف على حق . فليس هناك غير حب الاستطلاع ، والفضول ، والرغبة في الاستقرار ، والانانية . . . » . ثم قالت بصوت عال :

- اطفال ! فهل الحب شعور متكلف ؟

بيد ان كاتيا واركاوي لم يفهماها . فقد غدت غريبة عليهما وظل عالقا في بالهما الحوار الذي استمعوا اليه دون قصد . وبالمناسبة فقد هداتهما آنا سيرغييفنا في القريب العاجل . ولم يكن ذلك عسيراً عليها : اذ هدات هي نفسها .

سر العجوزان بازاروف لوصول ابنتهما سروراً لا حدود له ، فلم يكونا يتوقعان وصوله . واضطربت آرينا فلاسييفنا وصارت تحوم في الدار الى درجة جعلت فاسيلي ايفانوفيتش يشبها « بالكروان » . وبالفعل كان الذيل الابتر في بلوزتها القصيرة يضفي عليها مسحة الطيور . اما هو فكان يتمتع ويغض على الطرف الكهرماني لغليونه الطويل ويدير رأسه ذات اليمين وذات الشمال مسكاً عنقه بأصابعه وكانما يجرب ما اذا كان رأسه مركباً عليه بالشكل اللازم ام لا . وكان يفتح فمه الواسع على حين غرة ويقهقه دون ضجيج .

وقال بازاروف الابن لاييه :

- جنت ، يا شيخ ، لا بقي عندك ستة اسابيع كاملة . اريد ان اعمل ، فلا تشوش علي* من فضلك .

فاجاب فاسيلي ايفانوفيتش :

- سوف لن ترى وجهي . لن اشوش عليك مطلقاً !

وقد وفي بوعده . فبعد ان اسكن ابنه في مكتبه كالمسابق ، كاد يختفي عنه وصار يمنع زوجته من التماذى في ابداء حنانها . وقال لها : «كنا ، اينها الام ، قد اضجرنا ينيوشا بعض الشيء» . في مجيئه الاول . اما الآن فينبغي ان نكون اكثر دهاء . وافقت آرينا فلاسيغنا زوجها في الرأي ، ولكنها لم تريح الكثير من ذلك . اذ لم تعد ترى ابنها الا اثناء الطعام ، وصارت تخشى نهائياً التحدث معه . فما تكاد تقول «ينيوشا !» ، وما يكاد ابنها يلتفت اليها ، حتى تنهمك في ملامسة شراريب حقيبتها وتمتم : «لا شيء» ، لا اقصد شيئاً . ثم تتوجه الى فاسيلي ايفانوفيتش وتقول له بعد ان تسند خدها الى يدها : «كيف لي ، يا عزيزي ، ان اعرف ما يشتهي ينيوشا في الغداء اليوم ، هل يريد شوربة الكرنب ام حساء البنجر مع الكرنب ؟» . - «لماذا لا تسألينه بنفسك ؟» - «اخشى ان اضجره !» . الا ان بازاروف سرعان ما كف من تلقاء نفسه عن الاعتكاف : فقد زایلته حمى العمل وحل محلها ضجر كئيب وقلق مكتوم . ولوحظ ارهاق غريب في حركاته وسكناته ، وحتى مشيته الصلبة الجسورة السريعة قد تبدلت . لم يعد يتمشى على انفراد وصار ينشد المعاشرة . اخذ يحتسي الشاي في غرفة الاستقبال ويتجول في البستان مع فاسيلي ايفانوفيتش ويدخن معه بصمت . واستفسر ذات مرة عن صحة الخوري الكسي . في بادى الامر سر فاسيلي ايفانوفيتش لهذا التحول ، ولكن فرحته لم تطل . وصار يتشكى لزوجته هامساً : «ينيوشا يعذبني . لا اعتقد بانه مستأ ، او غير قانع . فذلك شيء هين . ولكن المصيبة هي انه متالم حزين . وصامت دوماً . فياليته يلومني ويلومك على الاقل . لقد اصابه الهزال وشحب لونه» . فهمست العجوز : «يا الهي ! يا الهي ! حبذا لو البست الطلسم على عنقه . ولكنه لن يسمح لي بذلك» . وحاول فاسيلي ايفانوفيتش عدة مرات ان يسأل ابنه بكل حذر عن عمله وعن صحته وعن اركاذي . . . لكن بازاروف كان يجيبه باستهانة وعلى مضض . ذات مرة لاحظ بازاروف ان اباه يحاول ان يوجه الحديث معه بلطف الى وجهة معينة ، فقال له بكآبة : «لماذا تدور حولي وكأنك تسير على اطراف الاصابع ؟ هذه العادة اسوأ من سابقتهما» . فاجاب فاسيلي ايفانوفيتش المسكين على عجل : «كيف ؟ انا لا اقصد شيئاً !» . وظلت عقبة

ايضاً تلميحاته السياسية . فعندما تحدث ذات مرة عن قرب اعتناق الفلاحين وعن التقدم كان يأمل بانارة عطف ابنه ، ولكن هذا قال بلا اكتراث : «سمعت ابناء الفلاحين وانا اسير قرب السياج امس ينشدون بدلاً من الاغاني القديمة : **حان زمان الوداد ، والقلب ينبض بالهوى** . . . ذلك هو التقدم الذي تريده» . كان بازاروف يتوجه احياناً الى القرية فيتحدث مع فلاح ما مازحاً كعادته . وكان يقول له : «اعرض علي» ، ايها الاخ ، آراءك بشأن الحياة . ففيكم ، كما يقال ، كل قوة روسيا ومستقبلها ، وبكم سيبدأ عصر جديد في التاريخ . سوف تمنحونا اللغة الحقيقية والقوانين» . فيلزم الفلاح الصمت او يجيب بكلمات من نوع : «نحن نستطيع . . . كذلك ، لاننا ، يعنى . . . بقدر استطاعتنا» . وكان بازاروف يقاطعه : «ولكن حدثني عن عالمكم ، ما هو؟ هل هو ذلك العالم المستقر على قرن الثور ؟»

- الارض ، يا سيدي ، هي المستقرة على قرن الثور . - اوضح له الفلاح على نحو مسكن وبلهجة ترتيلية خائفة ساذجة . - ومعروف ان ارادة الاسياد تواجهنا ، اي تواجه عالمنا . ولذا فانتهم آباؤنا واسيادنا . وكلما كان السيد متشدداً ، كان الفلاح مرتاحاً . وبعد ان استمع بازاروف الى مثل هذا الحديث ذات مرة مز كتفيه احتقاراً واشاح بوجهه ، بينما عاد الفلاح ادراجه . فسأله فلاح آخر متوسط العمر متجهماً الوجه كان قد استمع من بعيد ، من عتبة كوخه ، الى الحديث مع بازاروف :

- عم تحدثنا ؟ عن الضريبة المستحقة ؟ - اية ضريبة يا اخي العزيز ؟ ! - اجابه الفلاح الاول ولم يعد في صوته اثر للهجة الترتيلية الخائفة ، بل ترامت منه لهجة مستهينة قاسية - ترثر شيئاً ما ، اراد ان يحك لسانه . امر معروف . فهو سيد ، وهل يفهم السيد شيئاً ؟

- من اين له ان يفهم ؟ ! - اجاب الفلاح الثاني . ونفض كلاهما قبعتيهما وارخيا زناريهما وراحا يتحدثان عن شؤونهما وحاجاتهما . اما بازاروف المتكابر هذا الذي مز كتفيه احتقاراً والذي يجيد الكلام مع الفلاحين (كما تفاخر في جداله مع بافل بروفيتش) فلم يكن حتى ليتصور بانه بدا في انظارهما مجرد بهلول لا اكثر . . .

بيد انه عثر في آخر المطاف على ما يشغل به نفسه . ذات مرة ضمد فاسيلي ايفانوفيتش بحضوره رجل فلاح جريح ، ولكن يدي العجوز كانتا ترتعشان فلم يفلح في شد الضماد ، لذا ساعده ابنه ، ومنذ ذلك الحين اخذ يساهم في عمل ابيه دون ان يكف في الوقت ذاته عن التهكم على الوسائل التي ينصح بها هو وعلى ابيه الذي يستخدمها في الحال . الا ان تهكم بازاروف لم يكن يربك فاسيلي ايفانوفيتش قيد شعرة ، فقد وجد فيه مسرة . كان يمسك رداءه المنزلي الملوث باصبعين على بطنه وياخذ انفاساً من غليونه وهو يستمع بمتعة الى بازاروف . وكلما كانت تهجمات اشد كان ابوه السعيد يقهقه بطيبة قلب اكبر فيكشف عن جميع اسنانه السوداء بلا استثناء . وكان يستعيد هذه التهجمات البليدة احياناً او الخالية من المعنى ، ويظل طوال عدة ايام يكرر ، مثلاً ، بمناسبة وبغير مناسبة : « تلك قضية لا جدوى فيها ! » ، وذلك لمجرد ان ابنه استخدم هذا التعبير عندما علم بان اياه كان يتوجه لاداء صلاة الصبح . وهمس فاسيلي ايفانوفيتش لزوجته : « الحمد لله ! لم يعد كتيباً ! لو تعلمين كيف لامني اليوم . انه معجزة ! » . وكانت مشاعر الافتخار والاعتزاز تستحوذ عليه عندما يتذكر ان له معاوناً كهذا . وكان يقول لفلاحة ما ترتدي قفطاناً رجالياً وقبعة ذات نتوءات ، وهو يسلمها قنينة ماء هوليارد او عبوة مروج البنج : « اجل ، اجل ، عليك يا عزيزتي ان تحمدي الله كل لحظة لان ابني قد حل ضيقاً علي » : فنحن نعالجك الآن بأحدث طريقة علمية ، هل انت فاهمة ؟ وحتى امبراطور الفرنسيين نابليون لا يملك طبيباً افضل . اما الفلاحة التي جاءت تتشكى من « مقص في البطن » (وهي نفسها لا تفهم معنى هذه الكلمات) فكانت تنحني احتراماً وتدس يدها في عبها كي تستخرج اربع بيضات ملفوفة بطرف منشفة .

ذات مرة اقتلع بازاروف سنناً لبائع متجول ، ومع ان هذه السن هي من الاسنان العادية ، فان فاسيلي ايفانوفيتش احتفظ بها كتحفة نادرة ، وعرضها على الاب الكسي وراح يكرر بلا كلل : - انظر الى جذورها ، ما اقواها ! وما اقوى يفغيني ! لقد تطاير البائع في الجو . . . ويخيل اليّ انه لو كان شجرة بلوط لتطاير ايضاً ! . . .

- شيء يستحق المديح ! - قال الاب الكسي اخيراً دون ان يعلم كيف يجيب وكيف يتخلص من العجوز وهو في اوج حساسه .

ذات مرة احضر فلاح من القرية المجاورة اخاه المصاب بالتيفوئيد الى فاسيلي ايفانوفيتش . كان المريض التعميس يحتضر وهو متبطح على حزمة قش ، وقد اغمي عليه من زمان ، وغطت بقع قاتمة جسده . اعرب فاسيلي ايفانوفيتش عن اسفه لان احداً لم يفكر بالاستفادة من الاسعاف الطبي قبل الآن واعلن عن استحالة انقاذ المريض . وبالفعل فقد قضى نحبه في عربة النقل قبل ان يصل به اخوه الى داره . وبعد ثلاثة ايام دخل بازاروف على ابيه في غرفته وسأله عما اذا كان عنده حجر جهنم .

- نعم . ما حاجتك اليه ؟

- يلزمني . . . في كي جرح .

- جرح من ؟

- جرحي .

- جرحك ؟ ! كيف ؟ اي جرح ؟ اين هو ؟

- هنا . على الاصبع . توجهت اليوم الى القرية التي احضروا منها الفلاح المصاب بالتيفوئيد . ولسبب ما قرروا هناك ان يشرحوه . اما انا فلم اتمرن على التشريح من زمان .

- ثم ماذا ؟

- لذا طلبت من طبيب القضاء ان يسمح لي بالتشريح ، فجرحت اصبعي .

شحب لون فاسيلي ايفانوفيتش على الفور ، ولم ينبس ببنت شفة . هرع الى مكتبه وعاد في الحال يحمل قطعة صغيرة من حجر جهنم . هم بازاروف بان ياخذ الحجر ويخرج ، ولكن فاسيلي ايفانوفيتش قال :

- بالله عليك ، اسمح لي ان افعل ذلك بنفسي .

ضحك بازاروف ساخراً :

- ما اشد رغبتك في الممارسة !

- لا تمزح ، رجاء . ارني اصبعك . الجرح طفيف . الا يؤلمك ؟

- اضغط بشدة ، لا تخش شيئاً .

- ارجوك ، يا يفتيني ، لا تزعل . هلا سمحت بان اجس نبضك ؟
 نهض بازاروف :
 - اقول لك ان حرارتي مرتفعة حتى بدون جس النبض .
 - وهل شعرت بقشعريرة ؟
 - اجل . انا ذاهب لارقد ، فارسلوا لي قدحا من نقيع الزيزفون . اصبت بزكام ولا بد .
 - لذا سمعتك البارحة تسعل - قالت آرينا فلاسيغنا .
 - اصبت بزكام - كرر بازاروف وانصرف .
 انشغلت آرينا فلاسيغنا باعداد نقيع زهر الزيزفون ، بينما دخل فاسيلي ايفانوفيتش الغرفة المجاورة وتشبث بشعر راسه سامتا .
 لم ينهض بازاروف في ذلك اليوم وقضى ليلته كلها في وسن ثقيل يشبه الاغماء . بعيد منتصف الليل فتح عينيه بمشقة فراى في ضوء القنديل وجه ابيه الشاحب محنيا عليه وامره بالانصراف ، فلبى هذا امره ولكنه عاد في الحال على اطراف اصابعه واطل من وراء باب الخزانة وظل يتطلع الى ابنه طوال الوقت . لم تنم آرينا فلاسيغنا هي الاخرى ، فقد فتحت باب المكتب بعض الشيء وصارت تتردد بين الفينة والاخرى لتسمع «كيف يتنفس ينيوشا» وتلقى نظرة على فاسيلي ايفانوفيتش . كانت ترى فقط ظهره المحدودب الجامد ، ولكن ذلك بعد ذاته كان يخفف عليها احزانها لدرجة ما . في الصباح حاول بازاروف ان ينهض ، لكن الدوار الم به ونزف الدم من انفه فرقد من جديد . وكان فاسيلي ايفانوفيتش يرعاه بصمت . دخلت عليه آرينا فلاسيغنا فسالت عن حاله ، فاجاب : «احسن» ، واستدار نحو الجدار . اوما فاسيلي ايفانوفيتش لزوجته ايماء غاضبة بكلتا يديه ، فعضت هي على شفتها كيلا تنتحب وانصرفت . احلوك كل ما في الدار فجاة ، وانغمست كل الوجوه وخيم سكون غريب . ونقل من الباحة الى القرية ديك مصباح لم يفهم لامت طويل لماذا تصرفوا معه على هذا النحو . ظل بازاروف راقدا ووجهه الى الجدار . حاول فاسيلي ايفانوفيتش ان يوجه اليه اسئلة مختلفة ولكنها كانت ترهقه ، فتسمر العجوز في مقعده ، واكتفى بقطعة اصابعه احيانا . كان يتوجه

توقف فاسيلي ايفانوفيتش :
 - ماذا تعتقد يا يفتيني ، اليس الافضل كيه بالحديد ؟
 - كان ينبغي القيام بذلك في حينه . اما الان فحتى حجر جهنم لا يفيد في الواقع . فاذا كنت قد اصبت بالعدوى فقد فات الاوان .
 - كيف . . . فات الاوان . . . - نطق فاسيلي ايفانوفيتش بالكاد .
 - كيف لا ؟ ! مر على ذلك اكثر من اربع ساعات .
 كوى فاسيلي ايفانوفيتش الجرح بقدر اكبر وقال :
 - الم يكن لدى طبيب القضاء حجر جهنم ؟
 - كلا .
 - كيف ، يا إلهي ؟ ! طبيب ولا يمتلك هذا الشيء الضروري .
 - يا ليتك رايت مباحثه ! - قال بازاروف وانصرف .
 ظل فاسيلي ايفانوفيتش حتى ساعة متأخرة من المساء وطوال النهار التالي يتحجج بآية وسيلة ممكنة لدخول غرفة ابنه ، ومع انه لم يكن يلجأ الى الجرح ، بل يحاول التحدث عن امور ثانوية تماما ، فانه كان يحدق في عيني ابنه باصرار ويراقبه بقلق حتى نفد صبر بازاروف وهدده بالسفر . قطع فاسيلي ايفانوفيتش عهدا بانه لن يقلق ، لاسيما وان آرينا فلاسيغنا التي اخفى عنها هو كل شيء ، طبعا ، اخذت تلاحقه متسائلة عما حدث له وعن السبب في عدم نومه . في غضون يومين كاملين كان يتشجع بالرغم من ان مظهر ابنه الذي تفحصه خلصة طوال الوقت لم يكن يرضيه تماما . . . ولكن صبره نفد في اليوم الثالث اثناء الغداء . فقد جلس بازاروف مطاطا الراس ولم يمس شيئا من طعام .
 - ليم لا تاكل يا يفتيني ؟ - سألته ابوه متظاهرا بعدم القلق - الطعام ، على ما اعتقد ، قد اعد جيدا .
 - لا اشتهي ، فلن آكل .
 - هل انعدمت شهيتك ؟ ورأسك ؟ هل يوجعك ؟ - اضاف الاب بوجل .
 - يوجعني . فما الذي يجعله لا يوجعني ؟
 عدلت آرينا فلاسيغنا قامتها وتاهبت . وواصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه :

للحظات الى البستان فيقف هناك متجمداً كما لو ان حدثاً لا مثيل له
انار دهشته (وكانت الدهشة الشديدة لا تفارق وجهه) ثم يعود
الى ابنه من جديد متحاشياً تساؤلات زوجته . واخيراً امسكت
بيده وسالته بارتعاشة وبشيء من التهديد : «ماذا به ؟» . تنبه
الاب في الحال وحمل نفسه على الابتسام رداً على سؤالها . بيد
انه ، ويا للفظاعة ، اطلق ضحكة عفوية بدلاً من الابتسامة . كان
قد بعث في طلب الطبيب منذ الصباح . وراى ان من الضروري
اخبار ابنه بذلك كيلا يزعل .

استدار بازروف على الاريكة فجأة واخذ يحدق في ابيه ببلادة
وطلب ماء .

قدم له فاسيلي ايفانوفيتش قدح الماء ولمس جبهته عرضاً .
كانت ملتفة للغاية .

فقال بازروف بصوت بطيء ابع :

- يا شيخ ، حالتي سيئة جداً . اصببت بالعدوى . وسوف
تدفنني بعد بضعة ايام .

ترنج فاسيلي ايفانوفيتش كما لو ان احداً ضربه على رجليه .
ثم تمتع :

- يغفني ! ما هذا الكلام ! . . . سامحك الله ! لقد اصببت
بالبرد لا اكثر . . .

- كفاك - قاطعه بازروف على مهل - لا يجوز للطبيب ان
يتكلم هكذا . كل اعراض العدوى موجودة ، وانت تعرف ذلك
بنفسك .

- اين هي اعراض ال . . . عدوى ؟ عفوك يا يغفني !
- فما هذا اذن ؟ - قال بازروف ورفع ردف قميصه وعرض
على ابيه البقع الحمراء الفظيعة التي ظهرت واضحة .

ارتعد فاسيلي ايفانوفيتش واقتشعر من الرعب . ثم قال في
الاخير :

- لنفرض ، لنفرض . . . حتى . . . ولو كان هناك شيء من
قبيل . . . العدوى . . .

- تقبح الدم - قال الابن مصححاً .

- نعم . . . من قبيل . . . العدوى . . .

- تقبح الدم - كرر بازروف بوضوح وصرامة - ام انك
نسيت دفاترك الطبية ؟
- اجل ، اجل ، كما تشاء . . . ومع ذلك فسوف
نعالجك !

- هيهات ! ولكن القضية ليست في ذلك . فانا لم اكن اتوقع
بأنى ساموت بهذه العجالة . تلك صدفة ، وصدفة ، اذا قلنا
الحق ، غير سارة ابداً . عليك الآن مع امي ان تستفيدا من قوة
الدين فيكما ، وهذه فرصة سانحة لكى تجرباه . - ارتشف قليلاً
من الماء وواصل كلامه : - لديّ اليك رجاء . . . ما دمت لا ازال
مسيطرأ على افكاري . فغداً او بعد غد سيحيل دماغى نفسه على
التقاعد كما تعلم . وانا الآن ايضاً لست واثقاً تماماً مما اذا كنت
اتكلم بوضوح ام لا . فطوال رقادي خيل اليّ ان كلاباً حمراء
تتراكض حولي وانك خيمت عليّ كما لو اني دجاجة برية سوداء ،
وانا الآن كالمخمور . هل تفهمني جيداً ؟

- بالطبع يا يغفني ، انك تتكلم على ما يرام تماماً .
- ذلك افضل . قلت لي انك بعثت في طلب الطبيب . . .
لقد هدأت نفسك بذلك . . . اما الآن فهدثني انا : ابعث
رسولاً . . .

- في طلب اركادي نيكولايفيتش - عاجله العجوز .
- من هو اركادي نيكولايفيتش هذا ؟ - قال بازروف كما
لو كان يتأمل - آ ، اجل ! ذلك الفرخ ! كلا ، لا تمسه ، اصبحت
زائغاً . ولا تستغرب ، فليس ما ا قوله هذياناً . ابعث رسولاً الى
اودينتسوكا ، الى آنا سيرغييفنا . . . تلك الاقطاعية ، هل
تعرفها ؟ (مز فاسيلي ايفانوفيتش راسه بالايجاب) . وليقل لها
ان يغفني بازروف يبعث اليها بالتحية وانه يحتضر . هل ستنفذ
طلبي ؟

- سأنفذه . . . ولكن هل يجوز ان تموت انت ، انت يا
يغفني . . . حكم عقلك ! فإين هي العدالة اذن ؟
- ذلك امر لا علم لي به . ولكن ابعث الرسول .
- سأبعثه في الحال ، وسأكتب لها رسالة .
- كلا . لا داعي للرسالة . فليقل بأنى ابعث اليها بالتحية
ولا شيء آخر . اما انا فسأعود من جديد الى كلابي . ما اغرب

الامر ! اريد ان اوقف التفكير بالموت ، ولكنني لا استطيع . لا ارى غير بقعة ما . . .

استدار بعسر الى الجدار من جديد ، فخرج فاسيلي ايفانوفيتش من المكتب ، وحالما وصل الى غرفة زوجته انهار على ركبتيه امام الايقونات . ودعهم بانين :

- ابتعلي ، يا آرينا ، ابتعلي ! ايننا يحتضر .

وصل الطبيب ، طبيب القضاء الذي لا يملك حجر جهنم . فحص المريض ونصح بالانتظار وقال في الحال بضع كلمات عن احتمال الشفاء . فسأل بازاروف :

- هل صادف وان رايت انساناً في مثل حالتي لم يتوجهوا الى «دار الخلود» ؟

ثم امسك فجأة بقائمة الطاولة الثقيلة الموجودة قرب الاريكة ومن الطاولة وزحزحها من مكانها . وقال :

- لا ازال قوياً ، بينما يتعين علي ان اموت ! . . . ذلك الفلاح العجوز استطاع على الاقل ان يعمل من الحياة ، اما انا . . . ولكن من يتجرا على رفض الموت ؟ ! فهو يرفضنا وكفى ! - واضاف بعد لحظة : - من ينتحب هناك ؟ امي ؟ يا للمسكينة ! فمن الذي استطاعه بعد الآن حساء الكرنب المدهش ؟ وانت ، يا فاسيلي ايفانوفيتش ، تبكي ايضاً كما يخيّل الي ؟ فما دامت المسيحية لا تعينك حاول ان تكون فيلسوفاً ، رواقياً على الاقل ! الم تكن تتباهى بانك فيلسوف ؟

- اي فيلسوف انا ؟ ! - جار فاسيلي ايفانوفيتش وانهمرت الدموع على خديه

اخذت حالة بازاروف تتدهور ساعة بعد ساعة ، واستفحل المرض على نحو سريع ، مما يجري عادة في حالات التسمم الجراحي . لم يكن قد فقد وعيه بعد . وكان يفهم ما يقال له ، ولا يزال يصارع الموت . همس شاداً على قبضته : «لا اريد ان اهني ، فما اسخف ذلك !» ، ولكنه قال في الحال : «اذا خصمنا عشرة من ثمانية فكم يبقى ؟» . كان فاسيلي ايفانوفيتش يجول كالمجنون وهو يعرض هذه الوسيلة او تلك ويغطي رجلي ابنه طوال الوقت . وكان يقول بانفعال : «ينبغي لفه بشراشف باردة . . . واستخدام المقيثات . . . واللصقات على البطن . . . وفصله

الدم» . وكان الطبيب الذي استعطفه كي يبقى يرد عليه بالاجاب ويسقي المريض شراب الليمون ، ويطلب تارة غليوناً وتارة ما «يقويه ويدفئه» هو ، اي الفودكا . وجلست آرينا فلامسيفنا على مصطبة واطلة قرب الباب ، ولم تغادر مكانها الا لتصلي بين حين وآخر . فقبل بضعة ايام انزلت من يديها مرآة الزينة وتحطمت ، بينما اعتادت هي على اعتبار ذلك فالاً سيئاً . ولم تستطع حتى انفيسوشكا ان تقول لها شيئاً . اما تيموفيتش فقد توجه الى اودينتسوف .

قضى بازاروف ليلة سيئة . . . فقد عذبتة حمى قاسية ، وعند الفجر تحسنت حاله شيئاً فطلب من آرينا فلامسيفنا ان تمشط له شعره وقبّل يدها واحتسى جرعتين من الشاي . وانتعش فاسيلي ايفانوفيتش بعض الشيء ، فقال :

- الحمد لله ؟ حل البهران . . . وانتهى .

فقال بازاروف :

- ما اشد تأثير الكلمة ! عثر عليها فقال : «البهران» وهذا باله . لا يزال الانسان يؤمن بالكلمات . شيء مدهش . فاذا نعتوه ، مثلاً ، بالاحق ولم يضربوه اكتاب ، واذا امتدحوا ذكاه ولم يعطوه مالا شعر بالارتياح .

تأثر فاسيلي ايفانوفيتش لخطبة بازاروف المقتضية هذه والتي تشبه «تهجمات» السابقة ، فهتف متظاهراً بالتصفيق :

- عظيم !

ابتسم بازاروف بحزن ، ثم قال :

- ماذا تعتقد ؟ هل انتهى البهران ام حل ؟

- حالك افضل . هذا ما اراه وهذا ما يفرحني - اجاب فاسيلي ايفانوفيتش .

- حسناً . الفرحة لا تضر مطلقاً . ولكن هل بعثت في طلب تلك ؟ اذكر ؟

- بعثت بالطبع .

لم يستمر التغير نحو الافضل امداً طويلاً . فقد تكررت نوبات المرض . وجلس فاسيلي ايفانوفيتش ازاء بازاروف . وبدا العجوز وكان ألماً شديداً ينهشه . همّ بالكلام مراراً ولكنه كان عاجزاً عن النطق . ثم قال اخيراً :

- يغفني ! يا ولدي ، يا عزيزي ، يا حبيبي !
اثر هذه المناجاة غير المعتادة على بازاروف . . . فرغ
رأسه قليلا كي يتخلص على ما يبدو من الغيوبة التي ارهقته
وقال :

- ماذا يا ابتي ؟

واصل فاسيلي ايفانوفيتش كلامه وركع امام بازاروف بالرغم
من ان هذا لم يفتح عينيه ولم يكن بوسعه ان يراه :

- يغفني ، يا يغفني ! حالك الآن افضل ، وسوف تشفى
بعون الله . ولكن انت هذه الفرصة وابعت السلوى في نفس
امك ونفسي واد واجب المسيحي ! ما اصعب علي ان اقول لك
ذلك ، انه امر فظيع . . . والافطع منه . . . انه الى الابد ، يا
يغفني . . . فكر في الامر ، ما افطعه . . .

تقطع صوت العجوز بينما انسحبت مسحة غريبة على وجه ابنه
بالرغم من ان عينيه ظللتا مغمضتين . وقال اخيراً :

- لا ارفض اذا كان ذلك يبعث السلوى فيكما . ولكن يغفل
الي انه لا داعي للاستعجال . فانت نفسك تقول ان حالتني غدت
افضل .

- افضل ، يا يغفني ، افضل ، ولكن من يدري ؟ كل شيء
بيد الله . اما الذي يؤدي واجبه . . .

- كلا . سانتظر قليلاً - قاطعه بازاروف - انا متفق معك
بان البهران قد حل . واذا كنا على خطأ ، فما العمل ؟ فالقراين
تستلم حتى ممن هم في غيبوبة .

- ماذا تقول يا يغفني ؟ . . .

- سانتظر . اما الآن فاريد ان انام . لا تزعجني .

وهبط رأسه على الوسادة .

نهض العجوز فجلس على المقعد وامسك بذقنه وراح يعض
على اصابعه . . .

طرقت سمعه فجأة طقطقة مركبة ذات نوايض ، وهي طقطقة
مسموعة خصوصاً في سكوت الارياض . كانت العجلات الخفيفة
تقترب اكثر فاكتر ، وها قد ترامى اليه نخير الخيول . نهض
فاسيلي ايفانوفيتش على عجل واندفع الى النافذة . دخلت باحة داره
مركبة ذات مقعدين تجرها اربعة خيول . فهرع الى الباحة في غمرة

فرحة خرقاء دون ان يميز من هو القادم . فتح خادم ببزة رسمية
باب المركبة فظهرت منها سيده بوشاح اسود وبدلة سوداء . . .
- انا اودينتسوف . يغفني فاسيليوفيتش على قيد الحياة ؟
انت ابوه ؟ احضرت معي طبيباً .

- سيدتي الكريمة ! - هتف فاسيلي ايفانوفيتش وتلقف
يدما وضغطها بارتعاش الى شفثيه ، في حين نزل من المركبة على
مهل طبيب قمى بملامح المانية يرتدي نظارات ، - لا يزال حياً ،
ولدي يغفني حي ، وسوف يحيا ! . . . يا زوجتي ! هبط علينا ملاك
من السماء . . .

- ماذا ؟ يا إلهي ! - تمتعت العجوز راكضة من غرفة
الاستقبال وسقطت في الحال عند قدمي آنا سيرغيفنا دون ان
تفهم شيئاً وراحت تقبل اذيال بدلتها كالمجنونة .

- لا داعي لذلك ! لا داعي ! - قالت آنا سيرغيفنا ، بيد ان
آريتنا فلاسيفنا لم تكن تسمعها ، في حين راح فاسيلي ايفانوفيتش
يكرر : «ملاك ! ملاك !» .

- (اين المريض) ؟ اين هو ؟ - سال الطبيب اخيراً بشيء
من الغضب .

فعاد فاسيلي ايفانوفيتش الى رشده وقال :

- هنا ، هنا ، تفضل واتبعني - واضاف ممسكاً يتذكره
بالالمانية : (ايها الزميل المحترم) . . .

- آ - قال الالمانى وابتسم بتكسيرة ذاوية .

اقتاده فاسيلي ايفانوفيتش الى المكتب . وانحنى على اذن ابنه
حتى لامسها وقال :

- طبيب من آنا سيرغيفنا اودينتسوف . وهي هنا ايضاً .

فتح بازاروف عينيه فوراً :

- ماذا قلت ؟

- قلت آنا سيرغيفنا اودينتسوف هنا وقد احضرت اليك هذا
السيد الطبيب .

نظر بازاروف الى ما حواليه :

* في الاسل بالالمانية Wo ist der Kranke?

* Wertester Herr Collega

- انها هنا . . . اريد ان اراها .
- ستراها ، يا يفغيني ، ولكن يتعين في البداية التكلم مع
السيد الطبيب . سأحدثه عن سير المرض لان طبيب القضاة
ارتحل ، وسوف نتشاور بعض الشيء .
- لا بأس ، تحدثنا على عجل ، ولكن ليس باللاتينية ، فانا
افهم ما تعنيه (jam moritur) .
وبدا الطبيب الجديد كلامه مخاطباً فاسيلي ايفانوفيتش :
- (يبدو انك تجيد الالمانية يا سيدي) .
- (عندي . . . لدي . . .) . . . ولكن حبذا لو تكلمت
بالروسية .

فقال الطبيب بروسية ركيكة :

- آ ! هكذا اذن . . . لعل . . .

وبدا التشاور .

بعد نصف ساعة دخلت آنا سيرغيفنا المكتب بصحبة فاسيلي
ايفانوفيتش . وتسنى للطبيب ان يخبرها همساً بانه لا امل مطلقاً
في شفاء المريض .

نظرت الى بازاروف . . . فتوقفت عند الباب لشدة ما ادهشها
وجهه الملتهب والمحتضر في الوقت ذاته بعينيه الغائمتين
المتجهتين صوبها . لقد اربعها خوف بارد مرهق . ولاحت في ذهنها
للحظة فكرة : ربما شعرت بشيء آخر لو كانت تحبه حقاً .
فقال هو بجهد :

- شكراً ، لم اكن اتوقع ذلك . فعلت خيراً . ها قد التقينا
من جديد كما وعدت انت .

فقال فاسيلي ايفانوفيتش :

- ما اطيب آنا سيرغيفنا .

- اتركنا يا ابتي . هل تسمحين يا آنا سيرغيفنا ؟ يخيل
الي الآن . . .

* يحضر .

** في الاصل بالالمانية Der Herr scheint des Deutschen mächtig
zu sein .

*** في الاصل بالالمانية . ich habe

واوما براسه الى بدنه المسجي العاجز .
انصرف فاسيلي ايفانوفيتش . فكرر بازاروف :
- شكراً . لقد فعلت كما يفعل القياصرة . يقال ان القياصرة
ايضاً يعودون المحتضرين .

- يفغيني فاسيليفيتش ، آمل . . .

- آه ، يا آنا سيرغيفنا . فلنقل الحقيقة . لقد انتهت .
وقعت تحت العجلة . ولذا ما كان هناك داع للتفكير في
المستقبل . الموت شيء قديم ، الا انه يداهم كل شخص بشكل
جديد . لم اجبن حتى الآن . . . وستحل الغيبوبة ، ثم النهاية !
(لوح بيده تلويحة يائسة واهنة) . فما الذي ينبغي ان ا قوله
لك . . . كنت احبك ! وما كان لهذا الامر اي معنى في السابق ،
وليس له اي معنى الآن بالطبع . فالحب مجرد شكل ، اما شكلي
انا فقد اخذ يتفسخ . الافضل ان اقول : ما اروعك ! انك الآن
ايضا جميلة . . . ما احلاك . . .

ارتعشت آنا سيرغيفنا عفوية .

- لا تقلقي . . . اجلسي هناك . ولا تقتربي عني ، فان
مرضني معد .

اجتازت آنا سيرغيفنا الغرفة بسرعة وجلست على المقعد
قرب الاركة التي يرقد عليها بازاروف . فهمس هو :

- ما انبلها ! آه ، ما اقرب ذلك ! وما اشد فتوتها ونضارتها
وصفاءها . . . في هذه الغرفة الكريهة ! . . . وداعاً ! عيشي
طويلاً ، فذلك افضل شيء ، وتمتعي ما دام في الوقت متسع .
انظري ما افزع هذا المشهد : دودة تكاد تكون مسحوقة ولكنها لا
تزال مغرورة . ألم اكن افكر بانني سأنجز اعمالاً كثيرة ولن
اموت ؟ فابن مني الموت ؟ لدي مهمة ، وانا جبار ! اما الآن
فان كل مهمة هذا الكائن الجبار تتلخص في ان يقضي نجه بشكل
لائق ، مع ان ذلك لا يشغل بال احد . . . غير انني ، رغم كل
شيء ، لا اخاف . . .

صمت بازاروف واخذ يتلمس قدمه بيده . فناولته آنا
سيرغيفنا اياه دون ان تخلع قفازها وهي تتنفس بخوف . وتكلم
هو من جديد :

- سوف تنسينني . فلا رفقة بين الميت والحي . وسوف

يقول لك ابي ، مثلاً ، ما اعظم خسارة روسيا بفقداني . . . ذلك هراء ، ولكن لا تشنيه عن اعتقاده . فليكن ذلك على الاقل مبعثاً للسلوى في نفسه . . . حاولي ان تداري امي ايضاً . ففى مجتمعك الراقي الكبير لن تجدي اناساً مثلهما ابداً . . . هل ان روسيا بحاجة الي ، يا ترى ؟ . . . كلا ، ليست بحاجة الي ، على ما يبدو . فمن هي بحاجة اليه ؟ انها بحاجة الى الاسكافي والخياط والقصاب . . . يبيع اللحوم . . . والقصاب . . . عفواً ، بدأت افكاري تتشوش . . . هناك غابة . . .

وضع بازاروف يده على جبينه .

وانحنت عليه آنا سيرغيفنا :

- يغفيني فاسيليفيتش ، انا هنا . . .

سحب يده فوراً ونهض قليلاً ، فقال بقوة مفاجئة ولمعت عيناه بأخر بريق :

- وداعاً ، وداعاً . . . اسمعي . . . انني لم اقبلك آنذاك . . . فانفخي على القنديل المحتضر كي ينطفئ . . .

لامست آنا سيرغيفنا جبينه بشفتيها فقال :

- كفاية !

وهبط على الوسادة :

- الآن . . . حل الظلام . . .

انصرفت آنا سيرغيفنا بهدوء . فسألها فاسيلي ايفانوفيتش همساً : - ماذا ؟

- غفا - اجابت بصوت يكاد لا يسمع .

ما كان مقدراً لبازاروف ان يستيقظ . فعند المساء غط في غيبوبة مطبقة ، وفي اليوم التالي قضى نحبه . ادى الاب الكسي الطقوس الدينية اللازمة . وعندما جرى تطهيره ولامس الزيت المقدس صدره تفتحت احدى عينيه وخيل للحاضرين ان شيئاً ما يشبه ارتعاشة الرعب انعكس ، للحظة ، على وجهه الجامد ، من رؤية القس بغفارته الكهنوتية والمبصرة المدخنة والشموع امام الايقونة . وعندما لفظ النفس الاخير وعم الدار العويل استولى على فاسيلي ايفانوفيتش هياج مباغت فراح يصرخ بصوت مبحوح وبوجه ملتهب معوج ، ويهز قبضته في الهواء كأنه يهدد احداً : «قلت بأنني سأثور ، وسأثور ، سأثور !» . الا ان آرينا فلاسيفنا

تعلقت بعنقه والدموع تنهمر من عينيه ، وانكب كلاهما على وجهه . وفيما بعد تحدثت انفيسوشكا في غرفة الخدم فقالت : «نكسا راسيهما جنباً الى جنب كنعتين في الظهيرة . . .» . غير ان قيظ الظهيرة يتبدد ويحل المساء ثم الليل ، وعندها تحين العودة الى المأوى الهادي حيث يحلو المنام للمتعبين والمرهقين . . .

مضت ستة شهور . خيم الشتاء بصقيعه الصامت القارس الصافي وتلجج الصرار ونداء الوردي المتجمد على الاشجار وسمانه الزمردية الشاحبة ، واكاليل الدخان فوق المداخن واعمدة البخار المتصاعدة من الابواب التي لا تفتتح الا لماماً ، ووجوه الناس الغضة وعناء الجياد المقشعرة من البرد . اشرف ذلك اليوم من شهر يناير على الافول ، وعصر برد المساء الهواء الساكن وضغطه يعزى من الشدة . وانطلق الغسق الدامي بلمح البصر . واشتعلت الانوار في نوافذ الدار في مارينو . انشغل بروكوفيتش ، ببدلته الرسمية السوداء وقفازيه الابيضين ومسحته المهيبة اكثر من المعتاد ، في اعداد المائدة لسبعة اشخاص . قبل اسبوع جرت في كنيسة الابرشية الصغيرة ، بهدوء وبدون شهود تقريباً ، مراسيم زفاف اركادي وكاتيا وزفاف نيكولاي بتروفيتش وفينيتشكا . وفي ذلك اليوم اقام نيكولاي بتروفيتش مأدبة توديعية لاخته الذي ينوى السفر الى موسكو لتصرف بعض الشؤون . اما آنا سيرغيفنا فقد سافرت الى موسكو ايضاً على اثر الزفاف بعد ان اتعمت على الزوجين الشابين بسخاء .

في تمام الساعة الثالثة التأم الجمع حول المائدة . اجلسوا ميتيا الى المائدة ايضاً . وقد ظهرت لديه مربية ترتدي قبة من الديباج المخرم . جلس بافل بتروفيتش بين كاتيا وفينيتشكا واستقر «الزوجان» قرب عروسيهما . لقد تغير اصحابنا هؤلاء في الآونة الاخيرة : فقد بدوا وكأنما اصبحوا اكثر رواء ونضجاً . اما بافل بتروفيتش فهو الوحيد الذي اصيب بهزال ، مما اضفى ،

بالمناسبة ، المزيد من الرشاقة والرصانة على ملامحه المعبرة . . .
ثم ان فينيتشكا لم تعد على ما كانت عليه . ارتدت بدلة حريرية
جديدة وشدت شريطاً مخملياً عريضاً على شعرها مع سلسلة
ذهبية تطوق جيدها . جلست بسكون ووقار ورزاة . فهي رزينة
ازاء نفسها وازاء كل ما يحيط بها . كانت تبتسم وكأنها تريد ان
تقول : «اعذروني ، فليس الذنب ذنب» . ولم تكن تبتسم وحدها
على هذه الشاكلة . فالآخرون ايضاً كانوا يبتسمون وكأنهم
يعتذرون . لقد كانوا جميعاً يشعرون بشيء من الحرج وبشيء
من الحزن ، ولكنهم في الواقع كانوا على احسن حال . كان كل
منهم يداري الآخر بعذر مدهش وكانوا اتفقوا جميعاً على تمثيل
ملهاة ساذجة . بينما كانت كاتيا اهدأ الجميع : فهي تتطلع الى
ما حواليتها وادعة اليفة . وكان بإمكان المرأة ان يلاحظ ان نيكولاي
بتروفيتش قد احبها بجنون . وقبل انتهاء الغداء نهض يحمل قدحاً
وتوجه الى بافل بتروفيتش قائلاً :

— انك تتركنا . . . تتركنا ، يا اخي العزيز ، لأمد غير
طويل طبعاً . ومع ذلك لا يسعني الا ان اقول لك بأنني . . .
بأننا . . . واثني بقدر ما اننا . . . الطامة الكبرى في اننا لا
نجيد لقاء الخطب ! يا اركادي ، هلا تكلمت انت !

— كلا ، يا ابتي ، فانا لم استعد لذلك .

— وهل تعتقد بأنني قد نهيت جيداً ؟ اسمح لي ، يا اخي ،
ان اعانقك واتمنى لك التوفيق ، وعد الينا بأسرع ما يمكن !
تبادل بافل بتروفيتش القبلات مع الجميع دون ان يستثنى
ميتيا بالطبع . وبالإضافة الى ذلك قبل يد فينيتشكا التي لم
تعود بعد على مد يدها بالشكل اللازم . وارتشف القدح الذي
ملاؤه له من جديد وقال بتنهدة عميقة : «فلتكونوا سعداء يا
اصدقائي !» واضاف بالانجليزية Farewell . * لم ينتبه احد
الى هذه الكلمة ولكن الجميع تأثروا تأثراً شديداً .

— تكريماً لذكرى بازاروف — همست كاتيا في اذن زوجها
وقرعت كاسها بكاسه . ورد عليها اركادي بأن شد على يدها
بقوة ، ولكنه لم يتجرا على رفع هذا النخب بصوت عال .

* وداعاً .

تلك هي الخاتمة ، اليس كذلك ؟ ولكن ربما يرغب احد من
القراء في معرفة ما يفعله الآن ، الآن بالذات ، كل من شخص
روايتنا . فنحن على استعداد لتلبية رغبته .

تزوجت أنا سيرغيفنا مؤخراً ليس بدافع من الحب ، بل
بدافع من المعتقد . وزوجها انسان لبيب للغاية ، قانوني شديد
البأس في بلوغ مقاصده العملية ، وهو يتحلى بارادة صلبة
وموهبة كلامية رائعة ، وهو انسان طيب وبارد كالثلج ، لا يزال
في مقتبل العمر ولكنه سيغدو فيما بعد من الشخصيات الروسية
المرموقة . وهما يعيشان في ونام تام ، ومن المحتمل انهما
سيتمتعان بالسعادة . . . بل ومن المحتمل انهما سيبلغان الحب .
اما الاميرة خ . . . فقد توفيت وطواها النسيان منذ يوم وفاتها .
وسكن الاب كيرسانوف مع ابنه في مارينو واخذت احوالهما
تتحسن . فصار اركادي اقتصادياً غيوراً وغدت «المزرعة» تعود
يدخل غير ضئيل واصبح نيكولاي بتروفيتش وسيطاً عقاريّاً
(١٠٦) ، وهو يعمل بكل ما اوتى من قوة ، فيتجول بلا كلل في
منطقة عمله ويلقي الخطب المسهبه (كان متمسكاً بالرأي القائل
بضرورة «افهام» الفلاحين ، اي تكرار كلمات بعينها طوال الوقت
حتى يستولى عليهم الارهاق) ، ومع ذلك ، اذا قلنا الحق ، فهو
لم يكن يرضى تماماً لا النبلاء المثقفين الذين يتكلمون عن
«الانعتاق» قارة بلهجة حماسية وتارة بلهجة سوداوية ولا النبلاء
غير المتعلمين الذين يتهمون بوقاحة على «هَذَا الانعتاق» . فان
نيكولاي بتروفيتش بالنسبة لأولئك وهؤلاء متساهل اكثر من
اللازم . اما كاتيا فقد رزقت ولداً اسمه نيكولاي . وصار ميتيا
يمشي على نحو ممتاز ويتكلم بطلاقة . ولا تعجب فينيتشكا بأحد ،
بعد زوجها وميتيا ، اعجابها بكننتها . وعندما تجلس هذه الى
البيانو تستطيع فينيتشكا ان تظل قربها مسرورة طوال النهار .
ونذكر بالمناسبة شيئاً عن بيوتر . فقد تحجر نهائياً بسبب الغباوة
والغطرسة وصار يتلفظ الكلمات بغير الصيغة المعتادة . ولكنه
تزوج هو الآخر وتسلم صداقاً كبيراً من اهل العروس . وهي ابنة
بستاني من سكان المدينة رفضت خطيبين صالحين لمجرد انهما لا
يمتلكان ساعة يد . اما بيوتر فكانت لديه جزمة قصيرة لماعة
فضلاً عن الساعة .

على مدرج برول (١٠٧) في درزدن بوسعكم ان تروا ، في افضل اوقات النزهة ما بين الثانية والرابعة ، رجلاً في حوالى الخمسين اشيب الشعر كلياً وكانما يعاني من النقرس ولكنه لا يزال وسيماً انيق الملبس ، يتحلى بتلك السمة الخاصة التي لا تتهاى الا لشخص يتواجد اهداً طويلاً في ارقى فئات المجتمع . انه بافل بتروفيتش . غادر موسكو الى الخارج من اجل استعادة صحته وصمم على الإقامة في درزدن حيث يتلاقى اكثر ما يتلاقى مع الانجليز والسياح الروس . كان يسلك مع الانجليز سلوكاً بسيطاً اقرب الى التواضع ، ولكنه يحافظ على كرامته . وكانوا هم يعتبرونه شخصاً مملأً بعض الشيء . الا انهم يحترمونه فيه رجلاً نبيلاً حقاً « a perfect gentleman » . وكان هو اقل تكلفاً مع الروس ، حيث يطلق العنان لحدة طباعه ويسخر مازحاً من نفسه ومنهم ، الا ان ذلك كله يصدر عنه بشكل مقبول تماماً لا يتعارض واصول اللياقة . وهو يتمسك بالنزعة السلافية ، الامر الذي يحظى ، كما هو معروف (بالاحترام والتقدير) * في المجتمع الراقي . انه لا يقرأ شيئاً بالروسية ، ولكن لديه على مكتبه منفضة فضية بشكل خف فلاحى روسي . ثم ان سياحنا يتقاطرون عليه بكل رغبة . وقد تفضل ماتفي ايليتش كوليازين ، الذي اصبح في المعارضة المؤقتة ، بزيارته وهو في طريقه الى مياه بوهيميا المعدنية . اما السكان المحليون الذين نادراً ما يتقابل معهم ، والحق يقال ، فيكادون يبجلونه تبجيلاً . وما كان يوسع احد ان يحصل على تذكرة الى جوقه البلاط او المسرح والخ . بنفس السهولة والسرعة اللتين يحصل بهما عليها (البارون كيرسانوف) * . ولا يزال يعمل المعروف على قدر المستطاع ، ولا يزال يخلق ضجة بعض الشيء : فليس عبثاً ان كان في وقت ما كالليث . ولكن حياته غدت عسيرة . . . اكثر عسراً مما يتوقع هو . . . فيكفي لمعرفة ذلك القاء نظرة عليه في الكنيسة الروسية ، حيث يفرق في تأملاته مائلاً الى الجدار في ركن ما دون حراك ، ويعرض على شفثيه بمرارة ، ثم يعود الى رشده فجأة ويرسم إشارة الصليب على نحو لا يكاد يلحظ . . .

* في الاصل بالفرنسية très distingué .

** في الاصل بالالمانية der Herr Baron von Kirsanoff .

ولقد سافرت كوكشينا هي الاخرى الى الخارج . فهي حالياً في هيدلبرغ تدرس المعمار الذي اكتشفت فيه ، على حد تعبيرها ، قوانين جديدة ، ولم تعد تدرس العلوم الطبيعية . ولا تزال كالسابق تعاشر الطلبة وخصوصاً طلبة الفيزياء والكيمياء الروس الذين تعج بهم هيدلبرغ والذين يدهشون للوهلة الاولى الاساتذة الالمان السذج بنظرتهم الواقعية الى الامور ، كما يدهشون نفس اولئك الاساتذة فيما بعد بتبطرهم التام وكسلهم المطبق . ومع اثنين او ثلاثة من امثال هؤلاء الكيمياء الذين لا يميزون بين الاوكسجين والازوت ، ولكنهم مفعمون بالرفض والاعتزاز بالنفس ، ومع يليسيفيتش العظيم في بطرسبورغ ، يتسكع سيتنيكوف الذي يستعد هو الآخر لكي يكون عظيماً ، ويواصل ، على حد قوله ، « قضية » بازاروف . ويقال ان شخصاً ما ضربه مؤخراً ، ولكنه ثار منه ، حيث لمح في مقالة تافهة مشبوهة دست في مجلة تافهة مشبوهة الى ان ذاك الذي ضربه جبان . وهو يسمى ذلك تهكماً . ولا يزال ابوه متعسفاً ازاءه ، اما زوجته فتعتبره مغفلاً و . . . ادبياً .

هناك مقبرة ريفية صغيرة في احد ارجاء روسيا النائية . وهي ، شأنها شأن جميع مقابرنا تقريباً ، ذات منظر كئيبي : فقد اعشوشبت من زمان الخنادق المحيطة بها ، وتدلّت الصليبان الخشبية الرمادية اللون وصارت تتعفن تحت سقفها التي كانت مطلية بالاصباغ في غابر الزمان ، وازيحت الالواح الحجرية عن اماكنها جميعاً كما لو ان احداً قد دفعها من الاسفل ، وبالكاد تعطي شجرتان منتوفتان او ثلاث ظلالاً شحيحة ، وتجول الاغنام بين القبور دون عائق . . . ولكن بين تلك القبور قبراً لا يمسه انسان ولا يدوسه حيوان . الطيور فقط تحط عليه وتصدح عند الفجر . يحيط به سياج من حديد وقد غرست شوحتان فتيتان عند جانبيه . في هذا القبر يرقد يفغيني بازاروف . ومن قرية غير بعيدة غالباً ما يتردد عليه عجوزان بلغا من العمر عتياً . يسيران بعشيتهما المتناقلة وهما يسندان بعضهما البعض ، وعندما يقربان من السياج يهبطان فيركعان على ركبهما ويبكيان بمرارة لامد طويل ، ولآمد طويل ايضاً يتطلعان بانتباه الى الحجر الصامت

الذي يرقد ابنهما تحته . ويتبادلان بضغ كلمات ، وينفضان الغبار عن الحجر ويعدّان وضعية بعض اغصان الشوحتين ، ويصليان من جديد ولا يقويان على مغادرة هذا المكان الذي يبدو وكأنه اقرب الاماكن الموصلة الى ابنهما ، والى الذكريات المرتبطة به . . . فهل يُعقل ان صلواتهما ودموعهما عقيمة يا ترى؟ وهل يُعقل ان الحب المقدس ، الحب المخلص ، عاجز يا ترى؟ كلا ! فهما كان القلب الذي اطبقت عليه ظلمة القبر متحمساً متمرداً خاطئاً ، فان الزهور التي تنمو على ترابه تتطلع الينا مطمئنة بعيونها البريئة : فهي لا تحدثنا فقط عن السكون الابدي ، عن لجة سكون الطبيعة «اللابالية» ، بل تحدثنا ايضاً عن الرضوان الابدي وعن الحياة اللانهائية . . .

١٨٦٢

بصدد «الآباء والبنون»

كنت استحم على ساحل البحر في مدينة فينتنور الصغيرة بجزيرة وايت في أغسطس ١٨٦٠ ، وعندها تبادرت ال ذهني لأول مرة فكرة «الآباء والبنون» ، هذه القصة التي انتهى بسببها - والى الابد كما يبدو - ميل جيل الشباب الروسي الى وحسن موقفهم مني . وقد سمعت وقرأت مراراً في المقالات النقدية بانتي ، في مؤلفاتي ، وانطلق من الافكار او وامرر الافكار . امتدحني البعض على ذلك ، ولامني البعض الآخر . اما انا فاريد ، يدوري ، ان اؤكد بانتي لم احاول مطلقاً ان ارمس اية شخصية الا اذا توفر لدي منطلق استند اليه ، ومنطلق هذا ليس فكرة بل هو شخص حي تضاف اليه العناصر المناسبة وتختلط به تدريجياً . وبما انني لا امتلك قدراً كبيراً من حرية الابتكار ، فانا اشعر دوماً بحاجة الى هذه التربة التي امكن من السير عليها بثبات . وهذا بالذات ما حدث لقصة «الآباء والبنون» ، فقد استندت في تصوير بطلها الرئيسي بازاروف الى شخصية فعلية لطبيب من الاقاليم اثار دهشتي واعجابي (توفي قبيل عام ١٨٦٠ بقليل) . وقد تجسدت في هذا الانسان الرائع ، في رأيي ، تلك البداية التي ولدت للتو وكانت في دور الاختمار والتي سميت فيما بعد بالتهلستية او الرفض . كان تأثير هذه الشخصية عليّ شديداً للغاية ، ولكنه غير واضح تماماً في الوقت ذاته . فانا نفسي ، في بادئ الامر ، لم اتمكن من فهمه بشكل عميق . فصرت انصت واتطلع باهتمام كبير الى كل ما يحيط بي وكانني اريد التثبت من صحة احاسيسي . ومما كان يحيرني انني لم اجد في اي نتاج من نتاجاتنا الادبية ولا تلميحا لما كان يلوح امام انظاري وبخيل اليّ في كل مكان ، فاخذ الشك يدب في ذهني : الست اركض وراء شبح لا نير ؟ وانذكر ان روسياً كان يعيش معي في جزيرة وايت ، وهو يتحل بلوق رهيف جداً وتقبل رائع لما نعتة المرحوم ابولون غريغوريف * وبنفحات المصير . اطلعت على الافكار التي تشغل بالي ، فعقدت الدهشة لساني عندما سمعته يقول : «اعتقد انك سبق وقدمت نموذجاً من هذا

* شاعر وناقد ادبي روسي (١٨٢٢-١٨٦٤) .

النوع . . . في شخصية رودين ، ليس كذلك ؟ . لم أحر جواباً ، فيماذا أجيب ؟ رودين وبازاروف نموذج بشري واحد !

تأثرت بهذه الكلمات لدرجة كبيرة حتى بقيت عدة أسابيع العاشي التفكير بما عزمت عليه . ولكنني عندما عدت الى باريس شرعت بالعمل من جديد : فالحبكة قد اختمرت في ذهني شيئاً فشيئاً . وفي الشتاء كتبت الفصول الأولى ، إلا أنني اكملت القصة في روسيا ، في الريف ، خلال تموز . وفي الخريف قرأتها على بعض معارفي وأجريت بعض التنقيحات والاضافات عليها . وفي آذار ١٨٦٢ نشرت « الآباء والبنون » في مجلة « روسكي فيستنيك » (« البشير الروسي ») .

واقول هنا ، دون الدخول في تفاصيل الأثار التي تركتها هذه القصة ، أنني عندما عدت الى بطرسبورغ . . . سمعت آلاف الأصوات تكرر كلمة « نهلستي » . . . وشعرت آنذاك بأحاسيس متنوعة ولكنها مرهقة ممضة بقدر واحد . شعرت بالبرود الذي بلغ حد الغضب عند الكثيرين من الذين أعزهم واتعاطف معهم ، وتلقيت التهاني التي تقرب من التقبيل من الناس أكرهم ، من معسكر الأعداء . أريكني ذلك وحيرني . . . وآلمني . لكن شميري لم يؤنبني : فكنت أعرف جيداً أن موقفني من النموذج الذي ابتدئته موقف نزيه خال من التحيز ضده ، بل هو موقف متعاطف معه * ، فانا احتوم رسالة الفنان والأديب لدرجة لا تسمح لي بالافتراء في هذا المجال . ولعل كلمة « احترام » في غير محلها تماماً هنا . فانا ، ببساطة ، لا أستطيع ، ولا أجيد العمل على نحو آخر . كما لم يكن هناك ما يدفعني الى ذلك . . .

إن السادة النقاد لا يتصورون بشكل صائب تماماً ما يعتمل في نفس الكاتب ولا يعرفون مم تتكون على وجه التحديد أفراحه وأراحه ، آمانيه وطموحاته ، نجاحاته وإخفاقاته . فلا علم لهم ، مثلاً ، بتلك المتعة التي يشير إليها غوغول وتتلخص في تعذيب النفس وسوط عيوبها من خلال الشخصوس الوهميين الذين يصورهم الكاتب . والنقاد والقون تماماً من أن الكاتب لا يفعل شيئاً غير « تمرير أفكاره » من كل بد ، ولا يريدون أن يصدقوا بأن تجسيد الحقيقة ، وتصوير واقع الحياة بقوة ودقة ، أعظم

* أسمح لنفسي هنا بإيراد المقطع التالي من يومياتي : « الأحد ، ٣٠ يوليو . قبل ساعة ونصف تقريباً فرغت ، أخيراً ، من كتابتي روايتي . . . ولا أدري هل ستلقى نجاحاً . ربما ستنهال عليّ « سوفريمنك » (« المعاصر ») بسيل من الأهانات بسبب بازاروف ، ولن تصدق بالنسبة كنت ، طوال كتابتي للرواية ، أشعر بميل عفوي نحوه . . . » (ملاحظة تورغينيف) .

معادة للأديب حتى إذا كانت هذه الحقيقة تتعارض مع ميوله . . . عندما سورت شخصية بازاروف استبعدت من مجال اهتماماته كل ما له علاقة بالفن واشفيت عليه حدة وخشونة في أسلوب الكلام ، ولم يكن ذلك بسبب رغبة هوجاء في اهانة جيل الشباب (! ! !) ، بل بفعل مراقبتي لصاحب الدكتور د . وامثاله . « تلك هي الصورة التي نشأت عليها الحياة » ، وهذا ما أوحته لي التجربة التي ربما كانت خاطئة ، ولكنها ، وأنا ، أكرر ذلك ، تجربة نزيهة . ما كان يلزمني أن افتعل والتحل ، ولذا توجب علي أن أصور شخصية بازاروف على هذا النحو بالذات . ولم تلعب ميولي الشخصية أي دور بهذا الخصوص . وربما سيدهش الكثيرون من قرائي إذا قلت لهم باني أؤيد بازاروف في كل معتقداته تقريباً ، أما عدا آراءه في الفن . كل ذلك والبعض يقول باني التزم جانب « الآباء » . . . مع أنني جابيت الحقيقة في تصوير شخصية بافل كيرسانوف وبالغت في عرض لواقعه بصورة تاريكاتورية تقريباً وجعلت منه أضحوكة !

ويمكن سبب سوء الفهم كله ، و« الطامة الكبرى » ، كما يقال ، في أن النموذج الذي عرضته بشخصية بازاروف لم يمر بعد بالاطوار التدريجية التي تمر بها النماذج الأدبية عادة . ولم يكن من نصيبه - كما كان من نصيب أوليغين * وبيتشورين * - عصر كامل من التمجيد والمدح والرضا . فمئذ لحظة ظهور هذا الإنسان الجديد - بازاروف - كان موقف المؤلف منه انتقادياً . . . موضوعياً . وهذا ما شوش على الكثيرين . من يدري ؟ ربما كان في ذلك ظلم أن لم نقل خطأ . فان لنموذج بازاروف ، على الأقل ، حقوقاً في المدح والرضا بقدر حقوق النماذج التي سبقتة . وقد ذكرت توا أن موقف المؤلف من بطل الرواية قد شوش على القارئ . فالقارئ يشعر بالحرج دوماً وسرعان ما تستولى عليه الحيرة ، وحتى الكتابة ، عندما يرى المؤلف يعامل الشخصية التي يصورها معاملته لكان حي ، فيلاحظ ويعرض على الملأ جوانبها الرديئة والجيدة ، والأهم إذا كان المؤلف لا يبدي تعاطفاً جلياً أو نفوراً واضحاً إزاء بطله . والقارئ - على استعداد للنسيان وراء الغضب ، إذ يجد نفسه مضطراً الى أن يشق الطريق بنفسه بعد أن اعتاد السير على درب مطروق . وتتبادر الى ذهنه أفكار من قبيل : « هذه قضية شاقة ! الكتب موجودة لأجل التسلية وليس لأجلها التفكير . ثم هل كان من الصعب على المؤلف أن يخبرني كيف افكر بهذه الشخصية كما يفكر فيها هو ؟ ! » أما إذا كان موقف المؤلف من تلك الشخصية أقل تحديداً ووضوحاً ، وإذا كان المؤلف نفسه لا يدري هل يحب بطله أم لا (كما حدث لي بخصوص بازاروف ، « فالميل العفوي » الذي اشرت اليه في يومياتي لا يعني الحب) فالحال تغدو على أسوأ مما

* بطل ملحمة بوشكين « يفغيني أوليغين » .
** الشخصية الرئيسية في رواية ليرمونتوف « بطل زماننا » .

يكون ! والقارى مستعد ، عندئذ ، ان ينسب الى مؤلف او يفرض عليه تعاطفا لا وجود له او نفورا لا اساس له ، وذلك لمجرد ان يخرج من حالة والاتحاديد المزعجة .

قالت لي سيدة طريفة بعد ان فرغت من مطالعة كتابي : «المنوان الحقيقي لقصتك هو «لا الآباء ولا البنون» . وانت نفسك نهلستي» . واغرب البعض عن مثل هذا الرأي بشدة اكبر عندما صدرت «الدخان» * . وانا هنا لا اجزؤ على الاعتراض . فلربما كانت هذه السيدة على حق . في مجال التأليف (وانا احكم على ذلك من تجربتي) يفعل المرء ليس ما يريد بل ما يستطيع فعله وبالقدر الذي يوفق فيه . اتصور ان الحكم على النتاجات الادبية ينبغي ان يصدر en gros * * * ، وعندما نطالب المؤلف بالنزاهة الكاملة ينبغي ان ننظر الى سائر جوانب نشاطه بهدوء ، ان لم اقل بلابالية . ورغم رغبتى الشديدة في ارضاء نقادي فائى لا استطيع القول بانى مذهب في تجنب النزاهة .

تجمعت لى بخصوس «الآباء والبنون» طائفة من الرسائل والوائى الاخرى التى تستحق الاهتمام . وقد لا تخلو المقارنة بينها من فائدة . ففي الوقت الذى يهتمنى فيه البعض باهانة جيل الشباب وبالتخلف والظلامية ويقولون لى انهم ويحرقون صوري الفوتوغرافية وسط قهقهة الاحتقار ، يلومنى البعض الآخر غاشبين ، على العكس ، بالتزلف الى نفس جيل الشباب هذا . وكتب لى احدهم قائلا : «انك تزحف عند قدمي بازاروف ! فانت تتظاهر فقط بانك تشجبه ، ولكنك في الواقع تتزلف اليه وتنتظر منه ، كالصدقة ، ابتسامة نافهة !»

وهكذا يا اخواني الشباب ، اوجه كلامي اليكم . اريد ان اقول لكم على لسان غوته معلمنا جميعا :

Greift nur hinein ins volle Menschenleben !
Ein jeder lebt's — nicht vielen ist's bekannt,
Und wo ihr's packt — da ist's interessant !***

* صدرت رواية ايغان تورغيثيف «الدخان» عام ١٨٦٧ .

** عموما (بالفرنسية) .

*** اعز يدك (لا استطيع ان اترجم هذا التعبير بشكل افضل) في الداخل ، في اعماق الحياة البشرية ! الجميع يعيشون تلك الحياة ، ولكن ما اقل الذين يعرفونها . وعندما تتشبث بركن منها مستجد المتعة هناك ! (ملاحظة تورغيثيف) .

ان قوة هذا «التشبث» ، قوة «تصيد» الحياة هذا ، لا تمنحها الا الموهبة ، ولكن الموهبة لا تكتسب ، ثم ان الموهبة وحدها غير كافية . فلا بد من التفاعل المتواصل مع البيئة التي ينوي الكاتب تجسيدها : لا بد من الصدق ، الصدق الذي لا يرحم ، فيما يخص احساس الكاتب الشخصية ، ولا بد من الحرية ، الحرية الكاملة في الآراء والمعتقدات ، ولا بد ، اخيرا ، من التعلم والمعرفة ! . . . فاعلم نور ، كما يقول المثل الشعبي ، ولكنه ليس نورا فقط ، انه الحرية ايضا . ليس هناك ما يحرق الانسان اكثر من المعرفة ، وليس هناك ميدان يحتاج الى الحرية اكثر من ميدان الفن والشعر ، وليس من قبيل الصدفة ان يقال عن الفن حتى في اللغة الرسمية بانه حر «طليق» . فهل يستطيع الانسان ان «يتشبث» بما يحيطه و«يتصيد» اذا كان مقيدا من الداخل ؟ كان بوشكين قد تحسس هذه الحقيقة بعمق . فليس عبثا ان قال في السوناتا الخالدة التي يتعين على كل كاتب مبتدى ان يحفظها عن ظهر قلب ويتذكرها كالوصية :

مر على طريق الحرية
بهدي العقل الحر . . . *

. . . كلا ، لا يمكن للفنان الحقيقي ان يعيش بدون الصدق ، بدون المعرفة باوسع معاني الكلمة ، في الموقف من نفسه ومن الافكار والانظمة التي يتبناها ، بل وحتى في الموقف من شعبه ومن تاريخ بلاده . لا يمكن العيش بدون هذا الهواء

ايغان تورغيثيف

١٨٦٨-١٨٦٩

بادن-بادن

* من قصيدة الكسندر بوشكين «ايها الشاعر» ، ١٨٣٠ .

ومعنى تلك الاخلاقية والفلسفة اللتين كانتا سائدتين ، في مجتمعنا المتنور ، في الاعوام العشرين الاخيرة . لقد كان يلتقط ، بسرعة ، الاحتياجات الجديدة ، والافكار الجديدة ، المتبلورة في الوعي الاجتماعي ، وكان في اعماله يلفت الانظار على الدوام (بقدر ما كانت الظروف تسمح له) الى المسألة الآتي دورها ، والتي اخذت ، بالفعل ، تشغل بال المجتمع على نحو مبهم .

وهكذا نستطيع ان نقول بجرأة ان السيد تورغينيف اذا كان قد مس "مسألة في رواية له ، واذا كان قد صور ناحية جديدة من العلاقات الاجتماعية ، فان ذلك بمثابة ضمان على ان هذه المسألة ، بالفعل ، تبرز او على وشك ان تبرز في وعي المجتمع المتنور ، وعلى ان تلك الناحية الجديدة من الحياة تبدأ بالظهور او ستبرز عن قريب امام انظار الجميع بحدة وسطوع . ولهذا فكلما ظهرت رواية جديدة للسيد تورغينيف يطرح سؤال ملفت للنظر : ترى أية جوانب من الحياة صوّرت فيها ، وأية مسائل عالجتها ؟ وهذا السؤال مطروح الآن ايضا ، وهو لعلاقته في رواية السيد تورغينيف الجديدة اكثر ائارة للاهتمام من أي وقت مضى .

لقد كان طريق السيد تورغينيف ، لحد الآن ، مع طريق تطور مجتمعنا ، سائرا بدرجة كافية من الوضوح ، في اتجاه واحد . كان ينطلق من دائرة الافكار السامية والمطامح النظرية ، ويتجه نحو ادخال هذه الافكار والمطامح في الواقع اللفظي المتبدل الذي انحرف عنها بعيداً . وكانت قصص السيد تورغينيف تهتم ، في العادة ، بالتهينات لنضال وعذاب البطل المثابر على انتصار افكاره ، ثم سقوطه امام القوة الساحقة لوضاعة الناس . لقد كان ابطال السيد تورغينيف حَمَلَة الافكار الجديدة في وسط معلوم ، ومنورين ودعائيين ، ولو بين النساء فقط ، ولكنهم دعائيون ، على أية حال . وكانوا يجدون الثناء الجميل على ذلك ، وبالفعل ، فقد كانوا ، في زمانهم ، ضروريين جداً ، على ما يبدو ، وعملهم كان صعباً جداً ومحترماً ومشعراً . ولهذا السبب كان الجميع يستقبلونهم بحب شديد ، ويتعاطفون كثيراً مع عذاباتهم الروحية ، ويشفقون على مساعيهم غير المجدية . والسيد تورغينيف نفسه في وصفه لشخصياتهم في اوضاع ومصادمات مختلفة كان ينظر اليهم ، في العادة ، بتعاطف مؤثر ، وألم قلبي على عذاباتهم ، ومثل هذا الشعور كان يشيره في جمهور القراء دائماً .

في رواية السيد تورغينيف الجديدة نواجه اوضاعاً جديدة ، ونماذج جديدة بالمقارنة مع ما تعودناه في اعماله في الفترة السابقة . فقد انعكس في كامل تركيب قصته الجديدة المطلب الاجتماعي لنشاط حي ، وبداية ازدياد المبادئ الميتة التجريدية ، والفضائل الخاملة .

تعليقات

١ - في العشية . ص ٥

ظهرت الفكرة الاولى لرواية «في العشية» في عام ١٨٥٣ او ١٨٥٤ ، على ما يبدو . وفي نحو نيسان ١٨٥٩ اكمل تورغينيف وضع خطة الرواية ، وفي الخريف كانت مسودة المخطوطة جاهزة تماماً . وفي صفحة العنوان لهذه المخطوطة المحفوظة في المكتبة العامة المسماة باسم سالتيكوف-شيدرين (لينينغراد) توجد هذه الملاحظة للمؤلف :

«بُدِرت في فيشي ، يوم الثلاثاء ٢٨ (١٦) حزيران ١٨٥٩ ، وانهيت في سباكوييه يوم الأحد ٢٥ تشرين الاول (٦) تشرين الثاني) من عام ١٨٥٩ . نشرت الرواية لأول مرة في العدد الاول من مجلة «روسكي فيستنيك» ، عام ١٨٦٠ . وذكر تورغينيف في احدى رسائله في ١٨٥٩ : «اقيمت هذه الرواية على فكرة تقول بضرورة الشخصيات البطولية الواعية لتتقدم القضية الى الامام» . وفي رسالة أخرى ، بعد ذلك ، في عام ١٨٧١ اوضح تورغينيف ان «رواية «في العشية» سُميت بهذا الاسم في الاكثر إشارة لوقت ظهورها (١٨٦٠) ، أي قبيل عام واحد من تحرير الاقنان) . . . بدأت في روسيا حقبة جديدة ، والشخصيات من مثل يلينا ، واينساروف ، ما هي الا تباعير لما حدث فيما بعد» .

كان الجمهور ، حسب ذكريات المعاصرين عن تقييم «في العشية» بدا وكأنه منقسم الى معسكرين : في الاول استقبلت الرواية بتجاوب حار ، وفي الثاني بفزع وحيرة .

وكانت المقالة الشهيرة «متى يحل اليوم الحقيقي ؟» للناقد والكتاب الاجتماعي الروسي نيقولاي دوبورولوبوف (١٨٢٦-١٨٦١) والمنشورة في مجلة «سوفريمينيك» (١٨٦٠ ، العدد الثالث) اسهاماً كبيراً في مناقشة الرواية . فقد حظيت الرواية في هذه المقالة بتقييم عميق من المواقع الديمقراطية الثورية المبدئية . ونورد هنا بعض المقتطفات من هذه المقالة :

«يمكن ان يسمى السيد تورغينيف ، عن احقية ، برسام

ذلك لان الشخصية الرئيسية في «في العشية» هي يلينا ، ونحن ملزمون ، بخصوصها ، ان نتعامل مع شخصيات اخرى . فقد بدى فيها شوق غامض الى شيء ما ، حاجة غير واعية تقريبا ، ولكنها ملحاجة ، الى حياة جديدة ، واناس جدد ، تلك الحاجة التي تعم الآن كل المجتمع الروسي . لقد انعكست في يلينا بسطوح كبير افضل مطامح حياتنا المعاصرة ، بينما يبرز في المحيطين بها ، وبشكل مجسّد جداً ، كل ركائز النظام المألوف لهذه الحياة بنفسها .

... لم يبن تطور يلينا على اساس علمي ، ولا على تجربة واسعة في الحياة : تفتح الجانب المثالي الافضل في وجودها ، وتنامي ونضج فيها . لدى رؤيتها للحزن الوداع على وجه احد من اقاربها ، لدى رؤيتها للقراء والمقهورين الذين كانت تجدهم وتراهم في كل مكان حتى في احلامها . افليس على مثل هذه الانطباعات نسا وتربى افضل ما في المجتمع الروسي ؟ افلا يتميز كل انسان بيننا معتبر حقاً بالكراهية لكل قهر ، للتعسف ، للاضطهاد ، وبالرغبة في مساعدة الضعفاء والمقهورين ؟ ولا نقول : «بالنضال دفاعاً عن الضعفاء من اهانة الاقوياء» لان ذلك لا وجود له ، ولكننا «نرغب» بالفعل ، مثل يلينا تماماً . ثم اننا مسرورون في فعل الخير ايضاً ، حين ينطوي على جانب ايجابي فقط ، أي حين لا يتطلب اي تضال ، ولا يواجه أية معارضة . اننا نقدم الصدقات ، ونقيم الحفلات الخيرية ، بل ونضحي بجزء من ثروتنا عند الحاجة . كل شرط ان يقتصر الامر على ذلك فقط ، وان لا نضطر الى تكليف انفسنا العناء ، ومواجهة مختلف المنغصات من أجل فقير او متضرر . ان لنا والرغبة في عمل الخير ولنا القدرات ايضاً ، ولكن الخوف ، وعدم الوثوق في قوانا ، واخيراً ، عدم معرفتنا ماذا نفعل تصدنا دائماً ، فاذا نحن ، نجد انفسنا ، ولا نعرف كيف ، في معزل عن الحياة الاجتماعية ، باردين وغرباء عن اهتماماتها ، تماماً مثل يلينا في الوسط المحيط بها . وفي الوقت ذاته تغلب الرغبة ، كما في السابق ، في الصدور (ونحن نعني اولئك الذين لا يحاولون اصطناعياً كبح هذه الرغبة) ونبحث طوال الوقت ، ونتمطش ، وننتظر ننتظر ان يوضح لنا ولو انسان واحد ، ماذا نفعل . تكتب يلينا في يومياتها بالم الحيرة وبياس تقريبا : «آه ، لو ان احداً قال لي : هذا ما ينبغي ان تفعله ! قليل ان يكون الانسان خيراً ، المهم ان يفعل الخير . . . اجل ، ذلك هو الاساسي في الحياة . ولكن كيف يفعل الخير ؟ ومن من اهل مجتمعنا ، الشاعرين بان في صدورهم قلوباً حية ، لم يلق على نفسه هذا السؤال بعداب ؟ ومن لم يكن يعتبر هزيلة وتافهة كل تلك الاشكال من النشاط التي كانت رغبته في الخير تظهر بها بقدر امكانيته ؟ ومن لم يكن يشعر بان هناك

شيئاً آخر ، ارفع ، كان في وسعنا حتى ان نفعله ، لا نعرف كيف ينبغي ان نبدأ . واين هو علاج الشكوك ؟ اننا نبحث عنه باجهد وتمطش في اللحظات الوضاعة من وجودنا ، ولا نجد في أي مكان . ان كل ما يحيط بنا يبدو لنا إما غارقاً في نفس الحيرة التي نفرق فيها ، وإما قد قضى في نفسه على صورته الانسانية ، واقصر نفسه على متابعة مصالحه التافهة الانانية الحيوانية فقط . وهكذا تنقضي الحياة يوماً بعد يوم الى ان تموت هذه الحياة في قلب المرء ، ومن يوم الى يوم ينتظر الانسان الحي : لعل وعسى ان يكون الغد احسن ، وان يأتي اليوم المقبل بحل الشكوك ، ويظهر من سيحول لنا كيف نفعل الخير .

ان لهفة الانتظار هذه ترقق المجتمع الروسي منذ زمن بعيد ، وكم من مرة اخطانا ، مثلما اخطات يلينا ، مفكرين بان المنتظر قد ظهر ، ثم نبرد .

وكانت يلينا في حاجة بالذات الى ظهور انسان طليعي لا ينتظر ان يعيّن له احد مهمة ، بل يسعى بنفسه ويلا هواده نحو هدفه ، جاذباً الآخرين نحو هذا الهدف . وبهذه الصورة ظهر اينساروف امامها اخيراً ، فوجدت فيه تجسيدا للمثال الذي تريده ، ورات فيه امكانية الجواب عن السؤال : كيف تفعل الخير ؟

ولكن لماذا لم يكن في الامكان ان يكون اينساروف روسيا ؟ فهو في الرواية لا يعمل بل يتنها للعمل فقط . وهذا ما يستطيعه الروسي ايضاً . كما ان طبعه ايضاً يمكن ان يكون في بشرة روسية ، لاسيما على تلك الصور التي يظهر بها . فهو يصور في الرواية على انه يحب بقوة وتعميم ، فهل من المعقول ان ذلك غير ممكن للروسي ؟

كل هذا صحيح ، ومع ذلك فان تعاطف يلينا ، تلك الفتاة التي نفهمها ، ما استطاع ان يتجه الى رجل روسي بالاحقية والطبيعية اللتين ائجه بهما الى هذا البلغاري . ان كل سحر اينساروف ينحصر في عظمة وقديسية الفكرة التي تشبع بها كيانه كله . فاذا بيلينا الطامنة الى الخير ، وغير العارفة في الوقت ذاته كيف تفعله تنبهر بعنق وعمل القور ، وحتى قبل ان ترى اينساروف بالحديث عن مشاريعه . فتقول : ويحرر وطنه . حتى النطق بهاتين الكلمتين رهيب ، لعظمتها ! فتحس بان كلمة قلبها قد وجدت ، وانها قد وجدت بغيتها ، وليس من الممكن ان تضع لنفسها هدفاً ارفع من هذا الهدف ، وانها ستجد ما يكفي من عمل الخير لطول حياتها ، لطول مستقبلها ، بشرط ان تهتدي بهدف هذا الرجل .

ان اينساروف كانسان مشبع بوعي وبكل كيانه بالفكرة العظيمة ، فكرة تحرير وطنه ، ومستعد لان يؤدي فيه دوراً نشيطاً ما كان من الممكن ان ينمو وي طرح نفسه في المجتمع الروسي

المعاصر . وحتى يلينا التي تمكنت كلياً من أن تحبه ، وتمتزج بأفكاره على تلك الصورة ، حتى يلينا لا تقدر على البقاء في وسط المجتمع الروسي ، رغم أنه يضم كل أهلها والقربين إليها . أي معنى ذلك أن الأفكار العظيمة ، والتجاوبات العظيمة ما تزال لا تجد مكاناً لها بيننا ؟ . وإن كل ما هو بطولي ومجاهد لا سبيل له إلا بالهروب منا ، إذا كان لا يريد أن يموت من الخمول ، أو يفنى سدى ؟ أليس الأمر كذلك ؟ أليس ذلك فحوى الرواية التي نحن بصدرها ؟ لا نعتقد ذلك . صحيح أن النشاط الواسع لا يجد بيننا ميداناً مفتوحاً ، وصحيح أن حياتنا تنقضي في الصفائر ، في الاحاييل ، في المكائد الصغيرة ، في الأقاويل والدسائس ، صحيح أن رجالاً مجتمعين بلا قلوب ، وضحال التفكير ، والفهم بيننا متقاعدون عن أحراز النصر لمعتقداتهم ، والليبراليين والاصلاحيين عندنا ينطلقون في مخططاتهم من الدقائق القانونية ، وليس من آئين وعويل أخوانهم التعساء . كل ذلك صحيح ، وكل ذلك واضح جزئياً في « في العشية » أيضاً ، كما في العشرات من الروايات الأخرى في الفترة الأخيرة . ولكننا نرى ، على أية حال ، أن في مجتمعنا الآن مكاناً للأفكار العظيمة والتجاوبات العظيمة ، وإن الزمن لن يطول ليتاح المجال لهذه الأفكار لتحقيق فعلها .

لأن حياتنا ، مهما تكن سيئة ، فإن فيها ، على ما يبدو ، إمكانية لظواهر من مثل يلينا . بل وبالإضافة إلى أن مثل هذه الشخصيات صارت ممكنة في الحياة ، فقد صارت أيضاً تستوعب فناً ، وتدخل الأدب ، وتحول إلى نموذج . ويلينا شخصية مثالية ، ولكن صفاتها معروفة لنا ، ونحن نفهمها ونتجاوب معها . فماذا يعني هذا ؟ أن أساس خلقها - حب المعديين والمضطهدين ، والرغبة في الخير ، والبحث المضني عن من يمكن أن يدلها على الطريق إلى عمل الخير - أن كل ذلك محسوس في الجزء الأفضل من مجتمعنا . والاحساس هذا من القوة والقرب من التحقيق بحيث لم يعد ، كما كان من قبل ، يستجيب لغواية موهبة وعقل لامع ولكنه مجذب ، أو علمانية سليمة الطوية ولكنها تجريدية ، أو لمزايا الوطنية ، بل وحتى لغواية قلب طيب ، شهم ، ولكنه خامل في تطوره . فلارضاء هذا الاحساس عندنا ، أزواء عطشنا نحتاج إلى أكثر من ذلك . نحتاج إلى إنسان مثل اينساروف ، ولكنه اينساروف روسي .

وما زالت هناك صعوبة لظهور مثل هذا البطل . ذلك لأن ظروف تطوره ، ولأسيما بالنسبة لأول مظهر لنشاطه غير مؤاتية إلى أقصى حد ، ومهمته أعقد بكثير وأصعب مما لدى اينساروف . فإن الظفر بالعدو الخارجي ، المضطهد صاحب الامتيازات وقهره أسهل بكثير من العدو الداخلي ، المبتوث في كل الأرجاء في الفن

نوع مختلف ، الزلق والحصين ، بينما هو يروّعك في كل مكان ، ويسمم حياتك كلها ، ولا يعطيك استراحة ولا تمنعاً في التنفّس . والسلاح الاعتيادي لا يجدي شيئاً مع هذا العدو الداخلي ، ولا يمكن التخلص منه إلا بتبديل جو حياتنا المعول الذي ولد فيه وترعرع واشتد مساعدته وبتهوية أنفسنا بهواء لا يستطيع أن يتنفسه .

فهل هذا ممكن ؟ ومتى يكون ممكناً ؟ لا يمكن الجواب بشكل قاطع إلا عن السؤال الأول من هذين السؤالين . أجل ، أن ذلك ممكن . وهذا هو السبب : تحدثنا فيما سبق كيف أن وسطنا الاجتماعي يخلق شخصيات من مثل اينساروف . ولكننا نستطيع الآن أن نقدم إضافة إلى كلامنا أن هذا الوسط وصل الآن إلى درجة يمكنه بها أن يساعد هو نفسه على ظهور مثل هذا الإنسان . أن الابتذال المستديم ، والوضاعة والخمول لا يمكن أن تكون النصيب الشرعي للإنسان ، والناس الذين يشكلون وسطنا الاجتماعي ، والمقيدون في ظروفه قد أدركوا منذ زمن بعيد كل وطأة وسخافة هذه الظروف . بعضهم شجر ، والبعض الآخر يريد الانفلات إلى أي مكان بكل ما لديه من قوة ، لمجرد التخلص من هذا النير . لقد كانت توضع مختلف المنطلقات ، وتستخدم مختلف الوسائل ليست شيء من الحيوية في موات وتعفن حياتنا ، ولكن كل ذلك كان ضعيفاً وغير مؤثر . والآن ، وفي آخر الأمر ، تظهر مفاهيم ومتطلبات كذلك التي نراها في يلينا ، والمتطلبات هذه يستقبلها المجتمع بتعاطف . وهي فضلاً عن ذلك تنزع إلى التحقيق الناشط . وهذا يعني أن الروتين الاجتماعي القديم يقترب من نهايته . وما هي إلا بعض من الترددات الأخرى ، وبعض من الكلمات القوية ، والوقائع المؤاتية الأخرى ، حتى يظهر رجال العمل !

وعند ذاك ستظهر في الأدب أيضاً شخصية اينساروف روسي كاملة حية وقوية الملامح . ولن ننتظره طويلاً . تتكفل بذلك حالة نفاد الصبر الوهاجة الموجهة التي ننتظر بها نحن ظهوره في الحياة . أنه ضروري لنا ، وبدونه تضيع حياتنا وكأنها تهدر هدراً ، وكل يوم لا يعني شيئاً بحد ذاته ، بل كعشية يوم آخر لا غير . وسيأتي أخيراً ، ذلك اليوم الموعود ! وعلى كل حال فإن عشية اليوم التالي ليست بعيدة . لا يفصل بينهما غير ليلة ! . . .

٢- من ١٠

جان بيير دانتان (١٨٠٠-١٨٦٩) - نحات كاريكاتور

فرنسي .

٢- من ١٢

بيت من أغنية طلابية مرحة لملحن مجهول عن كلمات الشاعر الغنائي الروسي نيقولاي يازيكوف (١٨٠٣-١٨٤٦/٤٧) .

اويرون - حسب اسطورة اسكندنافية ، هو ملك ارواح الطبيعة . وبيرسينيف يقصد قصيدة «اويرون» (١٧٨٠) الرومانسية للشاعر الالماني فيلاند (١٧٣٣-١٨١٣) . وفي هذه القصيدة يحمي اويرون الفارس غيونا ومعشوقته امونس . فيهدي لهما بوقاً سحرياً تطرد انغامه المصائب التي تهدد هما .

بيتر الدرييفيتش ستافاسير (١٨١٦-١٨٥٠) - كاتب روسي .

المقصود هنا العالم البارز والشخصية الاجتماعية الروسي تيموفي نيقولايفيتش غرانوفسكي (١٨١٣-١٨٥٥) الذي كان في الاربعينات من القرن الماضي استاذ التاريخ العام في جامعة موسكو ، وكانت له شهرة كبيرة في الاوساط التقدمية للمجتمع الروسي .

هو الفيلسوف المثالي الالماني فردريك ويلهلم شيلينغ (١٧٧٥-١٨٥٤) .

يوهان فريدريك شيللر (١٧٥٩-١٨٠٥) - شاعر الماني ومؤلف مسرحي ومنظر فن التنوير .

راومر فريدريك لودفيغ غيورغ (١٧٨١-١٨٧٣) - بروفيشور الماني ، ومؤرخ . وكتابه «تاريخ غوغينشتاوفين» ذو المجلدات الستة مكرس لعشيرة فرسان المانية الدثرت في القرن الثالث عشر .

اغنية رومانس على كلمات قصيدة «الحن» (١٨٤٢) للشاعر الروسي المعروف افاناسي فيت (١٨٢٠-١٨٩٢) .

جمعية المتنورين السرية شكلها في العقد السابع من القرن الثامن عشر البروفيسور البافاري المتصوف ادم فايسفاوت (١٧٤٨-١٨٣٠) وكان تنظيمها وروح تعاليمها تشبه جمعية الماسونيين .

والماسونية هي حركة دينية اخلاقية ظهرت في انكلترا في بداية القرن الثامن عشر ، وانتشرت في العديد من الاقطار ومن ضمنها روسيا . وكان الماسونيون يسعون الى تشكيل منظمة عالمية سرية لها هدف طوباوي هو توحيد الانسانية كلها في اتحاد ديني اخوي .

عمانويلسل سفيدنبورغ (١٦٨٨-١٧٧٢) - هو العالم والمتصوف السويدي . وكان في مؤلفاته الدينية الصوفية يؤكد بانه يتصل بالقديسين والملائكة وغيرهم .

جورج واشنطن (١٧٣٢-١٧٩٩) - شخصية سياسية تقدمية امريكية كان يساند النضال التحريري للمستعمرات في امريكا الشمالية ضد السيطرة الانجليزية . وكان اول رئيس جمهورية للولايات المتحدة الامريكية (١٧٨٩-١٧٩٧) .

يقصد العقد الثالث من القرن الماضي ، حين كانت جامعة موسكو منتدى للتفكير الحر والآراء الاجتماعية السياسية والفلسفية والادبية المتقدمة . وكان طلاب جامعة موسكو ينظمون في حلقات فلسفية وسياسية كثيرة اسسها الناقد والديموقراطي الثوري الروسي العظيم فيساريون بيلينسكي (١٨١١-١٨٤٨) ، والفيلسوف والشاعر نيقولاي ستانكفيتش (١٨١٣-١٨٤٠) والكاتب الثوري الروسي الكسندر غيرتسن (١٨١٢-١٨٧٠) ورفيقه في العمل وصديقه الشاعر نيقولاي اوغاريف (١٨١٣-١٨٧٧) . وقد تغير وجه جامعة موسكو بشكل حاد نظراً للموجة الرجعية التي انارتها الاحداث في الغرب (ثورة ١٨٤٨) .

لودفيغ فوريباخ (١٨٠٤-١٨٧٢) - فيلسوف مادي وملحد الماني .

فينيلين يوري ايفانوفيتش (١٨٠٢-١٨٣٩) - عالم لغوي ومؤرخ . انكب على دراسة تاريخ بلغاريا وابداعها الشعبي . كروم (توفي عام ٨١٥) - امير بلغاري وقائد عسكري كبير انتصر على قوات البيزنطيين في عامي ٨١١ و٨١٣ .

ماكس واغانا - شخصيتان من اوبرا «الرامي الساحر»
(١٨٢٠) للمؤلف الموسيقي الالماني كارل مارييا فون فيبر
(١٧٨٦-١٨٢٦) .

في ذلك اشارة الى دعاة النزعة السلافية الذين كانوا يرون في
الحفاظ على الاعراف البطريقية التي يمجّدونها وفي ازدهارها وفي
«خضوع» الشعب شعبانا لمستقبل عظيم لروسيا ، ويدعون فئات
المجتمع المثقفة الى «الاندماج» بالشعب . اي ان يتقبلوا منه هذه
والاسس الاميلة الراسخة .

فيمستوكليس (حوالي ٥٢٦-٤٦١ قبل الميلاد) - شخصية
سياسية في اثينا في عهد الحروب الاغريقية الفارسية ، وهو صاحب
المبادرة في انشاء اسطول حربي اغريقي قوي . وبقيادته احرز
الاسطول الاغريقي النصر الحاسم على الفرس في معركة سالومي (٤٨٠
قبل الميلاد) .

لوي نيدرماير (١٨٠٢-١٨٦١) - مؤلف موسيقى فرنسي ،
كانت اغنيته الرومانس «البحيرة» بشعر الشاعر الفرنسي الفونس
لامرتين (١٧٩٠-١٨٦١) تحظى بشعبية كبيرة .

هوميروس - شاعر ملحمي اغريقي قديم ، صاحب «الالياذة»
و«الاوديسة» وغيرهما من الاعمال .

جملة قيلت على لسان الأمير ، وهو شخصية في اوبرا
«فيليزاري» للمؤلف الموسيقي الايطالي غايتانو دوتسي (١٧٩٧-
١٨٤٨) . وقد عرضت في بطرسبورغ في موسم ١٨٢٩-١٨٤٠ .

لعل شوبين يقصد بهذه الجملة كتابات علماء الجماليات
الالمان ك . روزنكرانتس ، وا . روغه ، وت . فيشر الذين كانوا
ينادون بمذهب القبح .

الامارتان المقصودتان هنا هما امارتا مولدافيا وفالاخيا
الواقعتان على الدانوب ، وكانتا تحت الحكم التركي . وقد رفضت
تركيا تنفيذ مطلب الحكومة القيصريّة في الاعتراف بحقوق الكنيسة
الارثوذكسية ، في «العتبات المقدسة» . ورداً على ذلك دخلت
القوات الروسية مولدافيا وفالاخيا (حزيران ١٨٥٢) .

هو شعار تشارلز بوردييه (١٤٧٥-١٥٠٧) الذي حكم
رومانيا منذ عام ١٤٩٩ . وقد سعى الى توحيد ايطاليا تحت
سلطته . وكان في صراعه مع المدن والامسياد الاقطاعيين لم يتورع
عن اية وسيلة ، مستخدماً شراء الذمم والخيانة والقتل .

جورج غروت (١٧٩٤-١٨٧١) مؤرخ انجليزي ، ومؤلف
«تاريخ اليونان» (في ١٢ مجلداً ، ١٨٤٦-١٨٥٦) .

«آلام فتر» (١٧٧٤) - رواية للكاتب الالماني العظيم
يوهان فولفغانغ غوته (١٧٤٩-١٨٣٢) .

فيثاغورس - فيلسوف اغريقي قديم ، وعالم رياضيات
وشخصية سياسية .

في ١٨ (٣٠) تشرين الثاني ١٨٥٣ حطمت العمارة البحرية
الروسية بقيادة القائد البحري الروسي الراحل الاميرال بافل
نخيموف (١٨٠٢-١٨٥٥) الاسطول التركي في معركة بالقرب من
سينوب (الساحل الجنوبي للبحر الاسود) . وقد أسر في هذه المعركة
القائد الاعلى التركي عثمان باشا .

ماركوس يوليوس بروتوس (٨٥-٤٢ قبل الميلاد) -
شخصية سياسية في روما القديمة ، واحد المناضلين في سبيل
الجمهورية ، ورأس المؤامرة على يوليوس قيصر .

جملة مقتبسة من تراجميدية شكسبير «يوليوس قيصر»
(الفصل الخامس ، المشهد الخامس) (١٥٩٩) .

مطلع قصيدة والنشيد الجنائزي لايكينف ماغلانوفيتش
(«اغاني السلافيين الغربيين») للشاعر الروسي العظيم الكسندر
بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) .

كانت روسيا قد اعلنت الحرب على تركيا في ٢٠ تشرين الاول
(المصادف اليوم الاول من تشرين الثاني) ١٨٥٣ .
وقد دخلت فرنسا وانجلترا حملة القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) الى
جانب تركيا باعلانها الحرب على روسيا في ١٩ (٢١) آذار
١٨٥٤ .

خلال حرب القرم كان الوطني البلغاري نيقولا فيليوفسكي
يعد للانتفاضة في تيرنوف ، والثوري البلغاري راكوفسكي قد عزم
على الانضمام مع الفصيلة التي شكلها الى القوات الروسية . وكان
سكان الصرب معادين للغاية للمحتلين الاتراك .

حقيقة تاريخية عرفها تورغينيف من مقالة وحياء ووفاء حاكم
مولته ليغزو (الجل الاسود) وما تبع ذلك من احداث ، بقلم
صديقه الرحالة الشهير والكاتب يغور كوفاليفسكي (١٨٠٩ او
١٨١١-١٨٦٨) .

مبعث موقف اينساروف العدائي من الضابط النمساوي هو
ان النمسا في ذلك الحين كانت العقبة الرئيسية في طريق ايطاليا
الى الاستقلال الوطني .

انتوني كاناليتي (او كانالوتو) (١٦٩٧-١٧٦٨) - رسام
ونقاش فينيتسي وفراانشيمسكو غواردي (١٧١٢-١٧٩٣) -
رسام فينيتسي صور في لوحاته وجه فينيتسيا في القرن الثامن
عشر .

اكاديمية الفنون الجميلة متحف للرسم الفينيتسي ، اُسس
في عام ١٨٠٧ .

ومعجزة القديس مازكو الذي حرر عبداً حكم عليه
بالتعذيب - لوحة للرسام الفينيتسي تينتوريتو . واسمه الحقيقي
روبوستي ياكوبو (١٥١٨-١٥٩٤) .

تشيما داكوليليانو - لقب جوفاني باتيست (١٤٥٩-١٥١٧/
١٥١٨) وهو أحد الممثلين البارزين لمدرسة فينيتسيا في الرسم .

وترافيانا - اوبرا للموسيقار الايطالي جوزيبي فيردي
(١٨١٣-١٩٠١) وقد قدمت على مسرح بطرسبورغ لأول مرة في
موسم ١٨٥٨/٥٩ . وقد غنّت الدور الرئيسي فيها المغنية الايطالية
الشهيرة بوزيو ، وتوفيت بعد ذلك بزمان قصير .

اندرية بالاديو (١٥٠٨-١٥٨٠) - معماري ايطالي ، ومنظر
في الفن . اقام كنيسة il Redentore (المُفدّي) في عام ١٥٧٦ .

كانت صحيفة ومراقب تريسته تصدر في تريسته منذ عام
١٧٨٤ .

كل هذه الاحداث من مختلقات لوبوياروف . فالقوات
الروسية ، مثلاً ، ليس فقط لم تستول على قلعة ميلستويسا
التركية ، بل اضطرت ايضاً ان ترفع عنها الحصار بعد وقت قصير
(٩ نيسان ١٨٥٤) تحت ضغط النمسا التي طالبت روسيا اخلاء
امارتي الدانوب ، وجمعت ، لهذا الغرض ، قوات عسكرية كبيرة
في ترانسيلفانيا .

مارينو فالياراي (١٢٧٨-١٣٥٦) - حاكم فينيتسي ، اعدم

وأوروبا المصعوقة بدوي الانتصارات
لا تفتأ تردد باش - كاديك-لار
وابصارها مشيتة في سينوب .

في ١٩ تشرين الثاني ١٨٥٢ حطمت القوات الروسية تحت
قيادة فاسيلي بيبوتوف (١٧٩١-١٨٥٨) الجيش التركي قرب
باش - كاديك - لار (قرب كارس) . وقد أثار هذا الحدث ومعركة
سينوب مدأ في الروح الوطنية في روسيا ، وقلقا كبيرا في الأنظار
التي كانت تساند تركيا . راجع التعليق (٢٩) .

٥٠ - ص ١٧٩

بيير جوزيف برودون (١٨٠٩-١٨٦٥) - اشتراكي طوباوي
فرنسي واحد مؤسسي الفوضوية وآخر كتبه «La revolution
sociale» (والثورة الاجتماعية) صدر في عام ١٨٥٢ .

٥١ - الآباء والبنون . ص ١٩١

عالم تورغينيف فكرة رواية «الآباء والبنون» في أغسطس
١٨٦٠ و فرغ من تأليفها في ضاحية سباسكويه في ٢٠ يوليو
١٨٦١ . ونشرت الرواية في مجلة «روسكي فيستك» (١٨٦١ ،
العدد الثاني) . وفي العام ذاته صدرت في طبعة مثقلة «نكريا
لذكرى فيساريون غريغوريفيتش بيلينسكي» .

وفي الحال بدأت مجادلات حادة بخصوص هذه الرواية المكرمة
لواحدة من أهم قضايا العصر - مسألة جيل الشباب ، واستمرت
تلك المجادلات عقدا كاملا من السنين .

وكانت انضج محاولة موضوعية لتحليل الرواية في الصحافة
الديمقراطية في الستينات هي مقالة الكاتب الاجتماعي وقائد الأدبي
دميتري بيسارييف (١٨٤٠-١٨٦٨) المنشورة في العدد الثالث من
مجلة «روسكويه سلفوف» («الكلمة الروسية») لعام ١٨٦٢ .

كان بيسارييف أول من أشار إلى الصدق المدعش عند تورغينيف
الفنان في رسم شخصية بازاروف . وكتب بيسارييف في مقاله بهذا
الخصوص : «عندما ابتدع تورغينيف بازاروف أراد أن يهشمه
تهشما ، ولكنه ، بدلا من ذلك ، قدم له بالقدر الكامل آيات
الاحترام عن جدارة واستحقاق» .

وفيما بعد ، وبسبب التهجعات المتواصلة على الرواية ، أوضح
تورغينيف مرارا فكرتها في مقالاته ورسائله (وأدناه المقالة
المنشورة باختصار في مكان آخر من هذا المجلد بعنوان «صدر
والآباء والبنون») . وكتب تورغينيف إلى الكاتب الروسي العظيم

على تنظيمه مؤامرة جمهورية ضد سيطرة أعيان فينيتسيا
الاستبدادية . من بين ٧٦ صورة لحكام فينيتسيا في قصر الدوجي ترك
الموضع المخصص لفالياري فارغا واسبلت عليه قمائة مخملية
سوداء كتب عليها وهذا موضع فالياري الذي قطع رأسه
لجرائمه» .

٤٥ - ص ١٧٨

الشطر الأول من الفصل الرابع لقصيدة بايرون «أسفار تشايلد
هارولد» . وجسر التنهدات كان يربط قصر الدوجي بسجن
فينيتسيا ، كان المجرمون السياسيون المحكومون بالأعدام يسببون
عليه . وجورج لويل بايرون (١٧٨٨-١٨٢٤) - شاعر انجليزي
رومانسي .

٤٦ - ص ١٧٨

بوسترابا - كنية نابليون الثالث (١٨٠٨-١٨٧٢) كان
امبراطور فرنسا في أعوام ١٨٥٢-١٨٧٠ . وتتألف هذه الكنية
من المقاطع الأولى لأسماء المدن الذي حاول فيها القيام بانقلاب
عسكري لإعادة الملكية (بولون ، ستراسبورغ ، باريس) .
بالمرستون هنري جون تمبلي (١٧٨٤-١٨٦٥) - رجل
دولة انجليزي عمل بنشاط ضد روسيا خلال حرب القرم بالتعاون
مع نابليون الثالث .

٤٧ - ص ١٧٨

هي مجموعة من القصائد السياسية (١٨٥٢) للكاتب الفرنسي
فيكتور هيغو (١٨٠٢-١٨٥٥) مناوئة لادكتاتورية نابليون
الثالث .

٤٨ - ص ١٧٨

الشطر الأخير من قصيدة فيكتور هيغو «مكتشف على الليل»
من مجموعة قصائد «المقوبات» . وقد صور نابليون الثالث
واعوانه في هذه القصيدة حوّلوا «الوفور» - وهو من أكبر المتاحف
الفنية في العالم - إلى خان قذر .

٤٩ - ص ١٧٩

اقتباس من قصيدة للشاعر الروسي الشهير بيتر فيازيمسكي
(١٧٩٢-١٨٧٨) يمجّد فيها النصر في معركة سينوب . وقد نشرت
هذه القصيدة في مجموعته «ال سلاح» (١٨٥٤) .

فيودور دوستوفسكي (١٨٢١-١٨٨١) الذي فهم ، باعتقار تورغينيف ، مهمة الرواية باعمق من الآخرين : ولا يتصور احد ، على ما يبدو ، انني حاولت ان اجسد في بازاروف شخصية ماساوية . فالجميع يتساءلون : لماذا هو سيى الى هذا الحد ؟ او لماذا هو جيد الى هذا الحد ؟ . وتحدث دوستوفسكي في سلسلة مقالاته : «ملاحظات شتوية عن الانطباعات الصيفية» (١٨٦٣) عن تهجمات النقاد على تورغينيف فقال : «وما اكثر ما عاناه بسبب بازاروف ، بسبب هذا الانسان القلق المتعلم (وتلك سمعة القلب الكبير) رغم عدميته التهلستية» . ومن اهم اقوال الكتاب اللاحقين عن «الآباء والبنون» ما قاله الكاتب الروسي الفد انطون تشيخوف (١٨٦٠-١٩٠٤) : «وما اروع رواية «الآباء والبنون» . . . وما اشد تاثير نهاية بازاروف والعجوزان ؟ وكوكشينا ؟ تلك شخص موفقة الى ابعد الحدود . تلك هي العبقرية» .

٥٢- ص ١٩٥

في عام ١٨٤٨ قامت ثورتا فبراير ويوليو في فرنسا . وكان الرعب من الثورة قد حمل قيصر روسيا نيكولاي الاول على اتخاذ اجراءات مشددة منها منع السفر الى الخارج . فترة حكم الامبراطور نيكولاي الاول هي ١٨٢٥-١٨٥٥ .

٥٣- ص ٢٠٢

عهد امبراطورة روسيا يكاتيرينا الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦) .

٥٤- ص ٢٠٤

مقتطف من ملحمة «يفغيني اوليغين» (الفصل السابع) للشاعر الروسي العبقري الكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) .

٥٥- ص ٢٠٧

في ٣ يناير ١٨٥٧ تشكلت برئاسة القيصر الاسكندر الثاني لجنة سرية لاعداد اصلاح عام ١٨٦١ بغية منح الحرية للفلاحين الاقنان . وبعد عام (٨ يناير ١٨٥٨) تحولت هذه اللجنة الى اللجنة الرئيسية . وفي عام ١٨٥٨ تشكلت باوامر قيصرية في كافة ارجاء روسيا لجان اولوية ، وهي هيئات انتخابية للنبل والاقطاعيين مهمتها اعداد مشاريع تحرير الاقنان .

٥٦- ص ٢١٦

مقتطف من مسرحية «مصيبة الدكاء» الهزلية (الفصل الثاني ، المشهد الخامس) للكاتب الروسي غريغويدوف (١٧٩٥-١٨٢٩) .

٥٧- ص ٢٢٠

يوستوس ليبخ (١٨٠٣-١٨٧٢) عالم كيميائي ألماني مؤلف عدة كتب في نظرية وتطبيق الزراعة .

٥٨- ص ٢٢١

«سلك الوصفاء» مدرسة عسكرية لابتاء الوجهاء يتخرج منها وصفاء البلاط القيصري .

٥٩- ص ٢٢٣

ابو الهول الاسطوري كائن خرافي في الميثولوجيا الاغريقية له جسم اسد وجناحان ورأس امرأة وصدرها . وقد اصبح رمزاً للاحاجي والالغاز .

٦٠- ص ٢٢٦

ارثر وليم ولنغتون (١٧٦٩-١٨٥٢) قائد عسكري وسياسي انجليزي انتصر على نابليون في معركة واترلو عام ١٨١٥ بمساعدة الجيش البروسي .

٦١- ص ٢٢٦

لودفيغ-فيليب ملك فرنسا (١٨٣٠-١٨٤٨) ارغمته ثورة فبراير ١٨٤٨ على التنازل عن العرش والفرار الى بريطانيا حيث توفي هناك .

٦٢- ص ٢٣٠

الكسي يرمولوف (١٧٧٢-١٨٦١) جنرال روسي بطل الحرب الوطنية ١٨١٢ ضد نابليون . في الفترة ١٨١٦-١٨٢٧ كان قائداً عاماً للقوات الروسية في القوقاز .

٦٣- ص ٢٣٠

صدرت رواية الكاتب الروسي ماسالسكي (١٨٠٢-١٨٦١) التاريخية باربعة مجلدات في عام ١٨٣٢ .

٦٤- ص ٢٤٥

المقصود عهد امبراطور روسيا الاسكندر الاول (١٨٠١-١٨٢٥) حيث شاع في الاوساط الارستقراطية الاهتمام باللغة الفرنسية والاستهانة بقواعد اللغة الروسية .

المقصود رفض بازاروف ولكل القرارات المتعارف عليها في حياة الناس ، اى النظام السياسي والاجتماعي القائم والتصورات الدينية وغيرها .

في الفاتيكان (المقر البابوي في روما) كثير من المتاحف التي تضم آثارا فنية قيمة (من رسم ونحت وغيرها) . في خمسينات وستينات القرن التاسع عشر نشأ في الرسم الروسي اتجاه واقعي جديد . ورفض الرسامون الشباب الطريقة الاكاديمية التقليدية التي تطالب بتقليد النماذج الكلاسيكية ، والفن الايطالي على الخصوص ، واخذوا ينادون بخلق فن روسي اصيل مشبع بالافكار التقدمية الديمقراطية . وهذا هو ، اساسا ، السبب في لسيان الرسامين الروس لكتوز الفاتيكان .

فرانسوا غيزو (١٧٨٧-١٨٧٤) مؤرخ وسياسي فرنسي .

في السنوات الاخيرة من عهد الاسكندر الاول اولعت الارستقراطية الروسية بمختلف التعاليم الدينية والفنية .

ايتين دي يونوكوندلياك (١٧١٥-١٧٨٠) فيلسوف مثالي فرنسي ، صدر مؤلفه الاساسي «بحث في الاحاسيس» عام ١٧٥٤ .

سوفيا سفيتشينا (١٧٨٢-١٨٥٩) كاتبة روسية غيبية الاتجاه ، حظيت مؤلفاتها التي صدرت عام ١٨٦٠ باهتمام كبير لدى اوساط النبلاء من المجتمع الروسي .

يبدو ان كيسلياكوف شخص متخيل . اما «الوقائع الموسكوبية» فهي جريدة يومية بدأت تصدر في عام ١٧٥٦ . واعتبارا من ستينات القرن التاسع عشر صارت تعبر عن آراء اكثر فئات الاقطاعيين ورجال الدين رجعية .

جورج صاند هو الاسم المستعار للكاتبة الفرنسية اورورا دوديفان (١٨٠٤-١٨٧٦) التي تناولت في مؤلفاتها قضايا حقوق المرأة .

رولف امرسون (١٨٠٣-١٨٨٢) كاتب وفيلسوف اميركي .

يلمح تورغينيف هنا ساخرا الى محوري مجلة «سفرينك» غ . يلسييف (١٨٢١-١٨٩١) وم . انتونوفيتش (١٨٣٥-١٩١٨) ، حيث لحت من اسميهما اسم يلسييفيتش .

بافايندر (المنقب) بطل روايات الكاتب الاميركي جيمس فينيمور كوبر (١٧٨٩-١٨٥١) «الجورب الجلدي» و«المنقب» و«البراري» و«آخر الموغيكان» .

روبرت بولزين (١٨١١-١٨٩٩) عالم الماني شهير استاذ الكيمياء في جامعة هيدلبرغ .

جوزيف بيير برودون (١٨٠٩-١٨٦٥) كاتب اجتماعي واقتصادي فرنسي من مؤسسي الفوضوية وخمسم حرية المرأة . كان يعتبر الوظيفة الرئيسية للمرأة هي الامومة .

توماس ماكولي (١٨٠٠-١٨٥٩) مؤرخ انجليزي ، من اشهر كتبه «تاريخ انجلترا» (١٨٤٨-١٨٥٥) .

مقطع من قصيدة «السكير وزوجته» للشاعر الفرنسي بيرانجيه (١٧٨٠-١٨٥٧) .

المقصود موال وليل غرناطة للملحن سيمور-شيف الذي

اشتهر كذلك بتلحين ارتجالي لقطع موسيقية مقتبسة من اوبرا ميخائيل غلينكا «ايفان سوساين» و«روسلان ولودميلا» .

٨١- ص ٢٨٠

ميخائيل سيبرانسكي (١٧٧٢-١٨٣٩) من رجال الدولة في روسيا ، ابن قسيس ريفي ، واضح مشروع التحويلات في جهاز الدولة في عهد القيصر الاسكندر الاول .

٨٢- ص ٣١٩

كريستوفور هوفيلاند (١٧٦٢-١٨٣٦) طبيب ألماني مؤلف كتاب «فن اطالة العمر البشري» (١٧٩٦) الذي حظى باقبال واسع في حينه .

٨٣- ص ٣٢١

المقصود الجريدة الطبية التي صدرت في بطرسبورغ من عام ١٨٣٣ حتى عام ١٨٦٩ .

٨٤- ص ٣٢٢

لوكاس شينلين (١٧٩٣-١٨٦٤) بروفيسور ألماني في الطب .

٨٥- ص ٣٢٢

يوهان راديماخير (١٧٧٢-١٨٤٩) عالم ألماني في الطب .

٨٦- ص ٣٢٢

فريدريك هوفمان (١٦٦٠-١٧٤٢) عالم ألماني في الطب .

٨٧- ص ٣٢٢

جون براون (١٧٣٥-١٧٨٨) طبيب انجليزي في الباطنية .

٨٨- ص ٣٢٢

يوتر فيتغنشتين (١٧٦٨-١٨٤٢) فيلدمارشال ساهم في الحرب الوطنية ١٨١٢ . وفي الفترة ١٨١٨-١٨٢٨ قاد الجيش الثاني (الجنوبي) الذي تشكلت فيه جمعية الديسمبريين السرية .

٨٩- ص ٣٢٢

فاسلي جوكوفسكي (١٧٨٣-١٨٥٢) شاعر ومترجم روسي كبير .

٩٠- ص ٣٢٢

يلمح الى الجمعية الجنوبية السرية للديسمبريين بزعامته الثوري بافل بيستل (١٧٩٣-١٨٢٦) .

٩١- ص ٣٢٣

باراتيسلس اسم مستعار للطبيب والعالم الطبيعي السويسري ثيوفراست هونهايم (١٤٩٣-١٥٤١) الذي اكتشف كثيرا من الاعشاب الطبية واستخدم طريقة المراقبة في دراسة الامراض .

٩٢- ص ٣٢٤

حظي لصال ايطاليا في سبيل التحرر من نير الاجنبي وفي سبيل توحيد الوطن باهتمام المجتمع الروسي في الستينات . ولوقشت هذه المسألة بحماس في الصحافة الدورية الروسية وفي مجلة «سوفريمك» الثورية الديمقراطية ومجلة «الصغير» .

٩٣- ص ٣٢٥

هوراس (٦٥-٨ قبل الميلاد) شاعر روماني شهير تغنى في قصائده ورسائله بالتمتع بالحياة في احضان الطبيعة .

٩٤- ص ٣٢٦

يوحنا المعمدان ، كما يقول الانجيل ، بشر بظهور المسيح ، ففقطعت رقبته وحمل رأسه على طبق .

٩٥- ص ٣٢٧

رواية عاطفية وعظيمة للكاتب الفرنسي دوكريمدومينييل (١٧٦١-١٨١٩) صدرت ترجمتها الروسية في السنوات ١٧٩٤ و ١٨٠٠ و ١٨٠٤ .

٩٦- ص ٣٢٨

لوتوس ششيناوس (القرن السادس - القرن الخامس قبل الميلاد) ارستقراطي روماني كان يعيش ببساطة ويحرق الارض بنفسه فاشتهر صيته كمواطن مثالي .

٩٧- ص ٣٢٨

اعتبر جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) العمل البدني واحداً من شروط تربية الانسان وحياته السعيدة .

من اوبرا الملحن الايطالي جاكومو مايرير (١٧٩١-١٨٦٤)
«روبرت الشيطان» (١٨٢١) .

الكسندر سوفوروف (١٧٢٩-١٨٠٠) قائد روسي كبير عبرت
قواته جبال الالب عام ١٧٩٩ .

هذا القول تكرر حرفي تقريبا لما قاله عن شعر بوشكين
الكاتب ن . اوسبينسكي اثناء لقائه مع تورغينيف في باريس عام
١٨٦١ . وكتب تورغينيف الى اينكوف بهذا الخصوص يقول :
وقبل ايام من بنا اوسبينسكي (نيكولاي) الحاقده على البشر ، وتناول
الغداء عندي . ورأى ان من واجبه ان يتهم على بوشكين مؤكدا
بان بوشكين لم يفعل شيئا في كل قصائده غير الصراخ : والى
المعركة ! الى المعركة ! دفاعا عن روسيا المقدسة . (اينكوف ،
مذكرات ادبية ، بطرسبورغ ، ١٩٠٩) .

ظهرت اولى مدارس الاحاد لمحو الامية بين الكبار في
بطرسبورغ وكيف (١٨٥٩) ثم في مدن اخرى كثيرة . ولعب
المثقفون الثوريون دورا كبيرا في تأسيس هذه المدارس معتبرينها
ليس فقط شكلا لتنوير الشعب بل وشكلا علنيا للدعاية ضد
الحكومة .

كان الفيلسوف والمؤرخ الروسي يورى سامارين قد فضح في
رسائله من ريغا والتي انتشرت مخطوطة في موسكو وبترسبورغ
في اواخر الاربعينات الاستغلال البشع الذي تعرض له فلاحو البلطيق
من قبل البارونات الالمان . واعتبارا من عام ١٨٥٦ انتقدت
الصحافة مرارا سياسة نبلاء البلطيق الرجعية في المسألة الفلاحية ،
وفيما بعد اشار الكاتب الروسي الكبير نيكولاي تشيرليشيفسكي
(١٨٢٨-١٨٨٩) الى الطابع الوحشي ولحقوق وامتيازات
بارونات البلطيق .

المجهول الخفي بطل عدة روايات للكاتبة الانجليزية آن

رادكليف (١٧٦٤-١٨٢٣) التي تتميز مؤلفاتها بوصف الفضاء
والاحوال الخيالية والحوادث المثيرة .

روبيرت بيل (١٧٨٨-١٨٣٠) سياسي انجليزي محافظ .

المقصود الرسالة التي بعثها الكاتب الروسي العظيم نيكولاي
غوغول (١٨٠٩-١٨٥٢) الى سميرنوف في ٤ يوليو ١٨٤٦ .
وادرجت بتحويل طفيف ضمن كتاب غوغول ومقتطفات من
المراسلات مع الاصدقاء (١٨٤٧) ولكن الرقابة حذفتها . ودعا
الكاتب فيها الى الكمال الاخلاقي الديني وتخلي عن مؤلفاته الادبية .
ولشرت الرسالة لأول مرة في جريدة «العصر والنشرة الاقتصادية»
عام ١٨٦٠ تحت عنوان وهذه هي عقيلة المتصرف .

الوسيط العقاري موظف في روسيا في فترة تطبيق الإصلاح
الفلاحي لعام ١٨٦١ . كان يعين من بين النبلاء لاقرار الوثائق
العقارية وحل الخلافات بين الفلاحين والاقطاعيين ، وكان يمتلك
سلطة قضائية وبوليسية على الفلاحين .

يقع مدرج برول على اسوار قلعة درزدن ، سمي باسم هنري
برول (١٧٠٠-١٧٦٣) وزير الملك البولوني اغسطس الثالث .

محتويات

العشية	٥
الآباء والبنون	١٩١
بصدد والآباء والبنون	٤٢١
تعليقات	٤٢٦

الى القراء

ان دار ورادوغا تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم
وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه ،
وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .
العنوان : زوبوفسكي بولغار ، ١٧
موسكو - الاتحاد السوفييتي